

الترجمة الكاملة
(١)

وطه مصر

ترجمة
زهد الشايب

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

المصريون المحدثون



NC
916.2

ح
د

V.1

اهداءات ١٩٩٣
صندوق التنمية الثقافية
ج.٥.٤

وصف مصر
الترجمة الكاملة

وصف مصر

المصريون المحدثون

ترجمة
نزهة الشايب

تأليف
علماء الحملة الفرنسية

جميع الحقوق محفوظة لمحفظة السمتنم

الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد مضى على صدور هذا الكتاب فى طبعته الأولى من الترجمة العربية أكثر من خمسة عشر عاماً ، لاقى خلالها - ولا يزال - الاهتمام المتزايد من القارئ والمتخصصين . ولعل السبب وراء هذا الاهتمام يتضح لنا مما ذكره فورييه فى مقدمة الطبعة الفرنسية ، حيث يقول : " لم يسبق لأى بلد آخر أن خضع لأبحاث يمثل هذا الشمول وهذا التنوع ، وفضلاً عن ذلك فليست هناك بلاد أخرى جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه ، فمعرفة مصر أمر يهم فى الحقيقة كل الأمم المتحضرة " .

وإذا كان لعلماء الحملة الفضل والتقدير لتأليف هذا الصرح الفريد ، فقد أتاح المترجم الفرصة لأناس كثيرين - لاسيما المصريين - كى يعرفوا قدر هذا الوطن العظيم ، الشامخ على مر العصور .

واعترافاً بفضل وأثر هذه الترجمة ، نال والدى - رحمه الله - التقدير من عدة جهات معنية ، كان من أبرزها حصوله على جائزة الدولة التشجيعية ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٧٩ .

وكما زاد الاهتمام بالكتاب كلما تضاعفت المسئولية ، ومن ثم لم تتوان والدتى - بعد رحيل أبى - أن توقف جل شأنها لهذا العمل ، كى يلقى من الرعاية ما يستحقها ، ويظل موفوراً للقارئ . ولقد بذلت والدتى من الجهد - فى سبيل ذلك- ما ينوء بأولى العزم من الرجال ، ومزيداً من الحرص على هذا العمل أثرت

- مع أنها مثقلة بحملها - أن تنشر هذه الموسوعة على نفقتنا الخاصة ، وما ذلك على الناشرين بيسير .

وكانت هذه الطبعة التي تقدمها بين يدي أعزائنا القراء والدارسين هي أحد ثمرات هذا الجهد المضنى الذي تبذله والدتي طوال سنين ، وقد سعيينا جاهدين أن نتخلص من عيوب الطبعات السابقة وتخرج في شكل أفضل .

والله خير معين ،،

منى زهير الشايب

أكتوبر ١٩٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يسعدنى أن أقدم هذه الطبعة الثانية من المجلد الأول من الترجمة العربية الكاملة لكتاب وصف مصر، وهو المشروع الذى بدأ يرى النور لأول مرة منذ نحو ثلاث سنوات بصدر هذا المجلد فى طبعته الأولى.

وأرجو مع صدور الطبعة الثانية أن يكون قد بدأ يتخذ شكله النهائى إخراجا ومادة.

وقد وجدت من اللائق أن ألحق بهذا المجلد دراستين، لم يسبق نشرهما فى الطبعة الأولى : وتتناول الدراسة الأولى البنية الفيزيائية لسكان مصر، وهى من وضع البارون لارى أحد كبار أطباء الجيش الفرنسى. أما الدراسة الثانية فهى عبارة عن مقدمة مطولة للطبعة الثانية الموسوعة وصف مصر التى تعرف باسم طبعة بانكوك، والتى صدرت بموجب مرسوم ملكى صادر من لويس الثامن عشر، أوردت ترجمة له فى صدر هذه المقدمة التى أعدها فوربيه سكرتير المجمع العلمى المصرى؛ وهى نفس المقدمة التى نجدها فى المجلد الخاص بشرح اللوحات ، فى طبعته الأولى الفرنسية . وقد ترتب على ذلك تغيير اسم هذا المجلد الأول من الطبعة العربية إلى اسمه الحالى «المصريون المحدثون» حيث إن الاسم الثانى أكثر تطابقا - مع محتويات هذا المجلد - من الاسم الأول الذى أصبح واحدة من دوايات هذا المجلد الحالى.

وقد اقتضى الأمر تقسيم المجلد فى كتابين:

الأول: ويشتمل على دراسة شابرول التي كانت تشكل وحدها كل المجلد فى طبعته الأولى.

والثانى: ويشتمل على الدراستين اللتين رأيت إضافتهما إلى المجلد فى طبعتنا هذه.

ولابد فى هذه المقدمة السريعة أن أشيد بدور مكتبة الخانجى فى إنجاز هذا العمل، وتيسير السبيل له ، مما أتاح صدور ثلاثة مجلدات منه من الثانى إلى الرابع فى عام واحد، الأمر الذى أعطى لمجهودنا دفعة هائلة، وسيتوج ذلك بإذن الله بإصدار لوحات وصف مصر الشهيرة، وقد بدأت المكتبة تعد عدتها لذلك. وقد استقر الرأى على صدور هذه اللوحات مرفقة بالنصوص، بحيث ترافق اللوحات النص العربى الذى يتناولها، ويتفق هذا المنهج فى النشر مع المنهج الذى اتبع عند نشر النص نفسه . فتحية لكل من الحاج نجيب الخانجى، والأستاذين: محمد الخانجى، ونيل خليل؛ لما لهم من فضل على هذا العمل. كما سيظل العمل لدينا على الدوام للدكتور عبد العزيز الدسوقي، ولكل العاملين بمجلة الثقافة .

ولو أننى وفيت كل إنسان حقه لما اتسعت الصفحات لإسداء الشكر لكل ذوى الفضل، وهم كثيرون بحيث لا أجدنى مبالغا ولا مجاملا إن قلت إن وصف العمل بأنه جهد فردى أمر يجافى الحقيقة، وكما أن عملا كهذا هو مقدم أصلا للناس فإنه قد قام أيضا بهم.

وفقنا الله جميعا لما فيه خير مصر الحبيبة وكل وطننا العربى..

يناير ١٩٧٩.

المترجم

الكتاب الأول

دراسة في عادات وتقاليده سكان مصر المحدثين

تأليف

ج. دى شابرول

تقديم

على الرغم من أن وراء هذه المبادرة لترجمة «كتاب وصف مصر» - ككل مبادرة فردية - دوافعها وأسبابها وظروفها الخاصة؛ فإنها ينبغي أن توضع ضمن إطار أوسع وأشمل من تلك الدوافع والأسباب الخاصة، لترتبط بذلك الاهتمام الكبير الذى بدأ المفكرون المصريون يولونه لتاريخهم الحديث والمعاصر بعد صدمة يونية ١٩٦٧.

فمنذ تلك الصدمة الهائلة، بدأت الكتب - مؤلفة ومترجمة - تصدر تباعا تتحدث عن تاريخ مصر ودور مصر.. وهكذا لم يعد التاريخ - وتاريخ مصر بالذات - مجرد دراسات أكاديمية لا يتولاها إلا المختصون، وإنما أصبح ثقافة أصيلة لكل مثقف وطنى تشغله أمور بلاده.

ومنذ ذلك الوقت بدأ بتشكيل ذلك الإطار الثقافى الواسع الذى أشير إليه. ويسعدنى أن أضع اليوم فى داخل هذا الإطار كتابنا هذا الذى يشكل دراسة كاملة من ذلك السفر الضخم، الذى لا يفوق شهرته إلا طول إهمالنا له: كتاب «وصف مصر» أو مجموعة الملاحظات والأبحاث التى أجريت فى مصر أثناء حملة الجيش الفرنسى، وهذا هو عنوان ذلك السفر الضخم كاملا.

وقد طبع هذا السفر الذى أسمى بحق انسكلوبيديا مصرية مرتين:

الأولى: وقد استغرق العمل فيها من ١٨٠٩ إلى ١٨٢٢.

وقد ظهر المجلد الأول منها عام ١٨٠٩، وكتب على غلافه وكذلك على غلاف المجلد الثانى أنه قد طبع بأمر صاحب الجلالة الامبراطور نابليون الأكبر، لكن بقية المجلدات التسعة قد ظهرت بعد سقوط نابليون، لذا كتب على غلافها بأنها قد طبعت بأمر من الحكومة.

أما هذه المجلدات التسعة فموزعة على النحو الآتى:

مجلدان : لدراسة التاريخ الطبيعى لمصر، ويشتملان على دراسات عن طيور ونبات وحيوانات وأسماك وحشرات ... مصر.

أربعة مجلدات: لدراسة العصور القديمة، اثنان منها للدراسات، واثنان آخران لوصف آثار العصور القديمة.

ثلاثة مجلدات: لدراسة الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر التى تبدأ تقريبا منذ الفتح الإسلامى حتى مجىء الحملة الفرنسية، لكنها عمليا تعالج أحوال مصر فى العصر العثمانى حتى مجىء هذه الحملة.

وتشتمل هذه المجلدات على دراسات عن مختلف نواحى الحياة فى مصر كما شاهدها علماء الحملة ومهندسوها. وبعض هذه الدراسات طويلة، بحيث يمكن نشرها مستقلة فى كتاب، شأن الدراسة التى ننشرها اليوم، وبعضها متوسط الطول، وبعضها مجرد ملاحظات لاتستغرق أربع أو خمس صفحات.

ولقد ركزت عملى على مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة، واتبعت بشأن الدراسات والمذكرات القصيرة منهج تجميعها بشكل متكامل إلى بعضها البعض: فقد جمعت -على سبيل المثال- تلك الدراسات المتناثرة فى المجلدات الثلاثة عن أحوال العربان والجماعات والرحل فى مصر إلى بعضها البعض، لتشكل فى مجموعها كتابا كاملا أرجو أن أتمكن من نشره قريبا ... وهكذا الحال فى دراسات أخرى تتناول موضوعات مختلفة.

أما الطبعة الثانية فقد صدرت فى ستة وعشرين مجلدا، بالإضافة إلى أحد عشر مجلدا للوحات، وأطلس جغرافى . ومجلدات اللوحات هى نفس المجلدات التى صدرت مع الطبعة الأولى، وبيانها كما يلى :

خمسة مجلدات للوحات العصور القديمة ، ومجلدان في ثلاثة أجزاء للتاريخ الطبيعي ، ومجلدان للحالة الحديثة لمصر ، بالإضافة إلى مجلد واحد يشتمل على مقدمة لفورييه مع شرح للوحات ، ثم الأطلس الجغرافي ويشتمل على خرائط مفصلة لمدن وأقاليم مصر .

وجدير بالذكر أن محتويات المجلدات الستة والعشرين هي نفسها محتويات المجلدات التسعة في الطبعة الأولى ، فالطبعة الثانية - كما هو واضح - قد وُزعت على مجلدات أصغر حجماً من الأولى . والاختلافات بين الطبعتين طفيفة يمكن إجمالها فيما يلي :

١- كانت الطبعة الأولى مهداة إلى «الامبراطور نابليون» أما الثانية فهي مقدمة إلى «صاحب الجلالة الملك» .

٢- بدأت الطبعة الأولى بمجلدات الدولة الحديثة الثلاثة ، أما الطبعة الثانية فبدأت بوصف آثار العصور القديمة .

٣- تشتمل الطبعة الثانية على مقدمة تقع في حوالي ١٨٠ صفحة من حجم هذه الطبعة من وضع فورييه ، ونجد هذه المقدمة نفسها في المجلد الأول من اللوحات .

٤- تشتمل الطبعة الثانية على دراسة لم ترد في الطبعة الأولى ، وتتناول هذه الدراسة جامع أحمد بن طولون وحياة منشئه .

وقد بدأ العمل في هذه الطبعة من عام ١٨٢١ وانتهى في عام ١٨٢٩ .

والكتاب الذي بين يدينا اليوم هو دراسة كاملة من دراسات المجلد الثاني من مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة .

ومؤلف هذه الدراسة هو : جليبير جوزيف جاسبار كونت دي شابرول

Gilbert Geoseph Gaspard Comte de Chabrol

Chabrol de Volvic

ويشار إليه باسم : شابرول دي فولفيك

وقد ولد فى ريوم Riom سنة ١٧٧٣ ومات ١٨٤٣ (وهذا يعنى أنه عندما قدم إلى مصر كان يبلغ الخامسة والعشرين من العمر) وكان مهندساً للطرق والكبارى، وعين بعد عودته من مصر مأموراً لمدينة مونتينو Montenott سنة ١٨٠٦، وأنشأ بها طريق الكورنيش. وفى عام ١٨١٢ قابله نابليون بشكل عابر، وكان شابرول يقضى إجازته فى باريس، ودار بينهما حديث، فأعجب به نابليون وعينه مأموراً للسين، فأدار باريس كما ينبغى أن تدار مدينة كبرى وعاصمة لامبراطورية كبرى، وقد نجح فى ذلك نجاحاً كبيراً حتى أن لويس الثامن عشر قد اضطر لاستبقائه فى وظيفته الحساسة، على الرغم من أنه قد عين من قبل نابليون.

وتدين له باريس بكثير من الأعمال الرائعة ذات النفع العام.

ولعل هذا التعريف الموجز بمؤلف هذه الدراسة سيكون سبباً قوياً لأمرين:

الأول : ماسوف نبديه من إعجاب حق بقدرة هذا المؤلف الشاب على الرصد والتأمل والفهم والإحاطة فى مجال أبسط ما يقال فيه أنه ليس مجال تخصصه.

الثانى : التماس العذر له فى بعض الأمور التى التبس عليه فهمها، بل وفى بعض الأخطاء التى وقع فيها، وبخاصة فى مجال المعتقدات والشرائع.

ولقد أثرت هنا أن أقدم ترجمة كاملة أمينة نصاً وروحاً لكل ما ذكره المؤلف خاصاً بنا وبمعتقداتنا، وسوف يلاحظ القارئ أننى قد أثرت عدم التدخل إلا فى أضيق نطاق ممكن لاعتبارت لا بأس من طرح بعضها:

١- أننا هنا بصدد أثر علمى هام ينبغى أن يحظى بالاحترام.

٢- أنه ليس كل ما يقال عنا صحيحاً على إطلاقه، وإن كان ينبغى علينا فى كل الأحوال ألا نخشى أية فكرة صحيحة.

٣- أنه قد أن الأوان لنواجه بشجاعة ما يقال عنا، فتجاهل ذلك أو الصمت عنه ليس هو الوسيلة المثلى، فذلك الموقف لن يعنى إلا تسليمنا ولو بشكل سلبى بصحته، ومعرفة ما يقال عنا هى أفضل وسيلة لمواجهة بل ودحضه.

٤- أن الأقوياء لا يخافون معرفة ما يقال بشأنهم، ولا أظن أحدا يجادل في قوة عقيدتنا.

وأننى فيما فعلت إنما كنت أصدر عن تقديس كبير للإسلام ولنبيه الكريم، كما أننى واثق أننى فيما التزمت به من أمانة فى النقل كنت أقرب ما يمكن إلى روح الإسلام الذى ينهض أول ما ينهض على الإقناع العقلى ، والذى كانت أول آية فى كتابه الكريم تدعو إلى القراءة والفهم ، والذى لا يستوى - بنص آياته - الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

بل إن المؤلف لم يكن دقيقا كذلك فى حديثه عن بعض الطقوس المسيحية، وقد أثرت أن أترك كل شئ على حاله: ذلك أنه لا القارئ المسلم ولا القارئ المسيحى سوف يلجأ لكتاب وصف مصر لدراسة الشرائع والعبادات، فلهذه وتلك، عند هذا وذاك ، المصدر الذى يعرفانه جيدا ..

وبرغم كل شئ فإن واجب الأمانة يقتضى أن أعترف بما يأتى:

١- أننى قد حذف من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة وجدت أن اللياقة تقتضى حذفها.

٢- أننى حذف هامشا كاملا أثار - عند نشره بمجلة الثقافة - ردود فعل لم أكن أتوقعها، ولا يتجاوز هذا الهامش أربعة سطور.

٣- أننى جذفت آخر عبارة فى الكتاب (حوالى سطر ونصف) إذ وجدت من الأفضل ألا تترك هذه الجملة طعما مريرا فى حلق القارئ ، بعد صحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده أن ينصفنا طيلة مؤلفه.

وأننى إذ أستمح القراء عذرا فيما فعلت أود أن يشاركنى الجميع عندما يقفون أثناء القراءة على بعض أخطاء المؤلف، وخطئه فى أحيان كثيرة بين بعض الطقوس الدخيلة بل وبعض الممارسات الشاذة، والعقائد والعبادات بشكلها الأنقى،

أود أن يشاركونى فى التماس العذر للرجل، وأن نحاول بروح الإنصاف المعهودة فينا أن نحسب له محاولة فهمنا وإنصافنا، أكثر مما نحسب عليه ما وقع فيه من أخطاء أو سوء فهم أو تسرع فى الحكم، ذلك أن عديدا من أحكامه بدت فى شكل أفكار مسبقة لا تنهض على أساس حقيقى، كما لا ينبغي لنا أن نتناسى كونه عضوا فى حملة غازية، وأنه مخالف لنا فى عقائده، بل وأن كثيرا من فكره إنما هو ترديد لأفكار كانت شائعة فى القرن التاسع عشر، تربى هو - كأوروبى وفرنسى بالذات - فى كنفها.

ويدفعنى الواجب فى النهاية أن أقدم خالص تقديرى وشكرى لشيخ المؤرخين الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذى كان لتشجيعه أكبر الأثر فى دفعى للتصدى لهذا العمل الكبير، كما أوجه خالص تحياتى وعرفانى للأستاذ رينيه خورى مدرس اللغة الفرنسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية والمشرف على مكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. وهو عالم فاضل وباحث مدقق ولايفوق علمه القدير إلا أدبه الجم، فقد كان له فضل كبير على إنجاز هذا العمل، وفى نفس الوقت فإننى أشكر أخى الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن أستاذ التاريخ الحديث بكلية البنات الإسلامية، لما قدمه لى من عون، كما لابد أن أشير إلى أن مؤلفه الهام «الريف المصرى فى القرن الثامن عشر» كان معينا لى على تحقيق كثير من المسميات وإيضاح كثير من المعلومات.

ولن يفوتنى أن أوجه شكرى للأخ الدكتور عبد العزيز دسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة وكذلك الأديب الفنان الأستاذ ثروت أباطة رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتلفزيون لما قاما به نحوى من تشجيع حين أفردا صفحات مجلتيهما لنشر أجزاء كبيرة من وصف مصر، مما أحيا الاهتمام بالكتاب فى وقت كاد الكتاب أن يصبح فيه نسيا منسيا.

كما أنى حين أقدم شكرى للسيدة زوجتى فإننى لا أفعل ذلك من قبيل اللياقة وإنما هو عرفان حقيقى بما قدمته لى من عون كبير برغم ظروفها الصعبة كإخصائية اجتماعية وربة بيت وأم . كما لابد أن أوجه شكرى لعشرات من الأصدقاء أولونى قدرا كبيرا من التشجيع مما كان له فى نفسى أثر جميل.

وفى النهاية أستمح القارئ عذرا إن وجد بالعمل بعض الثغرات، وإنه لواجدها، وليكن حسبى من هذا العمل أن أنجو فقط من اللوم ، وأن أكون قد قدمت على قدر طاقتى خدمة لوطنى مصر، ولوطنيى المصريين.

فبراير ١٩٧٦

زهير الشايب

الفصل الأول

لمحة عامة عن الطقس وعن السكان

وعن تقاليد وعادات المصريين

عن المناخ

كانت الآثار المادية لمصر القديمة موضوعا لدراسات عدة وجدت لنفسها مكانا فى أجزاء من هذا الكتاب^(*)، وقد أَلينا على أنفسنا هنا أن نقدم لوحة مختصرة لتقاليد سكان مصر الحديثة. وسوف يحملنا ما قد نجده من ملامح التشابه مع العادات القديمة على القيام ببعض المقارنات، وذلك أمر يستحق منا بالفعل اهتماما كبيرا خاصة ونحن بصدد الحديث عن بلد تمتلئ مخيلته بالذكريات، ويخطو فيها الفيلسوف فى أثر المؤرخ، لذلك فإنه من المناسب أن ندرس الأسباب المختلفة التى تؤثر على الطقس وفعل هذا الطقس على الكائنات الحية: وهكذا سوف يكون السكان موضوعا لدراستنا فى نفس الوقت الذى تشكل فيه آثار الماضى القديم موضوعا لأبحاث عميقة لعلماء الآثار.

تقع مصر فى واحد من أكثر المواقع أهمية فى الكرة الأرضية. وحيث إنها تقع على أحد طرفى أفريقيا فهى تربط هذه القارة بآسيا، كما أن موانئها الواقعة على البحر المتوسط تجعلها - وبشكل ما - تلامس أوربا. وهى تقع بين خط العرض ٢٤:١ وخط العرض ٣١:٣٧ شمال خط الاستواء، أما عن خطوط الطول فهى تقع بين خطى ٢٧° و ٣٢° - وذلك إلى الشرق من باريس.

ويكفى هذا الموقع فى حد ذاته لى نضع مصر ضمن المناطق شديدة الحرارة، لولا أن ثمة بعض عوامل تساعد على التقليل من ارتفاع درجة

(*) وصف مصر. (المترجم).

الحرارة. فترمومتر ريومور يقف بدرجة الحرارة فى المنازل الرطبة ، وأيضا فى مصر السفلى خلال شهرى يوليه وأغسطس عند ٢٤° أو ٢٥° ، بينما تصل فى شمال مصر العليا وفى الظل ، إلى ٣٤° ، لكنها ترتفع فى المناطق الرملية لتصل إلى ٤٥°^(١) . ولا يحدث ذلك بسبب القرب من المنطقة الاستوائية فقط كما لاحظ فولنى Volney - وهى منطقة لابد أن نتوقع أن جوها شديد الحرارة - بل وأيضا بسبب التربة نفسها . وهى فى العادة ترتفع قليلا فوق مستوى سطح البحر ، ومغطاة فى جزء منها برمال متحركة . وهذه الرمال تركز أشعة الشمس - التى تكون شبه عمودية فى فصل الصيف - ثم تعكسها ، لتسقط من فوق جبال قليلة الارتفاع ، عارية من أية خضرة ، على سهول قاحلة ليس فيها مايكمنه أن يحد من لهيبها ، فى منطقة قريبة من المنطقة الحارة . من هنا ينتج هذا الجفاف الشديد للمناخ ، وتلك الندرة فى الأمطار التى يمكنها أن تطفئ الجو .

وبرغم ذلك ، فهذا الجفاف لايشمل بدرجة متساوية كل أنحاء مصر ، فالمطر يسقط كثيرا فى الأقاليم المجاورة للبحر المتوسط ، وكذا فى الصحراوات الواقعة بين وادى النيل والبحر الأحمر ، وتشهد بعض الأخوار المحفورة فى أماكن عدة من الهضبة الأفريقية بأن هذه الأمطار تكون فى بعض الأحيان بالغة القوة لحد تصحيح معه سيولا . لكن ثمة أمرا يعد واحدا من الملامح المميزة للطقس فى مصر ، وهو كذلك عام فى كل المنطقة ، ألا وهو تكون الندى بوفرة شديدة ، ولعل له بعض التأثير على خصوبة التربة وبخاصة فى الفترة التى يكون فيها مستوى النيل أدنى من مستوى الأرض . ومن أولى خصائص هذا الندى ترطيب وتنقية الهواء والمساهمة فى خفض درجة الحرارة مما يؤدى فى أيام القيظ إلى وجود فروق هائلة بين درجة الحرارة بالنهار ودرجتها بالليل ، يمكن أن تبلغ ٣٠ درجة ، ويستمر ذلك لمدة سبع أو ثمانى ساعات ، وهذا بعض مايسبب كثرة انتشار أمراض العيون على ضفاف النيل كما سنوضح ذلك فى نهاية هذا الفصل .

(١) وبخاصة فى فيلة وأسوان وكوم أمبو .

وتكاد الأمطار لا تسقط مطلقا فى المنطقة الوسطى من مصر. وتشكل مياه الفيضان ، وكذلك الندى الذى يتكون فى الليل والذى تتباين وفرته تبعا لاتجاه هبوب الرياح، العوامل الخصبة الوحيدة للأرض. ويعود جفاف الجو الشديد إلى حرارة التربة الملتهبة وإلى اتجاه الرياح الذى يتحكم فيه شكل الوادى . وتتكون السحب بفعل أبخرة البحار التى تحد مصر من الشمال ومن الشرق، وتدفعها تيارات الهواء، وهى تيارات قوية، لكنها ما إن تقترب من الجبال التى تحصر وادى النيل من الشرق ومن الغرب حتى يصبح أثرها أقل قوة، لذا يسقط هناك المطر فى بعض الأحيان.

نزل الجيش الفرنسى أرض مصر فى وقت القيظ الشديد، وهى فترة تسود فيها على الدوام تقريبا رياح الشمال والشمال الغربى، ويبدأ فيها النيل فى استقبال موجات الفيضان الأولى. لقد جاء الجيش فى شهر يولية حيث كانت الرياح التى تندفع بشدة تُظلم الجو بدوامات من الرمل الناعم الدقيق، ويستطيع سكان المدن بالكاد أن يحتموا من هذه الدوامات داخل بيوتهم. وفى هذا الجو تصبح الأسفار شاقة وشبه مستحيلة، لكن هذه الدوامات تقلل من وطأة الحر الذى يقل الإحساس به لدرجة كبيرة فى الأسكندرية عنه فى داخل البلاد، كما أن هذه الدوامات تعمل على طرد السحب المتراكمة نحو النوبة والحبشة ، تلك السحب التى تصب أمطارها فجأة فى المناطق الجبلية والمغطاة بالغابات. وهكذا فإن هذه الرياح العاصفة غير المستحبة تساهم على نحو ما فى ازدهار مصر حيث تجعل الفيضانات أكثر وفرة.

ويبدأ النيل فى الامتلاء فى نحو نهاية شهر يونية وبداية يولية، ولا يخضع حجم مياه الفيضان لقواعد محددة. وفى السنوات العادية يصل ارتفاع النيل فى القاهرة إلى ٨ أمتار (١٤-١٥ ذراعا حسب مقياس جزيرة الروضة) ويصل أحيانا لأكثر من ذلك، ولكى يكون الفيضان وفيرا ينبغى أن يصل ارتفاع النيل إلى ١٦-١٧ ذراعا، عندئذ يبدو وادى مصر- أى أراضيها المزروعة - فى شكل بحيرة

واسعة، وتبدو القرى المقامة على تلال صناعية كما لو كانت جزرا صغيرة متناثرة فوق سطح محيط ، وليس ثمة ما هو أروع من هذا المشهد . وعليك حتى تحظى بالاستمتاع به على نحو طيب أن تصعد إلى قمة الهرم الأكبر فى الجيزة، كما يمكنك أن تحيط بجزء من هذه اللوحة الرائعة من أعلى القلعة فى القاهرة. ولاتستطيع الأراضى المزروعة والتي تقع على مسافة بعيدة من شواطئ النهر أن تتمتع بفوائد الفيضان، لكنها تحصل على ما يروىها عن طريق الترعى أو بواسطة ماكينات بسيطة الصنع (السواقي).

وثمة خاصية أخرى نجدها فى تربة مصر، هى اختلاطها بمواد مالحة تطفح كل صباح على سطحها، وبلا جدال فإن هذا الملح الذى يوجد بوفرة فى كل مكان يساهم فى تنشيط العامل المخضب لطمى النيل.

وفصل الأمطار فى مصر هو الشتاء، وهى تهطل بكثرة فى الإسكندرية ورشيد وعلى كل الشاطئ، لكنها لاتستمر طويلا، ويُشاهد عند المقطم المطل على القاهرة أغوار وحفرات لابد أنها كانت مجارى لسيول قديمة.

٢

عن السكان وطبقاتهم المختلفة

كان تقدير تعداد سكان مصر على الدوام عرضة لأخطاء خطيرة، وقد وقع أغلب المؤرخين المحدثين والقدامى فى مبالغات كبيرة يمكن لأى توصيف بسيط للأماكن أن يدحضها . وإلى جانب الخدمات التى قدمتها الحملة الفرنسية للعلوم والفنون والآثار فى مصر ، فإنها قد حثت كذلك على استخدام الإحصاء فى الأبحاث والدراسات التى تتخذ موضوعا لها أحد الأمور الهامة، وهكذا أمكن التوصل ليس فقط إلى تحديد مساحة الأراضى المنزرعة والقابلة للزراعة بطريقة أقرب إلى الموضوعية، بل وكذلك إلى عدد القرى والكفور التى تغطى وادى النيل،

كما أمكن بالمثل تقدير تعداد السكان فى مصر، وكذا تعداد سكان مدنها الهامة. وبخلاف ما جمعته أثناء وجودى فى مصر من معلومات فقد استعرت هنا بعض التفاصيل من الدراسة التى كتبها جومار Jomard عن تعداد السكان فى مصر الحديثة مقارنا بتعداد السكان فى مصر القديمة. وحيث إن جومار قد أقام حساباته على معطيات أكثر دقة عن تلك التى جمعت حتى الآن، وحيث إنه أبان عدد الموتى وخصوبة السيدات ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب بالإضافة إلى أمور أخرى هامة ذات طابع اقتصادى وسياسى فإنه قد توصل بذلك إلى نتائج نعتبرها قريبة من الحقيقة.

وبعد أن قام جومار بالتحقق من تعداد سكان المدن الهامة فى مصر والثابت فى وثائق أصلية مثل سجلات الضرائب العقارية المسوكة بأيدي الإداريين الأقباط، وبعد مراجعة بيانات الوفيات التى جمعها المسيودى جينيت Desginettes أثناء ثلاث سنوات هى عمر حملتنا، وكذلك إحصاءات المواليد التى جمعها المهندسون الفرنسيون، فإنه -أى جومار- قد استخلص نتيجة شبه مؤكدة عن تعداد الشعب فى مجموعته. وسوف اكتفى هنا بإيراد فقرة من ملخصه تضم نتيجتين متقاربتين وصل إليهما عن طريقين مختلفين: «إن تحديد المساحة الحقيقية للأرض المزروعة ثم حصر عدد السكان فى جزء محدد من مساحة البلاد يؤدى - بعد تعميم هذه النسبة وإضافة الناتج الإجمالى إلى عدد سكان القاهرة - إلى نتيجة شبه مؤكدة، وهى أن تعداد سكان مصر يبلغ ٢, ٤٤٢, ٢٠٠ نسمة، أما الطريقة الثانية فقد بينت أن عدد قرى مصر يبلغ ٣, ٦٠٠ قرية، وأن متوسط سكانها هو ٣٤٥ شخصاً لكل قرية، أى أن تعداد سكان القرى يبلغ ٢١٠٢٤٠٠ نسمة، وبإضافة سكان المدن إلى ذلك الرقم فإن تعداد مصر يبلغ ٢١٠٢٤٦٧١٠٠ نسمة».

وحسب ما سبق فقد تحدد تعداد سكان مصر بحوالى ٢٥ مليون من السكان، ولا يدخل ضمن ذلك مطلقاً عدد العربان الذين يعمررون الصحراوات والذين لا يمكن

إخضاعهم لتعداد دقيق، لكن مسيو جويبر Jaubert من جهة أخرى يقدر عدد
الفرسان العربان حسب الإحصاء الذى قام به بـ ٢٧٠٠٠ فارس، فإذا ما أضفنا
إليهم نفس العدد لأشخاص راجلين وعددًا يتناسب مع ذلك من السيدات والأطفال
فإن مجموع تعداد أبناء العربان سوف يرتفع إلى ١٣٠٠٠٠ نفس.

ولكى نقدم للقارئ فكرة عن مختلف طبقات السكان فى واحدة من مدن مصر،
فسوف نضع تحت ناظره جدولاً عن سكان القاهرة، ولقد سهلت علينا إقامة
الجيش الفرنسى فى هذه المدينة القيام بأبحاثنا بشكل طيب لحد نستطيع معه أن
نغبط أنفسنا بأننا - شخصياً - قد حصلنا فى هذا الخصوص على معلومات
شديدة القرب من الحقيقة.

كانت القاهرة فى عام ١٧٩٨ تضم ما بين ٢٥٠-٢٦٠ ألفاً من الأشخاص بما
فى ذلك الممالك والتجار الأجانب، وقد قدر تعدادها بحسب إحصاء تم قبل مجيء
الحملة الفرنسية بـ ٣٠٠٠٠٠ نسمة، ويمكن تقسيم هذا العدد على هذا النحو:

- الممالك بما فيهم جنود الأوجاقات، وعلى وجه العموم كل الفرق العسكرية
المكونة من رقيق تم تحريرهم بعد ذلك مثل الممالك : ١٢٠٠٠
- الملاك : ٦٠٠٠٠
- التجار الذين تمتد معاملاتهم إلى خارج البلاد : ٤٠٠٠٠

ويتضمن هذا العدد التجار الأجانب الذين لا يستقرون فى القاهرة إلا لوقت
محدد مثل أولئك الذين يمتلكون محلات فى خان الخليلى والذين لا يستقر معظمهم
فيها، وكذلك التجار القادمين من أزمير والقسطنطينية وبغداد وحلب وجدة
ينبع... الخ، وهم يصلون إلى القاهرة مع البضائع التى يبيعونها، ويرحلون بعد
ثلاثة أو أربعة شهور محملين ببضائع أخرى عند العودة.

٢٥,٠٠٠ - حرفيون مستقرون، سواء كانوا أسطوات أو عمالاً عاديين

- صغار تجار القطاعى الذين يبيعون المأكولات والزيت

٥,٠٠٠ والأرز والخضروات ومواد أخرى

ولا يمتلك هؤلاء على الإطلاق أى رأسمال، فهم يبيعون فى النهار ما يحصلون عليه فى الليل استدانة من تجار الجملة، ويدفعون من نتاج مبيعاتهم كل أسبوع. ونادراً ما يكون هذا التاجر ميسوراً، بل إن حالته كثيراً ما تتدهور يوماً بعد يوم حتى ينتهى به الأمر أن يهجر هذه المهنة ليحترف عملاً آخر.

- القهوجية : أى أصحاب تلك المحلات التى يقصدها الناس من مختلف الحرف ليتناولوا القهوة والشربات ويدخنوا ويستمعوا إلى الموسيقيين والرواة

٢,٠٠٠ :

وهؤلاء الناس يشترون كل يوم ما يرونه ضروريا لاستهلاك اليوم.

ويستلزم هذا النوع من الصناعة رأس مال قليل ، إذ تكفى ٥٠ بوظقة^(١) (خردة) لإنشاء مقهى جميل ، ولدفع إيجار المحل الذى يشغله ، ولتجهيز الأثاثات والآنية اللازمة^(٢) .

٣٠,٠٠٠ - خدم ذكور : قواس، سايس، سقاء، فرأش :

١٥,٠٠٠ - عمال، حمالون، عمال يومية

(١) تساوى البوظقة ٩٠ بارة، ووقت إقامتها فى مصر، كانت البارة تساوى تقريباً ٤ سنتيمات وكانت تساوى من قبل ٧,٥ سنتيمات، وقد تناقصت قيمتها الآن كثيراً.

(٢) يوجد فى تركيا كما يوجد فى مصر عدد هائل من مثل هذه المحلات، ويتكون أثاثها من مقعد طويل بلا مساند، مستدير أو مستطيل بحسب شكل المحل، وتوضع على هذه المقاعد حصر (حصىرة) ويقعد الاتراك على هذه المقاعد ليذخنوا الغليون وليتفكروا ويشربوا القهوة بلا سكر. وأماكن التجمع هذه تسمى بالتركية كافينائى ، ويديرها عادة رؤساء الكولوك: أى البريد الحربى .

-
- إجمالى الذكور البالغين : ٩٩,٠٠٠
 - ويمكن أن يصل عدد النساء البالغات إلى : ١٢٦,٠٠٠
 - كما يمكن أن يصل عدد الاطفال من الجنسين إلى : ٧٥,٠٠٠
-
- وبذا يبلغ إجمالى عدد سكان القاهرة : ٣٠٠,٠٠٠

ومن بين الـ ٩٩,٠٠٠ شخص من الذكور يمكن أن نحصى على الأقل ٢٦,٠٠٠ شخص ليست لهم بحكم سنهم زوجات^(١). وليس ثمة أسرة ميسورة ولو قليلا إلا وتمتلك على الأقل بعض العبيد السود، ويستطيع الأوروبيون المقيمون فى مصر أن يشتروا هم أيضا عبيدا ليعملوا فى خدمتهم، وهذا أمر غير مسموح به فى بقية ولايات الباب العالى.

وفى أثناء حكم على بك، كان عدد دواب النقل فى القاهرة مثل الحمير والبغال يصل إلى ٢٢,٠٠٠، لكن عدد البغال اليوم ضئيل لحد كبير، ويمكن أن يبلغ عدد الحمير المستخدمة فى التنقل داخل المدينة أو ضواحيها، ونقل الفاكهة وأعشاب المراعى بلا أدنى مبالغة حوالى ٣٠,٠٠٠ حمار. ولا يعرف المصريون عامة استخدام العربات لنقل بضائعهم، وهذا ما يضاعف لحد كبير من عدد الحيوانات التى تقوم بهذا الدور. ويُستخدم الجمل للمسافات الطويلة، وحيث إن الحمار لايتطلب قدرا كبيرا من العناية مثلما يتطلب الحصان فإنه يستخدم كدابة لغالبية السكان. وكان ممنوعا على الأوروبيين لوقت طويل أن يستخدموا دابة أخرى غير الحمار، بل كان عليهم إذا ما قابلوا أثناء جولاتهم مملوكا بسيطا أن ينزلوا أمامه

(١) توصل المسير جومار- بعد حساب أسسه على النسبة القائمة بين عدد الموتى وعدد المولودين وكذلك تعداد الأحياء - إلى تقدير عدد سكان القاهرة بـ ٢٦٣,٧٠٠ نسمة.

على الأرض دليلاً على الاحترام، كذلك كان الأمر بخصوص اليهود والأروام وبقية الرعايا الأخرى. ويبلغ عدد سكان القاهرة القديمة من ١٠ - ١١ ألف نسمة من بينهم ٦٠٠ من المسيحيين المنشقين.

وقد حان الآن الوقت لكي نتحدث عن الديانات التي تقتسم سكان مصر. وفيما يلي لمحة عامة عن ذلك.

٣

عن الأديان المختلفة

تجتمع في مصر على وجه التقريب كل عبادات ومذاهب الدين الإسلامي^(*) ويمكن أن نقسمها إلى مايلي:

١- أتباع المذهب الحنفى، ويعتق بلاط القسطنطينية هذا المذهب، لذا تحتم أن يكون قاضى العسكر حنفياً على الدوام، ولكن ذلك ليس بالأمر الحتمى بالنسبة لقضاة الأقاليم. وكانت حكومة مصر السابقة (على مجئ الحملة) تتبع بالمثل المذهب الحنفى.

٢- أتباع المذهب الشافعى: وهذا المذهب هو أكثر المذاهب انتشاراً في القاهرة، وهو مذهب المشايخ والعامة.

٣- أتباع المذهب المالكى.

٤- أتباع المذهب الحنبلى: وأتباع هذا المذهب نادرون لحد كبير.

وسوف يندهش القارئ - الذى تعود على الدوام أن يقرأ فى كتب التاريخ عن المعارك الدامية التى تتبع حركات الانشقاق الدينية - حين يعرف أن كل هذه المذاهب متسامحة غاية التسامح فيما بينها، فليس ثمة أى عدااء أو تنافس، وليس
(*) من الواضح أن المؤلف لم يكن ملماً إلا بالمذاهب الإسلامية السنية فقط (المترجم).

ثمة أى اضطهاد من جانب أقواها، كما لايفكر أحدها على الإطلاق فى الحصول على أنصار له من أبناء المذاهب الأخرى، وهذا مايدل على الاعتدال الشديد، بل إن أتباع المذهب الحنفى يتميزون عن أتباع بقية المذاهب بأنهم أكثر تسامحا.

ويمكن أن نعد الطوائف الآتية بين المسيحيين:

الأتباط

- ١- طائفة كاثوليكية وتتبع البابا.
- ٢- طائفة من الهرطقة وتخضع لبطريك، ويتبع هؤلاء آراء أوتيوخوس ونسطوريوس، ولكن مع اختلافات كبيرة. وهم ينكرون الطبيعة المزدوجة للمسيح.

الأروام

- ١- الكاثوليك ويخضعون للبابا.
- ٢- المنشقون ويخضعون لبطاركة: واحد فى القسطنطينية، وآخر فى القاهرة، وثالث فى دمشق، والرابع فى القدس.

الأرمين

- ١- الكاثوليك ويخضعون للبابا.
- ٢- المنشقون ويتبعون أحد البطاركة.

المارونيون

- وهم كاثوليك ويخضعون للبطريك فى لبنان.
- وليس فى مصر لا كالفانيون ولا لوثريون.

وينقسم اليهود فى مصر أيضا إلى طائفتين أهمهما طائفة القرائين، وهما متسامحتان فيما بينهما. أما بقية طوائف هذه الديانة التى تحدث عنها نيبور Niebuhr فى كتابه Voyage de L'arabie فمجهولة تماما فى مصر وفى كل وادى النيل.

عن الأقباط بشكل خاص (*)

لعل أكثر الطوائف إثارة للإهتمام من بين كل سكان مصر هي طائفة الأقباط بلا جدال، ذلك أنهم يعتبرون أنفسهم أحفادا للمصريين القدماء، كما يرون في لغتهم وفي المسارات التي سلكتها الأحداث التاريخية ما يرجع كفة مثل هذا الادعاء. ومما لاجدال فيه أن لهم ملمحا فيزيقيا شديد القرب من ملمح الأفريقيين لحد يكفى لكى يحملنا على أن ننسب لهم أصلا يعود إلى الدولة القديمة، ولعل بمقدورنا أن نفترض أن جنسهم قد استطاع أن يظل نقيا، بعيدا عن أى اختلاط بالأغريق، إذ ليس بينهما أى ملمح من تشابه. فعندما استولى الاسكندر على مصر واستقر فيها الإغريق بشكل دائم تحت حكم البطالمة فلا بد أن كان ثمة جنسان متميزان، ومنذ ذلك الوقت أصبح المصريون، الذين عرفوا باسم الأقباط، يشكلون طائفة منعزلة بالرغم من الغزوات المتتالية من الرومان والعرب والعثمانيين، وما تزال هذه الطائفة منعزلة تماما حتى اليوم عن بقية الأجناس التي تشكل الآن الجزء الأعظم من سكان مصر.

(*) من نافلة القول أن نذكر بأننا هنا بصدد أثر علمي يقتضى الواجب نقله بأمانة نصا وروجا، ومع ذلك فجدير بالذكر أن الصورة القائمة هنا هي نموذج لحالة كل المصريين باختلاف طوائفهم في ذلك العهد، حيث كان كل أبناء مصر يعانون وإن اختلفت الحجج والادعاءات بحسب مقتضى الحال، وبرغم ذلك فإن الصورة هنا تختلف في كلياتها، بل يصل الاختلاف أحيانا لحد التناقض مع ما جاء في دراسات أخرى بوصف مصر، نذكر منها -على سبيل المثال- ما جاء بدراسة دى بوا-ايميه في وصف مدينة منوف، وما جاء بدراسة لانكويه عن نظام الضرائب على الأراضي الزراعية، وكذلك ما جاء بدراسة جيرار عن الزراعة والتجارة والصناعة. كما أن بعض ما جاء في هذا الفصل لا يمكن التسليم بصحته بحال من الأحوال، بل لا يمكن تصور طرحه على الإطلاق، فليس هناك ما هو أيسر من حذفه. (المترجم).

منذ الأيام الأولى للمسيحية، أرسل بطرس الرسول إلى المصريين القديس مرقس كى يبشرهم بالإنجيل، فجذبت فصاحته وحماسته على الفور العقول ، وأصبح له جمهور من الأتباع. وهكذا تأسست كنيسة الأسكندرية التى أصبحت ذائعة الصيت فى الشرق. ولكن - بعد ذلك - تغلبت آراء أوتيخوس ونسطريوس، وظلت هذه البذور الأولى للانشقاق تعمل عملها حتى اليوم.

وللأقباط منشآت دينية بالغة الروعة كما نرى فى كثير من الكنائس والأديرة المخربة، كما أنهم أنشأوا فى مصر العليا على وجه الخصوص كنائس رائعة. ويبدو الصعید بمثابة مهد لهم، فقد كانت أعدادهم هناك على الدوام كبيرة وما يزال الأمر كذلك حتى اليوم، ولكنهم بعد كثير من التقلبات والأزمات السياسية لقوا مصير سكان مصر الآخرين، ذلك أن ديانتهم بعد أن فقدت جزءاً من سطوتها التى أكدتها سيطرة الأباطرة الرومان فقدت كذلك جزءاً من عظمتها وازدهارها، وبرغم ذلك فقد ظل لهم ما يقرب من مائة دير، من بينها خمسة أديرة خاصة بالنساء: اثنان منها فى القاهرة، واثنان فى مصر القديمة، وآخر فى مكان منعزل بالقرب من منفوط، وهذا الدير الأخير مثال لحالة بالغة الندرة والشذوذ بشكل غير مستحب، فهو ينقسم إلى قسمين منفصلين: واحد للرجال وآخر للنساء، يضمهما معا سور واحد دون أن يكون ثمة - رغم ذلك - أى اتصال بينهما.

ولا يلعب الأقباط فى مصر إلا دوراً ضئيلاً، ومهارة شعبيهم هى مصدر حياتهم، فقد استطاعوا -تحت حكم الأتراك- أن يحتفظوا بجزء من العمل الإدارى لم يخرج مطلقاً عن أيديهم منذ العصور البالغة القدم، وهو مسك سجلات الضرائب والدخول والملكيات، أى أنهم - باختصار - الملمون بمساحة مصر. وهم يتهمون بأنهم لم يكونوا -على الدوام فى عملهم هذا- على درجة كافية من الأمانة والنزاهة.

وهم يقومون بعمليات تقسيم التركات العقارية، وهم كتبة مصر الحقيقين،

كما أنهم أيضا مساحوها، وقد انهمك عامتهم فى ممارسة فنون الصناعة.

وتعيش الأديرة بفعل الهبات، وعن طريق دخول متواضعة تأتى من بعض الملكيات الضئيلة التى احتفظوا بحق استغلالها. كما أنهم يقومون بمساعدة فقرائهم عن طريق جمع تبرعات عامة، ويقوم بجمع هذه التبرعات مفتشون يختارهم البطريك على الدوام من أبناء العائلات الكبيرة. ورهبانهم بسطاء فى ملابسهم وطعامهم، كما أن الرزق - أى الدخل - الممنوحة لهم لا تكفيهم إلا مع الحرمان الشديد، لذا فهم لا يأكلون فى اليوم سوى مرة واحدة، ويتكون طعامهم من الخضر وقليل من السمك، ولا يسمح لهم بأكل اللحوم إلا فى أيام الأعياد. وملابسهم عبارة عن رداء كثنائى طويل، والراهبات لسن بأحسن من هؤلاء لبسا.

وهكذا أمكن للأقباط أن يتماسكوا فى شكل أمة متحدة داخل بلد منهزم، ويعطى مجتمعهم الصغير لمصر - بفضل بعض الأنظمة المقتبسة من القيم الإنجيلية - مظهرا من مظاهر الاتحاد والوفاق والألفة، وهو أمر نادر فى تلك البلاد التى نكبت بالطغيان والاستبداد.

وبرغم هذا فإن الأقباط لا يخلون من العيوب، وهذه العيوب إنما هى نتيجة حتمية لتلك الحالة من الإذلال التى انتهوا إليها تحت حكم الأتراك، فحيث إنهم كانوا على الدوام مضطرين للاستكانة وللتظاهر بخلاف ما يبطنون فقد أصبحت الغالبية منهم تتصف بصفات الجشع وبأخلاق الأجراء المرتزقين. وهذه بالتأكيد هى مسيرة كل الشعوب المقهورة على مدار التاريخ، فالتقاعس هو النتيجة الطبيعية للعبودية والاذلال^(١).

(١) مما يبين إلى أى حد كان الأقباط يحتقرون من قبل المسلمين أن عمادتهم ينبغى أن تكون من لون واحد، مما يؤدى إلى التعرف عليهم من بعد، ويمكن أن يقال، إلى تعريضهم لزيارة العامة، ولا يسمح لهم مطلقا بأن تكون لهم عمادة تماثل عمادة المسلمين، فهى عبارة عن شريط ضيق يلف حول طربوش يغطى الجبهة. ومع ذلك فإن الأقباط عندما يتوجهون إلى الأقاليم لتحصيل الضرائب فإنهم لا تتألم إهانات من قبل المسلمين، وليس هذا بفعل الاعتياد الطويل، بقدر ما يعود إلى وجود قوة من الجنود معهم لحمايتهم.

ومع ذلك فقد بقيت لهم على الأقل حرية العبادة، ذلك أن محمدا الذي كان سياسياً محنكاً قد ترك للشعوب التي خضعت لسيطرته حرية ممارسة شعائرتهم الدينية ، كما ترك لهم الحق في أن يسيروا أمورهم بموجب قوانينهم الخاصة، ولكن داخل إطار سيطرة النظم الإسلامية، وقد سار على نهج القويم الخلفاء من بعده، ولعل الديانة الإسلامية تدين بنجاحها السريع لهذا الاعتدال الحكيم أكثر مما تدين لقوة السلاح. ومهما يكن الأمر فإن الأقباط وعموماً كل مسيحيي الشرق - قد لعبوا دوراً في سياسة بلادهم ، بل إن الممالك أنفسهم لم يكن بمقدورهم أن ينهوا امتيازاً كهذا تدعمه مبادئ دينهم أكثر مما تدعمه العادة وفعل الزمن⁽⁶⁹⁾ .

وتتخذ أمة الأقباط - كرئيس أعلى لها وكزعيم ديني وديوي - حبراً هو الشخصية الأولى في الكنيسة ويلقب بالبطريرك، ولأتعرف لسلطته حدود إلا ماتفرضه العادات المستقرة وإرادة حكام البلاد. وهو يفصل في كل الخلافات التي تقع بين كل رعيته ، لكن حكمه في ذلك ليس نهائياً، إذ يمكن للأطراف المتنازعة - باتفاق فيما بينها - أن ترفع الأمر إلى القاضي، الذي يقر عادة حكم البطريرك. أما الجناح والجرائم فتعامل بطريقة أخرى، فالبطريرك لا يفصل إلا في الجرائم الصغيرة التي لا تتطلب إلا عقاباً إصلاحياً ، فعندما يتهم قبطي - على سبيل المثال - بالسرقة من أحد المسلمين، فإن المسلم يرفع شكواه إلى البطريرك. أما إذا كان المسلم - على عكس ذلك - هو السارق فإن القبطي يرفع شكايته أمام القاضي أو يطلب العدالة من حاكم المدينة نفسه، ويقوم الطرف القبطي بنفسه بتقدير حقوقه أمام المحاكم.

أما حوادث القتل والجرائم الكبرى، فليست من اختصاص محكمة البطريرك، لكن من اختصاص الضباط المكلفين - من قبل شرطة المدن - بمطاردة ومعاكبة كبار المذنبين. وفي بعض الأحيان يتمكن المذنب من التملص من العقاب عن طريق

⁽⁶⁹⁾ لعل القارئ قد لاحظ هذا التناقض فيما يذكره المؤلف هنا وما سبق أن ذكره في بداية هذه الفقرة. (المترجم) .

دفع مبلغ من النقود لمن يمسكون بسيف العدالة ، ويحدث هذا أيضا بالنسبة للمسلمين.

ويختار البطريرك - على الدوام - من بين رهبان دير سان أنطوان ، ويتم ذلك بالانتخاب، وعندما يراد اختيار خليفة له فإن المطارنة وكبار القساوسة ينضمون إلى كبار رجالات الأمة القبطية.

وتتكون الجمعية العمومية من ٤٠ - ٥٠ شخصا، ثم يشرعون فى عملية الانتخاب، ويعين الراهب الذى يحصل على أكبر عدد من الأصوات فى منصب البطريرك.

ويشكل المطارنة الصف الثانى من هييرارشية الكنيسة القبطية، وليس لهؤلاء الأساقفة من دخل إلا ما يحصلون عليه من هبات من أقاليمهم . ويبلغ إيراد كنيسة العاصمة حوالى ١٠.٠٠٠ بوظاقفة (خردة) وهو إيراد بعض المنشآت الخيرية المخصصة لها، وهذا الدخل البسيط هو أساس دخل البطريرك، لكنه يستطيع على الدوام أن يعثر على الوسائل التى يزيد بها مخصصاته الشرفية، وهى دخول عرضية (غير ثابتة) لكنها تصل فى بعض الأحيان إلى رقم كبير للغاية. والاسكندرية هى مقر البطريركية ، لكن البطريرك يقيم فى القاهرة حتى يكون فى وضع يمكنه من رعاية مصالح شعبه ، والدفاع عن حقوقه أمام السلطة المسلمة.

ويتمتع رجال الدين من الدرجة الأقل أيضا بأهمية كبيرة، لكنهم جهلة وفقراء، وتسمح لهم قوانين كنيستهم بالزواج الذى ينبغى أن يسبق رسامتهم. ولايسمح لهم بالزواج طيلة حياتهم إلا مرة واحدة. وعندما يموت أحد القسس الأقباط يتجمع كبار رعاياه ، كى يحددوا لمطران الولاية رجل الدين الذى يبدو لهم أكثر جدارة بولاية المتوفى ، ويعين المطران على الفور القسيس الذى وقع عليه اختيارهم. وكل الكنائس مملوكة لهيئة رجال الدين ، ويصرف عليها من الهبات والتبرعات.

ويثق القبطى ثقة عمياء فى قساوسة طائفته، ولهؤلاء القسس تأثير كبير على

النفوس، وبمقدورهم - بقليل من الحيلة - أن يسيئوا استغلال ذلك التقديس الذى يحيطهم الناس به ، ليعبدوا بالنفع على أنفسهم. لكنهم فى غالب الأحيان جهلة مثل بقية أبناء الشعب، وليس ثمة بينهم إلا عدد ضئيل للغاية قد وصلوا إلى درجة من العلم يستطيعون معها أن يقرأوا كتب الطقوس الدينية ، وهى الكتب الوحيدة التى ماتزال تستخدم اللغة القبطية حتى اليوم^(١).

وبالرغم من هذا التقدير العميق لرجال الدين ، فإن القبطى لايسمح لزوجته أن تسفر عن وجهها أمامهم (ونحن هنا نتحدث فقط عن الطبقة الميسورة منهم) ، بل إن البطريك لايمكنه أن يرى سيدة سافرة إلا إذا كان زوجها هو الذى سمح بذلك وعن طيب خاطر.

ولهؤلاء الأقباط أيام للصوم وأيام للأعياد الدينية ، هى - على وجه التقريب - نفس أوقاتنا، ويتمثل الاختلاف الوحيد فى طول المدة أو قصرها ، وكذلك فى طريقة أدائها. وعدد مناسبات صيامهم أربع مناسبات فى العام ، وهى تسبق أيام الذكرى ذات القدسية الكبرى لديانتنا، والصيام السابق على عيد الفصح (القيامة) هو أطولها جميعا ، وهو كذلك أشدها مشقة ، ويبلغ طوله ٥٠ يوما. ولا يمكن للمسيحى طيلة هذه المدة أن يتناول سوى وجبتين فى اليوم، ويمتنع تماما عن تناول اللحوم والأسماك وكل ماله روح على وجه العموم. وتأمركنيسة بأن يمتنع الناس عن إدخال أى شئ إلى أفواههم حتى ولو كان دخان النارجيلة قبل الظهيرة ، وهى موعد الوجبة الأولى . ويستمر الصيام السابق على عيد الميلاد ٤٣ يوما ، ويبلغ صيام العذراء ١٥ يوما ، ويتراوح صيام الرسل بين ١٥ - ٤٥ يوما ، حسب المسافة الموجودة بين عيد الميلاد والصوم الكبير. وهم طيلة أيام الإمساك (الصوم) لايتناولون سوى وجبتين : واحدة عند الظهر والأخرى فى المساء ، ولايمكن تناول

(١) يمكن القول بأن اللغة القبطية كانت هى اللغة العامة للمصريين القدماء ، وأن رموزها ليست سوى الحروف اليونانية مضافا إليها بعض الحروف لاستيعاب الأصوات التى ليس لها شبيهة فى اللغة اليونانية .

السّمك أو البيض أو الألبان دون الحصول على إذن من المطارنة ، وفى بعض الأحيان لابد من اللجوء مباشرة إلى البطريك ، وبخصوص مدة الصيام وصرامته، فإن ثمة تشابها كبيرا مع الكنيسة اليونانية فى الشرق، فضلا عن ذلك فهناك عدد كبير من الروابط بين الطائفتين. وليس هذا مما يبعث على الدهشة، فأصل الكنيستين واحد ، كما أنهما يتبعان - على وجه التقريب - نفس المبادئ .

ويمارس الأقباط كذلك الاعتراف، وهم يشتركون فى هذا الطقس الدينى مع المسيحيين عموما، لكن ثمة عادة خاصة بهم تبدو مناقضة تماما أو على الأقل غريبة عن مذهب المسيح ، تلك عادة الختان للجنسين^(١). وبالرغم من أن هذه العملية ليست - فيما يبدو - إلزامية بالنسبة لكل الأقباط، فإنهم مع ذلك يخضعون لها إما بفعل الاعتياد وإما بفعل الأفكار المسبقة. وتصر الأمهات على ضرورة ختان أطفالهن ، إذ يتصورن أن أبناءهن لن يكونوا صالحين للإنجاب ما لم يمروا بهذا الأمر المؤلم .

وفى الصعيد يختتن كل الأقباط، لكن عددا كبيرا منهم فى القاهرة يرفض ذلك ، أما بالنسبة لختان الأطفال الصغار فهى عادة شائعة فى كل مكان ، تتم دون وساطة القسيس، ويختتن الجنسان فى سن السابعة أو الثامنة. وينتهى يوم هذه العملية عادة بعيد عائلى . لكن ينبغى أن يسبق العماد عملية الختان ، ويتلقى الأطفال سر القربان المقدس فى فترات تختلف بحسب الجنس، فهو يتم بالنسبة للذكور بعد ٤٠ يوما من ولادتهم ، وبالنسبة للإناث بعد ٨٠ يوما .

ويسارع الأقباط بتزويج أبنائهم ما أن يروا أنهم قد بلغوا سن البلوغ ، ولذلك يتم تزويج الفتيات فى سن الثانية عشرة ، بينما يتزوج الأولاد فى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. ولا ينبغى أن ندهش لمثل هذه الزيجات التى تتم هكذا قبل الأوان ، فى منطقة كهذه يعمل فيها الطقس على سرعة نمو الجسم ، كما يعمل على إثارة الشهوات منذ سن مبكرة .

(١) يبدو أن هذه العادة قد انتقلت إليهم عن قدماء المصريين الذين كانوا يمارسون هذه العادة.

انظر هيرودت : الكتاب الثانى. فقرة ١٠٤ . ترجمة لارشيه Larchet .

ويرسل الأقباط أولادهم إلى مدارس صغيرة، حيث يتعلمون القراءة والكتابة إلى جانب المبادئ الأولى للدين. ويتمتع بهذه الميزة كل الأطفال الذكور بلا تمييز، لكن الفتيات لا يستطعن الذهاب إلى المدرسة إلا بموافقة أمهاتهن اللاتي يعترضن على ذلك في بعض الأحيان. ولم نشاهد في القاهرة فتاة واحدة تتردد على المدرسة، وعلى العكس من ذلك في الصعيد، حيث يذهبن إلى المدارس هناك مثل الأولاد، ولا ينقطعن عن الذهاب إلى المدرسة حتى في سن الثامنة أو التاسعة، وهو السن الذي يبدأ فيه في التشكل ولا يُعَدُّن أطفالاً.

لقد أطلعنا بعض الشيء، لكننا رأينا من واجبنا أن نبدأ أولاً بالوقوف على بعض التفاصيل حول الأقباط، لأن معرفتنا بهذه الأمة لاتزال شديدة الضالة. وسوف نعود إلى الموضوع نفسه في فصل آخر، وسوف نحاول أن نقدم فكرة كاملة عن عادات وتقاليد ونظم ومؤسسات وحرف هذه الأمة التي ظلت شبه منسية حتى يومنا هذا من بقية المذاهب المسيحية.

٥

عن العربان على وجه الخصوص

تتكون الكتلة الكبرى من الشعب المصري من عرب استقروا وارتبطوا بشكل أساسي بالأرض، ولا تختلف عاداتهم في شيء عن عادات من نعيهم باسم المصريين. لكن العربان الرحل ينقسمون إلى قبائل رحالة، تنقل خيامها من صحراء لأخرى، ولا يخضع أبناؤها إلا لمشايخهم، ويتجاهلون سلطة الباشا والبكوات. ويستحق العربان منا اهتماما خاصا، إذ إن لهم عادات مختلفة، وسوف نرسم سريعا تلك الملامح التي تميزهم، لأن هذه اللمحة سوف تساهم في تكوين فكرة عن المؤثرات التي تؤثر في سكان مصر على وجه العموم.

يبلغ عدد العربان الرحل حسب إحصاء قريب ٤٠ ألفا، ويمكن لنا - بالقيام بعملية نسبة - أن نحصل على العدد التقريبي لكل هؤلاء العربان ونسائهم

وأطفالهم... الخ. وهم يشغلون الصحراوات المحيطة بمصر من كلا الجانبين ،
ويقترب عدد منهم - فى بعض الأحيان - من ضفاف النهر ، ليزرعوا أراضى
يستأجرونها من حكومة الإقليم . ويمكن اعتبارهم جميعا من أتباع عقيدة محمد ،
بل إنهم يتسمون باسم المسلمين ، ومع ذلك فإن مبادئهم الدينية تبدو شديدة
التباين كما يرى بعض الأوروبيين الذين زاروهم . ومن المؤكد أن عقائد هذه
الشعوب، وكذلك التقاليد الراسخة التى احتفظوا بها عن أصولهم ، وكذلك أخبارهم
التاريخية - لابد أن تحظى باهتمام خاص من قبل الرحالة ، إذ يمكن لمثل هذه
الأمور أن تساهم فى توضيح نقاط كثيرة غامضة فى التاريخ الحديث. لكن مثل
هذه الدراسات - على وجه العموم - قد أهملت لحد يفوق التصور ، على الرغم من
أن العربان الرعاة قد نقلوا - من جيل لجيل - تاريخ آلاف من الوقائع التاريخية
المجهولة ، التى من السهل أن تهتك لنا هذا النقاب الصفيق الذى تغلفهم به
خرافاتهم وأساطيرهم. وباختصار، ولانمل من تكرار ذلك، ينبغى على كل من
المؤرخ ورجل الآثار أن يحصل على معرفة عميقة عن عادات العربان وتقاليدهم.
وفيما يلى أسماء القبائل التى تقسم فيما بينها صحراوات مصر الشاسعة ،
وكذا أسماء الأقاليم التى تفضل هذه القبائل أن تستشرف حدودها:

ولاية المنصورة

- ١- قبيلة درنة: وهى قبيلة قوية وكبيرة العدد، لكن عوامل الضعف قد دبت
فيها نتيجة للحرب الأخيرة التى شنّها عليها حاكم الولاية . وقد تبعثرت حاليا هذه
القبيلة.
- ٢- قبيلة البوارشة : وهى تسكن القرى وتحترف الزراعة.
- ٣- قبيلة حسن طوبار : وتشغل قرى عديدة بمنطقة المنزلة.

ولاية البحيرة

طبقة أولى : الهنادى ^(٢٥) . طبقة ثانية : أولاد على

وتقيم هاتان القبيلتان فى خيام، وهما أقوى قبائل مصر وأكثرها شراسة، وعلى الرغم مما بينهما من خصومات وما يفرق بينهما من عداوات بفعل من أحقاد وضغائن دينية ، فإنهما يقتسمان فيما بينهما السيطرة على الولاية . وتتبع واحدة منهما أفكار شيخ يسمى : سعد، أما الأخرى فتعتقد فى قداسة شيخ يسمى: حرام. ومن هنا تولد هذا النوع من الكراهية والنفور الذى استمر لأزمة طويلة ، لكن أحدا لم يستطع أن يعثر على أصل لهذين المذهبين أو مؤسسيهما، بل لقد حدث أن انقسمت مصر بأكملها بفعل هذا الخلاف نفسه، الذى أدى إلى قيام العداوات والضغائن بين الفريقين ، وأخذ كل فريق يدين الفريق الآخر، ويتوعد به عقوبات الدار الآخرة، حتى وضعت حكومة على بك الشهير حدا لهذه العداوات المتعصبة، وعملت حكمة وحزم هذا الرجل - غير العادى الذى لم يكن ينقصه إلا نوع مختلف من التربية ، وكذلك أن يلعب دوره على مسرح من الأحداث أكبر اتساعا لكى يدهش العالم - على تذكير المصريين بمشاعر الاعتدال والتسامح التى اشتطوا فى البعد عنها . ومنذ ذلك الوقت، فإن الناس يكادون يكونون قد نسوا كلام سعد وحرام، لكن اسمى هذين الزعيمين الروحانيين قد ظللا يثيران الشقاق بين الشعوب الطليقة فى الصحراوات.

ولم تكن سوريا لتبعد عن روح التعصب هذه. فهكذا خلقت فى كل هذه البلاد أحزاب أعمتها مثل هذه الأمور من الدجل والضلالات، وبذلك أصبحت ديانتهم الخاطئة، التى يسيئون هم أنفسهم فهمها، سببا للأحقاد والضغائن والعواطف الجامحة، مما أدى بشعوب بأكملها إلى التطرف الأرعن، باسم ديانة يعملون هم أنفسهم على الإساءة إليها.

^(٢٥) وردت فى الأصل باسم نيمادى Namiady ولعله خطأ مطبعى. (المترجم) .

وتقوم القبيلتان اللتان تحدثنا عنهما للتو، بفرض ضرائب على سكان ولاية البحيرة ، تعادل تلك الضرائب التي تفرضها السلطات الحاكمة ، وبسبب نقص وسائل القمع التي في حوزة السلطات الحاكمة ، فقد ظل مثل هذا الطغيان البغيض سادرا .

ولاية الشرقية

طبقة ثانية

جميلة

بنى أيوب

جميلات

طبقة أولى

بلى

رفاعات

سمداني

أولاد على

الحيوان

وهذه القبائل كلها من العربان الرحل، وهم لا يعرفون الزراعة ولا التجارة، وحيث إنهم قطاع طرق بالسليقة، فقد أصبحوا قتلة بفعل الطمع والجشع ، ولا تفرض عليهم الحكومة أية ضرائب أو إتاوات ، لكنهم يكتفون بأن يرسلوا كل عام إلى شيخ القاهرة هدية تتكون من الخيول والجمال، وبذلك يحصلون على حماية هذا الضابط، بل يمكن القول على تفويض منه بالانغماس - دونما اعتراض من جانبه - في جرائمهم المعتادة.

القبائل المتوطنة

طبقة ثانية

أولاد زهيرة

متولى

البوارشة

ودودة

طبقة أولى

القصاصين

السماكين

الصوالحة

عايد

الزملى

أولاد موسى

لكام

بالصوالحية

وهؤلاء يسكنون القرى ويفلحون الأرض ، ومع ذلك فإن لديهم فى نفس الوقت - شأنهم شأن الأولين - ميلا لا يقاوم يدفعهم للقيام بأعمال السلب ، إذ تراهم فى معظم الأحيان يتركون محراثهم ليمسكوا ببنادقهم ويسلبوا أمتعة المسافرين.

ولاية قليوب

طبقة ثانية

العيادة

طرابين

طبقة أولى

الصوالحة وجهينة

الحويطات

وهم يقيمون فى الخيام ، ويروعون سكان ضواحي القاهرة بغاراتهم التى يقومون بها للسلب والنهب. وهم يشاركون الفلاحين فى زراعة الأرض، ولكن دائما وبلا جدال على حساب هؤلاء الآخرين^(١).

(١) لمزيد من التفاصيل ، راجع دراسات دى بوا ايميه وجومار. وكذلك الجدول الذى وضعه اميديه جويير Amédée Jaubert . وسوف نعود فى الفصل الثالث إلى هذا الموضوع بالتفصيل. (ونجد جدول جويير الخاص بالقبائل العربية التى تقيم مابين مصر وفلسطين فى المجلد الثانى من الترجمة العربية). (المترجم).

عن الممالك، وعن الأجانب الذين استوطنوا مصر

عندما نتأمل قوة الممالك وتقدمهم الذى ظلوا يحتفظون به على الدوام على قوات الباب العالى ، فسوف نجد - بما لا يدع مجالا للشك - أن قوتهم العسكرية الرائعة تلك لا تعود إلى تعدادهم ، بقدر ما تعود إلى قدراتهم وكفاءاتهم . فتعدادهم ليس شئيئا بالمرّة ، إذ لا يكاد يصل مجموع عددهم - سواء الذين حرروا منهم أو الذين مازالوا أرقاء - إلى ثمانية أو تسعة آلاف رجل ؛ وبرغم ذلك فقد توصلوا بفضل جرأتهم وشجاعتهم ومزاجهم العسكرى الذى تنميه نشأتهم العسكرية، وكذلك بسبب من الذكريات الرائعة والطموح الذى لا يعرف لنفسه حدا ، توصلوا إلى قيادة شعب كبير مع تقييده بسلاسل من خوف، وسحقه تحت وطأة اسمهم : الممالك، وهو الذى يمكن أن يقال بأنه أصبح مثيرا للرعب بسبب كثرة ما أحرز من انتصارات .

ومن الممكن أن ننسب قلة عدد الممالك إلى عاداتهم فى الزواج من نساء أجنبيات مثلهم ، وفضلا عن ذلك فإن طقس مصر يحول دون تكاثر الأجانب عموما ، حتى عندما يتزوج هؤلاء من مصريات ، فالأطفال - فى الحالة الأولى - يموتون وهم لما يبلغوا من العمر بضع سنوات . وحيث كان الممالك - هكذا - محرومين من فرص التكاثر الطبيعى ، فقد بات عليهم أن يلجأوا إلى هؤلاء الذين ينحدرون من نفس أصولهم ، فكانوا يشترون الرقيق الشبان ويقومون بتدريبتهم عسكريا ثم يعتقونهم بعد ذلك . وكان هؤلاء الرقيق إما شراكسة وإما قوقازيين، وكانوا يحملون أولا إلى القسطنطينية ، ثم يرسلون من هناك إلى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية حيث يشتريهم الأغنياء . وتنسب زوجات الممالك إلى نفس هذين الإقليمين، ويصلن إلى تركيا بنفس الطريقة .

وفى بعض الأحيان، وقبل مجئ الحملة الفرنسية، كان يحدث أن يتزوج أحد

الممالك - بعد أن يدركه اليأس من الوصول إلى الصفوف الأولى من رجالات الدولة - من زوجة مصرية ، وعندئذ يكون له الحظ في إنجاب الأطفال ، لكن ذريته تتميز مع ذلك بالضعف.

ويمكن لنا أن ندرج العبيد السود من الجنسين الذين كانوا يجلبون من أعماق أفريقيا ضمن الشعوب الأجنبية التي استوطنت مصر. ففي كل عام كانت أسواق القاهرة تمتلئ بهؤلاء التعساء ، وكان عدد النساء بينهم يتجاوز عدد الرجال . وهذه التجارة المرذولة هي واحدة من المهن الرائجة في هذا الإقليم ، ومن أسواق القاهرة، تذهب أفواج العبيد إلى المدن الكبرى في آسيا ، مثل: أزمير والقسطنطينية وحلفا.. الخ، ويبقى عدد كبير منهم في نفس الوقت في القاهرة، حيث يستخدمون في مختلف الأعمال . ويميل المصريون إلى تفضيل النساء الزنجيات، ويشترى الرجل على هواه وحسب قدرته اثنتين أو ثلاثا وحتى ستا منهن.

وكما سبق أن قلنا فإن للمسيحيين في مصر الحق في امتلاك العبيد ، بالرغم من أنهم لا يتمتعون بهذا الحق في بقية الولايات التركية ، ومع ذلك فإن هذا الحق محدد بشروط معينة ؛ فمن المحظور عليهم أن يمتلكوا عبيدا من الذكور ، إذ هم - في هذا الصدد - لا يستطيعون على الأكثر إلا شراء أطفال صغار يتخلصون منهم عندما يكبرون . ومع ذلك فقد كان يسمح لهم باقتناء أى عدد من النساء الإماء يستطيعون الحصول عليه ، لذا كان لدى كل أسرة واحدة أو اثنتين على الأقل للقيام بأعمال البيت.

أما العثمانيون المقيمون في مصر فكانوا قليلي العدد ، وكانت ذريتهم تنقرض شأنهم في ذلك شأن الممالك، ولنفس الأسباب. ويوجد بالمثل عديد من العائلات السورية التي استقرت في مصر بغرض التجارة، ولكنها ليست بذات وزن كبير في أجناس هذا الشعب.

وتشغل قبائل النوبيين أو البرابرة مناطق عديدة في صعيد مصر وبعض

الجزر المجاورة لشلال أسوان، وهى قبائل فقيرة وتتكون من بعض العائلات، وفى ختام المطاف نذكر الأفرنج أو المسيحيين الأجانب. وهؤلاء لا يستقرون إلا فى مناطق التجارة الكبرى، مثل: الأسكندرية، رشيد، دمياط، القاهرة. وأهمية هذه الطائفة تعود إلى ماتقوم به من عمليات تجارية أكثر مما تعود إلى تعدادها. تلك - على وجه التقريب - لوحة بالغة الإيجاز لمختلف العناصر والأجناس التى تقطن مصر، وقد اكتفينا هنا بمجرد ذكرها، لكننا سنعود إليها فيما بعد، وعندئذ سنتحدث عنها بتفصيل أكبر.

٧

عن العادات والتقاليد بشكل عام

يوجد فى مصر - شأنها فى ذلك شأن بقية بلدان الشرق - خليط مضطرب من العادات والتقاليد، تعود إلى أصول متنوعة، وتنتج عن أسباب كثيرة. وهل كان يمكن للأمر أن يكون على نحو آخر فى بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه؟ فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التى تشكلت بها فئات السكان بمختلف أديانهم وأصولهم. فنحن نجد فى المدن - مع شئ من الاختلاف - نفس عادات الشعوب الشرقية، ولقد كان هذا الاختلاف أمرا ضروريا بسبب طبيعة التربة وتأثير الطقس. أما فى الريف وفى الصحراوات فسوف نتعرف على رجل العصور الأولى ببساطة أذواقه، هذا إذا لم تكن العصور المنصرمة قد تكفلت بإتلاف فطرته.

تحدث كل فئات هذا الشعب لغة مشتركة هى اللغة العربية، وقد تمثل الأقباط كذلك هذه اللغة. وإذا كان بعض العثمانيين قد احتفظوا بلغتهم الأم فقد كان ذلك يحدث فيما بينهم، وفى علاقاتهم مع ضباط الباشا الذين يحكمون مصر باسم السلطان. وقد نسيت اللغة اليونانية تماما، أو قل إنها قد انكمشت فى دائرة صغيرة من تجار هذا الشعب (اليوناني) الذين يقيمون فى القاهرة أو الأسكندرية.

ولا يمكنك أن تكشف ما يعتمل فى نفس المصريين عن طريق ملامحهم .
 فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجى فى كل ظروف حياتهم
 يكاد يكون هو نفسه ، إذ يحتفظون فى ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر ، سواء
 حين تأكلهم الهموم أو يعرضهم الندم أو كانوا فى نشوة من سعادة عارمة ، وسواء
 كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد أو يغفلون فى
 داخلهم من الغضب أو يتحرقون للانتقام . فليس ثمة مطلقا فعل منعكس : أحمرار
 فى الوجه أو شحوب مفاجئ ، يستطيع أن يشئ بصراع تلك العواطف العديدة
 التى تهزمهم . ويمكننا أن نلتمس أسبابا عديدة لهذا الجمود المذهل فى الملامح ،
 قد لا يكون الطقس بعيدا عن هذه الحالة . فحيث يبدو الطقس على الدوام بنفس
 الشكل ، فإنه ينقل إلى النفوس - على نحو ما - ثباته الدائم ، ومع ذلك فإن
 الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد فى شكل التربية ، وفى الاعتقاد فى القضاء
 والقدر المنتشر بين كافة الناس ، كما تعود فى النهاية إلى تعودهم أن يكونوا على
 الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد . ففى كل يوم تنشأ أخطاء
 وبشاعات جديدة ، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين - والشرقيين عموما -
 نوعا من الحيلة لمواجهة هذا العنف ، فعندما يعاقب الإنسان على حركة أو بسبب
 نظرة أو أحيانا مجرد الاشتباه ، كما لو أنه ارتكب جريمة ، فإنه يصبح وقد اكتسب
 مقدرة عميقة على الاستيعاب والتمثل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات
 عادية . لذا فلا ينبغى علينا أن نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من
 التسليم المستعذب للألم الذى يميز الشرقيين على وجه العموم : فالشكاوى
 والصيحات أمور لا فائدة منها أمام إرادة الطغاة . ويعرف المصرى كيف يمشى
 وقد أغضبه الألم ، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمة ، فهذه إرادة
 الله ، والله أكبر ، والله غفور... وتلك فقط هى الكلمات التى تأتى على لسانه عندما
 يبلغه نبأ نجاح لم يكن يأمله ، وهى نفسها التى تفلت منه عندما يبلغه نبأ كارثة
 كبرى ألمت به .

ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمرا بالغ التناقض مع تقاليدنا ، حتى لنظنهم فى البداية بلهاء أو معتوهين ، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشى بعدم اكتراث مذهب . فأنت تراهم ممددين لجزء طويل من النهار على أرائكهم أو على حصرهم ، حسب درجة ثرائهم ، حتى تظن أن ليس ثمة فى هذه الدنيا مايشغلهم إلا أن يملأوا ويفرغوا على التوالى غلايينهم الطويلة ، وتبدو مخيلتهم وكأنما قد تخرت مثل أجسامهم لحد تخال معه - وهم فى حالة التنويم الروحى تلك - أن سماعهم لحكم بالموت صادر عليهم لن يكون بمقدوره أن يثير مجرد دهشتهم . ويرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية على ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية . فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم على العكس - وحيث يمكنهم بذلك تركيزها - أكثر حدة ، كما أنها تعطى لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم فى بعض الأحيان قادرين على الإتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلا على ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة... إن ملكة الانتباه ، والقدرة على التذكر ، تذهب إلى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين فى بلادة مطلقة .

وتتوافق أحاسيس هذا الشعب مع بقية عاداته ، فالمرء منهم يستمتع فى الحمام مثلاً بملذات عجيبة ، إذ لابد أن تقوم واحدة من الخادومات على الدوام بتدليك قدمه إما باليد ، وإما بقطعة من الطوب الأملس ، كما أنه يمضى وقتاً طويلاً فى تهذيب لحيته . وهذه عادة قديمة جداً فى الشرق ، حيث لا تدلك القدم باليد إلا فى المجتمعات الحميمة من الأهل والأصدقاء ، ذلك أن الآداب العامة لا يمكن أن تسمح بهذا الفعل الشهوانى على الملأ . أما عن حك الأقدام بقطعة ملساء من الطوب فهى لا تمارس إلا عند الخروج من الحمام . وكلا الأمرين يعدان فى وقت معا ضرباً من الأمور الحسية والشهوانية ، وكذلك عملاً من أعمال النظافة .

وقد تبدو ملذات من هذا النوع بالغة التفاهة فى نظر الأوربى ، لكنها تكفى

لتوفير جو من الرخاوة لذلك المصرى خالى البال ، فهو يتمتع بها وسط العطور وسحب الدخان والأبخرة المعطرة ، ويستطيع أن يوفرها لنفسه على الدوام ما دام الأمر يرتهن بمشيئته . فإذا ما أضفنا إلى ذلك المشهد مسرات ومباهج الحريم والموسيقى والغناء ، وكذلك حبه قول أو سماع الحكايات، ذلك الأمر الذى يستغرق جزءا كبيرا من سهرتهم، لتكون لدينا فكرة شبه كاملة عن مباحج الحياة عند المصريين وعن لذاتهم .

إن كل شىء فى هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوربيين . وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ، ومن صنع الأنظمة المدنية ، والمعتقدات الدينية كذلك . كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة ، فى الوقت الذى تتكفل فيه الحرارة الشديدة بتقليل نشاط القدرات الجسمية . ولنا أن نتساءل ، لماذا يكلف الفلاح نفسه كبير عناء - فى بلد كهذا ليست الملكية فيه سوى ضرب من الأوهام - كى يحسن من زراعته ، إذا كانت جهوده تلك لن تؤدى بالضرورة إلا إلى إثراء مستغليه ، وإلى انتزاع مغارم جديدة منه ؟ إن المصرى يعرف حقيقة وضعه ، ويسير - نتيجة لذلك - أموره ، ويأتى الخوف مضيفاً أثره إلى فعل الطقس ، ليضعف من مقدرة جسمه ، بنفس القدر الذى تقم به المعتقدات الدينية عقبة - لا يمكن اجتيازها - تحول دون تقدم وتطور أرضه . وهكذا يظل الغنى ينتهب الذات ، بينما يظل الفقير يروى بحبات عرقه أرضا خصبة معطاء ، لكنه لا يستطيع أن يحصل منها إلا على ما يقيم أوده .

ومن جهة أخرى يمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء فريسة للاستبداد . وفى نفس الوقت فإن التجارة مزدهرة ، وليس ذلك لأنها تلقى تشجيعا من الحكومة ، ولكن لأن موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معينا لا ينضب . وهذه الحرفة هى المجال الوحيد الذى يمكن أن يعد المصرى بمستقبل زاهر ، فهى تقوده إلى الثروة فى بعض الأحيان ، وهى - فى هذا الصدد - الحسنة الوحيدة التى بقيت لهم ، حيث إن صفتهم كمواطنين قد أغلقت أمامهم طرق المجد والمراكز

الكبرى فى وطنهم . انظروا إذن ، إلى أى حد تضاعل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة ٩. إن الكوارث التى تنال منهم اليوم سوف تظل تثقل عليهم ، طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم، وسوف يظل المصرى عبداً ، بائساً ، سلبياً ، خاملاً ، تدور به دوامات الشك دون أن يفكر فى وضعه المحزن . ولربما تكون بلادته تلك هبة من القدر ، إذ بفضلها لن يعذبه على الإطلاق ذلك الإحساس بالآلام والمخاطر التى تهدده بلا انقطاع .

وبرغم ذلك ، فإن للطبقات الشعبية تقاليد أقل تخنثاً ، فذلك الرجل البائس الذى يتوقف بقاؤه على قيد الحياة على عمله اليومى الدوب ، نشيط بالضرورة لحد لا يمكن معه أن ينال منه التعب . ويتحمل الفلاح النيران التى تصبها عليه السماء الملتهبة لكى يبذر الأرض التى تمده بضرورات أسرته . وسوف يدهش الأوربى الذى سبق له أن رأى الأثرياء المصريين ممددين على أرائكهم فى رخاوة ، بل يمكن القول بأنهم يخشون من أن ينال منهم التعب لو أنهم أتوا بإشارة إلى خدمهم ، سوف يدهش عندما يرى السائس أو خادم الاسطبل - أثناء تدريبات المماليك العسكرية - وهو يجرى أمام حصان سيده ، ويتابع كل حركاته لساعات طوال ، دون أن تبدو عليه أقل أمارات التبرم أو الضجر ، فى الوقت الذى تلقى الشمس الملتهبة على جسمه العارى شواظى من رصاص . ويؤخذ هؤلاء الخدم من طبقة الفلاحين عادة .

وعندما يمتدح أحد الأوربيين لأحد سكان القاهرة مباهاج التريض وجمال الأمكنة المخصصة لذلك فى أوربا ، فإن القاهرى يجد صعوبة كبيرة فى أن يتفهم كيف يمكن أن تكون هذه الممارسة المتعبة واحدة من مباهاج الأثرياء . فالقاهرى عدو لكل حركة ، وهو يزحف بصعوبة من منزله إلى دكانه ، لذا فهو يذهب إلى هناك فى معظم الأحيان على ظهر الحصان أو الحمار . وكل شئ مجهول فى مصر إلا الحداثق ، فلكل المنازل التى تتمتع بمظهر حسن - إلى حد ما - قطعة

من الأرض صغيرة ، تزرع بالأشجار والخضروات ، لكن الأشجار تزرع بلا أدنى تنسيق ، كما أنها تزرع لمجرد الزينة . وفى بعض الأحيان يذهب رب البيت إلى هناك ليستنشق الهواء تحت ظلها ، لكنه هنا أيضا يتمدد فوق سجاجيد ومخدات ، كما أنه لا ينتزه فى طرق حديقته ولا بين أدغال أشجار البرتقال ، كما ادعى ذلك عديد من الرحالة ، إذ ليس لهذه الحدائق طرق ، كما أن أدغال البرتقال ليست منسقة بطريقة تحبذ النزهات . وباختصار فإن المصريين يزرعون هذه القطعة من الأرض بجوار منازلهم ؛ كى يحصلوا طيلة العام على أنواع متعددة من المزروعات ، وليس كى يستمتعوا بمشهد الربيع الدائم .

ويتمتع الفلاحون عادة بصحة جيدة ، وملامحهم بشوشة ، بحيث تتناقض مع ذلك الهوان الذى قُدِّرَ عليهم على الدوام أن يقاسوا منه . وهم عجاف أشداء ، وهم يستطيعون تحمل كافة المتاعب ، فتراهم نائمين وقت الظهيرة فوق أرض ملتهبة ، وينامون على هذا النحو ساعات متوالية ، معرضين للهب الشمس ، وهو أمر يكفى لقتل الرجل الأوربى ، لكن تلك هى قوة الاعتیاد التى يتوافق الفلاح معها على الدوام . وهم لا يكادون يحسون بالعرق ، إذ لا تمتلك هذه الطبقة إلا قُوَّتَها الجسدية ، ولعلها وفيما عدا هذه الميزة أتعس طبقات مصر .

ولا يتمتع الأغنياء وسكان المدن بمثل هذه البنية القوية ، إذ يبدو عليهم منذ أعوامهم الأولى الضعف والتهدل ، فالأطفال من الجنسین شديدي النحول لحد كبير ، وعندما تتقدم بهم السن فإنهم يحتفظون بهيئتهم التى كانوا عليها وهم صغار ، حتى ليظنهم المرء رجلا مريضين ، وسوف نتحدث فى مكان آخر عن الأمراض الخطيرة التى تهددهم ، لكننا هنا سوف نكتفى بالحديث عن آلام الأسنان التى يبدو أن الإفراط فى الأكل هو السبب فى حدوثها ، إذ يتعرض الأغنياء من المصريين كثيرا لهذه الآلام ، حتى أنه من النادر أن نرى واحدا منهم سليم الفم بالرغم من كافة الاحتياطات التى يتخذونها ليحتفظوا بأسنانهم سليمة ،

فهم ينظفونها مرتين فى اليوم بنوع من مياه صابونية ، ولا يفوتهم أن يكرروا نفس الشئ بعد تناول أقل طعام .

ويبدو أن سوء بعض ما يتناولون من أطعمة هو السبب فى هذه الآلام ، حيث إن الفلاحين لا يصابون مطلقا بأمراض الأسنان تلك . ومع ذلك فيستحيل علينا - على سبيل المثال - أن نتفق مع جان فيلد Jean Wiled على أن أسنان المصريين تالفة ، لأنهم يمضجون بكثرة قصب السكر . فلو كان الأمر كذلك لكان سكان الريف أول من يهاجمهم هذا المرض ، كما أننا لا نستطيع كذلك أن ننسب هذه الأمراض بشكل مطلق إلى عادة شرب المشروبات الساخنة ، وبشكل أساسى : القهوة . ذلك أن آلام الأسنان كما لاحظ نيبور Niebuhr بحق فى كتاب - Descrip- tion de L'Arabie قديمة جدا فى مصر ، وهى تسبق بوقت طويل اكتشاف البن ، إذ يشير هيرودت - عندما يتحدث عن الأطباء - إلى فئة منهم مهمتها أساسا علاج الفم .

ويتميز المصريون باحترامهم لكبار السن ، كما أن حب الأبناء هو أيضا واحد من فضائلهم الأساسية ، وينظر الشبان لأبائهم بنوع من التقديس الدينى ، ولا يجروؤن أن يدخنوا أمامهم على الإطلاق ، ولا يسمحون لأنفسهم بتلك الميزة إلا بعد زواجهم ، وهنا فقط يعتبرون أنفسهم رجالا ، ومع ذلك يظل أبائهم على الدوام أولى أمرهم ، وموضع حُبهم وعاطفتهم . وفى بلاد كهذه تدين بوجودها للنيل فإن كل شئ يرتبط بهذا النهر ، وماتزال توجد حتى اليوم عادات كانت تحدث فى الأزمنة الماضية ، فالمسلمون - على سبيل المثال - ينتظرون أولى بشائر الفيضان والاحتفالات التى يقوم بها الناس فى هذه المناسبة ، لكى يحتفلوا بأعراسهم ، ويستمر ذلك حتى حلول شهر رمضان ، ومن النادر أن يتزوجوا قبل أو بعد هذه الفترة التى يبدو أن العادة هى التى حددتها .



وقد فرض محمد الوضوء لمرات عديدة فى اليوم، وأصبح هذا التقليد واحدا من الفرائض الأساسية لتلك الديانة التى أسسها هذا المشرع. ونحن لانستطيع أن نلومه فى هذا الخصوص ، حيث إن الوضوء فى كل البلدان الحارة ضرورى للنظافة ، بل إنه ضرورى للصحة . ويغسل المسلمون كل جسمهم كلما استطاعوا ، أو يكتفون بغسل أجزاء منه ، ومن هذه الأجزاء أعضاؤهم التناسلية ، ويستخدمون فى هذه العملية يدهم اليسرى ، أما اليمنى فتبقى لأمر أكثر نبلا . فهى التى توزع الطعام ، وتحىى أو تقدم للكبار أمارات الاحترام أو الخضوع بوضعها فوق الرأس.

والمساجد عبارة عن تجمعات شيطانية ، إذ يتجمع هناك أناس ينهمكون فى أمور تتعارض تماما مع قداسة المكان ، بل هم يندمجون أحيانا فى اهتمامات مجافية للذوق ، فهناك ترى خليطا من المتعبدین يؤدون الصلاة، ويؤساء يتفلّون ويقتلون ما بملابسهم وأجسامهم من قمل وبراغيث ، وعاطلين نائمين ، وحرفيين منهمكين فى ممارسة أعمالهم . وينظر لتلك الأمور بتسامح كبير، وليست مصر هى البلد الإسلامى الوحيد التى تُفتقر فيها - بحكم العادة - تلك العادات السيئة.

ويقدس المسلمون هناك عدیدا من الأولياء الموتى، وهم لا يعظمونهم إلا لى ينالوا منهم الصحة لأنفسهم أو الخصوبة لزوجاتهم العقيمات، ويرون فى أوليائهم كذلك القدرة على إبطال مفعول الحسد والسحر المؤذى، ذلك أن الجهل والتعصب يحملانهم على أن ينسبوا لمجرد نظرة سريعة من العين ، الكثير من التأثير الضار على صحة المرء ، بل على حياتهم كلها. وجدير بالذكر أن اليهود - وهم ليسوا أقل تعصبا ولا تطيرا من العرب - يقدسون أحبارهم لنفس الغرض . وبخلاف ذلك ، يلجأ العامة لوسائل أخرى كثيرة - سنتحدث عنها فيما بعد - لى يبعدوا العين «الردية» كما يقولون.

ويقوم المصريون بممارسة أخرى مضحكة ، تعود إلى ضعف نظامهم الروحى،

فيحرص المسلم منهم بعد أن يقص شعر رأسه أو لحيته على ألا يرمى بها في الهواء، بل يطويها بعناية داخل ورقة ، ثم يضعها بحرص في أحد الشقوق ، ويتبع الشعب كله على وجه التقريب هذه العادة العجيبة.

وقد قام الجيش الفرنسي - بعد احتلال هذه البلاد - بإنشاء مستشفيات في كل المدن الكبرى ، وكان بعض المسلمين يترددون على هذه المستشفيات للقيام بمهمة دفن الموتى . وقد لاحظنا أنهم يضعون جثث المسيحيين بطريقة عكسية تماما لتلك التي يضعون بها جثث المسلمين . وسألناهم ذات يوم عن السبب في هذا التمييز ، فأجابونا بجدية تامة : « إننا نحن أتباع محمد الذين ينبغى لأرواحنا أن تصعد إلى السماء ، لذا فنحن نرقد جثث المسلمين على ظهورها ، أما أرواح الكفار فينبغى - على العكس من ذلك - أن تهبط ، إلى الأرض لذا فنحن نرقد جثثهم على بطونهم ، حتى نسهل من مهمة أرواحها ونقصر عليها المسافة » .

والمماليك عادات ترجع إلى مزاجهم وتربيتهم ، فهم لا يُشاهدون مطلقا بدون سلاح، بل إنهم لايتوجهون إلى حفلة طعام دون أن يرتدوا كافة سلاحهم، ذلك أن الخيانات المستمرة فيما بينهم تفرض مثل هذا الحرص ، إذ كانت الموائد والاحتفالات الكبرى على الدوام هي المناسبة والوسيلة لتنفيذ عمليات الاغتيال أو الانتقام ، إنهم يتمسكون إذن بمناصبهم باحتياطهم ضد هذه المكائد . ومن جهة أخرى، فإن عادة أن يكون المرء مسلحا هي عادة شائعة بين الشرقيين، بل هي عندهم أمر من أمور الجاه والعز، ويشكل السلاح على نحو ما جزءا من ملابسهم ، وسوف يكون الأمر في غير تمامه لو أن الحزام لم يكن مليئا بالطبنجات الفخيمة والخناجر الجميلة . وتتفق هذه الأداة القاتلة مع نوع الحياة التي يحيونها ، ومع ميولهم الجموح.

والمصريون بشكل طبيعي نحيلو الجسم ، وذو أمزجة سوداوية ، ولانجد من بينهم رجالا ضخام الجسم وأقوياء إلا عند الأقباط أو المسيحيين الشرقيين .

وأكثر الناس حياء بين المصريين هم الأقباط، ولا يمكن للمرء أن يتصور إلى أى حد بلغ جنبهم وتخاذلهم، ومن السهل تفسير ذلك، فحالة العبودية التى انتهوا إليها منذ قرون كثيرة هى السبب الحقيقى لذلك .

وإذا كان صحيحا أن مصر القديمة هى التى أوحى للشاعر أروفيوس بالأفكار الأولى لهارمونيته الموسيقية ، فإن مصر الحديثة قد فشلت فى هذا المجال ، كما فشلت فى أمور أخرى . فالموسيقى فى هذا البلد ليست سوى نوع من الأنغام الغليظة والرفيعة ، تفرغ ضوضاءها المنفرة والمنافية للذوق السليم فى الأذان فتكاد تجرحها . ومع ذلك فإن لهذه الموسيقى المليئة بالعيوب - كما نرى - قدرة عجيبة على إدخال السعادة إلى الجنس اللطيف فى مصر، الذى يحتقر فى نفس الوقت وبشكل كبير موسيقانا الأوربية . وقد شاهدنا امرأة يغمى عليها من فرط الانتشاء وهى تستمع لصوت أجش لأحد المطربين العرب ، بينما كنا نحن الأجانب نعدده صوتا عاجزا يبعث على التقزز . وهم يصحبون أغانيهم بألة موسيقية أو التين حادتين ليس بينهما تناسق ^(١) . ومغنيات مصر المفضلات هن العوالم (عالة) . وهن يشكلن واحدة من مباحج وملذات المصريين . ومع ذلك فإن صوت هؤلاء العوالم منفر وغير مقبول ، وينبغى أن تكون مصريا حتى تجد فى صوتهن بعض الطرب . وتتنسب هؤلاء السيدات عادة إلى الطبقات الشعبية ، وهن مشهورات بكونهن شاعرات مرتجلات .

(١) ينبغى أن نلاحظ أن الموسيقى العربية - بعيدا عن التونات وأنصاف التونات الموجودة فى سلمنا الكروماتيكي - تتمتع هى أيضا بأرباع التون . وهذه النغمة هى التى تأخذها أذن الأوربي كنغمات خاطئة . ولكن عندما تدرس الأغنية العربية بشكل أفضل فسوف نرى على الفور أن أرباع التونات هذه تشكل جزءا من السلم الموسيقى . انظر فى هذا الخصوص دراسة المسيو فيوتو Villoteau حول موسيقى المصريين المحدثين . وصف مصر، الدولة الحديثة، ج ١، ص ٦٠٧ وما بعدها . (الجزء الثامن من الترجمة العربية . المترجم) .

ومن الأشياء التي تلفت نظر الأوربي أكثر من غيرها عند عبوره شوارع القاهرة أن يرى بعض الشبان تغطى أجسامهم الهلالي والأترية ، لكنهم يتجادلون فيما بينهم بكثير من الجدية والأهمية . وليس أكثر مثاراً للدهشة من أن ترى بعضاً من العامة يتشاجرون ، فهم يتبادلون السباب والصيحات العنيفة ، ويهدد بعضهم البعض ، بل يصل الأمر لحد أن يتلامسوا بالعصى ثم يتفرقون دون أن يصل بهم الأمر لأبعد من ذلك ، ومن النادر أن تصل مشاجراتهم لنتائج أكثر خطورة .

ونلاحظ في المصانع المهارة التي يستخدم بها العمال إبهام قدمهم لإنجاز أعمالهم ، ولاتستطيع أيديهم بكثير من الجهد أن تجارى أقدامهم فى تنفيذ نفس الحركات بمثل هذه الدقة والسرعة.

ويمكن لنا أن نذكر تحت بند المهارة ، مهارة الحلاقين المصريين ، فلعلهم أبرع زملاء مهنتهم فى العالم كله ، ومع ذلك فأساليبهم تبعث على الضيق حين لا يكون المرء متعوداً عليها . وهم يتفوقون على وجه الخصوص فى حلاقة شعر الرأس بالموسى .

ويتمتع الشرقيون الذين يعملون بتجارة الفضة عامة بشهرة سيئة بخصوص أمانتهم واستقامتهم ، لكن هذا الاتهام ظالم ، ذلك أن الوزانين العموميين والصرافين والعاملين فى تبديل العملات مشهود لهم فى مصر - على العكس من ذلك - بالنزاهة والاستقامة ، ولعلنا لانجد مثالا واحداً على أن رجلاً واحداً من العاملين فى هذه المهن قد اتهم بإساءة استغلال هذه المهام الدقيقة التى نيظت بهم . ويحوز الصرافون سمعة طيبة جداً فى مجال التجارة . ومع ذلك فمن الصحيح أن لديهم وسائل مشروعة كثيرة يصلون بواسطتها إلى تكوين ثروة كبيرة دونما حاجة منهم إلى الغش . وهم يستطيعون أن يتركوا عملهم هذا فى بضع سنوات ، أو يستمرون فيه حسب مزاجهم ، ذلك أن هذا الوقت القصير يكفى عادة لكى يجعل منهم أناساً بالغى الثراء .

٨

عن الأمراض الرئيسية

فى ظل وجود حرارة متساوية الدرجة - على وجه التقريب - طيلة العام، وفى ظل سماء صافية تغسل الموجودات والأشياء كل صباح بما تكونه من الطل والندى، فإن مصر لا تتعرض إلا لعدد قليل من الأمراض، ومع ذلك فهذه الأمراض على قلتها قاتلة فى معظمها لحد يثير الفزع، ومما لاجدال فيه أن نضع على رأس قائمة هذه الأمراض: الطاعون، هذا الوباء، الكارثة، الذى استطاع - بسبب النشاط الذى لم يمكن إدراكه حتى الآن للجسيمات الحاملة له - أن يفلت إلى اليوم من بحوث علم الطب، ويندلع الطاعون فى مصر على فترات تتقارب أو تتباعد، ويمكن القول بأنه نادرا ما ينقطع فى القاهرة والأسكندرية بصفة خاصة، فبعد أن ينكمش المرض بفعل الحرارة الشديدة أو برودة الشتاء القارسة، فإنه يعود ليتولد من جديد، وتعود إليه قواه المهلكة، فى الفصل الذى تميل الحرارة فيه إلى الاعتدال، وفى بعض الأحيان يكون المرض طارئا وعارضا، وعندئذ يكون قليل الخطورة، ويختفى فجأة بعد مدة قصيرة، ليعاود الظهور من جديد بعد بضعة أشهر. ويبدو تواكل المسلمين وعدم حيطتهم وسذاجتهم الروحية، باعتبارها الأسباب الرئيسية لبقاء هذه الكوارث، فهؤلاء فى الواقع، يتصورون - متمثلين بما ورد فى بعض نصوص القرآن - أن ليس ثمة ما يحدث دون إرادة من الخالق، وأن ليس ثمة ما يمكنه أن يرد قضاءه ومشيئته التى لا محيص عنها، لذا ينظرون إلى الاحتياطات التى تم اللجوء إليها لمنع انتشار الطاعون كأمر لا جدوى منها، إذ إنهم لن يصابوا مطلقا بأذى إذا كان مقدرا لهم أن يعيشوا، كما أن شيئا لا يمكن له أن يحميهم إذا ما كانت مشيئة الله قد أرادت لهم أن يموتوا.

ويتذكر سكان القاهرة بفزع نوبة الطاعون التى حلت أيام على بك، وتلك التى حلت أيام إسماعيل بك، ولقد أدت النوبة الأخيرة على وجه الخصوص - وهى التى

اندلعت فى ربيع ١٧٩١ - إلى حدوث فظائع كبرى ، فقد كانت تحصد الألوف فى كل يوم، وكان إسماعيل بك وكبار الممالك من بيته من أوائل ضحاياها . وقد كلفت هذه النوبة مدينة القاهرة ثلث سكانها .

ولسنا هنا بصدد الدخول فى تفاصيل حول مرض الطاعون، فلسوف تذهب بنا الظنون مذاهب شتى حول تحديد أسبابه ، دون أن نتمكن بطريقة كافية من أن نحدد طبيعة العوامل المتسببة فى حدوثه . ذلك أننا لا نريد أن نضاعف من حجم عدد الافتراضات التى قدمت والتى سوف تقدم فى هذا الخصوص ، فالطاعون ينتقل بفعل الاحتكاك والتلامس ، فإذا ما استطاع المرء أن ينعزل تماما وأن يمتنع عن ملامسة جسم مريض أو استنشاق هواء تنفسه ، فبإمكانه أن يتأكد أنه سوف يفلت منه . ويعتقدون هناك فى الشرق أن المرض يمكن أن ينتقل أيضا عن طريق حاسة الشم، وأن الزهور تتشرب بسهولة الأبخرة العفنة الناقلة للطاعون^(١) .

وبرغم أن الدوستتاريا أقل بشاعة من الطاعون بكثير ، فإن آثارها فى مصر ليست أقل تدميرا ، وذلك بسبب أطعمة المصريين الرديئة ، وبسبب استعداد أجسامهم وبنييتهم الضعيفة ، ويسبب لهم هذا المرض دمارا مروعا، وهويهاجم أطفالهم على وجه الخصوص ، ويحصدهم بطريقة تبعث على الرعب .

وفى نفس الوقت فقد قدر على المصريين المحاطين بالصحراوات من كل جانب، حيث تنتشر رمالها الناعمة والحادة بفعل الريح ، وحيث يتعرضون هناك لتقلبات مفاجئة فى درجات الحرارة ولرخات الطل المتزايدة - قدر عليهم أن

(١) أظهر السيدان ديجينت ولارى des Genettes & Larry كبيرا أطباء الجيش أثناء مدة الحملة، شجاعة تملو على كل مديح حتى يتعرفا على العوامل المسببة لهذا المرض ، وقد أمكنهما أن يجمعا - مخاطرين بذلك بحياتهما - عددا كبيرا من الملاحظات القيمة عن أساليب العلاج الواجب اتباعها . ويتذكر كل رجال الجيش الذين لا يزالون على قيد الحياة - بكل الأسى - تضحيتهما الكريمة. انظر مؤلفاتهما وانظر كذلك مقالة السيد الدكتور سافارسى Savaresy عن الطاعون الذى ضمها إلى مذكراته، وكذلك مقالة المسيو أسالينى Assalini .

يتعرضوا لأمراض العيون منذ زمان ضارب في القدم . وهذا ما يؤكد هيرودت حين يشير - من بين الأطباء - إلى أولئك الذين يعملون منهم في علاج أمراض العيون . وليس الرمد اليوم منتشرًا بأقل مما كان عليه في الماضي ، بل لعل انتشاره قد ازداد بسبب إهمال الشعب وعدم حيظته ، إذ ينام الناس في الهواء الطلق ، مما يساعد الرطوبة وبرودة الجو على تكوين التقيحات ، التي تسبق علل العيون أو فقدان البصر .

ولم يكن بمقدور جنودنا أن يفلتوا من هذا المرض ، وقد ظنوه في البداية معديا . ولم يكن التجار الأجانب ليفلتوا بدورهم منه ، حتى ليبدو وكأن المرض يفضل سكنى عيونهم ، ومع ذلك فهو لا يستثنى المواطنين ، فمن بين كل خمسة أشخاص ، ثمة واحد يضع عصا على عينيه .

أما الجدري الذي كان بشعا في بلادنا منذ زمن طويل ، فإنه يواصل تدميره في الشرق حيث يهين له التعصب والخرافات - كما في حالة الطاعون - عمرا طويلا^(١) . وهو مرض بشع في مصر ، ويظهر هناك بشكل مفرع ، وبدرجة أشد خطورة مما كان يحدث في أوروبا . ونادرا ما يفلت الأطفال في سن مبكرة من مخاطره وخبثه ، وإذا ما كان بعض البالغين أو الرجال الناضجين يشفون منه فإنه يترك على كل أجسامهم ندوبا عميقة . وهو ينتشر في فترة معينة من العام شأنه في ذلك شأن الطاعون^(٢) ، لكن ما يجعله أبلغ ضررا منه في أي مكان آخر ، أن الأمراض التناسلية لا تشفى هناك بشكل جذري ، لذا ينتقل ميكروبها البالغ النشاط من جيل لجيل ، ويصيب الشعب كله وينتقل إلى دم الأطفال مع لبن الرضاعة . وعندما يأتي الجدري بعد ذلك ليهاجم هذه الكائنات الضعيفة التي أتلقت فيها بالفعل منابع الحياة نفسها ، فلا بد أن نستنتج بسهولة أنه سيكون من

(١) يعتقد كثير من الأطباء أن مرض الجدري قد نشأ أصلا في مصر .

(٢) انظر ما كتبه المسيو جومار Jomard في دراسته عن المقارنة بين سكان مصر الحديثة وسكانها القدامى .

الصعب على هؤلاء الأطفال الضعاف أن يقاوموا شدة هذا المرض ، لذا كانت هذه النسبة الكبيرة من الوفيات بين الأطفال فى القاهرة وبقية المدن .

ومن الأمراض الشائعة فى مصر كذلك الفتاق والدامل . وكان يمكن أن تصبح هذه الأمراض أكثر انتشارا لو لم تكن تلك الحبيطة الحكيمة من جانب الفلاحين ، إذ يضغطون أسفل البطن بواسطة حزام جلدى عريض . وتهاجم هذه الأمراض العارضة الحيوان كما تهاجم الإنسان . لكن الإنسان لا يلقى لها فى البداية الاهتمام الكافى ، ومن ثم يزيد المرض خطورة ، ويصبح فى شكل تقريحات تستعصى على الشفاء ، ولما يكن المريض قد شرع بعد فى العلاج . وهكذا شأن القوم مع الأمراض الأخرى ، فالرقى والأدعية الدينية هى العلاج الناجح لكل الأمراض عند عامة الشعب . أما عيادات الطب الشعبى التى أنشئت فى المدن فهى تغتال حياة من يسلم إليها نفسه طائعا مختارا من الأغنياء ، وفى الوقت نفسه فإن الخرافة تعمل من تلقاء نفسها كعلاج ناجع غريب لهذا البلد ، الذى تُسير أموره المعتقدات المسبقة والجهل والتعصب .

وتشكل كل الظروف التى رصدناها فى الأجزاء : ١ ، ٣ ، ٨ العناصر التى عملت على تشكيل أو تعديل تقاليد المصريين وعاداتهم ، ويعود بعض هذه الظروف إلى كل العصور ، حيث إنها ترتبط بالطقس وبالبنية الطبيعية لمصر ، أما بعضها الآخر فهو ثمرة الديانة المسيطرة ، والأنظمة المستقرة ، والقوانين التى تحكم البلاد بمقتضاها . وينبغى علينا كى نُكوّن فكرة دقيقة عن بقية الأسباب التى تؤثر - بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - على تقاليد الإقليم ، أن ننفذ إلى كل الوقائع ، وهذا ما سوف نفعله فى الفصول القادمة .

الفصل الثاني

عن الإنسان المصري في سنوات عمره الأولى
الطفولة والتربية - الفنون والعلوم
والآداب

عن خصوبة المرأة ونظام الرضاعة

قد لا يكون خارجا عن موضوعنا - قبل أن نتحدث عن خصوبة النساء فى مصر - أن نخوض فى بعض التفاصيل حول حياة المرأة المنزلية ، وحول المكانة التى تشغلها فى المجتمع . فملاحظات من هذا النوع ترتبط بالموضوع بشكل أساسى . وإذا كانت المرأة لا تُحدث عند الشعوب الشرقية إلا تأثيرا بالغ الضالة على الرجل ، بالمقارنة بما يحدث عندنا فى أوربا ، فإن الأطفال فى سننى عمرهم الأولى برغم ذلك يخضعون لتأثيرها ، ولا يمكن أن يكون أمر كهذا - بالنسبة للدارس الواعى - إلا واحدا من العوامل التى تؤثر فى تقاليد الأمم ، إذ لا يمكن أن يكون مثل هذا الأمر خاليا من التأثير، حتى وإن عدّ من قبيل الأسباب غير المباشرة .

وتقيم الطبقة والثروة بين نساء مصر اختلافات وفروقا أكبر بكثير من تلك التى تحدث عند شعوب الغرب ، لكن هذه الفروق لا تتضح فى مجال التربية التى يتلقونها فى طفولتهن - وهى تكاد تكون معدومة بالنسبة لجنسهن كله - بقدر ما تتضح فى مجال العادات التى تنتشر فى أوساطهن كنساء ، وفيما تحاط به السيدات من عليّة القوم من احتفال وامتيان . ومن هذه الناحية ، يمكن لنا القول بأنه لا توجد فى مصر إلا طبقتان من السيدات : طبقة ترفل فى الثراء ، ويؤدى الغنى إلى رخاوة نساءها ؛ فيقضين حياتهن بأكملها داخل مباهج ومسررات الحريم ، وطبقة أخرى قدرت على نساءها حياة نشيطة مليئة بالعمل . ولكى يتضح لك الفرق ، فما عليك إلا أن تنظر إلى واحدة من زوجات البكوات ، وأن تدرس أذواقها وسلوكها ومباهجها وملذاتها واهتماماتها اليومية ، فهذا كفى بأن يقدم لك فكرة كاملة عن كل السيدات الثريات . ثم عليك بعد ذلك أن تنفذ إلى ما تحت سقف واحد من الحرفيين ، أو إلى داخل كوخ أحد الفلاحين ، وسوف ترى أن الظروف المتشابهة التى تحياها كل هؤلاء النسوة هى التى تحدد لهن ملابسهن ...

وهكذا يمكنك أن ترى كل مباحج الرخاوة وترفها فى جانب ، وفى جانب آخر سوف ترى كل خشونة العمل ومقتضياته .

وبرغم ذلك كله فثمة ذلك الذوق الفطرى عند كل النساء الذى يبدو وكأنه يعمل على التقريب بينهن فى مختلف ظروفهن، ذلك أن هذا الذوق يتعلق بالمرأة كامرأة بعيدا عن الطبقة التى تنتمى إليها، ويمكن القول بأن هذه هى نقطة الالتقاء الوحيدة التى تربط بين النساء على اختلاف طبقاتهن ، ونعنى بذلك حب التائق والتزين بالحلى ، فكثير من السيدات فى مصر يلبسن من تلك الحلى ما يفوق كل ثروة أزواجهن، وليس من النادر أن نرى هناك زوجة لحرفى بسيط تتزين بمجوهرات ثمينة ، لو أن أتيح لواحدة من ثريات النساء فى أوروبا أن ترتديها لأدركتها كل أمارات الزهو والخيلاء، ومع ذلك فقد تكون زوجة هذا الحرفى ممن يعانون فى الحصول على قوت يومها . وهذا الكلف من ناحية السيدات المصريات بهذا النوع من الزينة يرتبط بطريقة إحساس هؤلاء السيدات بكرامتهن ، حتى أن أبسط تاجر لا بد أن يوفره لزوجته إرضاء لها ، ويؤدى ذلك فى النهاية وبدرجة لم تكن متوقعة إلى تضيق ممارسة تعدد الزوجات ، لذا يكتفى المسلم المتواضع الثراء بـ زوجة واحدة أو اثنتين ، ولن يكون بمقدوره أن يزيد عن ذلك وإلا سوف يصعب عليه أن يساوى بينهن . وهكذا ، فقد وضع خيلاء النساء وغرورهن حدودا لإفراط الرجال وشهواتهم .

ولقد سبق أن تحدثنا عن حياة سيدات الحريم، وكيف أنها فارغة ورتيبة، وكيف أن الواحدة منهن تقضى يومها راقدة فوق فراشها أو مُقعدة على وسائد رخوة ، تحيط بها جمهرة من الإماء شديداً الانتباه ، لحد يتنبأن معه بما قد يجول فى إرادتها حتى يوفرن عليها حركة الإشارة من أصبعها، لذا فإن مثل هذه السيدة تكتسب فى وقت قصير سمعة غير مستحبة، لكن الأتراك يعتبرون هذه السمعة واحدة من أهم شروط الجمال . ومع ذلك فلعل هذا الميل منهم يعود إلى أن كل النساء هناك فى العادة سمينات ، وهذا طبيعى بالنسبة لنساء يتلقين هذا

النوع من النشأة المرفهة . وفضلا عن ذلك فلون بشره هؤلاء السيدات ناصع البياض، وعيون غالبيتهم أية فى الجمال ، وملامحهن على وجه العموم متناسقة . لكن جمود ملامحهن قد جعل وجوههن خالية من كل تعبير، كما أن سكوتهم يشى برخاوتهم ، وعقلهن فضلا عن ذلك خال من أية معرفة . ونساء هذه الطبقة يلجأن إلى وسائل - تبدو لنا بالغة الغرابة - كى يصفين رونقا على جمالهن ويقاومن آثار الزمن وفعل الطبيعة ؛ فحيث إنهن يرون فى كثافة الحواجب أمرا شائها فإنهن يستخدمن موسى لكى يصبح هذا الحاجب الكث مجرد خيط رفيع فوق الجفون . وهن يعرفن كذلك المساحيق الأوربية فى التزين . وتلجأ الشابات المسيحيات ، وكذا الروميات اللاتى يطمحن أن يحصلن قبل الأوان على كل جاذبية المراهقة - إلى وضع ضمادات من لباب الخبز الساخن بين النهدين ، وتحدث هذه العملية بالفعل أثرها . ولكن فلأن الثديين قد نضجا بسرعة وقبل الأوان فإنهما فى نفس الوقت يفقدان من مرونتهما ؛ ولعلنا نستطيع أن نجد فى ممارسة هذه الطريقة الغربية سر السرعة التى يذبل بها جمال المرأة الشرقية . وهكذا فنساء مصر كما رأينا لسن أقل من مثيلاتهن الأوربيات غير على سطوة جمالهن ، وذلك بالرغم من أنه ليس أمامهن من فرص لاستعراض جمالهن هذا إلا أمام أزواجهن أو أترابهن ، فهذا النوع من الانتصار يرضى كرامتهن بشدة .

وفى الطبقة الدنيا يتغير كل شئ ، فالنساء مهمومات بأمر البيت ، أما مباهج البطالة فلم تخلق لهن . فهاهن فى الحقول يقتسمن مع أزواجهن العمل ، أو يساهمن على الأقل فى جعل العمل على أزواجهن أقل مشقة، لذا تراهن يتمتعن بكل الخصائص الجسدية التى تنتج عن مثل هذا العمل المنتظم ، فأجسامهن قوية، عارية من الشحوم ، وحركاتهن سهلة ، وخطوهن ميسور ، فى حين أن خطوات السيدات الميسورات ثقيلة متعثرة . وعلى الرغم من بساطة ملابسهن فإن لديهن الرغبة فى أن يتميزن وسط رفيقاتهن ، وذلك بالتزين ببعض الحلى المتواضعة ؛ فيحطن أصابعهن بخواتم عريضة كما يفعل السائيس ، ويزين خصلات شعرهن ببعض قطع من النقود .

ويقسم في القاهرة وبولاق عديد من الأسر من أصل سورى، ونساء هذه الأسرات فى العادة جميلات وقامتهن مديدة وعيونهن سوداء واسعة بها شئ من الإغراء، لكن أنفهن الأقنى والطويل بعض الشئ ربما يعطى لشكلهن ملمحا من شموخ واضح، ومع ذلك فهن يبدون بهذا المظهر المتعجرف فى مواجهة السيدات التركيات اللاتى يماثلنهن فى الزى والعادات .

وثمة عادة شائعة بين النساء - مسلمات ومسيحيات - وهى أن يُسوّدن حافة جفونهن بالكحل ويُحمّرن أظفارهن بالحناء ، ويلاحظ المرء كيف يمكن لهذا اللون القاتم أن يصفى شيئا من الغلظة على الوجه ، لكننا برغم ذلك لا نستطيع أن نصدر حكما قاطعا فى هذا الصدد إلا إذا رأينا هن عن قرب ، وفى ظروف حميمة وليس فى ظروف طارئة تأتى لتجعل مثل هذا الفضول ممكن التحقق . ذلك أن النساء فى كل الظروف لا يخرجن مطلقا سافرات الوجوه، بل يغطين وجوههن بالبرقع ، وهو غطاء مكون من قطعة من الموسلين ، توضع فوق الأنف والوجه ، وتضايق التنفس ، ولا بد أنه يسبب لهن الكثير من الضيق ، وزيادة على ذلك ، تغطى جبهة المتزوجات منهن بعصابة من قماش أسود ، تترك بين البرقع والجبهة فراغا ضيقا تستطيع العين أن ترى من خلاله ، أما أولئك اللاتى لم يتزوجن بعد فيحملن على جباههن عصابة بيضاء ، أما لون البرقع فهو نفس اللون بالنسبة لهؤلاء ولأولئك .

ولا يدخل الرجال مطلقا - فيماعداء بعض الأهل الأقربين - إلى مسكن السيدات ، ونادرا ما يأكل الزوج معهن ، ويخصص لهن الجزء العلوى من المنزل ، وهذه عادة شائعة عند الأتراك وعند كل الأمم الإسلامية .

وعندما كان يتاح لأحد الأجانب - قبل قدوم الحملة الفرنسية - شرف أن يمثل فى حضرة زوجة أحد البكوات ، أو زوجة إحدى الشخصيات الكبيرة ، فإن هذه الزوجة لم تكن لتستقبله فى حجرتها ، بل فى حجرة طواشيها أول ، لكنها لا تظهر لناظره . وتأمّر بتقديم القهوة والشربات إلى ضيفها . وتظل تتحدث مع هذا

الغريب عن طريق طواشيها دون أن تخرج مطلقاً من خدرها . وهكذا لم يستطع الرحالة - السابقون على الغزو - أن يتعرفوا على أحوال سيدات الطبقة المسيطرة ، وذهبت أدراج الرياح كل توسلاتهم اللوح . فلم يكن عظماء مصر ليسمحوا لأحد بأن يتطلع إلى جمال زوجاتهم ؛ ومع ذلك فقد كانوا يستطيعون أن يوفقوا على الدوام بين واجبات ومقتضيات اللياقة وبين تقاليد بلادهم . وتتزوج النساء - كما سبق لنا القول - في سن الثانية عشرة ، ومن النادر أن تبقى واحدة منهن بلا زواج حتى سن السابعة عشرة ، بل يحدث أن يدعى أنهن قد نضجن في سن العاشرة أو الحادية عشرة . ومع ذلك فلعل هذا الأمر أقل انتشاراً ، رغم أن ثمة أمثلة عديدة في هذا المجال لا تدع مجالاً للشك فيما نقول ، فقد حدث أن تزوجت شابات قد نضجن قبل الأوان وهن بعد في سن التاسعة أو العاشرة ، إلا أن مشورة السيدات لازمة في هذه الحالة ، ولم يكن زواج مثل هذا ليتم إلا بعد أن تعلن النسوة أن الزوجة الشابة قد بلغت مرحلة النضوج .

ويمكن للزوجة المصرية أن تصبح أما في سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشرة ، وتظل في سنواتها المقبلة تقدم الأدلة على خصوبتها المذهلة ، ومن الممكن لها أن تصبح أما مرة كل تسعة أشهر ، ولكننا نستطيع القول - لكي نقدم نسبة دقيقة - بأن كل مصرية تتزوج تنجب طفلاً كل ثلاثة أعوام . ويقيم ذلك التقدير نوعاً من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتي يمرضن ، أو أولئك اللاتي يتميزن بخصوبة قليلة ، أو اللاتي تجعلهن بعض الأسباب الخاصة عاجزات عن الإنجاب . والعقم التام شديد الندرة في هذه البلاد ، بل إنه يعد بمثابة عار للمرأة ، لذا تلجأ السيدة العقيم إلى كل الوسائل التي تفرضها معتقدات النساء وخرافاتهن لكي تستطيع الإنجاب ، ويقوم الدجالون والمحتالون من أهل البلاد أو من الغرباء باستغلال هذا النوع من النساء ، فيقدمون إليهن - بأثمان كبيرة - أشياء يقال إنها لا تخب مطلقاً ، لكن الطبيعة والطقس يعملان عملهما فيساعدان بذلك هذه الأشياء - الوهم - التي يمكن القول بأنها عديمة الجدوى على الدوام .

لكن السيدات فى نفس الوقت لا يبقين خصيبات لسن متأخرة كما يحدث فى أوربا، فما أن يقترب من سن الثلاثين حتى تؤدى نوبات الحمل المتكررة إلى جعل الولادة عسيرة ، مما قد يكلف الطفل - الذى كن سيتباهين به - حياته . وسن الخامسة والثلاثين هى السن الطبيعية التى يتوقف عندها معظم السيدات عن الإنجاب ، ويظل بعضهن يتمتعن بنعمة أن يكن أمهات حتى سن الأربعين ، لكن تلك حالة شاذة ونادرة الحدوث . ومن غير المألوف أن ترى سيدة تنجب بعد هذه السن، وتكون هذه فترة مزعجة بالنسبة للسيدات المصريات، إذ يشعرون فى هذا الوقت ببعض الاضطرابات والتقلبات التى تؤذى صحتهم، لكن السيدة التى تفلت من هذه الأزمة يمتد بها العمر فى بعض الأحيان لسن متقدمة جدا .

وتتم الولادة عن طريق القابلات، وهى على الدوام حوادث سعيدة بسبب تلك الحياة الرخوة الهادئة التى تحياها المصريات . وعندما لا تستطيع امرأة - بعد أن تكون قد استنفدت كل الوسائل التى يتيحها لها طب الركة العاجز - أن تتمتع بسعادتها فى أن تكون أما ، أو أن تحتفظ بالأبناء الذين أتت بهم إلى هذا العالم، فإن التبنى يعوضها عن ذلك الحرمان الذى فرضته عليها الطبيعة، ولا يمكن لك أن تسمع مطلقا من يقول بأن تلك السيدة عقيم أو أن ذلك الرجل عاجز . ويقوم الموت بحصد أطفال العائلات الأجنبية على وجه الخصوص، فالماليك واليونانيون الآسيويون والعثمانيون والأوروبيون وكافة أبناء الأجناس التى لا تنتمى لهذا الوطن يموتون فى العادة دون ذرية تخلفهم ، وذلك إذا ما تناسلوا فيما بينهم . أما عندما يتزوجون من سيدات هذا البلد فإن بمقدورهم أن يتمتعوا عندئذ بمباهج الأبوة ، دون أن يستطيعوا مع ذلك أن يتطلعوا إلى أن ينالوا نعمة أن يتركوا بعدهم ذرية كبيرة العدد .

ولا يصبح للمرأة المصرية من شاغل - وقد أصبحت أما - إلا أن تعنى بطفلها، فتضع فيه كل اهتمامها وتركز حوله عواطفها ، ولا تستطيع أقوى الشدائد أن تدفعها لى تتخلص من هذا العبء الذى تظل فخورة به طيلة تسعة أشهر، بل

إن طفلها المرتقب ينسبها لآلام الوضع، فهذا الكائن الضعيف والعزیز هو تعویض لها عن آلامها الطويلة . وكم هو جميل بالنسبة لها أن تقوم بواجبات الطبيعة ! إنها لن تسلم مطلقا هذا الطفل - الذى يدين لها بوجوده - لعناية سيدة أخرى غريبة عنه ، فهي شديدة الفهم للاطفاته الأولى، وهى كذلك تطعمه من لبنها ، ولا تخشى مطلقا ما يعدها به هذا المولود الجديد من متاعب، فلقد قررت أن تتحمل ذلك بسرور ، وسوف تتحمل فى شجاعة أية مخاطر كبرى قد تتهددها . لكنها لا يمكن أن تسمح له مطلقا بأن يخلع على أخرى ببساطة ذلك الاسم الذى يصنع لها سعادتها ومجدها، اسم "الأم" الذى تغار عليه وتفخر به ، لذلك لا تعرف فى مصر هذه الأمراض التى تثير أحزان الأمهات الشابات اللاتى يمتنعن عن إرضاع أطفالهن . أما عمليات سكب لبن صدر الأم وغيرها من الأمور التى تضعف صحة الأمهات فسوءات لا يعرفها الشرق ؛ فكل امرأة هناك هى مرضعة أسرتها ، أما إذا ما شاعت الطبيعة ألا تهىء الكمية الكافية من اللبن لإرضاع مولودها الجديد فإنها ستطلب معونة سيدة أخرى ، لكن هذه المرضعة لن تعد مطلقا غريبة عن الأسرة ، إذ يمكن القول بأن صفتها كمرضعة سوف تنسبها إلى هذه الأسرة ، وسوف تمنحها حقوقا أبدية فى عواطف الأبوين وفى عواطف الرضيع . وهكذا يبدو أن العناية الإلهية تقيم نوعا من التعويض بين المزايا التى توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصرى الذى ليست له نفس مباهجنا وملذاتنا أو نفس ميزاتنا الجسدية أو الروحية التى تبعده عن أسرته، يعرف أكثر منا معنى العواطف الطبيعية، فإطفاله هم كل شئ فى حياته ، وهم مصدر كل سروره وفخره وأماله ، ولربما كانت أحاسيسه أكثر تبلدا وأقل تنوعا، لكنها أكثر نفاذا وأكثر حقيقة . وهو يدين بذلك إلى براعة عاداته وكذا إلى بساطة تقاليده ، لقد وجدها كامنة فى نفسه وفى ثنايا أسرته ، فليس ثمة من المرارة والندم العائلى ما يسمم مباهجه .

وتولى النساء المسلمات أطفالهن اهتمامات دقيقة ، كثيرا ما تأتى بعكس المرجو منها بالنسبة لهؤلاء الأطفال ؛ فهن يسرفن فى تغطيتهم بالملابس الثقيلة ،

ويؤذين معدتهم بأطعمة غير صحية . فيسرفن - على سبيل المثال - فى تقديم السكريات والفاكهة من كل نوع لهم ، وتكون النتيجة أن يهلك عدد كبير من هؤلاء الأطفال فى سن مبكرة ، ويأتى الجدرى ليساهم فى الارتفاع بنسبة الوفيات بينهم كما سبق لنا القول . ففى القاهرة - على وجه الخصوص - يتسبب الجدرى فى حدوث أضرار هائلة، إذ يهاجم الأطفال من الجنسين ولما تكن أعمارهم قد تجاوزت السنتين أو الثلاث، ولا يمكن لمثل هذه الأجسام الضعيفة التى أتلقت الأطعمة الضارة بنيتها أن تقاوم بسهولة عنف المرض . وهكذا يمكن القول بأن هذا الشعب يدين بوجوده لخصوبة نسائه ، بينما يصعب على الأجناس الأخرى أن تستمر على قيد الحياة فى هذه البلاد، وسوف نقدم الدليل على ذلك فى الجدول الآتى عن حالة أهم الأسر المملوكية :

إسماعيل بك : لم يترك إلا بنتا واحدة .

إبراهيم بك : له طفلان على قيد الحياة .

قاضى أغا : أنجب أحد عشر طفلا، بقى منهم أربعة على قيد الحياة .

مراد بك، أيوب بك الصغير وأيوب بك الكبير، الألفى بك، محمد بك المنفوخ، عثمان بك تباس ، عثمان بك الشرقاوى ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسى ، عثمان بك الطمبورجى ، حسن بك الجداوى ، صالح بك، إبراهيم بك الوالى ، محمد بك العبدولى ... كل هؤلاء بلا أطفال .

محروق بك بن إبراهيم بك : له طفلة واحدة على قيد الحياة .

على بك الكخيا : له طفلة واحدة على قيد الحياة ، وكذلك سليمان بك .

أحمد بك الكراجى : لم ينجب أطفالا على الإطلاق ، ونفس الشئ بالنسبة لعثمان بك حسن ، وكذلك سليم بك أبو دياب ، وقاسم بك .
حسن الكاشف الشركسى : لم يخلف سوى طفل أعمى .

محمد أغا : أنجب اثنين وعشرين طفلا لم يبق منهم على قيد الحياة سوى طفل واحد ضعيف البنية.

ومن هذا نرى كيف كان عدد أطفال الممالك الذين يبقون على قيد الحياة ضئيلا ، ويمكننا من جهة أخرى أن نعد أسرا أجنبية أخرى كثيرة لم تكن بأسعد حظا من ذلك ، وهذا دليل على أن الوطنيين وحدهم في مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل ، ويبدو أن طبيعة المناخ تلفظ بعناد بذور الأجناس الغريبة.

وقد خصص محمد نصا عن الواجبات التي ينبغي على الأمهات القيام بها تجاه أطفالهن. يقول المشرع العربي :

«والوالدات يُرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لاتضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصلا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتن بالمعروف» * لكن السماح البادى فى هذا النص يظل بالنسبة للزوجات المصريات غير مطروق ؛ إذ إن لهن صالحا مزدوجا فى أن يقمن بأنفسهن بالعناية التى يتطلبها أطفالهن ، فهن مدفوعات لذلك بدافع من الحب الأموى أولا ، وهن مدفوعات لذلك ثانيا بفعل احتياجهن لأن يجدن لأنفسهن اهتمامات وأعمالا تقطع الرتبة المعتادة فى حياتهن . ويتفق ذلك مع كثير من أساليبهن فى السلوك، فهؤلاء السيدات اللائى تخلص رؤوسهن من أية معرفة واللأتى لا يعرفن عادة اللجوء إلى الكتب لملء فراغهن ، يتمسكن- بفرحة طاغية - بأية وسيلة يمكن لها أن تزجى بعض هذا الفراغ. من هنا فإن ممارسة واجبات الأمومة الشاقة بالنسبة لهن نوع من دفع الملل، وإذا ما حدث أن حملن ثانية أثناء الرضاعة - وهذا أمر مألوف -

(*) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٣٣ . (المترجم) .

فإنهن يستمررن فى إرضاع الطفل حتى الشهر السابع أو الثامن من الحمل حيث يكون اللبن قد تناقص، وعندئذ يتخذن لطفلهن مرضعة.

ويتصرف البدو بطريقة جد مختلفة، إذ لاتقوم الأمهات عندهم برضاعة أطفالهن ، حيث يرفض الآباء ذلك بحجة أنهم يسرفن فى تدليل الأطفال، لذا يعهدون بالأمر إلى مرضعات.

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن العناية الفائقة التى توليها النساء المصريات المقيمات فى المدن لأطفالهن منذ نعومة أظفارهم ، وهى عناية تضر على الدوام بصحة أطفالهن، ولكن زوجات الفلاحين- على العكس من ذلك - يكتفين بلف أطفالهن بقطعة من قماش خفيف ، ويحملنهم معهن ، ويسمحن لهم بالزحف شبه عراة على الأرض ، وينتج عن هذه النشأة أن يتعلم أطفال الفلاحين المشى فى سن مبكرة، كما أنهم يكتسبون قواهم بسرعة ، وفجأة بعد قليل يصبحون نافعين لأبائهم . وعادة ارتداء السروال الشائعة فى أوروبا مجهولة تماما فى مصر ، وكذا فى كل بلدان الشرق ؛ لذلك فننادرا مانرى رجالا متصنعين يجدون حرجا من الاستجابة لقضاء ضرورات الجسم.

والأب فى مصر هو الذى يقوم بتسمية طفله، ويقوم - لهذا الغرض - بجمع أصدقائه وأقاربه فى اليوم السابع للولادة . وعادة ما يختار لطفله اسم جده إذا كان المولود ذكرا ، أما إذا كان بنتا فليس ثمة قاعدة لاختيار اسمها ، ويختار لها عادة اسم زهرة أو اسم شىء من الأشياء الثمينة الموجودة فى الطبيعة.

الختان

بالرغم من أن الختان عادة إسلامية ، فإن المذاهب الإسلامية تنظر إليه بشكل مختلف ، فأتباع المذهب الشافعي يرونه واجبا دينيا لا محيص عنه ، أما أتباع المذهب الحنفي فيرون أن الختان ليس سوى فعل يثاب المرء عليه. ويعترفون بأن بإمكان المرء أن يكون مسلما حسن الإسلام بدون ختان ، ومع ذلك فمادام ينبغي على المسلم أن يأخذ به فليس ثمة من الأسباب ما يكفل له أن يرفضه .

وليس ثمة سن محددة لإجراء عملية الختان هذه ، فيكفى أن يختتن الأطفال الذكور قبل البلوغ ، إذ عليهم في هذه السن أن يؤدوا الصلاة ، وهم لا يستطيعون أن يحصلوا على الطهارة التي يتطلبها محمد كشرط لهذه الشعيرة الدينية ما لم تكن غرلتهم قد قطعت .

وعندما يريد أحد الآباء أن يقوم بختان ولده ، فإنه يقوده إلى المسجد ، وهناك يصلى الإمام على الشاب الصغير الذى يخرج بعد ذلك من المسجد ليجد جمعا من الأهل والأصدقاء ، وبصحبة هؤلاء فى جولات طويلة على ضجة الآلات الموسيقية ومع كثير من الأبهة حتى منزل والده . وعندما يكون هذا الطفل ابنا لأسرة ثرية أو ذات نفوذ فإنه يمتطى حصانا جميلا مزركشا فى بذخ ، وعندما يعود إلى منزله ، تقدم وليمة يدعى إليها كل الأهل والأصدقاء . وعند نهاية الوجبة يقوم الحلاق بقطع الغرلة بالموسى ويوقف تدفق الدم بواسطة دواء قابض ، وعندئذ يسارع كل المدعوين بتقديم الهدايا « للمطاهر » ، ولاتحضر النساء هذا الحفل ، وعند الطبقات الدنيا فقط تقوم النسوة بمصاحبة الطفل إلى المساجد ويعدن به . أما الفتيات فلا يخضعن لعملية الختان هذه ، ومع ذلك فإن الفلاحين والعربان يقومون بقطع بظر الفتيات . ويعيب الاتراك وسكان المدن هذا السلوك مادام طول العضو لا يتطلب مثل هذا البتر، وهى حالة نادرة جدا .

وكما سبق لنا القول فإن الأقباط يمارسون الختان ، ويخضع له أطفالهم الذكور فى سن الثامنة أو التاسعة ، أما الفتيات ففى نفس السن تقريبا . وقد سبق أن أوضحنا أن هذه العادة قديمة فى مصر ونضيف إلى ذلك أن اليهود الذين نشأوا بين المصريين قد نقلوا هذه العادة إلى فلسطين ، وهذا التشابه لافت للنظر ويستحق الاهتمام كما نرى ، وقد سبقنا زملاؤنا إلى المطالبة بذلك ، ونحن نكرر ذلك هنا حيث إن هذا هو المكان الطبيعى لمثل هذا المطلب .

ويعتبر الختان عند المسلمين بمثابة الخطوة الأولى فى الحياة ، إذ يمكن القول بأن الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بجسمه فقط ، ولكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الأخلاقية والروحية . فهو يؤمر عندئذ بأداء الصلاة ، ويلقن العلوم والفنون بعد أن يكون قد سبق له التردد على المدرسة ، لكن المدرسين لم يكونوا قد فرضوا شيئا بعد على عقله الصغير . فالختان إذن هو بمثابة نهاية لمرحلة الطفولة بالنسبة للمصرى بكل نزقها وطيشها ، ويمكن القول بأنه بهذه العملية يولد مرة أخرى ، لكنه فى هذه المرة يولد رجلاً .

٣

التعليم الأولي

فى القرآن - ذلك التشريع الدينى والاجتماعى فى الوقت نفسه - قام محمد بتحديد السن التى ينبغى أن يكون الطفل قد بلغها ، لى يبدأ تعليمه الروحى والأخلاقى ، فقال :

« رب ابنك لسبع ، واضربه لسبع ، وأخه لسبع » (١) .

ومع ذلك ، فحيث إن الأطباء يدعون أن ملكات الطفل العقلية تتشكل منذ سن الرابعة أو الخامسة ، فإن الذى يهيمه تعليم طفله ، يحرص على أن يبدأ طفله تعليمه

(١) هكذا فى النص والمعروف أن هذا مضمون حديث نبوى شريف وليس أية قرآنية . (المترجم) .

أحيانا فى هذه السن ، فيجعله يتردد على المدارس حتى يتعود على الأقل على شكل الحروف ، ولكى يدركها دون مشقة كبيرة . ويلتزم الآباء بأن يعطوا لأبنائهم نوع التعليم الذى يتناسب مع درجة ثرائهم ، أو يلزمونهم حسب الحال بتعلم حرفة . وتعلم القراءة والكتابة يسبق كل شئ ، لكن ذلك ليس إلزاميا ولا حتى عاما ، حيث إن العدد الأكبر من الفلاحين وأبناء الطبقات الشعبية لا يعرفون القراءة والكتابة ، ويمكننا أن نقدر عدد الذين يعرفون ذلك فى القاهرة بثلاث عدد سكانها المذكور ، بل ويمكننا أن نهبط بهذا العدد إلى الربع فقط .

ومن النادر أن نرى مصريا يتحمل بنفسه مشقة تعليم طفله ، فمن الطبيعى أن يتجنب الناس التصدى لعمل بمثل هذه المشقة ، لذا فهم يرسلون أبنائهم إلى المدارس مدعين بأنهم - إذا ما تولوا أمر تعليمهم بأنفسهم - لن يقوموا بهذه المهمة بالحزم اللازم . ويرسل الأغنياء أطفالهم بصحبة أحد الخدم ، أما الفقراء فيصحبونهم ، أو يتولى مساعد المدرس تجميع هؤلاء الأطفال ليصحبهم جميعا . وتقوم الأمهات بإرسال وجبات إلى أطفالهن الدارسين ، ويقتسم هؤلاء الأطفال طعامهم مع زملائهم المعوزين ، وهذه العادة تنبع من معتقدات حقه شائعة عند كل المسلمين . فبهذه الطريقة يتعلم الناس منذ طفولتهم كيف يصبحون خيرين ، وكيف تنمو مع نموهم هذه الميول الخيرة التى تحض عليها مبادئ الدين . من هنا تأتى هذه المساواة المطلقة التى تسود بينهم ، فهم لا يعرفون ذلك التمايز الذى يعود إلى الأصل والمنشأ ، بل إن الثروة نفسها ليس لها فى هذا الصدد إلا ميزة طفيفة . ولكن أيتعين علينا إذن أن نتلمس وجود مثل هذه الأفكار الخيرة وسط هذا الخليط من النظم الهمجية ؟ ولماذا تفرض العناية الإلهية حواجز على حكمة البشر ؟

ولا يرسل الكبار أبنائهم أبدا إلى المدارس العامة ، أما الفتيات فلا يتعلمن حتى مجرد القراءة ، وإذا حدث أن كان بعضهن يمتلك هذه القدرة فلا بد أن هذا بالغ الندرة ، ولا بد أنهن قد تعلمنه فى معقل الحريم ، ويكون مدرسوهم فى هذه الحالة رجالا فى سن متقدمة ومحرومين من نعمة البصر ، ولا يستطيع مثل هؤلاء

المدرسين أن يعلموهن أكثر من حفظ بعض آيات من القرآن . وعند هذا الحد تقريبا توقف التربية الأخلاقية للنساء فى مصر .

وليس ثمة ما هو أكثر ضجيجا من مدرسة عامة فى مصر، حيث يتعلم الأطفال كتابة الحروف الهجائية والكلمات، فى نفس الوقت الذى يتدربون فيه على نطقها . وهم عادة لا يتعلمون إلا قراءة وكتابة وحفظ أجزاء من القرآن، وفى هذا الحد البسيط ينحصر تعليمهم الأولى . ويردد التلاميذ بصوت عال - وهم متجمعون داخل نفس الفناء - الدروس التى سبق لهم أن تلقوها ، من هنا يمكننا أن نُكوّن فكرة عن الضجيج الذى يُسمع فى الفصل ، وعلى هذا فينبغى أن يكون المدرس متعودا على هذا الضجيج حتى يمكن له أن يتحمّله . وبالإضافة إلى تلك العادة المشائعة لدى كل الأطفال - عادة أن يغنوا وهم يستذكرون دروسهم أو أثناء قراءتهم - فإن أطفال مصر معتادون على تحريك الجزء الأعلى من جسمهم بشكل مستمر أثناء ذلك . وهذه الحركة الدائمة، بالإضافة إلى الأصوات غير المتنازعة تجعل من المدرسة العربية مشهدا فريدا بالغ الغرابة بالنسبة للمشاهد الأوربي . ويُعاقب الأطفال الذين يُخلّون بواجباتهم المدرسية أو بعلاقتهم بمعلميهم بقسوة، ويتمثل العقاب العادى فى عدد غير محدود من الضربات بالجريدة - وهى فرع من شجرة نخيل - على باطن القدمين .

وعندما يُحرّز الأطفال تقدما فى الكتابة والقراءة ، يبدأون التعلم بطريقة الإملاء، ولا يكلف المعلمون أنفسهم مطلقا عناء تعليم أطفالهم لا الصلاة ولا القوانين التى فرضها النبى ، ومع ذلك فإن القرآن هو الكتاب الوحيد فى مراحل الدراسة الأولى . ويلتزم الآباء بتعليم أبنائهم قواعد الشريعة، فعندما يقترب الابن من سن البلوغ يبدأ الأب دروسه الأولى ، ولا يستطيع الطفل أن يشارك فى صلاة الجماعة إلا بعد الختان ، وقد سبق أن أوضحنا فى أى سن يتم ذلك .

وعلىنا الآن أن نتحدث عن المدارس الأولية وعن نشأتها ، ومن الأمور اللافتة

للنظر أن المدارس العمومية لا تدين بوجودها إلا لأعمال البر ، وهذه المدارس كبيرة العدد فى أية مدينة تحظى بدرجة ما من الأهمية . ويقوم الرجل الثرى عادة بتخصيص جزء من الميراث الذى سيتركه لأولاده لإنشاء مدرسة عمومية والصرف عليها . انظر إذن كيف يقوم كرم وتضحية الخاصة - اللذين لا جدال فيهما - بسد ثغرات الإهمال الإجرامى من جانب الحكومة ؟ ولولا حسنات هؤلاء الأغنياء لكانت مصر وتركيا معا محرومتين تماما من معرفة المبادئ الأولية للتعليم . وفى معظم الأحيان يكون المبلغ المخصص للعناية بالمدارس وفيها ، لحد يسمح بالصرف على طعام وكساء وتعليم الأطفال الفقراء مهما كان عددهم .

ويدفع الآباء محدودو الثراء أتعابا ضئيلة للمدارس ، تتراوح ما بين ٣ - ٢٠ مدينى فى الأسبوع . والمدارس العمومية كثيرة جداً فى القاهرة وفى المدن الرئيسية ، ولكن من النادر أن نرى مدرسة واحدة فى الريف . وعلى الآباء الذين يريدون هناك أن يعلموا أبناءهم أن يرسلوهم إلى إمام المسجد .

والمسيحيين أيضا مدارسهم . وهى تعيش - شأنها فى ذلك شأن الأديرة - على الإعانات والعطايا الخيرية ، ويعيش المدرسون من الأتعاب المتواضعة التى يُحصلونها من تلاميذهم ، وما أن يبدأ الأطفال فى معرفة القراءة حتى توضع بين أيديهم مزامير داود .

وإدارة المدرسة ، بل يمكن القول ملكيتها ، من حق نجل مؤسسها أو أحد ورثته ، وبإمكان هذا الوريث أن يبيعها ، أو أن يتنازل عنها لصالح آخر . ومع ذلك فينبغى أن يكون المدرس الموكل إليه أمر التدريس قادرا على القيام بمهام وظيفته وأن يكون حافظا للقرآن ، وإذا ما رأى القاضى أنه أقل كفاءة مما يقتضيه العمل فإنه يستطيع أن يرغم القائم على أمر إدارة المدرسة أن يختار مدرسا آخر أكفأ ، ولكن مهنة التدريس لا تحظى بالعناية الكافية ، ومكانتها بالغة الضعف . وإذا ما كان المدرس كفئا لحد أمكنه أن يجذب عددا كبيرا من التلاميذ فله عندئذ أن يأمل فى

بعض النفع ، وإلا فعليه أن يعيش خامل الذكر ، وفي حال تقرب من العوز ، وليس له أن ينتظر نفعا .

والقاضي حق التفتيش على المدارس الابتدائية، وعندما يتبين هذا الموظف الكبير أن المبالغ المخصصة للعناية بهذه المنشآت وتلاميذها قد صرفت في غير أغراضها، فإن له الحق في أن يرغم القائمين على إدارتها على الامتثال لرغبة مؤسسيها .

٤

العلوم والفنون

عندما يرغب الشبان - بعد انتهاء دراستهم الأولية - في مواصلة دروسهم ، فإنهم يطلعون لفترة في تلك الكتب التي لها صلة بدراساتهم المقبلة، ثم يتوجهون إلى الأزهر للاستماع إلى دروس وشروح المشايخ . والجامع الأزهر - على نحو ما- هو الجامعة الوحيدة في مصر ، وهيئة التدريس به تضم من ٤٠ - ٥٠ مدرسا ، من بينهم خمسة أو ستة ذائع الصيت .

وقلما يُدرّس هناك سوى القرآن وتقاليد السلف الأول، والعقائد والشريعة والصلاة والحج وبقية الشعائر الدينية التي فرضها محمد . ولكل مذهب أساتذته الكلاسيكيون الذين لا يختلفون مطلقا فيما بينهم حول المبادئ الأساسية للعقيدة الإسلامية .

كان النبي العربي يدرك أن القوانين تكتسب قوة دافعة جديدة إذا ما تأسست على العقيدة الدينية نفسها . لذا فقد كان بعيد النظر حين ربط بين الأنظمة والمؤسسات وبين الدين ، وحين جعل من الواجبات التي تفرضها الحياة الاجتماعية على الناس فروضا يؤديها الإنسان تجاه ربه ، وبذلك أدمج في تشريع واحد كلا من المبادئ الدينية والقوانين المدنية .. ويحرص المدرسون تماما على عدم الفصل بين الأمرين في دروسهم . وهم يشرحون في إسهاب كل ما جاء في أجزاء القرآن

مع الاهتمام بتوضيح المعانى الحقيقية للكلمات، وكذلك يدرسون القواعد أو النحو ، أى تلك اللغة التى كان يتحدثها العلماء الأوائل . ويقوم أهم الأساتذة فى الأزهر بتدريس المنطق والمعانى أو البيان، وهم يعرفون البيان بأنه فن التعبير عن أفكار كثيرة فى أقل عدد من الكلمات ، وكذا فن استخدام كلمات كثيرة للتعبير عن أفكار قليلة ، أى فن توسيع الفكرة أو تركيزها حسب مقتضى حال السامع .

وكان محمود - والى مصر وابن هارون الرشيد - قد جلب إلى مصر مؤلفات الفلاسفة الإغريق ، وأمر بترجمتها إلى العربية ، لكن هذه الترجمات لم تعد موجودة بمصر ، ولا يعرف الآن فى المدارس إلا مجرد أسماء هؤلاء الفلاسفة وبعض مقتطفات من مؤلفاتهم .

وينقسم المدرسون والطلاب إلى ست حجرات (أروقة) أو فروع كبيرة : السوريون ، البربر ، الإغريق ، سكان الريف ، الصعايدة ، العميان ، ويخصص الرواق السابع لبعض طلاب الأقاليم .

وتقدم الحكومة كل عام حوالى ٦٠٠ ، ٥ أرب من الحبوب ، يوزعها شيخ الأزهر أو وكيله بين هذه الفروع ، وليس لغالبية القادمين من القرى وسيلة أخرى للعيش إلا ذلك الخبز الذى يحصلون عليه من شيخ رواقهم .

وليس ثمة من نفوذ لوظائف التدريس، ولا ينشغل مدرسو الأزهر بالأمور العامة إلا لى يحوزوا لأنفسهم شهرة ورواد عديدين ، ولكى يأخذوا نصيبا من تبرعات المسلمين المتحمسين . فيحصلون بذلك على دخل بسيط يخصص لهم ، بالإضافة إلى بعض الهدايا، وإلى ما يحصلون عليه فى مقابل الفتاوى التى يصدرونها فى الأمور المدنية والجنائية التى تعرض عليهم لإبداء الرأى ، لأنهم فى نفس الوقت رجال قضاء .

والطلاب ليسوا ببساطة مجرد مستمعين سلبيين ، فبإمكانهم إيقاف المدرس عند نقطة لم يفهموا معانيها، وأن يعارضوا رأيه برأى شيخ آخر ، فيقيموا بذلك

نوعاً من الجدل حتى يستخلصوا الحقيقة بشكل أفضل ، ومن جهة أخرى فإن الشيخ بدوره يسأل طلابه لكي يعرف ما إن كانوا قد فهموا وتقدموا .

وعندما ينتهى شاب من تحصيل دروسه ، ويأنس فى نفسه الكفاءة والعلم اللذين يؤهلانه كى يشغل وظيفة فى الجامع الكبير ، فإنه يطلب إلى شيوخه شهادات بكفأته ، ويتقدم إلى شيخ الأزهر ليحصل منه على إذن القيام بالتدريس هناك بدوره ، ويدعو الشاب إلى الدرس الأول الذى سيلقيه كل أصدقائه وكل العلماء^(١) ، فيستمعون فى البداية إليه ، وبعد ذلك يسأله العلماء ويجادلونه ويعارضون آراءه ويحاولون إحراجه ، فإذا ما أمكنه أن يجيب على كل الأسئلة ويرد على كل الاعتراضات تكدت شهرته ، ويهرع إلى دروسه الطلاب والسامعون . وعلى العكس

(١) أن الأوان أن نبين هنا المعنى الذى يقصده العرب من مختلف هذه المسميات : عالم ، شيخ ، إمام .. الخ . العلماء هم أساتذة الشريعة الضليعون فى ذلك . وكل مسلم لديه علم يبلغه ويتخذ من ذلك حرفة له يسمى عالماً .

أما الشيوخ فهم المدرسون ورجال الدين . وشيخ الجامع الأزهر هو فى نفس الوقت رئيس هيئة التدريس فيه ، ويعين عن طريق قيام المدرسين القدامى باختياره ، وهم يرعون أن يختاروا رجلاً ناضجاً مشهوداً له بالعلم ويحظى برضاء الحكومة . والمرشح الذى يفوز بأكبر عدد من الأصوات يُقدّم أولاً إلى الشيخ البكرى - وهو زعيم أحفاد محمد - فيخلع عليه جبة ، ويعينه فى وظيفته الجديدة ، ثم يقدم بعد ذلك إلى شيخ البلد وإلى الباشا اللذين يخلعان عليه جبة كذلك . وليس هناك راتب مخصص لهذه الوظيفة ، لكنه منصب بالغ الجاه والشرف ، ويعطى صاحبه حق الإشراف على كل المدرسين . فإذا ما جرى أحدهم على الإعلان عن مبادئ مناقضة لآراء محمد ، فإن بمقدور شيخ الأزهر أن ينحيه عن العمل بالتدريس فى الجامع الكبير ، لكن الاحترام الذى يكنه العلماء تقليدياً لكل ماتعلموه نادراً ما يعرضهم لمثل هذا الموقف . أما المفتى فهو الشخص الذى يصدر الفتوى - أى الرأى القانونى - حول الأمور التى تعرض عليه ، ولكل مذهب مفت ، ومفتى الجامع الأزهر هو رئيس كل المفتين ، ويمكنه أن يناقض فتوَاهم . وهذه الفتاوى ليست فى الواقع سوى آراء استشارية ، يحق للقاضى أن يأخذ بها أو ينحيا جانباً ، حسب قوة الحجج التى تأسست عليها ، وحسب مكانة المفتى الذى أصدرها . وعندما يموت مفتى أحد المذاهب يتجمع علماء المذاهب الأخرى ليعينوا خلفاً له ، ولكل مدينة من مدن مصر الرئيسية مفتيها الخاص بها .

من ذلك إذا ما تردد أو ارتبك ، ولم يستطع أن يفوز بقدر كبير من الثقة ، لكنهم مع ذلك يحفظون عليه كرامته ويتحاشون إهانته . لكنه يكون بذلك قد قدم عن نفسه فكرة سيئة ، بحيث لا يستطيع أن يأمل فى المستقبل إلا فى نجاح متواضع .

ومن المستطاع ممارسة التعليم فى مسجد آخر بخلاف الجامع الأزهر ، ويكفى الطالب فى هذه الحالة الحصول على موافقة شيخ الأزهر الذى يحدد له المكان الذى ينبغى أن يدرس فيه .

وعندما يتقدم عديد من المرشحين للحصول على مقعد فى الجامع الكبير ، وعندما لم يكن ثمة إلا مقعد واحد شاغر ، فمن حق شيخ الأزهر أن يعطيه للشخص الذى يراه صالحا ، فهذا المركز ليس عرضة للتنافس . ومن ناحية أخرى فليس للمدرس من لقب آخر سوى الشيخ أو المعلم ، وليس ثمة أى تمييز طبقى أو تفضيل مسبق بينهم . فعمق معرفتهم ، وسنهم ، وفضائلهم هى التى تحدد أوضاعهم . ويحمل الشبان تقديرا كبيرا لأولئك الذين علّموهم وشكلوهم ، فيصفون إليهم باحترام ، ويتلقون آراءهم بل وتأييدهم أحيانا بكثير من الإذعان .

ويهمل المصريون المحدثون العلوم المقتنة بعكس أسلافهم ، فالرياضيات لا تكاد تكون معروفة عندهم ، ويكتفى الفلكى هناك بتسجيل بعض الملاحظات عن طريق آلات ضخمة ، وعلى تحرير التقويم السنوى . وفى نفس الوقت فعدد من لديه مثل هذه المعارف ضئيل ، وليس ثمة فلكى شهير فى هذه الآونة إلا شيخ واحد ، هو واضع التقويم الحالى وله بعض التلاميذ .

وإن نتحدث هنا لا عن النحت ولا عن الرسم ، فهما - فى مصر - لا يستحقان منا أدنى اهتمام ، لكن العمارة أكثر تطورا ، ومقارنة المنازل الحديثة بالمنازل القديمة توضح تقدما محسوسا فى أساليب البنائين أحرزوه منذ عدة سنوات ، فالتوزيعات تتم بشكل جيد تسمح بمرور الهواء والمحافظة على رطوبة المبنى ، لكن الذوق والأناقة فى حكم النادر .

ويمكننا أن نعيب على المصريين المحدثين نفس ما يعيبه الإغريق على أحفادهم ؛ فهم يتلفون كل شئ ولا يصلحون شيئا ، وهم يحيون فى حالة من عدم الانتظام والتباين ، لكن هذه العيوب لا تصدمهم مطلقا . ولقد تعلموا من العمال الفرنسيين فن صناعة الأحذية وأدوات المائدة الفضية والمجوهرات والمهاميز ، لكنهم لا يلقون بالا لا لجمال الشكل ولا لتناسقه . وتطريزهم جيد ، لكنهم بيرعون على وجه الخصوص فى الفخار ، وكثير من الزهريات التى يصيغونها تحتفظ بالشكل القديم ، ويستخدمون فى المصانع والورش وسائل بالغة البساطة والاقتصاد ، سوف نتحدث عنها فى الفصل الأخير من هذا المؤلف .

٥

الأدب والشعر

معرفة أوروبا بالأدب العربى معرفة بالغة الضالة لدرجة لا تسمح بتكوين فكرة دقيقة عن ذلك العدد الكبير من الكتاب المشهورين الذين برعوا فى مختلف ضروب المعرفة . وباستثناء بعض العلماء المتخصصين فى الشريقات (المستشرقون) الذين ندين لمجهوداتهم بمعرفتنا لعدد من مؤلفات هذه الشعوب ، فإن عدد الأشخاص الذين هم فى حالة تسمح لهم بالحكم على التراث الفكرى العربى ضئيل للغاية ، ومع ذلك فإن العرب قد أثروا الشعر على الدوام ، وهو الفن الذى برعوا فيه ، أما النحو والبلاغة فقد قاموا فى دراستهما بأبحاث عميقة ^(١) كما هو الحال فى علوم الفقه والأخلاق ، أما مؤلفاتهم فى الطب والتاريخ والجغرافيا فتحظى اليوم بشهرة هى جديرة بها ^(٢) . ولا ينبغى لنا أن ندهش من أن الشعراء العرب قد أحرزوا هذا

(١) يمكنك الرجوع فى هذا الصدد إلى المؤلفات العديدة المكتوبة باللغة العربية والتى تمتلك المكتبة الملكية منها مجموعة ثمينة ، وسوف تتبين أن العرب كانوا مشغولين على وجه الخصوص بنظرية اللغة ، وأن القواعد أصبحت عندهم علما يتطلب دراسة متخصصة.

(٢) أولئك الذين حازوا أكبر قدر من الشهرة فى أوروبا من العلماء العرب ، وهم : الحريرى ، الجوهري ، الفيروزبادى ، ابن سينا الذى يعرف باسم Avicenne ، المكين المعروف باسم Elmacin ، ابن خلدون ، ابن الفارض ، المتنبى ، ومن علماء الجغرافيا : ابن حوقل ، أبو الفداء ، المقرئ ، الإدريسي ، الخ.

القدر من النجاح والتفوق ، فثراء اللغة العربية ودقتها وجمالها يؤدي إلى تفوقها على كافة اللغات الشرقية، ولكن فحيث إن مجال دراستنا هنا لا يسمح لنا بأن نتوسع كثيرا في دراسة الأدب فسوف نكتفى بدراسة اللغة من حيث علاقاتها بتقاليد وعادات المصريين.

يتناول هذه اللغة ، في مختلف البلدان التي تستخدم فيها ، بعض الاختلافات البسيطة ، سواء في تركيباتها الدارجة أو في نطق بعض الحروف الهجائية، ويعدل سكان القاهرة - المشهود لهم بأنهم يتحدثون العربية بكثير من الرقة - من نطق كثير من الحروف الساكنة ، ليجعلوها مخالفة للشكل الذي تلفظ به في سوريا والجزيرة العربية . ويتمثل هذا الاختلاف على وجه الخصوص في الحروف : ح ، ق ، ج ، فحرف الـ "ج" يلفظ في كل مكان كما تلفظ الـ "g" اللاتينية في كلمة genou ، لكنها تلفظ في مصر كما تلفظ الـ "g" الفرنسية في كلمات gain, guerre, garçon . أما حرف الـ "ق" التي تماثل عندنا الـ "k" الحلقية فلا نكاد نراها تلفظ على لسان المصريين ، ولانكاد نحن نحس باستخدامهم لها إلا عن طريق نوع من التوقيف أو من الهوة الناتجة عن تتابع حرفي علة يشكل كل منهما مقطعا صوتيا مستقلا: أولهما هو المقطع الصوتي السابق على الـ "ق" ، وثانيهما هو المقطع الذي تشكل الـ "ق" جزءا منه ، أما سكان الصعيد فيلفظونها بنفس الطريقة التي يلفظها البربر ، أي كما نلفظ نحن حرف الـ "g" في كلمة gain^(١) .

سبق لنا أن قلنا بأن العرب قد برعوا على الدوام في الشعر، ولا يزال الأمر كذلك حتى اليوم عند كل طبقات المجتمع ، إذ نجد رجال الطبقات الشعبية في مصر ، بل وحتى الأطفال ، لديهم حساسية فائقة لهارمونية الإيقاع ، ولتكرار نفس الحروف الساكنة (السجع) .

(١) بهذا يكون علينا أن نواجه ثلاث طرق لنطق هذا الحرف في كلمة واحدة ، فكلمة بقرة على سبيل المثال يلفظها السوريون : بقرة ، ولفظها سكان مصر السفلى : بأرة ، أما سكان الصعيد والبربر فيلفظونها : بجرة .

ولعمال المدن أغنيات خاصة تساعدهم على إنجاز أعمالهم، ومن خاصية هذه الأغنيات ضبط حركات العمال والتقليل من مشقة المجهود الذى يبذلونه . ومع ذلك فسوف نخطئ لو أننا تصورنا أن هذه الأغنيات الشعبية تراعى تلك القواعد الصارمة التى تحكم الشعر العربى ^(١) . ومن بين تلك التكوينات البالغة الجمال فى اللغة العربية نشير إلى الموال ، وهى الأغنية المفضلة لدى الجنس اللطيف فى مصر، والذى يقارب الـ Romance عندنا . والموال إما قصيرا وإما طويلا ، وموضوعاته على الدوام هى مباحج الحب ، والشكوى من الحبيب الذى خان أو الذى هجر ، وتصوير جمال المحبوب ، ورسالة حب بين عاشقين ولواعج الغياب . . وعندما يغنى هذا الشعر بنغمة خفيفة متهدجة مثيرة للعاطفة فالأمر يستدعى نوعا من المد والاسترسال ، لذا فمثل هذه الأغنيات ، من أجمل مباحج ومسرات الحريم ، وما أن يؤلف موال جديد حتى تتكفل العوالم والآلاتية على الفور بإذاعته ، ليستقر بين النساء المصريات اللاتى يتسابقن على حفظه والتغنى به .

(١) تخضع موازين الشعر لقواعد بالغة التعقيد إذا ما قارناها بتلك التى تحكم كل أنواع الشعر المعروف، إذ هى لا تحتم فقط نفس القافية والإيقاع وانقسام البيت إلى شطرين مثل الشعر الفرنسى، بل هى تحتم كذلك عددا من التفعيلات بشكل يماثل العروض اللاتينى على وجه التقريب . ويوجد فى اللغة العربية ١٦ نمطا أو مقاييسا . ويحمل كل واحد من هذه المقاييس اسم بحر، وتصريفاته مأخوذة - شأنها شأن كل الصيغ النحوية الأخرى - من الفعل العربى : فعل، وعلينا أن نقيس الأبيات التى نؤلفها على هذه التصريفات . والشرط يسمى : مصراعاً ، وكل مصراعين يشكلان بيتاً، ويقطع البيت إلى أجزاء . ونقدم هنا تصريفات الـ ١٦ بحرا للشعر العربى مع بيان الأسماء الخاصة التى تطلق عليها، وبعضها أكثر انتشارا من غيره كما أنها تختلف فيما بينها من ناحية شدة أو قلة السرعة .

- ١- بحر الطويل : فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن مرتين .
- ٢- بحر المديد : فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن . مرتين .
- ٣- بحر البسيط : مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن . مرتين .
- ٤- بحر الوافر : مفاعلتن (ست مرات) .

ويضم الموالم فقرة واحدة تتكون من خمسة أبيات أو أربعة فى حالات كثيرة .
وتتراوح أوزان هذه البيوت ما بين ٨ - ١٢ مقطعا ، أو ١٤ مقطعا فى بعض
الأحيان ، وينبغى أن يكون لكل أبيات الموالم نفس الوزن ونفس القافية ، فيما عدا
البيت الرابع فى الموالم الذى يتكون من خمسة أبيات .

-
- ٥- بحر الكامل : متفاعلين (ست مرات) .
 - ٦- بحر الهزج : مفاعلين (ست مرات) .
 - ٧- بحر الرجز : مستفعلين (ست مرات) .
 - ٨- بحر الرمل : فاعلاتن (ست مرات) .
 - ٩- بحر السريع . مستفعلين مستفعلين مفعولات (مرتين) .
 - ١٠- بحر المنسرح (أو المسترسل) : مستفعلين مفعولات مستفعلين (مرتين) .
 - ١١- بحر الخفيف : فاعلاتن مستفعلين فاعلاتن (مرتين) .
 - ١٢- بحر المضارع : ويسمى هكذا بسبب تشابه أوزانه مع بحر المنسرح : مفاعلين فاعلاتن
مفاعلين (مرتين) .
 - ١٣- بحر المقتضب : مفعولات مستفعلين مستفعلين (مرتين) .
 - ١٤- بحر المجث : مستفعلين فاعلاتن فاعلاتن .
- ويرى النقاد أن هذا البحر قد يسمى هكذا إما لأن الشعراء لا يستخدمونه إلا مع حذف فاعلاتن
الآخيرة من كل مصراع ، وإما لأنه بعد اختصاره على هذا النحو يبدو كما لو كان مشتقا من بحر
الخفيف إذا ما حذفنا فاعلاتن الأولى من كل من مصراعيه . ونفس الشئ بالنسبة لبحر المقتضب ،
فاسمه هذا يعود إلى أن كل واحد من مصراعيه عادة يفقد مستفعلين الآخيرة فيه ، فيبدو عندئذ وكأنه من
بحر المنسرح بعد أن شطرنا مستفعلين الأولى فى مصراعيه .
- ١٥- بحر المتقارب ، يسمى هكذا بسبب تقاربه واختصار الزواحف التى تكونه . فعولن (٨ مرات) .
 - ١٦- بحر المتدارك ، أى الذى يلى البحور الأخرى ، ويسمى هكذا لأنه البحر الأخير فى النظام
الذى أخذ به العرب : فاعلن (٨ مرات) .

ولا يحظى البحر الأخير بقبول معظم النحويين الذين لا يعترفون إلا بـ ١٥ بحراً .
تلك هى البحور الـ ١٦ التى تنظم الشعر العربى . وإذا كانت هذه الأنماط المبدئية قد طبقت
بصرامة فى البداية ، فإن كل واحد من هذه البحور البدائية قد تناوله عدد كبير من التعديلات ، كان
ينظر إليها فى البداية كنوع من الإستثناءات الشعرية ، لكن كثرة اللجوء إليها قد أدى إلى تثبيتها ، حتى

ويكاد يكون هذا البيت قبل الأخير بلا قافية، ونادراً ما يكون بحره هو نفس بحور البيوت الأخرى للموال، فإذا ما حدث أحياناً وكانت له نفس القافية فإن ذلك لا يتم إلا في حالة الموال الذي يتكون من أربعة أبيات .

ويحدث أحياناً أن تستخدم نفس الكلمة كقافية في كل أبيات الموال ، لكن ينبغي أن يكون لها معنى مختلف في كل واحد من هذه الأبيات ، ولدينا عند بعض شعرائنا أمثلة لهذه القوافي ذات الجنس الواحد والمعنى المختلف ، ونكتفي بأن

أصبح عدد هذه الاستثناءات الشعرية ، المباحة يماثل عدد البحور المنتظمة ، بل لقد شغلت مكان عدة بحور لم يستعمل قياسها الأول على الإطلاق في كامل تمامه .

وتسمى كلمات التعريف الثماني التي تشكل مختلف البحور ، وهي : فاعلاتن ، فاعلن ، مفاعيلن ، فعولن ، مفعولات ، متفاعِلن ، مستفعِلن ، تسمى هذه الكلمات أجزاء البحر ، والمفرد جزء .

كما يشار إلى المجموعات المختلفة من الحروف والحركات التي يتكون منها كل جزء باسم أسباب (حبال) وأوتاد ، وعندما يوجد حرفان أولهما متحرك والثاني ساكن مثل : هل ، لا ، قم ، فإنهما يشكلان سبباً خفيفاً ، أما إذا كان الحرفان متحركين ، وينقسمان نتيجة لذلك إلى مقطعين صوتيين مثل : هو ، لك ، فإنهما يشكلان سبباً ثقيلاً . والأوتاد الأركان هي أيضاً من نوعين : وتد مجموع ، وهو مجموعة تتكون من حرفين متحركين بعدهما حرف ساكن ، مثل : لَهَا ، لَقَدْ . وتَد مفروق ، وهو عبارة عن مجموعة مكونة من حرف ساكن يقع بين حرفين متحركين مثل : قلت ، صار . والجزء الأخير من المصراع الأول يشار إليه باسم عروض ، بينما يشار إلى الجزء الأخير من البيت باسم : ضرب ويسمى حشواً كل الأجزاء الأخرى من البحر . ويطلق اسم صدر على الجزء الأول من البيت ، وابتداء على الجزء الأول من المصراع الثاني . إذن فكلمة حشو تشير إلى أجزاء البيت التي ليست لا العروض ولا الضرب ولا الصدر ولا الإبتداء .

وتبعاً للتعديلات المختلفة التي أباحها العرب وأدخلوها على القياس وسموها باسم زحاف أو علل ، يمكننا أن نعد بالنسبة للبحور الستة عشر ٣٦ عروضاً و ٦٧ ضرباً مختلفة .

ويعني علم العروض بمعرفة هذه الأنماط الأولية والتفريق بينها ، ولكي نعرض الأمر كما ينبغي فإن ذلك يستلزم مؤلفاً كاملاً ، لكن حدود هذا الهامش البسيط لا تسمح لنا بقول المزيد .

(هذا الهامش عن الشعر العربي قدمه لنا السيد عجوب) = (وهو جوزيف عجوب وكان مترجماً للحملة ووضع أول قاموس فرنسي - عربي) .

نورد هنا هذين البيتين للشاعر بوالو :

Prends-moi le bon parti : Laisse-Là tous tes livres.

Cent francs au dernier Cinq.Combien Font-ils ?Vingt livres? ^(*)

ومن المعروف أن اللغة العربية تضم عددا كبيرا من مثل هذه الترادفات فى المعنى ، ولكن حيث إن الموالم أبعد من أن يخضع لصرامة القواعد التى تحكم الشعر العربى الفصيح، فإن الشعراء لا يُكَلِّفُون أنفسهم عناء تحمل هذه الصرامة، فيستخدمون نفس الكلمة المأخوذة على نفس المعنى، عدة مرات ككافية . ويُنْظَر لهذا الاستثناء الشعرى باعتباره كسرا لقواعد الشعر .

وفيما يلى مثال لموال من خمسة أبيات :

الأهيف اللى تمناه القلب ودعاه
فى موقف الذل خلا العاشقين ودعاه
كمن قلت للعين كفى عن هواه ودعاه
كمن له قلب قاسى لم رحم عاشق
ولا يخاف من أنينه فى الدجى ودعاه
والأبيات الآتية مثال على موالم مكون من أربعة أبيات :
يا غربتى فى بلاد الناس ذلتنى
يا كلمة النذل شالتنى وحطتنى
يا دمعتى نزلت على خدى حرقتنى
يا حصرتى راحت رفاقى وخلتنى

(*) فى البيت الأول كلمة livres تعنى : كتب وفى الثانى تعنى جنيهاً .

وفيما يلي ترجمة لأبيات موال ألف خصيصا لامتحاح مقياس جزيرة الروضة
كما قدمها لنا السيد عجوب :

«عجبوا لجمال المقياس، وبالفن الذى بنى به . لا يوجد فى أيامنا هذه ما
يمكنه أن يضارع هذا البناء، ولا تستطيع القرون الآتية أن تقدم شيئا يماثله . لقد
بناه مهندس نبىه ذكى، شديد العلم ، وأظهر فيه كل روعة فنه، وسوف يُضَيِّعُ أمهر
الفنانين وقتهم سدى لو حاولوا تقليد جماله . إنه مقياس مفيد، كان مفيدا وسيظل
مفيدا على مدار السنين . طوله ٢١ ذراعا، وعندما تبلغ المياه الذراع الـ ١٦ تغرق
مياه الفيضان أرض الريف» (٥) .

(المترجم) .

(٥) اكتفيت بالترجمة لعدم امكان الوصول إلى النص الأصيل .

الفصل الثالث

عن الإنسان المصرى فى طور الرجولة العادات المدنية والأسرية

عن الزواج

الزواج فى مصر هو عقد اتفاق خاص لا يحتاج إلى تصديق دينى أو قانونى ؛ إذ يتمثل فقط فى الإرادة التى يعبر عنها الطرفان المتعاقدان ، وتكفى موافقتهما المتبادلة ليكون هذا الزواج مشروعا . وتعطى المرأة موافقتها بنفسها أو من خلال وكيل ، وعندئذ يتقدم الشخص الذى يمثلها إلى الزوج المقبل ليتسلم المهر، ويقول له فى حضور شاهدين : زوجتك ، ويجب الآخر : قبلت . ويتم الزواج هكذا بدون أية إجراءات رسمية أخرى .

ولا تقدم الزوجة الجديدة مهرا (دوطة) لزوجها ، وفى بعض الأحيان تتلقى هى هدية من والدها ، ولكن هذه الهدية تطوع منه وليس من حقها أن ترفضها عليه ، ويحدث فى أحيان أخرى ألا يكون للزوجة من مهر إلا ما يقدمه الزوج ، فالشريعة تحتم على الزوج تقديم مهر لزوجته . وتختلف قيمته باختلاف المذاهب ، فيحتم أحدها ألا يقل المهر عن عشرة دراهم ، أى حوالى ١٨٠ بارة ، ويكتفى مذهب آخر بمجرد أن يكون ثمة مهر حتى ولو كان المهر لا يتجاوز دبله من الحديد . ومع ذلك فلا يفوت أهالى الزوجة أن يقدموا إليها هدايا تتناسب مع ثروتهم تتمثل فى مجوهرات وملابس، لكنها لا تعطى مطلقا عقارات زراعية . وفى حالة ما إذا لم يتم تحديد المهر قبل اليوم المحدد للزواج - وهذا شئ نادر الحدوث - فإنه يحدد طبقا لمهر أم العروس أو واحدة من أقرب قريباتها . والمهر الذى يقدم للزوجات عن طريق أزواجهن عماد أساسى من عماد الزواج، وهو حق مطلق لهن ، وسوف تتضح لنا فيما بعد أهميته .

ويحرص الكبار وأفراد الطبقة الثرية على أن يتخذوا شهودا على زواجهم من بين رجال الشرع الذين يكتبون عقد الزواج ويودعونه عند الكاتب العمومى . أما الفلاحون فيكتفون بتسجيل زيجاتهم عند قاضى الولاية، أما سكان المدن فيهملون كل أشكال الرسميات وتتم الزيجات بينهم دون اتفاقات مكتوبة .

ولا يستطيع المسلم أن يتزوج لا ابنته ولا أخته ولا بنت أخيه أو بنت أخته ولا بنت زوجته ولا أخته في الرضاعة بل ولا أخت زوجته إلا إذا كانت زوجته قد ماتت أو كان قد انفصل عنها ، وبخلاف ذلك يسمح له بالزواج من بقية درجات القربى الأخرى .

ولا يعترض الدين على ارتباط المسلم بزوجة من ديانة أخرى : مسيحية أو يهودية ، وقد سمح محمد بهذه الزيجات لأنه يعترف بموسى والمسيح نبيين ورسولين من عند الله ، لكنه لم يسمح مطلقا باتخاذ زوجات من عقائد أخرى خلاف ذلك ، بل ليس ثمة سوى أمثلة محدودة لمسلمين قد استفادوا من هذا التفويض من جانب الشرع . وينشأ الأطفال الذين يولدون من زيجات كهذه على دين محمد ، ولا تراث الزوجة في هذه الحالة عن زوجها ما لم تكن ثمة وصية ، ويمكن للزوج أن يقدم لها جزءا من ثروته كهبة اختيارية .

وتزويج الأبناء قبل سن البلوغ حق مطلق يتمتع به أرباب العائلات ، بل إن موافقة الأبناء أنفسهم لا ضرورة لها ، وليس بإمكانهم أن يفكوا - عن طريق الطلاق - وثاقا عقد على هذا النحو . ولكن إذا كان الأبناء بالغين فإن موافقتهم لا غنى عنها ، لكنهم يقرون اختيار أهاليهم في معظم الأحيان ، ذلك أن الجنسين على الدوام - حيث لا وسيلة للاتصال بينهما - إن يستطيعا إقامة زواج على أساس من الاختيار أو العاطفة المتبادلة ، وفي نفس الوقت فليس مسموحا للزوج أن يقرب زوجته إلا بعد بلوغها السن الذي حددته الطبيعة للبلوغ حيث تصبح قادرة على الإنجاب ، فيُتيقن الأب ابنته لديه حتى تبلغ سن الخامسة عشرة ، لكن حقوقه هذه تتوافر عند بلوغها هذه السن ، ويحظى الأب بالتقدير عادة إذا ما اعترض على إتمام زواج لم يحن بعد أوانه . وينبغي أن نلاحظ أن والد الزوج لا يقيم اعتراضات من هذا النحو إذا ما وافق والد الزوجة على أن تذهب على الفور إلى أحضان زوجها ، ولاتقيم أسرة الزوج أية عقبات تحول دون اتصال الزوجين ، ولكن ينذر أن نجد في أوساط الطبقة الدنيا زيجات تتم قبل الوقت المناسب .

ويحدث كثيرا ألا يكون الزوج الشاب قد رأى من قبل المرأة التي تزوجها ، ولم تكن لديه بالتالى فكرة عن جمالها وكفاعتها إلا عن طريق واحدة من قريباته أو صديقات أسرته ، لذلك فإن الليلة الأولى للزفاف لا يكون لها فى بعض الأحيان من نتيجة إلا القطيعة التامة لتذهب الزوجة غاضبة إلى بيت أبيها . ومع ذلك، فإنه إذا ما ألح رجل فى أن يرى تلك التى يعرضون عليه الزواج منها فإن الشريعة تبيح أن تكشف الفتاة عن وجهها ويديها أمامه ، ولا يمكن أن يتم هذا إلا فى حضور أهلها، وفى الفترة التى قارب الزواج فيها مرحلة التمام . وعلى الرغم من هذا فننادرا ما يلح أحدهم فى ذلك مطلقا حيث إن العادات المتبعة تعارضه . ومن بين الأسباب التى تؤدى إلى زواج مبتسر كهذا خوف الآباء من استسلام أبنائهم إلى ملاذ مهلكة للصحة تحت ضغوط من شهواتهم .

ويمكن للمسلم أن يتزوج من أربع زوجات شرعيات ، بالإضافة لأى عدد من الإماء يستطيع إطعامه ، ومع ذلك فحيث إن عليه - كما سبق القول - أن يوفر لهن جميعا حياة طيبة ، بالإضافة إلى ما ينشده المرء من سعادة وهناء عائلى ، فإن المسلمين من كافة الطبقات يحرصون على ألا يفيدوا من هذه الرخصة التى أباحتها الشريعة إلا باعتدال بالغ . وليس لكبار الشخصيات فى العادة إلا زوجة شرعية واحدة ، وقد تدفع أحدهم الرغبة فى إنجاب الأطفال أو فى الحصول على مصاهرة ممتازة إلى الحصول على زوجة ثانية . وعلى الشخص المتزوج من أكثر من زوجة أن ينام فى مسكن كل واحدة من زوجاته بالتبادل ، أما إذا تصرف بطريقة مخالفة فسوف يلام على سلوكه علنا ، فتفضيل زوجة على الأخريات ينظر إليه كأمر ظالم ، لا يسمح به لأنفسهم أولئك الحريصون على هنائهم العائلى والذين تسيرهم مشاعرهم الرقيقة . وعندما لا تكون الزوجات فى حالة وفاق فيما بينهن - وهذا هو الأمر الشائع - فإن الزوج ملزم بتخصيص منزل لأية واحدة منهن تطلب ذلك ، ولا يستطيع الرجل أن ينجح فى الاحتفاظ بعدة زوجات فى منزل واحد إلا بقوة الإرادة وبالصبر والكرم ، أو بطريق العنف والاستبداد .

وتعمد الزوجات أكثر شيوعاً بين الطبقات الشعبية . وهم يسيئون كذلك استغلال سهولة إيقاع الطلاق بزواجهم ، حيث إن الأمر لن يكلفهم إلا مهراً بالغ الضالة، وحيث إنهم - بسبب تلك الغلظة في طباعهم - ينظرون للمرأة كمخلوق ناقص غير جدير بالاحترام .

ويتم الاحتفال الذي نصح به محمد لإعلان حدث بهذه الأهمية في منزل والد الزوجة، لكن الوقت لم يكن قد حان بعد كي يستطيع الزوج أن يرى زوجته ، إلا إذا كان الاثنان قد بلغا سن الرشد . وتنقضى الأيام التي تسبق الارتباط في أفراح عند الأسرتين ، فيُدعى الرجال إلى منزل والد الزوج ، وتدعى النساء إلى منزل والد الزوجة . وتنقضى الزوجة يوماً في الحمام ، وتذهب إلى هناك في صحبة قريباتها وصديقاتها ، يغطيها تماماً قناع كبير ، ويزين رأسها تاج ، وتسير تحت هودج تسبقه عالة وفرقة من الموسيقيين . وتجعل أصوات الآلات الموسيقية وأغنيات العرس وصيحات الفرحة التي تطلقها السيدات (الزغاريد) اللائى يشكلن الموكب - كل ذلك يجعل من ذلك الموكب مسيرة صاخبة مليئة بالحيوية . وعندما يصل الموكب في نهاية المطاف إلى الحمام ، فإن العروس تستعرض على صاحباتها حليها ، فتملاً المباخر بالبخور الطيبة الرائحة ، وتراق العطور الغالية بسخاء وبذخ ، وتكشف صاحبات العروس عن أجمل زينتهن ، وينقضى اليوم في مرح بهيج وتقدم الإماء أو خادومات الحمام القهوة والشربات والفطائر والحلوى ، ثم يعود موكب العروس إلى بيت أبيها بنفس الطريقة التي ذهبت بها الحمام ^(١) .

(١) حيث إن فخامة وأبهة حفلات الزفاف تختلفان تبعاً لدرجة ثراء الزوج فقد اكتفينا في المتن بأن نقدم فكرة عامة ، لكننا في هذا الهامش سوف ندخل في بعض التفاصيل الدقيقة ، حتى لانهمل شيئاً يمكنه أن يحدد خاصية عادات مختلف الطبقات الإسلامية في مصر .

في أثناء التوجه إلى الحمام تتحجب كل السيدات في الموكب وكذا العروس، وتحمل العروس في بعض الأحيان على رأسها وعاء مغطى بشال من الكشمير يتدلى من كل الجهات ، ويغطي الوجه تماماً ، ويكون الشال مزديناً بالكثير من المجوهرات والأحجار الكريمة التي استعارتها الزوجة إن لم تكن تملكها

==

ولا يفوت الزوج بدوره أن يذهب إلى الحمام العام ، وهذه عادة يتبعها الأثرياء على الدوام حتى عندما يكون لديهم فى منازلهم حماماتهم الخاصة . وهو يقوم بإبلاغ رغبته فى ذلك إلى أسطى الحمام عشية اليوم الذى يرغب أن يذهب فيه إلى

هى نفسها . وحتى يكون الشال أكثر بريقا فإنه يغطى من الامام بورقة طويلة من الذهب . ورغم أن الشال يتدلى حتى القدمين تقريبا فإننا نستطيع أن نلمح - من خلال الفتحات التى يكشف عنها - ملابس الزوجة البالغة البذخ والمطرزة بخيوط الفضة والذهب . وترتدى الزوجة خفين من جلد الماعز الأصفر ونعلا مطرزا ، وهى لا تكشف مطلقا عن يديها . ويسمح شكل ملابسها بأن نكون فكرة عن قامتها ودرجة سمنتها . وهى تسير تحت هودج تغطيه ناموسية من الكريشة المصبوغة باللونين الأخضر والأحمر ، ويحمله الأصدقاء أو الأقارب من أركانه الأربعة . وعندما يحتفل أحد الممالك بزواجه على هذا النحو فإن الممالك هم الذين يحملون أركان الهودج . ويسير مع العروس تحت الهودج اثنتان من خيرة صديقاتها مزينتان بأغلى الحلى وتسير خلفها أمها ، ويتقدم المسيرة رجال يحملون الدفوف ، ويعدهم خادم يسير أمام الهودج حاملا على رأسه طبقا من الفضة أو النحاس المحلى بالذهب ، مغطى بقطعة من الحرير المطرز . ويحتوى هذا الوعاء على زوج من الأحذية الخشبية (القبقاب) المزدان بشريط من الفضة ، ويحتوى كذلك على مشط من العاج محلى بالفضة كذلك ، وقمعين صنويين من السكر الناصع البياض ، وشمعتين بيضاويتين ، ومنديلين من المسلمين المطرز بالفضة ، وأخيرا على رطلين (الرطل = ١٨٠ درهم ويساوى تقريبا نصف كيلو جرام ونصف الجرام ١٠٠ رطل = ٥ كيلو جرام) من البن أحدهما مغلف بشكل مختلف عن الآخر ، ويضم الموكب فتيات ومدعوات يصل عددهن إلى ٢٠ ، ٣٠ ، أو ٦٠ سيدة .

ويلاحظ فى حفلات زفاف الطبقة الدنيا وجود نفس العادات مع تعديلات طفيفة . فبدلا من المجوهرات والأحجار الكريمة التى تزين الشال الذى يتدلى حول العروس ، يرصع الشال بكمية كبيرة من النقود الفضية ، ويحمل رجال من العامة أطراف الهودج ، الذى يسبقه بعض العبيد يرتدون ملابس على نمط القسطنطينية ، وموسيقيون يركبون الحمير ، ويقوم رجل يسير بالقرب من العروس برشها من أن لآخر بماء العطر ، بينما تقفل المسيرة جمهرة من النساء ينشدن الأغاني التى تنشده عادة فى مناسبات العرس .

وخارج مدينة الإسكندرية شاهدنا عروسا بدوية كانوا يتجولون بها ، وكانت تركب فوق جمل ، وتحببها الماشية والأثاثات وكل الأشياء التى تلتفتها كمر ، وكان الموكب بطيئا ، بل كان أحيانا يتوقف

=

هناك ، فيسارع العمال بتجهيز الحمام بطريقة لائقة . ويزينونه بالورود فى حالة السيدات ، أما فى حالة الرجال فيكتفى بإحراق البخور فيه ، وفى نفس الوقت يكون العريس قد دعا ١٥ - ٢٠ من أصدقائه ليصحبوه ، وبعد أن يدخلوا صالة الحمام لا يقبل دخول أشخاص آخرين . وهم فى الغالب يحضرون معهم بياضاتهم وأعطيتهم وفوطهم ، كما يجلبون معهم عازفين للترفيه عنهم . ويأتى مدير الحمام نفسه لاستقبال الجميع ، ويقود العريس إلى الحمام ، وينسحب لىأتى بعد قليل حاملا الغليون ، وعندما ينتهى العريس من حمامه يقوده مدير الحمام مرة أخرى إلى الحجرة الأولى . وفى اليوم الأول الذى يمضيه هؤلاء فى الحمام لا يأكلون شيئا ، ويحصل مدير الحمام من العريس على ٦٠٠ - ١٠٠٠ ، وأحيانا ألفين من البارات حسب درجة ثرائه .

ويؤدى الأثرياء حفلة الحمام هذه مرتين .

وأخيرا يحل اليوم الكبير حيث ينبغى أن تذهب الزوجة إلى بيت زوجها ، ويأتى الأب أو واحد من أصدقائه ليأخذها من بيتها . ويسير خلفها موكب لا يقل روعة عن موكبها إلى الحمام ، وتسير العروس تحت هودج ، وتغطى طيلة الطريق بقناع لا يكشف شيئا ، ويسير أمامها العبيد حاملين مجوهراتها وملابسها فى سلال مزدانة ، لكنها لا تتوجه مباشرة إلى منزل زوجها ، بل تقوم بجولة طويلة زيادة فى

=

وقفات قصيرة . وكان الببو يطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم ، كما كانوا يعزفون الموسيقى بينما يواصل النساء غناهن بلا انقطاع .

وجدير بالذكر أن هذه الاحتفالات التى تتم خارج البيت والتى عرضنا للتفاصيلها لا يمارسها البكوات وكبار الشخصيات بالقاهرة ، ذلك أن احتفالات العرس عند هؤلاء تتم داخل البيوت ، كما أن المشايخ وبقية المسلمين الذين حصلوا على قدر كبير من التعليم قد هجروا بالمثل عادة تقديم الدليل على بكرة زوجاتهم للأقارب والأصدقاء باعتبار ذلك شيئا يخذش الحشمة .

أما عامة الشعب والأقباط فإنهم وحدهم الذين ما يزالون يمارسون هذا السلوك .

الأبوة . وعندما تصل إلى بيت الزوجية ، يحتفل بقدمها بإقامة وجبة بانخة في مسكن النساء ، ولا يكون الزوج من بين المدعوين ، إذ هو يتوجه في المساء إلى المسجد للصلاة ، يصحبه أقاربه وأصدقائه وتسبقه جوقة من الموسيقيين، وعند عودته إلى بيته تقدم القهوة والشربات ، ثم يدخل حجرة العروس وتنسحب بقية السيدات فيما عدا القابلة والبلانة ، ويقترب الزوج من زوجته المغطاة بتقابها ويسمى باسم الله ، إله محمد، بينما قلبه يدق خوفاً وأملاً ، وعندئذ تنسحب بدورهما السيدتان الغريبتان . وعندما تصبح الزوجة بمفردها مع زوجها فإنها تقدم له العسل والفطائر ومأكولات أخرى على هذه الشاكلة ، رمزاً معبراً عن العاطفة والمودة التي هي حق لكل منهما على الآخر ، والتي هي الضمان الأكثر وثوقاً لكفالة حياة عائلية هانئة .

وتتلقى الزوجة ثلثي مهرها عند دخولها إلى منزل الزوجية ، ويكون هذا المبلغ ملكاً خاصاً بها ، وهي تستطيع أن تتصرف فيه على النحو الذي يعجبها ، ولا يمكن للزوج أن يحاسبها عليه مطلقاً ، بل ليس له مجرد الحق في مناقشتها في أمره .

ويحسن بنا هنا أن نلاحظ أننا سوف نكون قد أخطأنا على نحو كبير إذا ما اعتقدنا أن المسلمات - برغم خضوعهن لنفوذ أزواجهن - يمكن أن يعاملن باستبداد وطفغان من قبل أزواجهن ، فإن وضعهن على العكس من ذلك طيب لحد كبير، كما أنهن في نفس الوقت الذي تقضى فيه التقاليد والقوانين عليهن بنوع من الانسحاب والتقوقع الدائم - يتوصلن لامتلاك نفوذ لا شك فيه على عقول أزواجهن ، كما أن هؤلاء لا يستطيعون مطلقاً أن يسيئوا معاملتهن بل ولا حتى أن ينهروهن بحدة ، إذ للزوجة في هذه الحالة أو تلك أن تطلب الانفصال وتعود إلى بيت أبيها .

ويتكفل الأهل بتعليم الزوجة واجباتها وحقوقها الزوجية، ولا يتدخل الأزواج مطلقاً في الأمر، ويتم ذلك عادة قبل الزواج . وهكذا تعمل عادات وأصول اللياقة

على التخفيف لحد ما من تزمّت تلك الولاية المستبدّة التي تعطيها الشريعة للرجال على زوجاتهم . ومع ذلك فالنساء سعيّيات بقدرهن ، ولا يمكن لهن أن يتصورن - مجرد تصور - كيف يمكن أن تكون نساء الغرب في حالة أكثر امتيازاً مما هن عليه .

٢

الانفصال والطلاق

جعلت الشريعة الإسلامية من الطلاق أمراً بالغ السهولة ، إذ يكفي أن يقول الرجل لزوجته : "أنت طالق" حتى يكون الطلاق قد وقع ، دون أن يكون القاضي في حاجة لأن يتدخل في الأمر أو أن يقف على دوافع هذا الطلاق . وهنا تتسلم الزوجة الباقي من مهرها ، وتحمل معها مجوهراتها وبقيّة متعلقاتها ، وتنسحب من بيت الزوجية . وقد حدّد محمد الأمر على النحو التالي في القرآن : "الذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر" ، "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء" ، "الطلاق مرتان" ، "ولا يحل لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئاً" "فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا" . "وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم" . وحسب أوامر المشرع هذه ، فإن الزوج إذا ما طلق زوجته في اليوم الأول لزوجهما دون أن يباشرها - وهذا أمر يحدث في بعض الأحيان - فلا ينبغي عليه أن يدفع لها إلا نصف مهرها ، أما إذا ما حدث لزوج طلق زوجته أن استعادها مرة أخرى ، وكرر الزواج والانفصال ليلبغ عدد مرات ذلك ثلاثاً مع نفس

١٠ (المترجم) .

(*) البقرة ، ٢٢٦ - ٢٣٠

١١ (المترجم) .

(**) البقرة ٢٣٧

المرأة ، فإنه لا يستطيع أن يتخذ منها بعد ذلك زوجة شرعية ، إلا إذا مرت قبل ذلك بأحضان رجل آخر . وقد يبدو هذا التشدد من جانب المشرع للوهلة الأولى همجيا أو باعثا على الضحك ، ومع ذلك فإننا نجد فيه فكرة عميقة ومعرفة عظيمة بنفوس البشر ، فبوضع الزوج هكذا عرضة لنوازع الغيرة - وهى عاطفة بالغة العنف عند الشرقيين- سوف يكون عليه أن يتروى ولايستجيب ببساطة لأبسط مشاعر الغضب ، فيقرر هكذا ببساطة وبمثل هذه السرعة الفائقة طلاقا ظالما فى معظم الأحيان، سوف يتحمل هو قبل غيره عواقبه القاسية إذا ماعاد به الندم والعاطفة ذات يوم إلى مشاعر أرق. ولهذا السبب فقد حدث أكثر من مرة أن قام الزوج المطلق - وهو يتحسر على جمال وفضائل زوجته فى الوقت الذى يريد فيه أن يذعن لأحكام الشرع - بدعوة أحد أصدقائه إلى اتخاذ طليقته هو زوجة له، ويتفق مع هذا الصديق على أن يقوم بتطليقها دون أن يقربها فى فترة هذا الزواج القصير المدى ، ومع ذلك فينبغى أن يظل هذا الاتفاق سرا على الناس جميعا بخلاف الأطراف الثلاثة المعنية . ويتحتم على وجه الخصوص أن يكون ثمة ثقة تامة فى الزوجة ، لأنها هى التى سوف تلعب الدور الرئيسى فى هذا التواطؤ الغريب، ومع ذلك فقد حدث فى بعض الأحيان أن نسى مثل هذا الصديق - بعد أن أخذه جمال عروسه تلك - نفسه لدرجة يخون معها ما بينه وبين صديقه الغيور من ثقة وصداقة ، بل ويحتفظ بتلك الزوجة التى كان عليه فقط أن يتظاهر بالزواج منها .

وحيث إن محمدا قد تنبأ بأن الطلاق يمكن أن يقع بسبب تافه كمجرد نفور طارئ ، فقد نصح الزوج المطلق - حتى يتجنب بقدر الإمكان مثل هذه المأساة العائلية - بأن يبقيا فى بيته مدة ثلاثة أشهر ، على أمل أن يؤدى إعمال الفكر أو تؤدى بعض المجاملات المتبادلة إلى إعادة الود بينهما قبل انقضاء هذه المهلة ، وبرغم الحكمة البادية فى مثل هذا الأمر فإنه نادرا ما يحدث ، إذ من المعتاد فى القاهرة أن تخرج المرأة من بيت زوجها بمجرد أن يتم طلاقها منه. ويمكن للمطلقة

أن تتزوج بعد مضي ثلاثة أشهر من انفصالها ، أى بعد أن تأتيها عادة النساء الشهرية ثلاث مرات ، ويعتبر إعلانها هى للأمر كافيا . فإذا ما حدثت نفسها حاملا فى هذه الفترة فإن الأب المطلق لا يمكنه أن يطلب طفله إلى حضانتها إلا بعد أن يبلغ من العمر سبع سنوات بالنسبة للذكور ، أما بالنسبة للإناث فإنه لا يستطيع أن يطلبها إلى حضانتها إلا بعد أن تصل إلى سن البلوغ ، وفى نفس الوقت ، فإنه - الأب المطلق - ملزم بأن يدفع مصاريف رعاية وإطعام وتعليم الوليد مهما كان جنسه .

وقد يحدث أن تنتقل الأم إلى بيت زوج جديد ، وفى هذه الحالة تعهد بولايدها إلى رعاية جدته أو واحدة من أقرب قريباتها فتاة كانت أو أرملة ، ولا يمكن للأب أن يسترد طفله إلا فى حالة ما إذا لم يكن لزوجته أسرة ، ونادرا ما يحدث ذلك^(١) .

والزنا هو أخطر اتهام يمكن أن يوجهه زوج إلى زوجته ، لكن المشرع جعل هذا الاتهام عسيرا على الإثبات لدرجة لا يمكن معها أن نذكر إلا عددا بالغ الضالة من السيدات أُدينَ أو عوقبن على مثل هذه التهمة . ومع ذلك فإذا ما أقسم شخص ما خمس مرات أمام القاضى أن زوجته قد خانت ، ثم أقسمت هى خمس مرات على عكس ذلك ، فإن القاضى يحكم بطلاقهما ، ويصبح انفصالهما أبديا . ولسنا

(١) نضيف إلى هذا العرض لقواعد الطلاق أن الرجل إذا ما طلق زوجته قبل أن يختلى بها فإنه ليس ملزما نحوها إلا بنصف المهر ، ولكن لو حدثت خلوة بينهما ولو مرة واحدة فهو ملزم قبلها بدفع المهر كله ، وتحمل البنت أو المرأة المطلقة معها إلى بيت أبيها كل ما خرج منه بالإضافة إلى حقوقها هى من قبل طليقها ، وهى عبارة عن الثلث الأخير من المهر ، وهى تتسلمه عند خروجها من بيت زوجها ، ويكون ذلك دليلا على القطعية . وكما سبق القول فليس ثمة إجراءات قضائية أو عقود مكتوبة للتصديق على الزواج أو لتسجيل الطلاق ، ونمتنع هنا عن الإدلاء بأرائنا حول غرابة وشذوذ هذه العادات كما قد يراها من تختلف أنظمتهم عن هذه النظم ، ومع ذلك فقد يكون المشرع العربى قد استهدف من وراء تلك التشريعات أن يتفادى مضار أكبر خطورة ، فلكل الشعوب طباع خاصة بها كالأجواء التى يعيشون فيها ، وعلى أولئك الذين يريدون الحكم على أنظمة وعادات الآخرين أن يراعوا هذه الحقيقة التى لا مفر منها ، وأن يقرروا نتيجة لذلك . وهذا هو العذر الوحيد الذى يمكن التماسه لمحمد .

بحاجة للقول بأن أبناء الطبقة العليا أو حتى الطبقات البسيطة يتفادون على الدوام الفضيحة التي تنجم عن حكم كهذا، إذ لا يعرض نفسه وعرضه لمثل هذه المهانة إلا ضعاف النفوس وقليلو الحياء ، لكى يشبعوا شهوة الانتقام والرغبة فى التشهير التي تستبد بهم .

ولا يمكن للمرأة بمطلق حريتها أن تغادر بيت الزوجية ، وإذا ما نشأ نفور أو كراهية أو كان هو يهملها أو يسيء معاملتها ، فإنها تستطيع أن تحمله عن طريق عروض سخية تقدمها له أن يقبل الانفصال بينهما ، فإذا مارفض وظل سادرا فى أساليبه السيئة فإنها تتوجه إلى القاضى ، ويفحص الأخير شكواها ، ويحكم بالطلاق إذا ما اقتنع بالأسباب التي قدمتها له ، وفى هذه الحالة لاتفقد المرأة أى حق من حقوقها ، وتحفظ بكل مهرها وكل امتيازاتها ، أما إذا قبل الزوج الطلاق الذى عرضته عليه زوجته فلا يمكنه أن يردها إلى عصمته إلا بعد أن يعقد عليها عقد زواج جديد .

وكنتيجة حتمية ، فلا بد أن يكون الطلاق فى بلاد ليس للمرأة فيها - فى غالب الأحيان - حق اختيار زوجها ، أكثر انتشارا منه فى البلاد التي تتم فيها الزيجات نتيجة لعواطف وميول متبادلة ، كما أنه أكثر شيوعا من جهة أخرى بسبب السهولة التي منحتها القوانين للأزواج ، وهذا ما يحدث فى تركيا ومصر . وبالرغم من الحقوق التي رتبها محمد للنساء قبل أزواجهن ، وبالرغم مما فرضه على الأزواج بضرورة إبقاء زوجاتهم فى البيت ثلاثة أشهر بعد الانفصال الأول ، فإن الطلاق بالغ الشيوخ . ومع ذلك فلا بد أن نقر بأن ليس ثمة ما يشين امرأة مطلقة ، فهي تستطيع العثور على زوج آخر بسهولة . لكن حياة الناس تتأثر على الدوام من مثل هذه الحرية المعيبة ، وإن كان الأمر المؤكد - نقول هذا باسم الحقيقة - أن التقدم الحضارى قد جعل مثل هذا الفعل المعيب أقل انتشارا بين الطبقة العليا فى المجتمع ، بل يكاد ينظر إليه كأمر ماس بالشرف . وسعيدة هى تلك الأمم التي يمكن للعقل والأخلاق عندها أن تنتزع السوءات من جذورها ، وبخاصة عند هؤلاء

الذين يعانون من جموح عواطفهم وشهواتهم : وتلك هى طباع المصريين . ونحن فى وضع يسمح لنا بتكوين هذا الرأى عنهم ، بعد تلك الفترة التى أقمناها فى وطنهم ، ولعله ليس ببعيد ذلك اليوم الذى ستبذل فيه الجهود لإعادتهم إلى حظيرة العلوم والفنون ومختلف مناحى الحضارة ، بل ويمكننا أن نتجاسر بالقول بأن جهودا كهذه لن تلقى أية صعوبة، فالنجاح فى هذا الأمر يتجاوز بكثير مرحلة الأمل .

ولابد قبل أن ننهى هذا الفصل أن نتحدث عن بعض الاعتبارات العامة حول حياة ودور النساء فى مصر ، وحول الطريقة التى تمضى عليها حياتهن، فهذا الجنس الذى كان موضوعا لاهتمامنا وعنايتنا ، هو أبعد ما يكون - كما سبق أن لاحظنا - عن أن يحصل على نفس الامتيازات التى يحصل عليها المسلمون الرجال، فالمرأة - وقد انعزلت عن المجتمع - محكوم عليها بالعدم المطلق وبالعار، ويضعها المسلمون فى عداد الكائنات التى لا تحظى بقدر كاف من الذكاء ونعمة العقل . ويعود هذا التهوين من شأن المرأة إلى الخليفة عمر ، وذلك حين منعهم من الإسهام فى ممارسة الواجبات الدينية ، فلقد صك بذلك أمرا لا راد له بالحط من شأن النساء، وإن كان محمد نفسه ليس بعيداً عن مشاركته فى ذلك ، فنهجه الدينى مجحف بالجنس اللطيف ، ويمكنك بلا جدال أن تهدم الدعائم التى تنهض عليها جنته الموعودة ، فما عليك لكى تفعل ذلك إلا أن تستبعد منها أولئك النسوة الفانيات. ولكن، أو لم يكن بمقدوره أن يعثر على وسيلة أكثر إنصافا كى يربط أحلامه الرائعة بالعقل والعمل ؟ .

وحيث إن الرجال يضعون النساء فى مرتبة أدنى منهم ، فإنهم يكونون نحوهن نوعا من الاستخفاف والاحتقار ، تتعرض معه النساء على الدوام لإهاناتهم بل وضروب من قسوتهم الرهيبة . لكن إساءة معاملتهن تلك - كما سبق لنا القول - لا تأتى من جانب الزوج ، بل تتعرض النسوة لذلك من جانب أهلن قبل الزواج ، ثم يتعرضن لنفس المخاطر بمجرد أن يصبحن مطلقات ، وليس بمقدورهن أن يؤمن

أنفسهن ضد هذا العنف إلا فى حماية زوج . ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن اللوم ينصب بصفة خاصة على الطبقات الدنيا من سكان المدن ، وعلى أولئك الذين تكاد لم تمسهم الحضارة فى الريف . أما الرجل التركى ، أو ذلك الرجل الذى ينتمى إلى أعيان المصريين فإنه ينظر إلى ضرب زوجته باعتباره عملاً إجرامياً ، يمثل ما هو باعث على العار . لكن هذه النظرة الإنسانية والعاقلة ليست للأسف هى الشائعة ، ولا يدعمها القانون بسطوته . وسوف تجعلنا الحكاية التى سنقصها هنا نقف على رأى المسلمين فى النساء ، ومن الممكن أن نقص آلاف الأمثلة ، لكننا نكتفى هنا بتلك الحكاية التى كنا نحن بأنفسنا طرفاً فيها .

كنا فى قرية الرحمانية ، عندما لجأت امرأة وعديد من الرجال إلى منزل واحد من زملائنا ، وركعت وركع الجميع على ركبهم طالبين العدل أو بالأحرى الانتقام ، حيث يفضل الشرقيون استخدام تلك الكلمة الأخيرة ، وكانت المرأة ملطخة بالدم . هداً زميلنا من روعها ، واكتشف أنها مضروبة فوق رأسها ، وأراد أن يخلع النقاب الذى يغطى وجهها ، لكنها قاومت ، فكرر المحاولة وانتزع النقاب ، لكن البائسة - التى كانت تتمسك وهى فى آلامها تلك ، بالواجبات التى تفرضها على جنسها عادات وتقاليد بلادها - غطت وجهها بيديها . واحتراما من زميلنا لمعتقدات كهذه فقد قص الشعر المحيط بالجرح وضمده بنفسه ، حيث لم يكن ثمة طبيب ، وربط الضمادة بقطعة من قميص مزقه لهذا الغرض ، وعندما شاهده بعض المسلمين والأقباط يقوم بهذا العمل ، أظهروا بالغ دهشتهم علناً ، بل وعبروا عن استنكارهم لقيام رجل يشغل منصباً عاماً مثله بالانحدار لدرجة يضمم معها كائناً حقيراً ، وتلك رؤيتهم للمرأة . وعندما صدمته همجيتهم تلك أراد أن يطردهم ، لكنهم ظلوا يقولون له إنه بذلك يسئ إلى كرامته .

ويضيف زميلنا : توجهت على الفور إلى حاكم الولاية وعرضت عليه الأمر ، فحولنى كامل السلطة فى عقاب المذنب الذى كنت قد أمرت بإلقاء القبض عليه . وعندما عدت إلى منزلى وجدت هذا الرجل .

- أهو أنت أيها الهمجى الذى عامل هذه المسكينة بهذه الوحشية ؟
فأجابنى ضاحكا :
- ماذا ؟ أتظنها وحشية أن تضرب امرأة ؟
- وذلك الدم الذى أسلته ؟
- فأجاب - لا يحودم الرجل إلا الدم، لكن ليس هذا هو الأمر بالنسبة للنساء.
واستفزنى الهدوء الذى يصطنعه فى ردوده ، فقلت له :
- نحن قضاتك ، وتلك القسوة التى أبديتها جريمة كبرى فى نظرنا
وسنعاقبك .
- وهل ستعاقبوننى لو أننى جرحت بقرة ؟
- بلا جدال ، إذا لم تكن ملكا لك .
- إذن فاستمعوا لأسبابى، وسوف ترون أنه كان على أن أسلك هذا السلوك .
لقد انتزع الممالك منى حقلى لكى يعطوه لابن عمى . ثم جاء الفرنسيون ليصلحوا
من مظالم الممالك : أفلا يحق لى إذن أن استرد أملاكى السابقة ؟ لكن ابن عمى
وأخته وابنه اعترضوا على ذلك فضربتهم، وسأظل أضربهم حتى يعيدوا إلى
أرضى . إننى لا أطالب إلا بما هو حق لى ، بل إننى ألجأ لهذا الغرض إلى عدالة
القوانين الفرنسية .
- حسن، ما دمت تتحدث عن القوانين الفرنسية، فاعرف إذن أنها تعاقب
السفاحين ، والذين يسمحون لأنفسهم بارتكاب أعمال العنف ضد الآخرين .
واستدعيت إلى بيتى أعيان وشيوخ القرية:
- ما هو العقاب الذى توقعونه على الذين يضربون أو يجرحون عامدين أحد
الرجال ؟

فأجابوا فى وقت واحد :

- عصا فى مقابل كل عصا ، وليس ثمة أكثر من ذلك . أما العقوبات التى نعاقب بها عموما فهى : الغرامات، الضرب بالعصا، الموت .

- يكفى، والرجل الذى ماثل أمامنا الآن قد جرح هذه البائسة، وهو يطلب أن يعامل حسب القوانين الفرنسية . فليعلم إذن أن الإنسان حسب هذه القوانين لا يستطيع أن يحصل على حقوقه بنفسه، وأن للمرأة نفس الحقوق التى للرجل، وأن دمها ليس أقل قيمة من دمه . ونتيجة لذلك فسوف يضرب على الفور ٢٥ عصا .

- ٢٥ عصا ؟ (صاحوا جميعا بلهجة تنم عن دهشة شديدة) ليس هذا عدلا، فهذا أقصى ما كنا سنوقعه عليه من عقاب لو أنه قتلها .

- نعم ٢٥ عصا ولتنفذ أوامرى على الفور، وإذا ماتت المرأة سنتخذ إجراءات أخرى .

وعندما حان وقت تطبيق العقاب لم يشأ أى منهم أن يتحمل مسؤولية تنفيذه ، فأرسلت فى استدعاء القواس ، لكنه مارس واجبه برخاوة وحرص، حتى أن خادما ملطيا - كان يشاركنى الشعور بالغضب - انتزع منه العصا ، وأكمل هو العقاب بالقسوة التى يقتضيها الحال .

وهذه الحكاية تصور - دون حاجة منا إلى تعليق - تقاليد الطبقة الدنيا من الشعب، وتعطى فكرة دقيقة عن رأى أبنائها فى النساء فى مصر، ويكاد الأمر يكون على هذا النحو فى كل بلدان الشرق .

الطعام

القناعة فضيلة مصرية، وإذا كنا نجد أثرياء المدن الكبرى يتصفون بالشراهة ويصنعون أطعمة بسيطة الإعداد ليتناولوها بكميات كبيرة جدا (ويوجه هذا اللوم إلى الممالك بصفة خاصة) ، فإن الطبقة العاملة وكذلك الفلاحين شديدا القناعة بشكل لافت للنظر، فهم لا يتناولون من الطعام إلا ما يكفى كى يقيم أودهم ، فضلا عن ذلك فغذاؤهم هذا بالغ السوء والفقر ، لدرجة أن المرء لا يكاد يتصور كيف يمكن أن يكفيهم هذا الطعام ، وكيف يمكنهم والحالة هذه أن يقوموا بأعمالهم الشاقة .

ويحب المصريون قبل كل شئ لحم الضأن، ولكن الطبقات الشعبية لا يمكنها أن تستمتع بمثل هذا الترف إلا أيام المناسبات الهامة ، أما بقية العام فهي تعيش على الخضروات الطازجة والسّمك المملح ودرنات النباتات وبقول من نوع الحمص والفول والتمرس .. وتباع الأطعمة الأخيرة مطبوخة ، وتشكل بالإضافة إلى بعض الفاكهة الغذاء الرئيسى لسكان المدن .

وبالرغم من أن تربة مصر تنتج القمح بكميات وفيرة ، وأن لبذور القمح هنا خاصية ممتازة ، وأن سعرها أقل بكثير من سعرها فى أوروبا - فإن القمح لا يشكل الغذاء الأساسى لغالبية السكان ، كما يحدث فى كل مكان . إذ يترك الفلاح وصغار الناس - بدافع فطرى بل ربما يكون الأمر بدافع اقتصادى - للأغنياء عادة أكل الخبز الذى ينظرون إليه كأمر من أمور الترف ، ليتغذوا هم بوجه خاص على الخضروات التى تزرع فى كل الفصول ، فيأكلون بدلا من الخبز - على سبيل المثال : درنات القلقاس ، جذور الجزر ، ثمار البامية ، والباذنجان ، والخيار ، والشمام والبطيخ ، والعبد اللوى (العجور) ، وأنواعاً أخرى من الشمام تزرع بمصر ، وأوراق الخبازى ، والملوخية ، والحلبة ، وهذه النباتات مرطبة ومخاطية،

وبالإضافة إلى ذلك ياكلون حبوب الذرة ، والذرة العويجة ، والترمس ، والحمص . كما يتغذون بثمار النخل (البلح) ، والسلك المملح ، واللبن الرائب ، والجبن ، والعسل الأسود . وكما سبق أن قلنا فإن اللحم أبعد من أن يكون طعاماً يومياً لتلك الطبقات.

وربما جاز لنا أن نجد فى كسل المصريين الفطرى وفى ندرة الوقود فى بلادهم ، بعض أسباب هذا الصيام المستمر الذى حكموا به على أنفسهم حتى يتخلصوا من حيرة المطبخ ، ولعلها هى نفس الأسباب التى دفعتهم إلى تفضيل استخدام الأطعمة التى يمكن أن تؤكل نيئة وبلا إعداد ، أو تلك التى يمكن طهيها بكميات كبيرة على يد أناس يحترفون ذلك كمهنة لهم . وفضلاً عن ذلك ، فلو أننا قارنا طريقتهم فى الغذاء هذه وتلك التى كانت لدى قدماء المصريين لوجدنا تماثلاً كبيراً ، سواء فى المأكولات أو فى بساطة إعدادها ^(١) .

(١) يقول هيرودت عن غذاء المصريين بينما هو يتحدث عن بعض عاداتهم . «أما عن الطعام ، فقد تفتت ذهنهم عن وسائل دعوية للحصول عليه بسهولة ، فعندما يكون فيضان النيل فى أوجه ويصبح الريف أشبه بالبحر ، تظهر فى المياه كميات هائلة من الزنابق يسميها المصريون البشنين (اللوئس) ، فيقومون بجمعها وتجفيفها فى الشمس ، ثم يأخذون بذورها التى تشبه بذور الخشخاش ويصحنونها ليصنعوا منها الخبز الذى يقومون بإحضاره على النار ، كما ياكلون كذلك جذور هذا النبات ومذاقها طيب لذيذ ، وهى مستديرة وفى حجم التفاحة . وثمة نوع آخر من الزنابق تشبه الورود وتنمو بكثرة أيضاً فى مياه النيل ، ويقوم المصريون بجمع ثمارها التى توجد بها كمية من حبوب حسنة المذاق وفى حجم نواة الزيتون ، وهى تؤكل خضراء أو جافة . أما البردى فهو محصول سنوى ، وعندما يؤخذ من المستنقعات يقطع الجزء العلوى منه ويستخدم استخدامات عدة ، أما جزؤه السفلى وما يتبقى من النبات - ويبلغ طوله حوالى ذراع - فإنه يؤكل نيئاً ، أما الذين يربون له مذاقاً أفضل فيقومون بتحميمه فى فرن ملتهب ، وبعض المصريين لا يعيش إلا على السمك ، وهم ينزعون أحشائه ويجففونه فى الشمس وياكلونه بعد ذلك . (هيرودت ، الكتاب الثانى ، الفقرة ٦ ، ص ٧١ ترجمة : لارشيه) . ويضيف المؤرخ فى مكان آخر من كتابه : « يصنع المصريون خبزهم من الشعير ، ويعيشون

=

وأثناء حرارة الصيف الشديد يأكل الناس بشغف : البنجر والخيار والبصل المنقوع فى الخل ، وهذا النوع من الطعام رخيص الثمن ، وينادى عليه الباعة فى الشوارع ، ويعرضونه فى الميادين حيث يتجمع العامة أيام الأعياد ، وفى هذا الفصل أيضا يأكل الناس أوراق الحلبة . ويصنع المصرى لنفسه وجبة شهية ، مكونة من : الخس والخيار والبطيخ أو الشمام ، دون أن يقوم بتمليح الصنفين الأولين . وهو يأكل السلطة بشهية عظيمة ، ولا يكلف نفسه عناء تزويدها بالزيت أو الخل ، ويأكل - كحلوى - كيزان الذرة المشوية قليلا فى الفرن ، والتى قطعت قبل أن تبلغ مرحلة النضوج .

وعندما تنتقضى مواسم الفاكهة والخضروات ، يصبح الطهاة الذين يقومون بطهو كميات كبيرة من الفول والحمص ... الخ المصدر الوحيد لطعام الطبقة الدنيا من الشعب . ولعل هذه المناسبة هى التى ينبغى أن نقول فيها كلمة عن طريقتهم فى طهو هذه الأطعمة ، وهى طريقة اقتصادية للغاية وبالأغلة البساطة . فطهاة الشعب - إن كان يصح أن نسميهم بهذا الاسم - لديهم قدور من الفخار كبيرة

على السمك النيئ المجفف فى الشمس والمتبل فى ماء مالح ، ويأكلون كذلك السمك والبطة وبعض الطيور الصغيرة ، وهم يأكلون هذه الأصناف نيئة بعد تمليحها .

ويتحدث ديودور الصقل فى نفس الموضوع فيقول

«يقال إن المصريين فى بادئ أمرهم كانوا يعيشون على الأعشاب ، فكانوا يأكلون الكرنب وجذور النباتات التى يعثرون عليها فى المستنقعات دون أساس للمفاضلة بينها إلا المذاق ، وكانوا يأكلون على وجه الخصوص العشب المسمى المرجية agrostis ، ومذاقه طيب للغاية ، وكان غذاء كافيا للإنسان . ومن المؤكد أنه كان مفيدا على وجه الخصوص لقطعانهم ، فقد كان يؤدى إلى تسمينها بشكل واضح ، ولا يزال المصريون حتى اليوم - عرفانا بما أداه هذا النبات من فائدة لأبائهم - يحملون هذا النبات فى أيديهم وهم ذاهبون إلى المعابد لتأدية الصلاة لألهتهم . والطعام الثانى للمصريين هو السمك ، ويهين لهم النهر كميات هائلة منه ، وتظل كميات كبيرة منه على سطح الأرض بعد انحسار المياه ، كما أنهم يأكلون كذلك لحم ماشيتهم ، ويستخدمون جلودها فى صنع ملابسهم ، وقد تعلموا مؤخرا أكل الفاكهة وأهمها البشنيين (اللوتس) الذى يستخدمونه فى صنع الخبز .

الحجم ، يقومون بملئها حتى ثلاثة أرباعها بالبقول المغمورة بالمياه ، وتسمى هذه : "قدرة الطبخ" بلغة أهل البلاد ، وبعد أن تملأ القدرة بهذه الطريقة يغلق حلقها تماما بالليمون النضلي وطين الطفل ، ثم تدفن فى رماد الحمامات العامة الملتهب ، وتترك هكذا لمدة ٥-٦ ساعات ، وبعد ذلك يصبح الطعام مطهوا تماما وصالحا للبيع ، ويشتره الجمهور بكميات قليلة مع قليل من الملح ، ويزين أحيانا بالخبس وقليل من التوابل . ويساوى الطبق من هذا الطعام - إذا كان مزودا بالتوابل : فلفل أسود ، فلفل أخضر ، زنجبيل - بارة واحدة ، أما إذا لم يكن مزودا بالتوابل فلا يزيد ثمنه عن ٦ أجداد^(١) . أما أولئك الذى يبيعون توفيراً أكبر فيمكنهم أن يكتفوا بكميات من الترمس . ويطهى الترمس بنفس الطريقة السابقة ، ولكى يفقد الترمس مرارته فإنه يستنبت قبل إعداده ، ثم يغسل وذلك بوضعه فى سلال تدل وسط النيل ، وعندما يتم كل ذلك يطهى الترمس . ولا تساوى كمية كبيرة من هذا الخضار أكثر من ٢-٣ أجداد ، وفضلا عن ذلك ، فهذه الكمية - مع قناعة المصريين الشديدة - تكفى وجبة لرجل .

والبلح الطازج أو المجفف هو أيضا ذو نفع كبير للطبقات الشعبية ، وبخاصة سكان الريف . ويكاد لا يكون للبدو من طعام سواه . وفى الصعيد ، توجد قرى بأكملها لا تعيش إلا على البلح وحده لمدة تزيد على عشرة أشهر فى العام ، وتؤكل هذه الفاكهة فى حالات مختلفة من النضوج ، وتستهلك منها القاهرة والمدن الأخر كميات كبيرة ، ويأتى جزء كبير من البلح الذى يأكله سكان الدلتا من الصعيد ، وهو يصل إلى هناك طازجا أو مجففا ، ويصل النوع الأخير إما بكامل هيئته ، وإما منزوع النوى فى هيئة كتلة مضغوطة (عجوة) ، وهذا ما يجعله قابلا لأن يبقى فترة طويلة دون أن يتلف . وعندما تقطع منه قطعة فإنها تشبه اللحم المفروم الذى يسميه الجزار فى باريس Fromage de cochon . والبلح المجفف سواء كان

(١) الجديد عملة من النحاس ، والبارة تساوى ١٢ جديدا .

بكامل هيئته أو معدا بالشكل الذى بيناه للتو غالى الثمن ، لأنه ينقل من مكان بعيد .
وبسبب غلو سعره فإن الطبقات الدنيا لا تستطيع التزود به ، لذا فهى تكتفى بالبلح
الطازج الذى يجمع فى مناطق مجاورة ، ولهذا فهو يؤكل قبل أن يصل إلى تمام
نضجه .

وتزود التجارة مصر بأنواع عديدة من الفواكه المجففة ، مثل : العنب
والشمش والخوخ والفسق واللوز ، ويزرع فى البلاد التين والزيتون ، أما عنب
كورنيثة المجفف فهو يدخل كثيرا فى إعداد وجبات الأثرياء .

وبخلاف بائعى البقول المطهوه ، يشاهد فى القاهرة وفى المدن الكبيرة أعداد
من الشوائين الذين يبيعون السمك المقلى ، واللحم المفروم المعد على هيئة كرات
صغيرة مشوية ومغلفة بأوراق العنب ، أو فى حجم العصفور ، موضوعة فى أسياخ
صغيرة من الخشب .

وينظر الفلاحون إلى شحوم الحيوانات باعتبارها الطعام الأمثل ، لكن فقرهم
لا يسمح لهم بالحصول على ما يشبع حاجتهم منها على الدوام ، ويستهلك الأقباط
كميات كبيرة من زيت الزيتون ، ويدخلونه فى كل شئ حتى أنهم يرشون به خبزهم ،
وهذه العادة السيئة سبب لكثير من الأمراض التى تصيبهم هم بشكل خاص ، لكن
المصريين على وجه العموم يأكلون بنهم بذور الخشخاش ، وبذورا أخرى
يستحبونها ، ومشروباتهم هى الشرابات وسائل آخر يدخل فى تركيبته الأفيون
بشكل رئيسى ، ويلجأ الأثرياء لهذا المشروب الأخير للسكر ، لكن الفقراء فى غالب
الأحيان لا يشربون إلا الماء القراح وأنواعا من الشرابات الرديء . وتحرم الشريعة
الإسلامية الخمر كما يعرف الناس جميعا حتى تمنع السكر ، ويراعى المسلمون
المتمسكون بدينهم ذلك ، أما الكبار والتجار والجنود فيرتكبون هذه المعصية فى
الخفاء .

ويصنع المصريون عددا من المشروبات الروحية ، وأحسنها وأجودها هو

المشروب المصنوع من العنب المجفف ، أما ما يستخرج من التين والجميز والبلح وثمار التين الشوكى فهي أدنى قيمة . ويفرط الأقباط فى تناول هذه الخمور^(١) فيشربون منها زجاجات بأكملها ، وهو ما يؤدي بهم إلى الإصابة بالدمامل . أما الذين يشربون من مياه النيل طيلة العام دون مراعاة للفصول ودون القيام بتنقيتها ، فإنهم يتعرضون لمبادئ حمى تهدم بنيتهم بشكل غير محسوس . ذلك أن مياه النيل يصيبها العطب كل عام قرب نهاية أبريل . أما البيرة فهي مجهولة تماما فى مصر اليوم بالرغم ، من أن هيرودوت قد تحدث عنها كمشروب عند قدماء المصريين^(٢) .



الملبس

لا تتأثر ملابس المصريين على الإطلاق بأهواء الموضة وتقلباتها ، مثلما يحدث عندنا . فشكلها ثابت لا يتغير أبدا ، والألوان الزاهية هى أكثر الألوان التى تحظى بالقبول ، والاتساع ميزة واضحة فى ملابس المصريين ، وهم يشتركون فى هذا مع كل الشرقيين ، حيث لا تستطيع هذه الشعوب تحمل الملابس الضيقة مطلقا : "فاللباس" والقميص والبنيش والجبّة والقفطان .. تفصل كلها على نفس الوتيرة .

(١) يستهلك المسيحيون فى سوريا والأقباط فى مصر المشروبات الروحية المستخلصة من العنب المجفف بكميات كبيرة ، ويشرب منه الآخرون على وجه الخصوص زجاجات بأكملها بعد عشاءهم ، وكنت قد اتهمت من نقل إلى ذلك بالمبالغة ، ولكنه قدم لى الأدلة على صحة ذلك . ومع ذلك فقد ظلت على دهشتى من أن مثل هذا الإفراط فى الشراب لا يؤدي إلى قتل الشارب ، أو حتى على الأقل إلى بلوغه ذروة السكر .

(٢) هيروودت ، المرجع السابق ، ص ٧٧ . ويصنع المسيحيون كميات قليلة من الخمور فى الفيوم ، ولكنهم لا يعرفون كيف يصنعونها بشكل طيب ، ولم تكن الخمر مجهولة لقدماء المصريين كما تصور البعض حسب نص لهيروودت ترجم على نحو غير دقيق ، فقد رأينا فى آثارهم رسوما لحصاد العنب وصنع الخمر والآنية التى كانت تقدم فيها . انظر دراسة المسيو كوستاز Costaz عن وصف مغارات مدينة طيبة . وقد حاول الفرنسيون صنع الخمر فى القاهرة ، ولكن الحروب أوقفت تجارتهم .

ومن الطريف أن نذكر هنا ما كان يقوله الرجل المصرى عندما يرى أحدنا يمر أمامه وهو يرتدى بنطلونا مصنوعاً حسب الموضة ، أحضره معه من فرنسا - وهو لذلك بالغ الضيق - : "ماذا ! هل الأقمشة قليلة جدا لديكم حتى تصنعوه بهذا الشكل ؟ " .

ولكى نتعرف جيداً على الملابس المصرية، سنقدم فيما يلى بيانا مفصلاً لمختلف أجزاء هذه الملابس ، وسنبدأ بملابس الرجال .

اللباس : سروال الصيف ، وهو عادة من التيل .

الشرشير : سروال الشتاء ، وهو من الجوخ .

السروال : سروال المملوك ، ولونه أحمر ، ويصنع من حرير وارد من البندقية .

القميص : وذراعا غير مشقوقين، ويتدلى حتى العقبين ، ويلبس فوق السروال ، وأكمامه واسعة وبالغة الطول .

اليلك : صديرى خاص بالمملوك ، وهو واسع وقصير، وأكمامه طويلة جدا وبالغة الاتساع .

القفطان : رداء مفتوح من الأمام بكمين كبيرين جدا ، ويلبس فوق الصديرى .

الجبة : رداء مفتوح هو الآخر ، وتلبس فوق القفطان ، وأكمامها ليست قصيرة بالمقارنة بأكمام القفطان ، ويضاف إليها الفراء فى الشتاء .

البنيش : روب واسع جدا ، وأكمامه بالغة الطول تتجاوز طول الذراع واليد ، وهى مشقوقة عند أطرافها .

الحزام : وهو من الموسلين أو الصوف أو الحرير ، ويلبس فوق القفطان .

الطربوش : وهو من اللباد ، ويغطى الرأس حتى الأذنين .

الشال : وهو قطعة طويلة من الموسلين أو من قماش صوفى ، ويلف حول الطربوش عدة مرات ، ويصنع شال الأثرياء من الكشمير .

الصديري : وهو صغير وبدون أكمام .

العمة : ويطلق الاسم على غطاء الرأس بجزئيه (الطربوش + الشال) .

القاووق : غطاء الرأس عند الأتراك والبكوات ، وهو مستدير الشكل شديد الارتفاع ، وأكثر اتساعا عند القمة عنه عند القاعدة ، ويغطي جزؤه الأسفل بشال ملفوف حوله بعناية بالغة .

الطرحة : قطعة قمماش من الموسلين أو جزء من الشال ، يتدلى خلف الرأس بعد أن يلف عدة مرات حول الطربوش ، ويستقر على الكتفين ، وله تأثير جميل وتطرز حوافه أحيانا بالذهب .

ولا يقل الحذاء تعقيدا عن بقية أجزاء الملابس ، وهو يتكون من : المست وهو من جلد الماعز يغطي كل القدم ، ثم البابوش والصرمة وهما أيضا من جلد الماعز ، وتوضع فيها القدم مغطاة بالمست . وعند الدخول إلى مسكن مقروش بالسجاجيد يخلع البابوش والصرمة ، حسبما يقضى الذوق . وينتقل الناس - عند ركوب الخيل أو حتى عند القيام بجولات فى شوارع المدينة - الخف ، وهو من جلد السختيان الأحمر أو الأصفر ، وهذا مشترك بين الرجال والنساء .

ويحب الرجال أن يحملوا فى حزامهم خناجر ثمينة محلاة بالأحجار الكريمة ، وتتجلى أبهة الممالك فى فخامة طبنجاتهم . ويهوى الأثرياء اقتناء الغلابيين الرائعة . وتحب كل الطبقات بلا استثناء أن تغطي أصابعها البنصر بالخواتم التى تتفاوت قيمتها حسب الطبقة والثراء ؛ وهذه الخواتم تجميلها فصوص الأحجار الكريمة ، وهى من الفضة بالنسبة للرجال ، ومن الذهب بالنسبة للنساء .

ومن نافلة القول أن نلفت انتباه القارئ إلى أن الزى الكامل الذى بينا تفاصيل كل أجزائه إنما هو زى الكبار والأثرياء . أما الطبقات الشعبية فلا تكلف نفسها كل هذا العناء ، فخزينة ملابسهم لا تحتوى على أكثر من ثلاث أو أربع قطع من الملابس ، لا تتغير إلا عندما تصبح مهلهلة الأطراف ، قالفلاحون رجالا

ونساء يذهبون إلى حقولهم شبه عارين ، أما عمال الطبقات الدنيا وكذلك جمهرة سكان المدن فيسترون أجسامهم بالكاد ببعض الهلهيل ^(١) .

(١) يذكر أحد زملائنا أن المصريين من كل الطبقات يميلون إلى الأبهة في ملابسهم ، وقد شغفت بتحرى هذه الملاحظة مع واحد من خدمنا . كانت خزانة ملابس لا تكاد تساوى نصف فرنك عندما دخل في خدمتنا ، ويكفى ذلك لندرك أن خادمنا هذا كان شبه عار . وكان الأجر الذى يحصل عليه منا معقولا لحد كبير ، كما أنه كان يحصل على بعض المنافع من أثمان المشتريات التى كنت أكلفه بها ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يحصل فى الخفاء على هدايا وإتاوات ممن يترددون على فى العسل . وقد أدى ذلك كله إلى ثرائه شيئا فشيئا ، حتى أنه فى خلال سنة واحدة - وقد بدأ يدخل فى طور الرجولة - لم يعد ذلك الشيخ الذى كانه فى البداية ، فقد نما لحد أننى تعرفت عليه بصعوبة . وقد بدأ بأن اشترى لنفسه ما يلى :

- ١ - قميص من التيل الأزرق له كمان طويلان ، وهو يعتبر فى الصيف الرداء الوحيد عند السكان .
- ٢ - طربوش جديد وله شال من القطن .
- ٣ - مركوب أحمر اللون .
- ٤ - حزام من الصوف .
- ٥ - سروال من التيل .
- ٦ - خاتم ، والخاتم يعطى أهمية للابسه .
- ٧ - ملاية ، وهى قطعة من نسيج قطنى من اللونين الأبيض والأزرق ، طولها ٨ أقدام وعرضها ٤ أقدام ، وتستخدم فى شكل بالطو .
- ٨ - دفية ، وهى قميص كبير من البوركان الأسود ، ويستخدمها كبار شخصيات القرية .
- ٩ - صديرى من القطن .
- ١٠ - جبة ، وهى نوع من الروب دى شامبر من الحرير أو القطن .
- ١١ - قفطان من الجوخ على شكل روب قصير .
- ١٢ - بنيش وهو روب كبير من الجوخ .

ولم يعد ينقصه سوى شال من الكشمير ومعطف ليصبح شبيها بكبار القوم فى بلده . وكان فى البداية يسير على قدميه ، ثم أخذ يقضى مشاويره على ظهر حمار ، ثم على ظهر حصان خاص به . وكان نشيطا فى البداية ، وعندما أصبح ميسورا جعل هناك من يعاونه ، ثم لجأ إلى خادم يخدمه كنت أدفع له أجره أيضا ، وفى النهاية اتخذ الخادم الأول هذا لنفسه خادما خاصا . وإنى لمتأكد أننى - عندما تركنا مصر - كنت على وشك أن أرى الخادم الجديد يتخذ لنفسه بدوره خادما له .

وعلى منوال بقية المسلمين ، يحلق المصرى رأسه بالموسى ، ولا يترك فوق جمجمته إلا خصلة من الشعر . هذه العادة تسبب العديد من الأمراض ، وتؤدي بصفة خاصة إلى إصابة العيون بالالتهابات والرمد ، إذ لا يمكن لأحدهم أن يخلع العمامة الثقيلة التى تغطى رأسه دون أن يتعرض للإصابة بالبرد ، وهى الإصابة التى تؤدي إلى تكدس الأورام الصديدية فى العيون . ولتجنب ذلك تغطى الرأس بأغطية دفيئة جدا ، مما يجعل هذا الجزء من الجسم أكثر حساسية لأقل برودة . ومع ذلك فربما كانت طريقة الشرقيين هذه فى حلاقة الرأس هى التى تقيهم الإصابة بالآلام الرأس من حيث إنها تسهل حدوث العرق ، إذ نادرا ما تصيبهم هذه الآلام . وينبغى أن نقول كذلك إن المصريين لا يسيرون برؤوسهم عارية مطلقا مثلما نفعل نحن فى أوربا .

ويستدل على ثراء المرأة المصرية من زينتها ، إذ على الرغم من أنها لا تستطيع أن تتألق بزینتها وحليها إلا أمام زوجها وأما وأخواتها وصديقاتها ، فهى ليست أقل ميلا للأبهة ولا أقل استعدادا للتألق . وهى تغطى جسدها بأعلى الملابس التى تنتثر فوقها - ببذخ وبدون أى اختيار أو تناسق - حليها ومجوهراتها ، وكل ما لديها من أحجار كريمة . وهى تحلى جيدها بالعقود التى يمكن أن نسميها سلاسل من ذهب ، وتتدلى هذه السلاسل حتى أسفل الصدر ، ويتدلى من هذه السلاسل عادة صندوقان صغيران : يضم أحدهما آية قرآنية ، ويضم الآخر بعضا من العطور . وتحلى السيدة من الطبقة العليا الجزء الأدنى من ذراعيها بأساور من ذهب ، يتراوح عرضها بين ٤-٥ بوصات ، ويتفاوت مقدار سمكها ، وترتدى فى قدميها أساور مماثلة ، ولكن تلك ليست عادة عامة ، وأصابها مثقلة بالخواتم التى ترصعها الأحجار الكريمة . ومع ذلك فعندما تنزل إلى الشارع فإنها تقبر كل مظاهر الثراء هذه تحت البرقع والسبلة ، وهى قميص كبير من التافتان يغطى كل ملابسها ، وينزل حتى عقبيها . وتتزين النساء على هذا النحو عند ذهابهن إلى الحمام ، أو عند قيامهن بزيارة ، أو عندما يستقبلن فى بيوتهن قريباتهن وصديقاتهن .

وحيث إننا قدمنا بياناً بملابس الرجال، فإن من المناسب أن نقدم هنا الملابس التي تضمها خزانة النساء، وهي كما يلي :

اللباس : كالسون أو كيلوت صيفي ^(١) من الكتان أو القطن .

الشتيتان : لباس الشتاء .

الدكة : حزام يربط به السروال حول البطن .

القميص :

اليلك : روب يرتدى فوق القميص، وهو مفتوح من الأمام، وأكمامه طويلة وضيقة.

الفسستان : روب يحل محل اليلك، وهو غير مفتوح، وقد اعتادت السيدات الأوربيات المقيمات في مصر على ارتدائه تقليداً لسيدات القسطنطينية اللاتي يرتدينه في بعض الأحيان .

الجبة : روب يرتدى فوق الفستان، وأكمامه قصيرة جداً، ويضاف إليه الفراء في الشتاء، ويطلق عليه عندئذ اسم : وش فروة .

الحزام : وهو في الصيف من الموسلين أو الحرير، وفي الشتاء من الصوف أو الكشمير . وعندما يعقد من الخلف يتدلى على هيئة مثلث .

الطاقية : غطاء يغطي الرأس مباشرة، ويستبدل دائماً .

الطربوش : غطاء رأس يرتدى فوق الطاقية .

القمطة : قطعة من الموسلين تلف عدة مرات حول الطربوش، وهي جزءان، والجزء الذي يدور حول الرأس نفسه أحمر اللون أو من لون آخر زاه جداً، ويشكل الغطاء كله حول الرأس شريطاً اسطوانياً بارزاً يرصع باللاكي والأحجار الكريمة .

(١) من المعروف أن النساء الشرقيات قد اكتسبن عادة لبس السراويل، وليس هناك فرق في هذه الناحية بين المسيحيات أو اليهوديات أو المسلمات .

الربطة : وتطلق على غطاء الرأس فى مجموعه .

العقدة : عقد من اللؤلؤ .

الشوامة : مسبحة من اللؤلؤ ، يربط كل طرف من طرفيها بأحد جانبي الربطة .

الضفاير : خصلات من الحرير تزيد من طول خصلات الشعر .

البرق : قطع ذهبية صغيرة تربط بالضفاير ، ويتدلى من طرف قطع البرق هذه قطع نقدية صغيرة (سكين) Sequins .

السبلة : قميص واسع من التفتاز ، يغطى كل الملابس ، ويتدلى حتى يلامس الأرض ، وترتديه النساء عند خروجهن وعند ذهابهن إلى الحمام أو للزيارة ، ولا يخلعنه إلا إذا ألت عليهن من هن فى زيارتها ، وخاصة إذا كانت الأخيرة تنتمى إلى الطبقة العليا .

البرقع : قناع الوجه ابتداء من أسفل الأنف ، ويتصل بالربطة من فوق الجبهة من الجانبين . وهو من قماش الموسلين أو الكتان الأبيض الناعم ، ويتدلى حتى الركبتين ، ولا غنى عنه لسيدة تريد أن تخرج خارج بيتها .

الحبرة : قطعة كبيرة من قماش التفتاز الأسود ، توضع فوق الرأس ، وتغطى بها الربطة والملابس واليدين، وتخلعها المرأة عند دخولها أحد البيوت .

التزيرة : وهى مجموع السبلة والبرقع والحبرة .

الخلخال : سوار فى القدم .

ولا تختلف أحذية النساء عن أحذية الرجال التى سبق أن تحدثنا عنها إلا فيما يختص بالأحذية الخشبية التى تستخدمها النساء داخل البيوت ، وتسمى هذه الأحذية : القبقاب .

ونساء الطبقات الشعبية أبعد ما يكن عن الاقتراب من هذه الأبهة فى ملابسهن، فهن لا يرتدين - فى القاهرة أو الريف - إلا سروالاً من فوقه قميص أزرق اللون واسع جداً ، أكمامه طويلة وواسعة تنزل حتى الردفين . وهن فى نفس الوقت محجبات ، وتضفر شعورهن على طريقة سيدات الطبقة الراقية ، لكنهن يعلقن فى أطراف هذه الضفائر أجراساً صغيرة ، أو أشياء أخرى يتخذنها كزينة، وتتدلى بطول الظهر . وتضع الفتيات فى بعض الأحيان أجراساً صغيرة فى أقدامهن ، ويحلى غطاء رأس الأطفال بصف من القطع الفضية أو قطع من النقود تحيط بالرأس^(١) . لكن شيئاً من هذه الأبهة لا يظهر للعين خارج البيوت ، فكل شئ يختفى تحت الملابس حتى بداية الوجه ، ولا يرى من النساء عادة إلا عيونهن ، بل يختفى جزء من هذه العيون ، ويمكن القول إن الأطفال يدثرون هكذا حتى يتفادوا نظرات الحسد التى ترمقهم بها العيون الحاسدة ، التى يعتبرها المصريون المتطهرون بالغة الأذى . وتتدلى من أذان نساء العامة أقراط ، وتتدلى الأقراط أحياناً من الأنوف ، لكن هذه الحالة نادرة . وتحيط النساء أذرعهن وأقدامهن كذلك بأطواق من المعدن ، كما يرسمن فوق شفاههن وذقونهن وصدرهن رسوماً للزينة زرقاء أو سوداء (الوشم) ، وهى رسوم تماثل تلك التى ترى المسيحيات أثناء فترة الحج يرسمنها فوق أذرعهن دلالة على التقوى والولاء .

وتنظر السيدات من الطبقة الميسورة - شأنهن فى ذلك شأن نساء الطبقات الفقيرة - إلى مختلف التشويهاة التى تحدثنا عنها فيما سبق، باعتبارها نوعاً من الجاذبية ، أو على الأقل نوعاً من التزين ، وبخاصة عادة التقليل من سمك

(١) أخبرنا أحد أبناء طرابلس أن المسلمين يحيطون روس أطفالهم بنقود ذهبية عليها كتعويذ بعض آيات من القرآن ، ولهذا السبب فهم يحتفظون - وما يزالون - بكثير من قطع النقود الكوفية . وهذا ما يسهل على الأوربيين الراغبين فى اقتناء دنانير أو عملات تعود لعصر الخلفاء أن يعثروا فى حليات الفتيات المسلمات على بغيتهم . وفضلاً عن ذلك فلا تستخدم النقود الكوفية إلا كزينة ، ولولا هذه العادة لكانت قد انقرضت منذ وقت طويل .

الحواجب ، كما يعنن أيضا بصبغ اليديين والقدمين بالأصفر ، والأظافر بالأحمر ، وذلك باستعمال الحناء . وهذه العادة أكثر انتشارا بين الطبقات الشعبية ، وهى ترتبط أساسا بالتقاليد ، وبحالة التحفظ التى ينبغى أن تكون عليها النساء أمام الرجال ، فالغرض من هذه العادة منع العين الفضولية من استجلاء درجة بياض الجسم عن طريق النظر إلى بشرة اليد إذا ظلت فى لونها الطبيعى .



التقاليد والعادات المختلفة

ترتبط تقاليد المصريين بأنظمتهم ، لذا يمكن القول بأن هذه التقاليد إنما هى وليدة هذه النظم . ومما لا جدال فيه أن معظم قوانينهم تقوم على معرفة دقيقة بالمناخ وأنها تبدو متمثلة تماما لطبائع الناس ، وكذلك للموقع الجغرافى للبلاد . ويمكن القول كذلك بأن المشرع العربى قد حسب مدى سرعة ونجاح انتشار مذهبه السياسى والدينى الجديد - وذلك بقياسه لعقول وأذواق مواطنيه - فتجنب تلك المعركة الخطرة على الدوام ، التى يدخلها المجددون ضد عواطف وأهواء أولئك الذين يريدون إصلاحهم ، لذا فقد أعلى من شأن أتباعه فى نظر أنفسهم بفعل ديانة أسسها بشكل ماهر ، واستطاع أن يتوصل إلى أن يبرهن على عظمتها لأناس جهلاء سذج . فلقد احترم تقاليدهم العائلية ، وكان متسامحا مع هفواتهم ونقاط ضعفهم ، وعندما شاء أن يقدم مكافأة لأولئك الذين يتمثلون مبادئه السهلة ، تملق عواطفهم الجموح حين وعدهم بأنهم سيكونون خير أمم الأرض ، وعندما رأى نفسه واثقا من أن مذهبه يتدعم بشُرهم بمباهج سماوية مثالية . ولقد توج النجاح أماله ، وحصل محمد على نفس النجاح الذى حازه ليكورج^(*) دون أن يؤسس

(*) Iycurgu مُشرع أسبارطة ، عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وجدير بالذكر أننا نقدم هنا ترجمة للأصل نصا وروحا ، وإن كانت لنا تحفظات هامة على كثير مما ورد فى هذه الفقرة . ومع ذلك فقد أن لنا أن نلم بكل ما يقال عنا ، فليس كل ما يقال صحيحا على إطلاقه ، بالإضافة إلى أن هذه الأفكار قد تجاوزها حتى الفكر الأوروبى نفسه اليوم . (المترجم) .

أنظمتها الفكرية على قوة من الأخلاق ، أو على إنارة السبيل أمام أمته . وسوف تظل عقيدته هذه فى أوج فاعليتها فى الشرق ، طالما ظلت شعوب هذا الشرق بعيدة عن مدارج التقدم والحضارة الحديثة ، وفضلا عن ذلك فإنه ليبدو أن طبيعة عقلية الشرقيين تؤمن لمثل هذه العقيدة بطول البقاء .

إذن فليس المجتمع هو الذى ينظم التقاليد فى مصر ، كما أن «الموضة» لا تغير من هذا المجتمع بحسب أهوائها وتقلباتها ، فكل شئ فيه يستند إلى النظام الروحى والدينى ، ويظل - مثله - فى حالة من الثبات لا تقبل التغيير . فكل ما كتبه الرحالة القدماء الموثوق بهم عن العرب ما يزال على حاله حتى اليوم ، ولو أنهم عادوا إلى الحياة اليوم ليخوضوا فى نفس الأمر لوجدوا أنه لا ينبغى عليهم أن يغيروا اليوم شيئا مما قالوه فى ذلك الماضى البعيد ، وإلى أن يحين ذلك الوقت الذى تتفجر فيه ثورة يبدو أنها ما تزال شديدة البعد ، فلسوف تظل عادات الشرقيين الأسرية هى . وعلى كل فسوف نكتفى بأن نقدم هنا لمحة سريعة عن حياة المصريين الخاصة ، فعن طريق مثل هذا الفحص فقط يستطيع المراقب أن يُكوّن حكمه ، بل إن المراقب لا يمكنه أن يعرف مدى عمق الروح القومية الحقيقية لشعب ما إلا إذا فحصه باهتمام من هذا المنظور .

إن المجتمع الذى تستعبد فيه نساؤه لا يقدم مطلقا هذا المزيج من الرقة واللياقة اللتين تميزان الأمم الأوروبية على وجه الخصوص ، وحيث إننا لا نكاد نحس بآثر للنساء على العادات الاجتماعية فى مصر ، فمن الممكن أن نتفهم بسهولة لماذا تتميز التقاليد فى مصر بوجه عام بهذه الغلظة الهمجية ، التى هى بالتأكيد غلظة تقاليد العرب الغزاة . وتلك فى الواقع هى الملحوظة التى تتضح لأول وهلة ، فرياضة الشعب وألعابه ومسراته ذات طابع خليع ، متهور ووحشى فى وقت معا ، وسوف يكون الأمر بالتأكيد على نحو مخالف لو كان للنساء نصيب فى صنع هذه التقاليد ، فالاعتبارات التى ستولى لهن - من حيث جنسهن - سوف تؤدى غريزيا إلى تولد مشاعر اللياقة ، وعندئذ سوف تكون الأمة هى الصانعة لشكل مجتمعها .

وتتوزع حياة المصرى من أبناء الطبقة الميسورة ما بين الصلاة والحمام والمذاذات الحسية والكسل وتدخين الغليون وشرب القهوة . وقد يجوز لنا أن نقول بأن الشعب كله يقضى جل وقته فى التدخين . ولا يستخدم الأغنياء إلا تبغ اللاذقية^(١) ، الذى تستهلك منه كميات كبيرة فى مصر ، أما الفقراء فيقنعون بالتبغ المحلى الذى لا يمتاز بنفس المذاق اللذيذ الذى لتبغ اللاذقية ، لكن سعره مناسب . وتشرب القهوة فى فناجين جد قصيرة ويدون سكر ، وهناك بعض من الناس يشرب ما يزيد على العشرين فنجانا من القهوة فى اليوم الواحد .

ويكون أبناء الطبقة الشعبية من خلاصة نوع من القنب - الذى يسمونه الحشيش - مستحضرا مخدرا ، يتعاطونه بلذة شديدة ، ويؤدى هذا المستحضر إلى السكر ، أو بالأحرى إلى إحداث نوع من الخدر ، وفى هذه الحالة من الخدر الجسمانى والروحي يحصل البؤساء على هدنة من آلامهم ومضايقاتهم . أما الأغنياء فيبحثون عن هذا الخدر عن طريق خلاصة أو عصارة الخشخاش المطبوخ . ومن خاصية هذا المشروب أنه يسبب نوعا من الأسى العميق ، ويصبح الجسم والعقل بعد تناوله أكثر تهالكا عما كانا من قبل .

ومسكن الحريم مكان له حرمة ، والأزواج وحدهم هم الذين يستطيعون التردد عليه بحرية ، ولا يمكن لأبواب هذا المكان المحرم أن تفتح مطلقا لرجل آخر بخلاف الطبيب أو الكاتب ، أى ذلك النوع من موظفى السكرتارية الذى تستخدمهم عادة نساء الطبقة العليا . ولا يستدعى الأطباء إلا فى الحالات العاجلة والمالحة ، وفضلا عن ذلك فليس بإمكانهم أن يروا مريضاتهم إلا فى حضرة الإماء أو الأغوات^(٢) ، بل إن النساء - حتى فى هذه الحالة - لا يخلعن نقابهن . أما الكاتب ، فلا يسمح له مطلقا بالدخول إلى الحجرة التى تشغلها سيدته ، فيبقى فى الحجرة المجاورة ،

(١) اللاذقية هى لادوسيا Ladociè القديمة ، وقد بناها سيلوكيس Sèleucus ، وسماها على اسم أمه ، وتقع على الساحل السورى ، ويزرع التبغ على التلال المحيطة بها .

(٢) بدأ البكوات (المماليك) يقتنون الأغوات فى الفترة الأخيرة .

ويفتح باب اتصال بين الحجرتين ، ويكتب هو حسب الأوامر التى تملى عليه . وفى كثير من البيوت يكون للكاتب حجرة تقع أسفل مسكن الحريم، وتملى عليه المباشرة (الوكيلة) - وهى سيدة تعمل فى خدمة ربة البيت ولكنها ليست من الإماء - وأوامر سيدة البيت .

وتراعى هذه التقاليد بشدة عند كل الأسر المتميزة ، والتى تتباهى بنسبها العالى، بل إن السؤال عن حال السيدات يعتبر أمرا معيبا مهما كان الدافع الذى يمليه . فالرجل على سبيل المثال لا يسمح لنفسه بأن يسأل رجلا آخر عن أخبار زوجته ، ما لم تكن ثمة روابط حميمة بينهما ، بل إنه فى هذه الحالة أيضا يستخدم تعبيراً يصلح لمثل هذه المناسبات ، مثل : كيف حال العائلة ؟ أو كيف حال (الناس اللى فوق) ؟ . وكذلك لا تسمح أداب اللياقة بإدخال العوالم فى بيوت العائلات المتمسكة بالأصول والتقاليد ، إذ لا يمكن لهؤلاء العوالم أن يدخلن مثل هذه البيوت إلا أيام الاحتفالات والمناسبات الكبرى ، ولا يكون ثمة من شكوى إلا أن فى أغانيهن أو رقصاتهن شيئا من الخلاعة لا يليق . أما رقص الغوازي الذى يرى فى شوارع القاهرة ، فمثل هؤلاء الغيورين على التقاليد يستبعدونه بغلظة .

ومع ذلك فينبغى القول بأنه ليست كل العائلات على هذه الدرجة من التعتن، بل إن هناك الكثيرين ممن تسمح تقاليدهم المتراخية لزوجاتهم بأن يحكن المكائد الغرامية فى داخل الحريم نفسه ، أو فى خارجه بمعونة من إمائهن ، فيتظاهرن على سبيل المثال بأنهن ذاهبات إلى الحمام أو للقيام بزيارة ، ويذهبن بدلا من ذلك إلى لقاء غرامى . ولا بد أن نستنتج أن البطالة التى يحيون فيها وكذا حرارة الطقس الملتهبة هى التى تهيج شهواتهن ، وتحملهن - بلا انقطاع - على الاستجابة للذات الحواس ، فما أن تلهب خيالهن رغبات أو احتياجات جديدة حتى يطرqn كل وسيلة لاشباعها، ولكن الذى يضع حدا لذلك كله هو خوف المرأة من أن يطلقها زوجها ، بل وأن تلقى الموت على يديه .

ويشكل السقاعون نوعاً من رسل الغرام ، ويلعبون دوراً رئيسياً فى مكائد الحب . ولسيدات الطبقة الراقية عبيد من نفس جنسهن (اماء) يعهد إليهن بالعناية بأمورهن ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً الخازنة ، وهى التى تعنى بالمجوهرات والنقود وخزينة الملابس ، وهى أول من تفوز بالعتق . ويليهما فى الترتيب والأهمية – من حيث الوظائف – تلك التى تأمر بإعداد القهوة والشربات : أى تلك المكلفة برعاية واجبات الضيافة ، ويليهما تلك الأمة المكلفة بالتفتيش على المطبخ ، ولها السطوة على كل الإماء . وتتفاوت درجة تقسيم هذه الأعمال بحسب طبقة وثروة ربة البيت، بل إن بعض هذه الأعمال توكل إلى عائلات حرة مثل أعمال المباشرة أو الوكالة . ولا يحق للسيدات أن يستخدمن خدماً إلا من نفس جنسهن أو من الأغوات، وثمة شيوخ عميان يأتون لتعليم العبيد الصلاة . ويشغل الأغا (الطواشى) حجرة فى الطابق الأرضى ، وبإمكانه أن يدخل فى حرية إلى جناح الحريم ، وهو يقوم بنقل أوامر رب البيت إلى ربة البيت، ويمكن القول بأنه يستخدم كحلقة اتصال بين الاثنين .

ونادراً ما تخرج المصريات إلى خارج بيوتهن، وإذا حدث ذلك فإنهن يفضلن ساعة قدوم الليل لقضاء مشاويرهن الصغيرة . أما عند سفرهن فيوضعن داخل هودج : عرضه قدمان وعمقه ثلاثة أقدام ، وتعلوه قبة صغيرة على هيئة قوس، ويحمل الجمل اثنتين من هذه الهودج بعد شدهما إلى جنبيه . كذلك لا تتجول السيدات فى حدائق بيوتهن ، وهى حدائق تنقصها الممرات ، ويمضين أياماً بأكملها على أرائكهن ، ويتسلى بعضهن بغزل حرير أو قطن الهند، وتقوم من يستطعن التطريز منهن بتطريز المناديل التى تستخدم كغطاء للرأس ، أو الشيلان (الشال) التى يصنع منها حزام أزواجهن بكشكشات صغيرة .

ومن السهل التعرف على الإماء ، حيث إن شعرهن يرتفع فوق رؤوسهن، وفستانهن مقفول ، وتغطى رؤوسهن وأكتافهن – بدلاً من القناع الكبير أو الطرحة – قطعة من قماش التيل أو القطن ، كما يغطين بها وجوههن فى حضرة الرجال .

ومع ذلك فإن نساء الطبقات الشعبية لا يستشعرن مثل هذه المضايقات ، إذ يُقدَّر عليهن على الدوام الانهماك فى أعمال خارج بيوتهن ، لكنهن طيلة الوقت متحجبات بالبرقع ، وبخاصة إذا ما لحن رجلا ، وأكثر ما يشغلن هو إحضار طعام أزواجهن ، والذهاب لجلب المياه فى جرار يحملنها على رأسهن بمهارة ^(١) . وفى نفس الوقت فأكثر الفلاحات لا يعرفن الحياكة ، لذا يتركن ملابسهن الخفيفة - التى تغطيهن - وقد تoldt مزقها ، إما لأنهن لا يستطعن رتقها ، وإما لأنهن لا يجدن ضرورة فى تكليف أنفسهن هذا العناء ، ويجدن سعادة فائقة فى ألا يعملن شيئا ، ثم فى أن يقعين على حصيرة أو حتى على الرمال . وهذه البلادة التى نلاحظها فى كل بلدان الشرق ، ينبغى أن تجد لنفسها فى مصر بالذات بعض العذر ، إذ إن حرارة الجو المرتفعة تحتم الاسترخاء . وتحب المصريات عموما تدخين الغليون ، لكن هذا المزاج نادر الشيوع عند نساء الطبقة الراقية ، وهؤلاء لا يدخن مطلقا فى حضرة أزواجهن ولا يحصلن على مثل هذه المتعة إلا خفية .

وكما سبق لنا القول ، فإن الحمام هو أحد المتع الرئيسية عند المصريين من كلا الجنسين على قدم المساواة ، والسيدات من الطبقة الميسورة حمامات فى بيوتهن ، يعتنين بتزويدها على الدوام بالمياه الساخنة والبخار ، ويتبادلن فيما بينهن الزيارات إلى حمام كل منهن كما لو كانت زيارات إلى مكان بهيج . وهناك يستعرضن مجوهراتهن ، وأجمل ملابسهن وكل أبهتهن ، ويستخدمن ببذخ صارخ ماء الورد والعطور ، ويقضين يومهن هناك يتناولن القهوة والفطائر ، وينغمسن فى كل أنواع التسلية والترفيه ^(٢) .

(١) عندما لا يكون حجم هذه الجرار كبيرا فإنهن يحملنها على أكفهن ، ويتكنن بعرفقهن على الجنب ، ويرفعن اليد الأخرى إلى أعلى . وتتفق هذه الطريقة تماما مع طريقة المصريات القدامى ، ويكفى للاقتناع بذلك أن تلقى نظرة على الرسوم المنقولة عن تلك الرسوم الموجودة فى كهوف كثيرة فى صعيد مصر .

(٢) عندما تقوم سيدة بزيارة أخرى تكن لها بعض الود أو الصداقة ، فإنها تدعوها لأخذ حمام وكذا النوم عندها ، وينتج عن ذلك أن تستمر الزيارة أحيانا لعدة أيام .

وتراعى السيدات فيما بينهن - شائهن فى ذلك شأن الرجال - وبكل الاهتمام والتدقيق هذه الطقوس والاعتبارات التى لهن بحكم الطبقة والثروة . والصمت والاحترام ملازمان العظمة . وإذا ما كان ثمة سيدتان قد نشأتا معا وعاشتا معا فى مودة منذ طفولتهما ، ثم تزوجت إحداهما من ثرى^(١) ، أو ذى مكانة مرموقة - فإن لهجة الحديث بينهما تتغير على الفور . وللرجال احتفال خاص بمراعاة واجبات الذوق واللياقة فيما بينهم ، وبأن يقدموا من تلقاء أنفسهم دلائل الاحترام والتقدير ، فالأدنى يقبل يد الأعلى ، بل ويقبل أحيانا طرف رداءه إذا كان ثمة فارق كبير بينهما ، أو يكتفى أحيانا برفع اليد اليمنى إلى الصدر لتأكيد ندية الصداقة التى بينهما ، أما عندما توضع اليد على الرأس فإنها تعبير بالخضوع من المرعوس إلى رؤسائه الكبار .

لكن احترام الأبناء لأبائهم وأمهاتهم يذهب لأبعد من ذلك ، فهم لا يخرجون من كنف الحريم قبل سن البلوغ ، ويخضع الذكور منهم لهذه القاعدة ، ومع ذلك فهم لا يسكنون نفس الحجرة التى تقيم فيها الأم ، ويأتون كل صباح لتقبيل يدها ، ويظلون للحظات واقفين أمامها وأذرعهم معقودة على صدورهم ، ثم ينزلون بعد ذلك إلى والدهم ويقدمون له نفس أمارات الاحترام ، ومع ذلك فالأب لا يقبل وجودهم على مائدته إلا إذا كان ذلك فى يوم يعد من أعياد الأسرة ، وهو - كذلك - لا يسرف فى تدليلهم ، ويحتفظ معهم باستمرار باللياقة الواجبة . وهذه عادة عامة عند كل الطبقات ، وتستطيع الطبقة الدنيا وحدها أن تخرق هذه القاعدة . وليست المرأة أكثر احتراما من جانب زوجها ، فمن النادر أن تدعى للطعام معه ، وتظل سيدات الطبقات الشعبية واقفات بينما يتناول الأزواج الطعام ، ولا يجلسن لتناول طعامهن إلا إذا فرغ من ذلك الأزواج .

(١) هذه الطريقة لدى الشرقيين فى قياس لهجتهم وحركاتهم بحسب الثروة والجاه ، تلاحظ على وجه الخصوص عند الممالك ، فهؤلاء الرجال الذين كانوا - كلهم على وجه التقريب - أبناء لرباعة أو فلاحين ، يحرصون على الحصول على قدر من الثروة والتكريم يتناسب مع طبقته الجديدة التى أمكنهم الارتفاع إليها .

ويخصص اليوم السابع لمولد الطفل لأفراح كبرى تجرى داخل الأسرة ، وفى هذا اليوم تأتى كل السيدات اللاتى كن من قبل إماء عند أم المولود لزيارتها ، فتستقبلهن المباشرة فى أول حجرة ، وتأمر بتقديم القهوة والشربات لهن ، وبعد ربع ساعة تقبل ربة البيت التى كانت قد انسحبت عند قدومهن إلى حجرة أخرى ، عندئذ يهرع نحوها الجميع حتى يحظين بنوال شرف السماح لهن بتقبيل يدها ، ثم تجلس السيدة وتظل معتوقاتها واقفات أمامها ، وبعد ما يقرب من نصف ساعة من الحفل تنسحب السيدة ، وتعطى لمباشرتها الأمر فى أن تبقى من معتوقاتها أولئك اللاتى تريد هى الاحتفاظ بهن ، وتخرج الأخريات على الفور .

وعندما يصعد زوج إلى حجرة زوجته فإنه يعلن ذلك مسبقا عن طريق أحد الطواشى أو واحد من العبيد ، لكنه لا يظهر مطلقا إذا كان بالحريم غريبات .. وتراعى الزوجة أن تبعد عن ناظره الإماء اللاتى يمكن لجمالهن أن يغويه ، ومع ذلك ، فإنه إذا ما لمح واحدة منهن ونالت إعجابه وأبدى الرغبة فى أن يبقى وحده معها ، فإن زوجته تبدى الكثير من التلطف لحد تنسحب معه من الحجرة . ولكى تحتفظ زوجات البكوات بالسطوة التى لهن على أزواجهن فإنهن يقدمن لهم على الدوام تضحيات من هذا النوع ، بل ويذهبن إلى حد تقديم الإماء الجميلات كهدايا لأزواجهن ، ويزينهن بالمجوهرات والملابس الفاخرة . وكانت زوجة مراد بك تقدم له مثل هذه الرعاية . لكن هؤلاء المحظيات اللاتى يقمن بإمتاع الزوج مسaire لرغبات سيدتهن يحتفظن لها على الدوام بآمارات الاحترام والتبجيل ، ويحرصن على الدوام على مراعاة مصالحها .

ولم يكن من النادر - وخاصة فى الأزمنة الأخيرة - أن ترى أرملة واحد من البكوات أو الكشاف تتزوج واحدا من ممالك زوجها ، وفى هذه الحالة يظل هذا المملوك يحتفظ لها بأكبر قدر من التقدير والرعاية ، مهما كانت المكانة التى سيصل إليها فيما بعد . وإذا ما كانت هذه الزوجة مدققة فى مثل هذه الأمور ، فإنه لا يجرؤ أن يسمح لنفسه بالتصرف بحرية مع الإماء ، ولكنه فى نفس الوقت يجاهد

كى يخفى عنها مغامراته التى يمكن له أن يمارسها خارج نطاق الحريم . ويحكى أن إبراهيم بك - الذى كان من قبل مملوكا لمحمد بك ، ثم تزوج من أرملته بعد وفاته - قد ضبطته زوجته هذه ذات يوم مع واحدة من إماءها ، فقامت - وقد طلعت فى كرامتها - بضربه بقسوة وهى تصب عليه شتائمها ، لكن الخوف من مثل ذلك لم يستطع أن يكبح جماح شهوات هذا البك . ويقال إن زوجته تلك -الغيور والمتجبرة فى وقت واحد - كانت تأمر بإغراق أودس السم لأى واحدة من إماءها تشك هى فى أن لها علاقة بزوجها .

وفى مصر ، لا ينام الرجال بجوار زوجاتهم ، وهذه عادة عامة عند كل الطبقات . وللأغنياء حجرات مستقلة ، أما الفقراء فيختارون الركنين المتقابلين من حجرتهم التى هى عبارة عن خص أو كوخ فقير . ويوضع الفراش وسط حجرة كبيرة ، وهو بالنسبة للرجل الميسور سجادة مبسوطة على ألواح خشبية ، وتحيط بالسجادة أربع مخدات فخمة ، اثنتان منها على اليمين واثنتان على اليسار ، ليحصر بذلك الفراغ الذى ينبغى أن يشغله الفرد ، ويوضع أعلى ذلك غطاء أو ناموسية من الحرير أو الموسلين ^(١) . وقد شاهدنا بعضا منها مطرزا بالذهب والفضة . ولا يكف الفقراء أنفسهم مثل هذا العناء ، فهم يتمددون على حصيرة مصنوعة من سعف النخل ، وينامون بكامل ملابسهم .

وقلما يغير الناس - من كلتا الطبقتين - من ملابسهم الداخلية أثناء النوم ، ويساهم ذلك فى وجود الحشرات الضارة بملابسهم كالقمل والبراغيث ، كما يؤدي إلى تكاثرها .

ويلجأ الناس لعادة بالغة الغرابة لإيقاظ الشخص النائم ، فلا يتم ذلك بإحداث صوت أو هزة حتى ينهض من نومه ، لكن واحدة من الإماء تأتى محدثة بعض

(١) لا غنى عن الناموسية فى مصر حيث تمتلئ الحجرات بحشرات الفراش . ويدون هذا الاحتياط لا يكاد المرء يستطيع النوم ، أما أبناء الطبقات الشعبية فإنهم وحدهم - بحكم التعود الطويل - الذين يستطيعون تحمل إزعاج هذه الحشرات .

الصخب ، وتدغدغ له بيدها باطن قدمه ، وبذا تنتزعه هذه الدغدغة برفق من نومه . وهذا الاحتياط الناعم يشى برخاوة من يلجأون إليه ، فهو دليل على الحياة المخنثة التى يحيها هؤلاء ، وهو احتياط يمكن القول بأنه لم يكن بمقدور أهالى سيياريس(*) القدامى أن يخترعوا أمرا يفوقه رقة ودقة .

وفى ختام فصلنا هذا نقدم جدولا مقارنا بين المواقيت الفرنسية والمواقيت التى تقابلها عند المسلمين، ويحتاج هذا الجدول إلى شرح تمهيدى :

يقسم المسلمون فترة اليوم ابتداء من غروب الشمس، ويحسبون ٢٤ ساعة فى المسافة التى تفصل بين الغروبين، ولكن بعد أن يصل العدد إلى رقم ١٢ يعودون ثانية مثلثا للعدد ١، ٢، ٣... الخ . فإذا حسبنا مثلاً أن الغروب قد تم فى الساعة ١٢، فإنه تأتى بعد ذلك الساعة الواحدة ثم الساعة الثانية، وهكذا .. الخ .

وعند معرفة الوقت الفرنسى، فإن من الممكن تحديد الساعة عند المسلمين وذلك بعد إضافة العدد ٥ . وعلى هذا فإذا كانت الساعة لدينا فى فرنسا الرابعة صباحاً فإنها تكون عند الأتراك التاسعة . وعندما تكون عندنا: ٥، ٦، ٧، فهى عند الأتراك: ١٠، ١١، ١٢ . وعندما تكون لدينا: ٨، ٩، ١٠، فهى لدى الأتراك ليست: ١٣، ١٤، ١٥، وإنما: ١، ٢، ٣ .

وهكذا فإنه يمكننا أن نتبنى كقاعدة عامة المبدئين التاليين :

١ - بإضافة ٥ إلى رقم الساعة الفرنسية فإن حاصل الرقمين يوضح لنا الساعة عند المسلمين إذا لم يكن الحاصل يتجاوز الرقم ١٢ .

٢ - أما إذا ما تجاوز الحاصل الرقم ١٢ فإن الزائد يؤخذ منفصلاً ليكون هو الوقت عند المسلمين . فإذا ما افترضنا أن الساعة هى الثالثة عند الفرنسيين فبإضافة ٥ تصبح الساعة الثامنة لدى المسلمين ، أما إذا افترضنا أنها ٩ لدى الفرنسيين فإننا نجد أننا بإضافة ٥ سنحصل على رقم ١٤ وهو ما تجاوز ١٢ ،

(*) (ب) سيياريس مدينة أغريقية قديمة اشتهرت بالثراء والترف . (المترجم) .

ويطرح ١٢ منه يتبقى لدينا ٢ ، ويكون هذا الرقم هو الوقت عند المسلمين .
ونظرة سريعة إلى الجدول التالي تبين لنا مثل ذلك الارتباط في كل ساعات
الليل والنهار .

جدول ارتباط التوقيت

الساعة عند المسلمين	الساعة في فرنسا	الساعة عند المسلمين	الساعة في فرنسا
٦ نهارا	الواحدة بعد الظهر	٥ ليلا	منتصف الليل
» ٧	» الثانية	» ٦	الواحدة صباحا
» ٨	» الثالثة	» ٧	» الثانية
» ٩	» الرابعة	» ٨	» الثالثة
» ١٠	» الخامسة	» ٩	» الرابعة
» ١١	» السادسة	» ١٠	» الخامسة
١٢ المغرب	» السابعة	١١ صباحا	» السادسة
١ ليلا	» الثامنة	» ١٢	» السابعة
» ٢	» التاسعة	١ نهارا	» الثامنة
» ٣	» العاشرة	» ٢	» التاسعة
» ٤	» الحادية عشرة	» ٣	» العاشرة
» ٥ وهكذا	منتصف الليل	» ٤	» الحادية عشرة
_____	_____	» ٥	الظهر

الطباع

المصرى خجول بطبعه ، وهو يتفادى الخطر بقدر ما يستطيع . لكنه - ما أن يجد نفسه وسط المخاطر بالرغم من حيطة - يبدى همة ما كنت تظن فى البداية أنها لديه ، وليس ثمة ما يساوى رباطة جأشه وفى نفس الوقت تواكله . ولقد وانتنا الفرصة لتسجيل هذه الملاحظة عدة مرات أثناء حملتنا ، وهذا ما يبرهن على ما سبق أن قلناه من أن إصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدى - بسهولة فائقة - إلى أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التى فقدوها ، بل التى لا يظنها هو نفسه كامنة فيه . كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة ، وعظمة الروح التى خنقتها إلى حين تلك الأنظمة الشيطانية التى يزرع تحت نيرها ، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة على تدمير أخلاقيات الأفراد ^(١) بشكل محزن . ومن هنا ، ذلك الشح الوضيع الذى يلاحظ عند أبناء الطبقة الدنيا من المجتمع ، وذلك الرياء الذى نجده لدى كل أفراد المجتمع . فحيث إن المصرى يلقى الهوان فى طاعة الكبار - الذين يعرفون تماما معنى تلك السلطة التى فى حوزتهم والتى لاحدود لها ، والذين يتحكم فيهم خيالوهم الشرس - فإنه (أى المصرى) يحمل بين جوانحه روحا منكسرة تشى عن نفسها فى كل حركاته وإيماءاته ، فيتذلل ويتحسس كلماته مع كل من يخشى قوتهم ونفوذهم . وعندما يتاح له أن يُدرج فى مصاف الأثرياء ، فإنه يعمل على إشعار البؤساء الذين يأترون بأمره بوطأة استعلائه وتحكمه ، وتلك نتيجة طبيعية للتربية التى تلقاها ، وللأمثلة التى رآها فى حياته ، والتى أن أوان أن يحتذى بها .

(١) لا نقصد بحديثنا هذا النظم الإسلامية ، ولكننا نقصد تلك القواعد والقوانين الهمجية والاستبدادية للبكرات الممالك ، والتى شوهت لحد كبير أشكال ونظم الإدارة التى وضعها سليم وسليمان الثانى .

ولا يستحق الفلاح أو الحرفى - مهما كانت مهنته - من أن يستجدى ، حيث لا يهتمهم كثيرا ما سوف يقال عنهم وعن حالهم ، بل إنهم يفعلون كل ما فى وسعهم ليظهروا أمام الناس بمظهر البؤس والعوز بقدر الإمكان . وفى المساء حين يترك العامل الورشة التى يعمل بها ، فإنه يلج فى الحصول على أجره عن ذلك اليوم ، ويظل يعذبك حتى تدفع له . وقد يكون هذا الإلحاح القلق تعبيرا عن حاجة حقيقية عند البعض ، لكنه عند البعض الآخر مجرد تعبير عن تخوف العامل من ألا يحصل على ثمرة عمله وجهده ، فضلا عن ذلك فإن الكثيرين منهم لا يبدون مثل هذا التلهف فى الحصول على أجورهم إلا لكى يقدموا للقائمين على شئون الأجور والمال ، الدليل على عوزهم ، وبهذه الطريقة يتفادون تلك المظالم والمغارم التى تهدد على الدوام أولئك الذين يبدو عليهم أنهم يعيشون فى بحبوحة من العيش .

وعندما تعطى للمصرى مالا ، نقدا أو عينا ، فإنه يحرص على الدوام أن يحرك إبهام يده اليمنى قائلا : " كمان واحد " . ويذكرنا هذا بخصلة كانت للشيخ مريك (وربما موسيا أو مصبيع) شيخ إحدى قبائل بدو الأفراد ؛ فقد جاء ذات يوم يشكو إلى حاكم ولاية البحيرة من أن بدو بنى عون شنوا عليه الحرب ، وأنه يحتاج إلى دعم لصددهم ، وطلب لذلك فصيلة من خمسين رجلا ، ووعده القائد بالاستجابة لذلك ، ثم بدأت المحادثة تخوض فى أمور عامة . وعندما أن له أن يمضى فقد عاد يذكر القائد من جديد بالدعم الذى وعده به ، وسأله عما ستكون عليه هذه المعونة ، فأجابه القائد بأنها ستكون عبارة عن خمسين جنديا ومدفع ، فهتف الشيخ فى حدة : خمسين جنديا؟ فقط خمسين ؟ زودها واحدا ، اجعلهم واحدا وخمسين ، واحدا وخمسين . وفى أثناء ذلك كان يحرك إبهام يده اليمنى بطريقة استجداء مضحكة ، حتى أننا لم نتمالك أنفسنا من الضحك ، ومع ذلك فقد استوجب الأمر أن نرضيه بأن نجعل الفصيلة تتكون من واحد وخمسين رجلا بدلا من خمسين .

ومن الصعب أن نوفق بين عادة حب المال لدى المصريين وبين خمولهم وبلادتهم التى يمكن القول بأنها قاعدة لطباع المصريين ، بل بين ذلك وبين سلوك

الحذر والاحتراص الذى يسيطر على أبناء البلاد. فلم نسمع على الإطلاق أية شكوى من سرقات المنازل ، أو قل إن هذه حالة نادرة تماما ، بل إننا سوف ندهش أكثر من ذلك إذا ما علمنا أن البيوت والمحلات التى تضم بضائع غالية لا يقفل معظمها إلا بضبات (ضبة) من الخشب غير جيدة الصنع . وباستثناء العربان والبدو ، يتميز المصريون بالاستقامة التى تعود فى جانب كبير منها إلى قسوة العقوبات التى توقع على اللصوص ، فكثيرا ماتبقى بالات البضائع الغالية الثمن لأيام عدة على الرصيف أو فى الطرق العامة فى حراسة ذمة الأهلى ، ولم نسمع أن مالكا قد شكى من نتائج مثل هذه الثقة .

ذات يوم قام أحد الدالين الأتراك لنا بعملية تجارية عادت عليه بريح قدره ٨٠ فرنكا ، وبعد فترة من الوقت ذهبنا لنحدثه فى أمر صفقة أخرى لاتقل عن الأولى عطاء بالنسبة له ، وكان جالسا على المقهى يدخل غليونه بعظمة ، وبصعوبة شديدة أصاخ السمع للعروض التى قدمت له ، ولأننا ألحنا فى الطلب فقد أجاب: لا أحتاج شيئا ، اذهبوا إلى فلان فهو بائس فقير وسيفعل لكم ماتطلبونه منى ومثلى تماما.. لقد ذكرنا هذه الواقعة ذات الدلالة لكى نقدم مثلا على ذلك التناقض الذى يسيطر دائما، والذى يقوم بين الطباع وبين السلوك . ومع ذلك فليس ثمة ما هو أكثر كرما ولا أكثر عظمة من ذلك ، بل ولا أكثر حكمة مما يتضح فى هذا السلوك . ألسنت على حق إذن حين أمل بأنه سيكون فى الإمكان أن ندخل عند أمثال هؤلاء القوم أفكارا أكثر عدالة إذا ما أشعَّت عليهم أضواء الحضارة الأوروبية^(١). ولست أمل على الإطلاق من تكرار مثل هذه الحقيقة التى لاجدال فى صحتها .

(١) ولكن على الرغم من هذا المثال الطيب فإن الشعب فى مجموعه لا يتصف بالكرم ، وذلك ناتج عن الحاجة أكثر منه عن الطبع ، ذلك أن الكرم يفترض الميسرة ، وإذا ما ظهر المصرى بذلك فسوف يتعرض لمظالم الحكام وانتهاباتهم.

أهكذا ينبغي أن يقتل الخوف والطغيان أجمل الفضائل ؟ ومما يدل على أن المصريين أسخياء بطبعهم بل مجبولون على فعل الخير ، أن أولئك الذين استطاعوا منهم - بفضل مكانتهم ونفوذهم وثروتهم - ألا تتألمهم مظالم وانتهابات حكام الطغاة ، يعيشون فى بيوتهم فى أبهة وترف ويقومون عدة مرات فى العام بتوزيع الهبات والعطاءات .

عن الماشية والخيول وكافة دواب الحمل

لا يمكن للمصريين أن يكون لديهم ذلك العدد من القطعان الكبيرة من الحيوانات التي لدينا ، والسبب في ذلك بالغ الواضح ، فالمرعى عندهم ليست بمثل وفرتها عندنا . فإذا ما استثنينا مصر السفلى وشطآن وادي النيل بعرض ١ - ٣ فراسخ ، فسوف نجد أن أراضي مصر قاحلة تماما ، بحيث يستحيل إطعام الماشية . ومع ذلك فساكن الريف يمتلكون جميعا بعض الأبقار والجاموس وبعض الماعز وبخاصة في الدلتا ، لكن الجمال والخيول والحمير توجد بأعداد أكبر ، لأن مهمة إطعام هذه الحيوانات أقل صعوبة ، إذ لا يقدم للخيول سوى التبن (قش مدروس تحت النورج الذي يقوم بدرس القمح والشعير) والبرسيم . ويطعمون في الربيع بالشعير الغير كامل النضج ؛ وهو يزرع لهذا الغرض ، ولا ينبغي أن يترك في الأرض حتى يبلغ مرحلة النضج ، ويقوم زراع الشعير بتشكيل حزم صغيرة منه ، يبيعونها في المدن : كل حزمة بواقع ١ ، ٢ مدينى . أما الممالك وغيرهم من الأثرياء الذين يحرصون أن تكون خيولهم قوية جميلة المنظر، فيطعمونها بالشعير الحب^(١) .

ولاتلقى الجمال مثل هذه العناية الكبيرة إذ لا يقدم لها سوى القش والفلو المطحون بالرحى ، وبالإضافة لذلك فإن الجمال تقرض أوراق وبراعم الأشواك التي تنمو على حواف الترع وشواطئ النهر ، وتقدم لها في الربيع أوراق الأشجار ، وهو طعام مفضل لديها ، وعندما تصبح حرارة الصيف ملتهبة يجمع الفلاحون أوراق الأشجار ليستخدموها شتاء في إطعام الثيران والماعز .

(١) يطعم العربان خيولهم بأشياء قليلة جدا . وهذه الخيول نحيلة وقوية وتحمل المشاق والحرمان لدرجة أكبر من الخيول الجميلة المنظر ، وهي لا تشرب سوى مرة واحدة في اليوم ، ويردد العرب دائما هذه الحكمة : يابخت الخيل عند الغز ، يابخت العرب مع الخيل . وذلك تعبير عن أن العربى يحصل على منافع كبيرة من حصانه بأقل التكاليف ، في الوقت الذي يحصل فيه حصان المملوك من سيده - على نحو ما - على أكبر النفع .

والحمار هودابة الركوب المعتادة لأبناء الشعب ، وقد تعود الفرنسيون على تلك الدابة بسهولة . وفى الحقيقة فإن الحمار فى مصر ، لا يتميز بهذا البطء ولا بالمظهر الدنىء اللذين لنظيره فى أوربا ؛ فسرعته مناسبة ، وخطوه جميل ، ويخب بسرعة طيبة ، وهوشديد التحمل . وقد رأينا فى الصحراء حميرا صغيرة الجسم ، لكنها تحمل فوق ظهرانيها مايقارب من نصف حمولة الجمل ، ومع ذلك فإن الحمار يقاوم التعب بأحسن مما تستطيع الجمال .

وتوجد فى القاهرة أنواع عديدة من هذا الحيوان ، والنوع الكبير منه جميل الشكل ، ويستحق بالفعل الإطراء الذى امتدحه به بوفون Buffon . ويبلغ علوه من ٣ - ١/٢ أقدام دون أن ندخل فى ذلك ارتفاع الرأس ، ورقبته عريضة قصيرة ، ورأسه مرتفع جميل ، وقامة جسمه متناسقة ، وله ملمح نبيل ، وعيناه مليئتان بالحيوية . إنه حيوان قوى ، جميل الخطو ، ويناسب الفرسان لكنه غالى الثمن ، ويفضل فى معظم الأحيان على الحصان ، إذ يباع بحوالى ٦٠ - ٧٠ قرشا أسبانيا . ومن نافلة القول أن نؤكد أن هذا النوع جميل جدا ، ويستحق بالفعل تلهف الناس على استئجاره للسير به فى شوارع المدينة ، وهو مملوك لأفراد يستطيعون شراءه .

أما ذلك النوع من الحمير التى يقودها المكاريون فهى أصغر بكثير ، لكنها بالمثل بالغة الجودة ، ويدفع فى الجولة التى تمتد من أول القاهرة إلى آخرها حوالى ٩ - ١٠ بارات . ويكلف إيجار الحمار ليوم بأكمله ٣٠ - ٤٠ بارة ، وكان السعر أقل من ذلك بكثير قبل مجيئنا إلى مصر . وسبب ارتفاع السعر بالغ الوضوح ، فمع مجيء الفرنسيين تضاعف عدد الجولات فى شوارع المدينة . ويتبع المكارى حماره جريا على الأقدام ، ويحمل فى يده قضيبا صغيرا من الحديد تتدلى منه الجلاجل ، وصخب هذه الأجراس الصغيرة تجعل الحمار يخب ، فإذا لم يجر بالسرعة المطلوبة ينخسه المكارى بهذا القضيب ، فهو مدبب من أحد طرفيه .

ويوجد فى القاهرة عدد كبير من البغال يستخدمها رجال الدين وكبار التجار، وثنمها هى الأخرى مرتفع . وقبل مجىء الفرنسيين إلى القاهرة لم يكن يحق لأحد سوى الممالك أن يمتطى ظهور الخيل^(١). وكان من عادة الممالك أن يعدوا بخيولهم عدوا أو يسيروا بها على مهل ، ولوحظ أنهم لايسيرون بخيولهم هذه وهى تقفز ، وكانوا يدربون هذه الخيول بأن يندفعوا الواحد ضد الآخر ، وأن يتلامسوا بفعل الاقتراب ، ثم يتجاوز الواحد منهما الآخر ، ثم يناوشان بعضهما البعض بالسيف . وكانت إحدى تدريباتهم المفضلة أن يوقفوا حصانهم فجأة وهو فى أقصى سرعته ، وكانت هذه الحركات المفاجئة والعنيفة والصعبة تعرض الحصان لانحراف خطر مما يحطم له ساقيه. لذلك فإن أغلب الخيول التى تدربت على هذا النمط المملوكى كانت تعانى من هذا العيب ، فقد كانت سيقانها ضعيفة لحد كبير، وقد لاحظنا أكثر من ذلك أن معظمها يعانى من بعض التصلب والتعثر فى حركاتها، وذلك ناتج بلا جدال عن القيود التى وضعت فى أقدامها لأوقات طويلة.

ومن النادر أن نرى فى مصر حصانا خصيا ، فهم يركبون الخيل فى سن الثالثة ، وعندما يتجاوز عمر الخيول العاشرة يكف استخدامها ، وثمة خيول مصرية بالغة الجمال ، لكنها مع ذلك ليست من نوع واحد ، وخيول الصعيد أكثرها جدارة ، فساقها - شأنها فى ذلك شأن كافة الخيول العربية - دقيقة رفيعة ، وعينها يقظة ، ورأسها مستقيمة ، أما كفلها فإنه أقل بدانة مما لخيولنا الرعوية ، وحركاتها أنيقة ، وخطوها مناسب ، خاصة إذا لم تكن قد أتلفتها طريقة الممالك فى التدريب ، ومع ذلك فربما لم يكن فيها جميعا نفس مافى خيولنا الحربية من نبل وعزم . ولن يجد الفرنسيون مثيلا لهذه الخيول المصرية فى قفزها وليونتها ، لكنها أقل من خيولنا احتفاظا بقوتها ، كما أنها أقل منها احتمالا للمشاق ، ويقال

(١) يؤكد بعضهم أن المسيو روزتى Rosetti قنصل النمسا قد أراد ذات يوم أن يتمتع بهذا الحق، لكن الناس أنزلوه من فوق ظهر الحصان.

إنها بالغة الخفة وأنها تتفوق على خيولنا فى سرعتها ، ولكنى شاهدت فرسا فرنسيا تسبق حصانا عربيا قويا بمسافة كبيرة (١) .

والخيل فى مجموعها ليست فى مثل عنف خيولنا ، فالأمر يمضى غاية فى الهدوء فى حظائر الخيول ، ومن السهل أن نضعها بالقرب من الفرس دون أن تضطرب الأمور .

وفى أثناء إقامتنا فى مصر كان سعر الحصان يبلغ ١٢ - ٢٠ لويى ، وينبغى أن نلاحظ أن الممالك كانوا قد رفعوا سعره فى هذه الفترة .

ولا يركب العربان مطلقا إلا الفرس ، ويعلقون أهمية كبيرة على الاحتفاظ بأنسابها الطيبة نقية بعيدا عن أى اختلاط ، بل ولديهم خبراء فى علم أجناسها ، والفرس من السلالة المسماة "كويت" هى أكثرها امتيازاً ، وهى ذات قيمة كبيرة ، ويبلغ ثمنها من ٥ - ٦ آلاف فرنك ، وقد رأينا منها اثنتين أو ثلاث رائعة الجمال .

والخيول العربية صغيرة الحجم والتي قد لالتفت الانتباه بأناقة شكلها ، ميزات تعوضها عن مظهرها المتواضع هذا ، إذ هى فى العادة أكبر سرعة من الخيول الأخرى ، كما أنها أكبر منها بكثير مقاومة للتعب .

٨

تقاليد عربان البحيرة

يمكننا أن نحصى فى ولاية البحيرة - الواقعة ما بين الأسكندرية والقاهرة

(١) تتطلب الخيول فى مصر عناية فائقة ، فبعد أقل جولة تقوم بها ينبغى أن يقوم أحد الخدم بجعلها تمشى حتى يجف عرقها ، ويدون هذا الاحتياط يمكن أن تموت على الفور ، وهى فى العادة جفولة ، وتتعرض كثيرا لمرض الرئتين . يستخدم الشرقيون ركابا للسرّج ، عرضه كبير ، ويستخدمونه فى نفس الوقت كمهماز ، وتكفى ضربة قوية لهتك فخذ الحصان ، ولجامها قوى وجاف ، والطريقة التى يستخدم بها هناك تؤدى سريعا إلى هتك أفواه الخيول ، لكن لا يمكن إيقافها بعد ذلك - إذا ما أخذت تعدو - إلا عن طريق هذا اللجام .

والفرع الأيسر للنيل - سبع قبائل أساسية من العربان ، استقر عديد منها هناك منذ زمان بعيد .

وأكبر هذه القبائل عددا قبيلتا الهنادى والجوابى ، ويمكن أن يبلغ تعداد الأولى ٣٠٠٠ شخص رجالا ونساء ، بينما تكون الثانية على نحو ما أمة صغيرة من الرعاة ، يحكمها شيخ كبير ورث المشيخة عن أجداده . وحيث إن عائلته هى أقوى عائلات القبيلة فإنه يمارس سلطته المطلقة بحق الوراثة ، حيث لا توجد هناك أية قوانين وضعية . وتنقسم القبيلة إلى ثلاث طبقات ، تنقسم كل منها بدورها إلى عائلات ، أما مكان الإقامة فواحد بالنسبة للجميع ، ولكل واحد قطيعه من حول خيمته ، وهذه القطعان تتكون من جمال وماشية صغيرة ، ويمكن للعربى المتواضع الثراء أن يمتلك ٤ أو ٥ أو ٦ من إناث الجمال واثنين من ذكورها ، بخلاف الماشية الصغيرة التى يمتلك منها عددا كبيرا .

وتُغَيَّر القبائل أماكنها فى فترات منتظمة إلى حد ما ، ويحدد مناطق تجوالها الأمل فى العثور على المراعى اللازمة لإمداد قطعانها بالغذاء ، ولهذا تذهب الجوابى كل عام من مريوط إلى الصعيد ، وهكذا فإنهم يمرون بوادى بحيرات النطرون ، ويحملون معهم كميات من الملح ، ويحصلون فى مقابل ذلك على ثمن تحدده العادة . وفى نفس الوقت يذهب هؤلاء العربان أنفسهم إلى الواحات ، لشراء البلح الطازج أو المجفف ، ليبيعوه بعد ذلك لصغار التجار فى مصر .

وتقاليد هؤلاء العربان بسيطة ورعوية ، وتنأى بهم عن القيام بالسطو والنهب ، إذ لا يمكن أن يوجه مثل هذا الاتهام إلا لعدد جد ضئيل من أمتهم الصغيرة تلك ، ولا يحدث بينهم إلا قدر ضئيل من السرقات التى يلقي مرتكبوها عقابا رادعا من الشيوخ .

وفى أثناء جولاتهم تلك ، والتى تتم ببطء شديد ، يمشى الأقوياء من الرجال صغار السن على أقدامهم ، بينما يركب الشيوخ والأطفال على ظهور الجمال ، وتسهر النسوة على شئون النقل مع أزواجهن ، وهن لا يغطين وجوههن إلا أمام

الأغراب ، وتبتدى الجمال المسيرة تليها قطعان العائلات المختلفة ، وهذه القطعان منفصلة فيما بينها . ويبلغ تعداد حيوانات القطيع ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٥٠٠ وأكثر.

وملابس أفراد هذه القبيلة هى نفس ملابس بقية العربان ، فالرجال يرتدون قميصا خشنا ومعطفا من الصوف الأبيض أو الغامق ، ويلفونه فوق رؤوسهم ليتقوا حرارة الشمس ، كما يستخدمونه غطاء فى الليل ، وللشيوخ معطف من الصوف الأبيض ، لكنه أكثر نعومة . ولا ترتدى النساء إلا جلبابا خفيفا وتزين خصلات شعرهن بزينات متعددة.

ويرى قليل من الخيل لدى الجوابى حيث لا يتجاوز عدد فرسانها الأربعين ، بينما يبلغ تعداد فرسان الهنادى أكثر من ثمانمائة.

وأبناء قبيلة الجوابى شديداً التدين ، وهم يتبعون الديانة الإسلامية بشكلها الأنقى . ولا تعرف عائلاتهما الكبيرة عادة التدخين ، فهذه العادة لم تدخل القبيلة مطلقا ، وهم يمتنعون عنها إما احتراماً لعاداتهم القديمة وإما بدافع دينى غامض ، بحيث لم نجد فى هذه الأمة الصغيرة إلا عجوزاً واحداً يهوى تدخين التبغ ، وينتسب هذا الشيخ إلى عائلة قديمة ، ويقابل فعله هذا الذى يتعارض مع العادات المتبعة بتسامح اعتباراً لسنة . ولا تدفع الجوابى ضرائب مطلقا ، ويكتفون بأن يرسلوا كل عام إلى قائم مقام دمنهور هدية تتألف من بعض الجمال .

وتعيش الجوابى فى قناعة شديدة ، وهى عادة شائعة - كما رأينا - عند كل العربان ، ويكتفى المرء هناك بوجبتين : واحدة عند الظهر ، والأخرى عند غروب الشمس ، وتتكون الوجبة من اثنتين أو ثلاث بلحات مع شئ من الخبز مغموس بالزبد الذائب على النار . ويكاد المرء لا يتصور كيف يمكن لأجسام تغذت على هذا النحو ، أن تتحمل تلك المشاق التى لم نسمع عنها ، وتحت سماء ملتبهة لهذا الحد . ولا يكاد يبلغ إجمالى كمية الطعام التى يتناولها المرء فى اليوم ٦ أو ٧ أوقيات ، ويرغم ذلك فالعربان بوجه عام حسنو الصحة ، وإذا ما استثنينا أمراض العيون -

وهى الأمراض المتوطنة - فإنهم أقل من غيرهم عرضة للأمراض من كافة شعوب أوربا^(١) . وفضلا عن ذلك فهم لا يتناولون المشروبات الروحية ، ويكتفون بشرب ألبان النوق والماء القراح . وتصنع آنية الشرب التى يستخدمونها من الخشب ، أما تلك الآنية الطينية المعروفة باسم القلة فليست شائعة عندهم . وشرب القهوة يعد واحدا من المتع التى نادرا مايسمحون بها لأنفسهم ، وليس بينهم من يعتاد عليها سوى الشيوخ ، ولا يقدم هذا المشروب فى الخيمات الأخرى إلا عند الترحيب بزائر غريب .

والجوابى مضيافون بالغو الكرم ، ويمنحون حمايتهم لكل الناس بلا تمييز ، بل إنهم يدخلون فى حماهم حتى المجرمين المطاردين ، ويقيم الغريب فى خيمة مضيفه الذى يبذل كل جهده لكى يكرم وفادته ، وتغضى النساء وجوههن أمامه دلالة على الاحترام. وتتجلى مودة العربان وكرمهم خاصة فى الوجبات التى تقدم للمسافرين الذين يلجأون إليهم طلبا للضيافة ، فهذه بانخة بالنسبة لظروف المضيفين ، وتتكون من : الأرز والخبز والبصل المشوى وخروف مسلوقة يقدم فى طبق كبير انتزعت منه فقط بعض أجزاء لتحميمها ، وتقدم هى الأخرى على المائدة ، وزيادة فى إكرام الضيوف يحرص المضيف على أن يختار لهم بنفسه أحسن قطع اللحم . وقد يدهش المرء من عواطف وأحاسيس هؤلاء الناس الذين هم بالكاد فى أول أطوار الحضارة ، ومن إخلاصهم وحماستهم حين يتحدثون عن مباحج حياتهم تلك .

ويتكون أثاث الخيمة من سجادة خشنة ، وبعض الأوانى الخشبية أو الفخارية ، وأسلحة من أنواع مختلفة ، وأحيانا بعض أدوات من الحبال وأثاث من نوع خاص . وليس فى خيمة شيخ القبيلة ما هو أكثر من ذلك ، وربما يكون الشئ

(١) انظر: Volney, Etat politique de la Syrie, P. 361 et s.

وكل ما قاله هذا المؤلف عن بنو سوريا ينطبق على بنو مصر.

الوحيد الذى يميزها عن بقية الخيام هو فخامة السجادة المفروشة فيها ، والتي ليس فيها برغم ذلك شئ غير عادى ، وقد يصل ثمنها إلى ٣٠ - ٤٠ قرشا أسبانيا .

ويقوم العربان بجولات طويلة للغاية فى الصحراء ، ويتوغلون فيها أحيانا لمدة تبلغ العشرين يوما وأكثر . ويجعلهم تعودهم الطويل يتعرفون على السهول الرملية، فهم يعرفون الأماكن التى توجد بها المياه . وليس ثمة من صحراء مهما كانت قاحلة لا تحتوى على مصادر للمياه ، أو على الأقل لا تحتوى على آبار للمياه الصالحة للشرب ، ولو كانت مالحة بعض الشئ . وفضلا عن ذلك فهم يحملون على جمالهم الماء والمؤن الضرورية ، ويحتفظ المسافر بالماء فى أنية كبيرة من الجلد يغلقها بسدادة خشبية ويعطرها بالمستكة.

أما البدو الذين يعيشون على السلب - والذين سنتحدث عنهم بعد قليل - فإنهم يجمعون كل ماسلبوه ليققسموه فيما بينهم حسب قواعد متفق عليها ، حتى يتجنبوا الاقتتال فيما بينهم ، ونادرة هى الحالات التى يستوجب فيها أن تعود الخيل أو الأمتعة المسلوقة على واحد دون الآخر ، ونادرا كذلك ما يفوتهم أن يخصصوا جزءا من هذه الأسلاب لشيخ القبيلة حتى ولو كان غائبا .

والنساء عند هذه الشعوب الجوبة لسن عاطلات ، بل يصنعن قماش الخيام ، وينسجن بأنفسهن السجاجيد لتأثيث هذه الخيام ، وهن يستطعن صبغة هذه السجاجيد بألوان زاهية ومتنوعة ، وتكاد هذه الألوان تكون أكثر ثباتا من ألوان أجمل سجاجيد الأناضول . وعندما يذهب بعض العربان إلى المدن ، فإنهم يأخذون على عاتقهم القيام بالأعمال التجارية الخاصة بالقبيلة ، كما يحضرون الأصباغ اللازمة لعمل النساء.

ومن حق العربى أن يتخذ لنفسه عدة زوجات ، ولكنه نادرا ما يستعمل هذا الحق ، فلكل عربى زوجة واحدة ، ويشترى الأغنياء منهم إماء زنجيات وعبيدا

سودا فى بعض الأحيان . وتسمح لهم الشريعة بالطلاق شأن بقية المسلمين ، لكن عادة الطلاق ليست منتشرة بينهم بنفس درجة انتشارها عند سكان المدن المصرية، بل إن من يطلق زوجته منهم يجر على نفسه نوعا من الاحتقار ، ويعرض نفسه للرفض العام . وقد شوهدت بنت أحد الشيوخ الكبار وهى ترفض أن تعيش مع أبيها لأنه طلق أمها ، كما لم يستطع ابنه الشاب الذى كان يدير شئون عائلته بذكاء كبير أن يمنع نفسه من أن ينظر لهذا السلوك من جانب أبيه باحتقار شديد .

ويدفع لنساء هذه القبيلة مهر ، كما يسمح لهن بامتلاك القطعان .

والحرية هى كنز العربان الثمين ، فهم ينفرون من أى نوع من الخضوع ، وهم يفضلون أن يقدر عليهم البقاء فى عزلتهم الواسعة تلك فى الصحراء عن أن يتحملوا خضوعا من أى نوع . ولا يريد الجوابى أن يرتبطوا بشكل مطلق بزراعة الأراضى ، إما لأنهم يخشون إبدال طبائعهم ، وإما لأنهم ينفرون غريزيا من الزراعة ، وإما تمسكا منهم بعاداتهم القديمة . وفى بعض الأحيان يبدرون قطعة من الأرض روتها الأمطار ، ومع ذلك فإن توقع حصولهم على محصول وفير فى العام التالى لا يغيرهم مطلقا على البقاء ، بل إنهم يكتفون بما حصلوا ويحملون خيامهم إلى مكان آخر .

ونحن نرى من هذه التفاصيل كيف أننا - هنا فى أوروبا - سوف نكون مجحفين تجاه العرب، لو أننا نظرنا إليهم كأناس همج ليس لديهم شفقة ولا رحمة، فلقد ترددنا عليهم كثيرا ، وكنا شهودا على مودتهم وفطرتهم البسيطة وقضائهم الرعوية ، وإذا كان ثمة من بينهم قبائل تستحق لوم الأوربيين فنحن لا نستطيع أن نعمم هذا اللوم دون أن نحكم على أنفسنا بالجور وعدم الإنصاف ، فتقاليد الجوابى وكذا تقاليد عدد كبير من قبائل أخرى لا نستطيع أن نتناولها بالحديث هنا ، ليست بأقل جدارة - بأن تُتخذ نموذجا يحتذى - من تقاليد أية أمة متحضرة.

وتوجد على مشارف ولاية البحيرة - بخلاف قبيلتي الهنادى والجوابى- القبائل الآتية:

١- قبيلة الأفراد ، ويمكن القول بأنها ليست سوى فرع من الهنادى ، وتتكون من حوالى ٣٠٠ فارس .

٢- قبيلة الجويلى ، وتضم أكثر من ٤٠٠ فارس .

٣- قبيلة بنى عون ، وتبلغ قوتها ٣٥٠ رجلا يركبون الخيل .

٤- قبيلة أولاد على ، وتبلغ قوتها ٣٠٠ رجل يركبون الخيل .

والقبائل الثلاث الأخيرة متحالفة فيما بينها ، وهى فى حالة حرب مستمرة مع القبائل الأولى . وهذه القبائل المختلفة قد اقتسمت على نحو ما السلطة المطلقة على الولاية ، ونشروا مساعدتهم وحمايتهم على بعض القرى ضد عشائر أخرى من البدو فى مقابل إتاوة سنوية . وعندما ترفض واحدة من هذه القرى أن تدفع المبلغ المتفق عليه أو إذا لم تستطع ذلك ، فإن الحماة المدعين يُغيّرون من أدوارهم ، وينتظرون حتى يصل الفلاحون ومعهم ماشيتهم إلى الحقول ، وعندئذ تنشق عنهم الأرض فجأة ، وينتزعون كل ما يستطيعون ، ولا يردون ماسلبوه إلا إذا حصلوا على ضعف الإتاوة التى سبق الاتفاق عليها ، ويتم هذا الصلح بالاتفاق بين الطرفين . لكن الغرم يقع على الدوام على الفلاحين الذين لا يمكنهم أن يعرضوا أنفسهم لمثل هذا الابتزاز البشع دون دوافع قوية . أما إذا ما اتفق الفلاحون فيما بينهم ، فإن القبيلة الحامية تقوم بحصارهم حتى يدفعوا الإتاوة مع المغارم التى يحلو للأقوى أن يفرضها . ولكن إذا ما حدث - صدفة - أن حملت القرية السلاح لتدفع المعتدين بالقوة ، فالويل للفلاح الذى يقتل بدويا أو حتى يحدث فيه جرحا ولو بسيطا ، والويل لأسرته ولذريته ، فالدم لايعوضه إلا الدم ، وسوف ينتقم الجريح وأهله أو حلفاؤه لعاره الآن أو فى المستقبل... وعند موت أحد البدو يعهد إبنى ابنه أو إلى أقربائه الأقربين بمهمة الثأر ، وهذا فرض مقدس ، ذلك أن قانون الدم

عند البدو هو أهم القوانين التى تطبق عندهم . وقد حدث مرات كثيرة أن طلب ثأر واحد من الأهل أو الأجداد ، بعد أن كانت قد انقضت فترة كبيرة من الزمن منذ موته . وعندما تسنح فرصة الانتقام فإن المتضرر أو من يتصرف باسمه لا يفوته أن يمسك بها ، وعندئذ لا يُعرف لغضبه حدود ، ومع ذلك فيمكن شراء الدم بجعل مالى ، لكن مثل هذا الاتفاق ينبغي أن يُصدّق عليه كل أفراد العائلة وإلا اعتبر كأن لم يكن . وبخصوص الجرح البسيط يمكن الاكتفاء بمبلغ يتفاوت قدره بحسب الجرح ، ويدفع هذا المبلغ نقداً أو عينا . أما بخصوص الموت فيفضل الانتقام ، ولسوف تجل أسرة المتوفى نفسها بالعار الشديد إذا هى قبلت فى مقابل دم القاتل فدية مهما كبرت ، تاركة بذلك روح قتيلاها هائمة^(١).

ونقدم هنا أمثلة على تطبيق قانون الدم ، كيما نبين كيف أن العرب قساة فى هذه النقطة .

ذات يوم تقابل اثنان من الأعراب : أحدهما من الأفراد والآخر من الهنادى بالقرب من بسنتاوى ، وهى قرية تقع على بعد ١٢ فرسخاً جنوب شرق الأسكندرية . وكان الأفرادى يقود تسعة أو عشرة ثيران تملكها هذه القرية ، فسأله الهنادى :

– هل صحيح أنكم فى سلم مع الفرنسيين ؟
– صحيح .

– أليس من الأحسن أن تتحالفوا معنا بدلا من أن تتحالفوا معهم ؟
– ماذا تريد؟ هكذا أراد شيخنا مريك .

فقال الهنادى :

(١) يدخل Volney فى بعض التفاصيل المتصلة بهذه العادة الهمجية ، لكننا نكتفى بأن نحيل قراءنا إلى مؤلفه: Etat politique de la Syrie .

- وهذه الثيران ، هل تقودها إلى معسكر الفرنسيين ؟

- لا ..

- لكنى أمنعك من ذلك وسأخذها منك .

* - لا تقدر على ذلك ..

وهنا هوجم البدوى المتحالف معنا ، وبعد معركة خفيفة ، خدش أثناءها الهنادى خدشا بسيطا فى يده ، فصاح : «يا ربى : أتقاتلنى بدلا من أن تقاتل الفرنسيين ؟ » .

فأجابه الآخر فخورا بما أحرزه من كسب :

- لا عليك إلا أن تنشد السلام. ابتعد.

- السلام ! سأصنعه بإرادتى ، ولكن (وأشار إلى يده) .. الدم !

- حسن ، لا عليك ، اطلب ما تريد .

- أعطنى ثورا من الثيران التى تقودها فینتهى الأمر.

وانتهت المعركة بالفعل بهذه الطريقة . ومع ذلك دفعت القرية الأجر المقدر لحارس ثيرانهم هذا ، بالرغم من أن الثيران قد نقصت واحدا بسبب غلطة منه هو.

ويعرف الفلاحون معرفة تامة ذلك الطبع الحقود الذى للبدوى ، حتى أنهم يتحاشون أن يجرحوه ، أو أن يقتلوه مهما كان حجم الضرر الذى وقع منه عليهم .

ذات يوم لح أحد البدو - بينما هو يمر على حصانه فى سوق دمنهور - بقرة أعجيبته ، فألقى على عنقها حبلا به عقدة متحركة وجذبها إليه وسار بها ، وبعد أن أفاق الفلاحون من دهشتهم جروا خلف السارق ، وأدركوه فى اللحظة التى كان فيها على وشك أن يجتاز ومعه غنيمته ترعة مليئة بالمياه ، فأوقفوه ، وبعد أن استعادوا منه بقرتهم ذبحوا حصانه أمام عينيه ، ثم أرقدوه هو نفسه على بطنه

وضربوه بالعصا ٢٥ ضربة ، وبعد ذلك أنهضوه وأطلقوا سراحه. ووصلت فى هذه اللحظة إلى المكان داورية فرنسية قد أرسلت فى أثر البدوى ، ودهش القائد وسريته الصغيرة من أن الفلاحين قد قتلوا الحصان ولم يقتلوا اللص ، وسألوا عن سبب هذا الأمر العجيب ، وعندئذ أجاب أكبر الفلاحين سنا - عن طريق مترجم - بأنهم قتلوا الحصان عقابا للبدوى ، وبأنهم استبقوا البدوى حتى لا يعرضوا أنفسهم لحق لا يمكنهم الإفلات منه ، وهو حق تعويض الدم .

وإذا كانت الشراسة والعناد اللذان يبدوان فى طباع البدو الحقود ، يكفیان لتقديم فكرة سيئة عن أخلاقيات هؤلاء القوم ، فإن من الصعب أن يكون حكمنا عليهم بأفضل من ذلك إذا ما نظرنا إلى أخلاقياتهم بمعيار الصفات الحميدة والفطرة السليمة . ولقد قدموا لنا أثناء مدة الحملة أكثر من دليل على ما يمكن للمرء أن ينتظره وأن يخشاه منهم ، لكننا نكتفى هنا بأن نروى الحكاية التالية لأنها تقدم لنا أمرا من أكثر أمورهم غرابة .

بعد عدة أيام من عملية ١٤ فلوريال (x) التى هزم فيها ٤٠٠ من الفرنسيين وردوا خمسة وعشرين ألفا من البدو والمغاربة والفلاحين المتمردين ، جاءنا الشيخ مربك شيخ الأفراد لزيارتنا ، وسألناه أين كان وقت الأحداث ، فأجاب ببساطة «كنت على بعد ١/٢ فرسخ من ميدان المعركة مع كل أبناء القبيلة على خيولنا ومسلحين» - آه ! ، وماذا كنتم فاعلين بسلاحكم ؟ - «كنا سنثبت الاضطراب فى صفوفكم بإعمال السيف فيكم ، وإكمال هزيمتكم لو دارت الدائرة عليكم» . وقد أدهشتنا هذه الإجابة لكننا تما لكنا أنفسنا وسألناه : ولكن ، ألسنا فى سلم معكم ؟

(x) الشهر الثامن من التقويم الرسمى لفرنسا ، ابتداء من ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ ، وقسمت بمقتضاه السنة إلى ١٢ شهرا ، بواقع ٣٠ يوما للشهر. أما الأيام الخمسة الباقية من السنة فقد عرفت بأيام الشعب وجعلت كلها أعيادا ، ويعرف اليوم السادس - فى السنوات الكبيسة- بيوم الثورة ، وقد قسمت الشهور إلى ثلاث عشريات ، وجعل اليوم العاشر من كل منها يوم عطلة. والأشهر الاثنى عشر هى: فنديمير ، برومير ، فريمير ، نيفوز ، بليفوز ، فنتوز ، جرمينال ، فلوريال ، بريريال ، مسيدور ، ترميدور ، فريكتيدور. (المترجم) .

- هذا صحيح ، لكن لا ينبغي أن يدهشكم سلوكنا ، فطريقة البدو دائما هي الانقضااض على الضعيف - ولكن نحن ؟ نحن الذين صادقناكم ! - هذا صحيح ، لكن الصداقة بيننا لاتستمر إلا طالما أنتم أقوىاء . ولقد أتيح لمبدأ الشيخ مريك هذا أن يطبق بتمامه بعد عام كامل ، فقد كان البدو قبل معركة هليوبوليس على استعداد للعمل لصالح العثمانيين ، بل إن قبائل عدة كانت قد انحازت بالفعل إلى صفوفهم ، ولكن ما أن تقهر الجيش العثماني حتى انقض هؤلاء الحلفاء الخطرون عليه ، ونهبوا مؤنه وأبادوا عددا كبيرا من جنوده ، حتى كادوا أن يأسروا الصدر الأعظم نفسه^(١).

وعندما ذبح البدو والفلاحون المتحالفون معهم ، الحامية الفرنسية في المنصورة وكانت تقدر بـ ١٢٠ رجلا ، أتاح الحظ لجنديين من التابعين للواء الثالث أن ينجوا بحياتهما ، واصطحبهما البدو أسيرين ، وكان هذان البائسان بالإضافة إلى ثالث أمكنه الهرب هم كل من بقى من أفراد الحامية على قيد الحياة بعد الكارثة التي حلت . وبرغم كل شيء فنحن مدينون لهما بالمعلومات التي سنقدمها هنا- برغم النقص البادى فيها- حول مختلف عادات هؤلاء البدو.

كان معسكر القبيلة يقع على بعد ثلاثة فراسخ من المنصورة ، وقد أشاع الأسيران في البداية أكبر قدر من الدهشة بين سيدات وأطفال إحدى القرى ، حيث توقف الذين كانوا يقتادونهما ليحصلوا لهما على بعض الطعام. وعندما وصل الأسيران إلى خيمة العربان ، أبلغا بأن ليس ثمة ماينبغي أن يخشياه على حياتهما. وبرغم ذلك ، فإن قيام هؤلاء الهمج بذبح أسير فرنسى آخر وفى برود تام

(١) ونحكي كذلك الحكاية التالية وهى إن كانت لا تضيف شيئا إلى ما ذكرنا فإن لها جانباً فكاهياً لحد ما ، فى أثناء معركة دارت بين البدو الحاميين لدمنهوور مع بلو آخرين حماة لقرية سرنباى ، ذهب الأولون للاستيلاء على ماشية القرية الأخيرة ، ورد الآخرون على الشر بالشر فانتهبوا دمنهور ، وبرغم قصر مدة المعركة فإنها قد تركت البلديتين بلا ماشية على الإطلاق.

أمامهما ، لم يوح لهما بكثير من الثقة فى مثل هذه الوعود . ولم يفرض على الأسيرين القيام بأى عمل ، بل لقد قضيت لهما بعض طلباتهما .

وقد لاحظ الأسيران أن طعام القبيلة شديد البساطة ، فكمية من العدس وبعض البقلاوة تقدم فى طبق يشبه المقلاة ، وبعض الحب المجروش المغلى وعليه شيء من الزبد يكفى وجبة لرجل ، وفضلا عن ذلك فهذه الأصناف تقدم بكمية قليلة للغاية . وقد تبين للأسيرين أن أهم شخص فى القبيلة - برغم مكانته وثروته ، وهو يرتدى قماشا من الحرير ، ويتمدد على حشية ، ويغير باستمرار من ملابسه - لم تكن تقدم له أية طقوس تدل على الاحترام ، كما أنه يأكل مع الجميع دون تمييز ، وكان هذا الرجل يتناول القهوة مع عدد صغير من أبناء القبيلة . كما شاهد الأسيران عددا كبيرا من العربان يدخنون الغليون ، وكانت ملابس هؤلاء لا تختلف فى شئ عن ملابس البدو الآخرين الذين سبق أن تحدثنا عنهم .

وفى أثناء الفترة التى أقامها الأسيران فى معسكر هؤلاء العربان ، لاحظا أن هؤلاء يغيرون من أماكنهم باستمرار ، ولكن دون أن يبتعدوا كثيرا عن المكان الذى تركوه ، وكانوا يهدفون بتنقلهم هذا الحصول على المراعى اللازمة لقطعانهم الكثيرة .

كانت القبيلة فى مجموعها تمتلك حوالى المائة من الخيول ، ومثلها من الجمال ، وأعدادا هائلة من الغنم والماعز والماشية كبيرة الحجم ، تلك كانت كل ثروتها . وكانت نفس الخيمة - حسب أقوال الأسيرين - تضم الأسرة بأكملها بلا تمييز بين سن أو جنس ، فكان الأب والأم والأطفال يقضون النهار والليل معا ، دون أن يكون ثمة فاصل بين هذا أو ذاك من أفراد الأسرة . ولم تكن النساء متحجبات ، وكن يلبسن فى آذانهن أقراطا من المعدن وأساور . وكان أزواجهن يعاملونهن برقة ، وعندما كن يلحقن الفرسان عاندين من تجوالهم ، كانت كل واحدة من أولئك اللاتي يشاركن أزواجهن فى هذا التجوال تهرع للقاءه ، وتبدى له أكبر أمارات الابتهاج

والفرحة إذا كان يحمل معه أسلأيا ، أما إذا كان قد عاد خالى الوفاض فإنها تلقاه فى صمت. وكانت الأسلاب توزع بين أولئك الذين شاركوا فى الغارة .

وكانت النساء والرجال - وبخاصة الرجال - يؤدون صلوات عديدة ، ودين القبيلة هو نفس دين محمد ، ولكن مع شئ من الخلط برغم أنه لم يكن بمقدور الأسيرين أن يلاحظا ذلك.

ويبدو أن النساء أكبر عددا من الرجال ، وهن يشتغلن فى عمل قماش الخيام. والأطفال كثيرو العدد ، وترضعهم أمهاتهم حتى سن السنتين أو ثلاث سنوات ، ويظلون عراة تماما حتى سن السادسة أو الثامنة ، وفى هذه السن ترتدى البنات قطعة من القماش - أو قميصا - حول خصرها . والرقص هو اللعبة المفضلة عند هؤلاء الأطفال ، وهو عبارة عن القفز بشكل دائرى مع تحريك الخصرين وكل منتصف الجسم بطريقة خليعة . وهم يرقصون معا بينما يقومون فى نفس الوقت بالغناء .

وهؤلاء العربان ، وبخاصة نساؤهم ، كثيرو الكلام ، وتدور بين النساء مشاحنات عديدة تنتهى على الدوام بالصلح بينهن بعد جلبة وصيحات كثيرة . واحترام المسنين هو أحد الفضائل الأساسية لهذه القبيلة ، ويشعر الأولاد نحو والديهم بتقديس كبير . وأمراض العيون هى على وجه التقريب المرض الوحيد الذى يصيب هؤلاء العربان ، فلم نر من بينهم لأمقعدا ولا كسيحا ، والأدوية التى يستخدمونها باللغة البساطة . وهم يجبرون الأطراف المكسورة بربطات منقرة وخشنة. وهم يعمررون حتى يبلغوا سن الشيخوخة الطاعنة ، ونادرا ما يعانون من الأمراض التى تهاجمنا مع تقدم السن .

ولنا أن نشعر بالأسف ، لأن الأسيرين لم يستطيعا ملاحظة الاحتفالات الجنائزية للقبيلة ، وكذا بعض العادات الأخرى المثيرة للفضول . هذا كل ما أمكنهما أن يخبرانا به ، ونضيف إليه هنا بعض الأمور التى تتصل بالعربان بوجه عام ، حتى نفرغ مما ينبغى أن نقوله بشأن هذه الشعوب.

لقد لوحظ أن عربان الصحراء الغربية - وبخاصة فى ضواحي الأسكندرية - كانوا أحسن تسليحا ، وأكثر شراسة من عربان الصحراء الشرقية . ويعود هذا الاختلاف بشكل أكيد إلى السهولة التى يجدها عربان الغرب فى التزود بالأسلحة والذخائر من الأسكندرية ، كما أن فرصتهم فى التزود بالسلح أكبر ، حيث إن الإتاوة التى يحصلونها من الحجاج الذين ينزلون من البحر إلى الأسكندرية أكبر بكثير من تلك الإتاوة التى يحصلها العربان الآخرون ، ذلك لأنهم هم أول من ينبغى أن يدفع لهم . وفضلا عن ذلك فإن ما يودى إلى جعلهم أكثر انعزالا عن غيرهم من العربان هو أن ولاية البحيرة لاتجذب انتباه الحكومة بشكل كاف ، إذ إنها أقل خصوبة وبالتالى أقل إنتاجا من باقى الولايات .

وينقسم العربان فيما بينهم - من حيث طريقة السكنى - إلى عربان يقيمون فى خيام وعربان يقيمون فى منازل ، وقد يبدو هذا القول من قبيل تحصيل الحاصل ، لكننا هنا نلفت النظر إلى أنه ثمة من بين البدو - حتى هؤلاء الذين يتميزون بالشراسة وحب الحرب - مزارعون طيبون بؤساء يقيمون فى قرى فقيرة ، ويزرعون على التخوم بعض مساحات من الأرض القابلة للزراعة . وتسكن بقية القبيلة فى الخيام ، حيث تناسب هذه الطريقة بشكل أفضل تقاليدهم العسكرية ، وحيث إنها كذلك تسهل غاراتهم ، وتسمح لهم بأن يغيروا مكانهم بحرية حتى يعثروا على المراعى الضرورية لإطعام قطعانهم .

ويشكل العربان المرابطون طبقة أخرى من العربان الطلقاء ، وهم يعيشون على زراعة بعض الأراضى المهجورة ، وعلى تجارة الماشية . وهم فى أوقات الحصاد ، يساعدون الفلاحين فى أعمالهم فى مقابل أجر ، كما أنهم يقومون أيضا بنقل البضائع ، ويؤجرون جمالهم للفلاحين ومتعهدي المواكب ، ويجلبون إلى المدن منتجات كثيرة من داخل البلاد . ويسمى هؤلاء بالعربان المسلمين ، وهم بالتأكيد يستحقون هذه التسمية ، إذ ليس ثمة ما هو أبسط ولا أكثر براءة وفطرة من طريقتهم فى الحياة .

ويقطن مناطق من ولايتى الشرقية وقلوب أعداد كبيرة من قبائل البدو ، وبعض هذه القبائل رُحَّل ، وبعضها يمكن القول بأنه متوطن . ولاتختلف تقاليدهم فى شىء عن تقاليد الآخرين ، لذا فلن ندخل بشأنهم فى تفاصيل تعد من قبيل الحشو . وقد قدمنا فى الفصل الأول أسماء القبائل ومقدار القوة الحربية لكل منها .

٩

الحمامات العامة

يمكن أن نحصى أكثر من مائة حمام بالقاهرة ، يواظب السكان على الذهاب إليها - وبخاصة فى الشتاء - حتى يتسقوا مع أحكام شريعتهم . إذ يسمح الصيف للطبقة الدنيا منهم بالتطهر والاعتسال فى النهر حيث تكون مياهه شبه فاترة ، أما الشتاء ببرده فإنه يحرمهم من هذه الوسيلة الاقتصادية . وهنا يتوجه إلى الحمامات - حوالى مرة كل أسبوع - أولئك القادرون منهم ، ليحصلوا بمصاريف زهيدة على متعة يطمح إليها الفقراء والأغنياء معا .

أما رجال الطبقة الممتازة ، أو بالأحرى أولئك الذين يحوزون ثروة كبيرة - حيث إن السلطة فى مصر أكثر منها فى البلدان الأخرى ترتبط بدرجة الثراء - فإنهم يمتلكون فى بيوتهم حمامات خاصة . ورغم ذلك فإن هذا لا يمنعهم من أن يلتقوا بين الحين والحين فى الحمامات العامة ، ليروحوا عن أنفسهم فيما بينهم . كما يذهب إلى الحمامات العامة كبار رجال السلطة ، ولفس الغرض ، وفى هذه الحالة ، يخطر مدير الحمام فيكف عن استقبال أى وافد ، ويقوم باستدعاء فرقة موسيقية وإعداد وجبة شهية ، ويظل هؤلاء هناك يروحون عن أنفسهم حتى حلول المساء . ويحصل مدير الحمام دوما على ما يكفيه لحد الرضا من كرم هؤلاء السادة الكبار ، إذ يدفعون له عند خروجهم فى مقابل كل بارة يحصل عليها من أبناء الطبقات الشعبية قطعة من الذهب .

ويذهب إلى هناك أيضا ، الممالك الذين لم يصلوا بعد لمرتبة الحكم ، ويقودهم إلى هناك الخزنة دار ، وتقدم لهم فى بعض الأحيان وجبة حافلة ، ويروحون كذلك عن أنفسهم.

ويوجد بكل حمام مغطس ملى بمياه شديدة السخونة ، وبعد أن ينتهى المرء من استحمامه يغطس فيه للحظات . وطريقة الاستحمام التى تتبع هناك تختلف عن طريقتنا نحن فى ذلك ، فبعد أن يدخل المرء ، يستقبله الخدم فى الحجرة الأولى حيث يودع ملابسه ، ويعقد حول جسمه فوطة بسيطة ، ثم يقاد إلى ممر يشعر وهو سائر فيه بوهج الحرارة يشتد شيئا فشيئا لتصبح قوية عند اقترابه من الحجرة الثانية ، وهناك يجد نفسه وسط سحابة من بخار ساخن معطر يخترق مسام كل جسمه ، ويرقد على قطعة من قماش صوفى ، فيقترب منه على الفور خادم يلبس فى يده قفازا ، أو يمسك بفوطة من صوف ناعم . وعندما يتأكد أن البخار قد اخترق كل المسام بشكل كاف ، وأحدث بالأطراف نوعا من الليونة ، يبدأ بأن يطلق كل مفاصل الوافد ، وتكاد هذه العملية لاتسبب سوى ألم خفيف تعوضه تلك الليونة التى تحدثها بعد ذلك فى حركة الجسم ، ويستطيع الأوروبيون الذين لم يعتادوا مثل هذه العملية ويخشون نتائجها ، أن يرفضوها بمطلق حريتهم.

وبعد ذلك يدلك الخادم الجسم بالقفاز أو قطعة الصوف التى بيده ، ويكون التدليك قويا لحد يظن معه المرء أن جلده سينفصل عن جسمه . ويتوالى سقوط خيوط سوداء ، إذ يتخلص الجسم من كل الوساخات التى كانت عالقة به ، بل إن المسام نفسها تتخلص من أقل شئ يمكن أن يسدها . وفى أثناء هذه العملية يكون النزيل الصبور غارقا فى عرقه ، ثم يقتاد بعد ذلك إلى حجرة مجاورة ليبقى وحده ، ويغتسل بمياه تأتى من عيني مياه : إحداها ساخنة ومياه الأخرى باردة ، ثم يرتدى قميصا ليعود فى النهاية إلى الحجرة الأولى ، حيث يقدم له الخادم وهو جالس على أريكته النارجيلة وفنجانا من القهوة . وعندما يحين خروجه تكون ملابسه قد تعطرت بدخان خشب الصبر ، وترش رأسه وكل جسمه برغاوى صابون

معطر ، أما النساء فيستخدمن فى نهاية حمامهن عجينة تنزع كل الشعر الزائد من جسمهن^(١).

ويقوم مدير الحمام بتعطير الحجرات وإعداد ماء الورد ، ويحصل عادة مقابل كل هذه الخدمات على مايكفيه إذا كان رواده من الأثرياء . ونادرا مايكون مكان الاستحمام واحدا بالنسبة للجنسين ، إذ ينقسم المبنى إلى قسمين لكل منهما مدخل مستقل . وفى الحالة الأولى يخصص لكل من الجنسين موعد خاص . وتذهب النساء عادة إلى الحمام فى وقت متأخر ، وما أن يدخلن حتى تعلق قطعة قماش مطرزة أو سجادة لتنبه الجمهور إلى حضورهن . ومنذ ذلك الوقت لايمكن لأى رجل أن يدخل ، ويستبدل بكافة الخدم الذكور على الفور وبدون استثناء خادما ، وإذا دخل رجل برعونة إلى حمام وقت وجود النساء فسوف تحدث ضجة شديدة ، ولايمكن له إلا أن يدفع ثمن رعونته .

ومن جهة أخرى ، فعلى الرغم من أن عادات الشرق وتلك القسوة التى يديها المشرع ضد النساء ، تنهض على الشك وعدم الثقة فى المرأة ، فإن هذه القسوة تخف حدتها شيئا ما عن طريق الحرية التى منحت للنساء فى التجمع بالحمامات ، فهذا التجمع هو على نحو ما عيد تستخدم فيه النساء كل زينتهن وأناقتهن ، حيث لا أمل لهن فى جذب انتباه الرجال وسماع العبارات التى تطرى جمالهن - ذلك الأمل الجميل لجنسهن كله - مادمن لا يظهرن فى محفل عام دون أن يكون رأسهن ووجههن بل وجزء من نصفهن الأعلى مغطى بالطرحة . ومع ذلك فهذه البهجة التى تحملهن على التباهى والتفاخر بفخامة ملابسهن وروعة زينتهن هى واحدة من الانتصارات التى ترضى غرور كبريائهن ، فما أن يدخلن الحمام حتى يسارعن بإسقاط تلك الأقنعة المزعجة ، ليستعرضن تحت نظر رفيقاتهن بريق حليهن ، وغاية كل منهن بل ومطمحها أن تخسف بجانب جمالها جمال الأخريات ، بعدد

(١) ينبغى على المرأة المسلمة ألا تستبقى سوى شعر الحاجبين والرموش ، وهى عادة شبه دينية توجب عليهن التخلص من بقية شعر الجسم .

قطع النقود الذهبية المدلاة من خصلات شعرها ، وبروعة الماسات والحلى التى تترزين بها ، وبالفساتين الغالية التى ترتديها. ومع ذلك فهذا الإشباع البسيط للكرامة والكبرياء الأنثوى تحرز به أية واحدة منهم بعدد قطع النقود الذهبية المدلاة من خصلات شعرها ، وبذلك الروعة التى تكفى لكى تقتل من الغيظ اثنتين أو ثلاثا من منافساتها ، فأمام من سوف تتباهى بتفوقها ذلك ^(١) ؟

ولاتختلف الخدمة التى تحصل عليها المرأة ولاطريقة استحمامها عما قلناه بخصوص الرجال ، فيما عدا أن قطعة الصوف التى يدلك بها الجسم تكون أكثر نعومة لحد طيب ، وأنهن يستهلكن قدرا كبيرا من الصابون . وتسرف سيدات الطبقة الراقية فى استهلاك العطور وماء الورد ، وهو ترف لاتقدر عليه الأخريات حتى فى أيام العرس والأفراح ^(٢).

(١) لا يسمح للرجال كما سبق القول بدخول الحمامات التى بها نساء ، والرجال الوحيدون الذين يتمتعون بهذه الميزة هم الموسيقيون ، ويختارون من بين العميان المسنين ، ويمكن القول إنهم يعطون المرأة تلك الفرصة الفريدة للاستماع إلى أصوات الذكور.

(٢) يمكن أن يكلف إيجار الحمام بدون أثاثات من أى نوع متعهده فى اليوم الواحد من ٦٠ إلى ١٨٠ بارة حسب موقع وجمال وفخامة المبنى ، ويلزم ١٠٠ بوظقة لأكثر الحمامات تواضعا . ولتأثيث حمام بشكل لائق ، أى ليكون فى مستوى معظم حمامات المدينة ، فإن ٢٠٠ - ٣٠٠ بوظقة تعتبر مبلغا كافيا . وتبلغ مصاريف الحمام المعد جيدا من ٨٠٠ - ١٠٠٠ بوظقة ، وتتكلف صيانة الأثاث فى اليوم الواحد ١٠ - ٤٠ مدينى ، ويتكلف إطعام الحيوانات المستخدمة ٢٠ مدينى (ويدخل ثمن شراء هذه الحيوانات ضمن المبلغ المقدر للتأثيث) ، وتجفيف الحمام ودفع أجور العاملين به يلزم مبلغ ١٢٠ - ١٨٠ مدينى يوميا ، يحصل منها الحارس وحده على ٣٠ بارة. ولا يحصل خدم الحجرة الأولى على دخل ثابت ، فهم لا يتلقون أجرا إلا ما يحصلونه من هبات الرواد ، أما القائمون بالخدمة فى الداخل فيحصلون على ثلثي أو نصف أو ثلث ما يدفعه الرواد ، ويبلغ عدد خدم الحمام الواحد ١٢-١٣ خادما . وفى منشأة من هذا النوع يبلغ عدد الوافدين ٥٠ - ٦٠ شخصا فى اليوم الواحد ، وأحيانا يزيد العدد عن ذلك ويدفع عن الحمام الكامل كحد أقصى ٢٠ - ٣٠ بارة ، ويحصل العامة على حمامهم بسعر أقل ، فلا يدفعون أكثر من ٨ - ١٠ أو ١٥ بارة على الأكثر. ومما يعوض المتعهد عن ذلك زيارات الكبار ، فهم يدفعون بسخاء كما سبق القول . ويمكن أن نعم ما قلناه على كل الحمامات فى مصر ، إذ هى لا تختلف إلا من حيث درجة فخامة المبنى ، لكن طقوس الحمام وتكاليفه تكاد تكون هى هى .

المقاهى

تضم مدينة القاهرة حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقاهى مصر القديمة وبولاق، حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى، أما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المائة. وليست لهذه المباني أية علاقة بالمباني التى تحمل نفس الاسم فى فرنسا إلا من حيث استهلاك البن، على الرغم من أن هذا المشروب يُعد ويُشرب بطريقة مختلفة. فليس فى هذه المباني أثاثات على الإطلاق، وليس ثمة مرايا أو ديكورات داخلية أو خارجية، فقط ثمة منصات (دكة) خشبية تشكل نوعا من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى، وكذلك بعض الحصر من سعف النخيل، أو أبسطه خشنة الذوق فى المقاهى الأكثر فخامة، بالإضافة إلى بنك خشبى عادى بالغ البساطة، تلك فقط هى أثاثات المقهى المصرية. وهناك يضطجع المترددون على الحصر التى تغطى تلك المنصات الخشبية، وتقدم القهوة مغلية فى فناجين يبلغ حجمها ثلث حجم ماستخدمه نحن من فناجين، ولا تشرب القهوة إلا ملتبة، لكنهم يرشقونها، وتلك عادة شائعة فى الشرق تتطلب نوعا من التعود. وتوضع الفناجين فى صحن صغيرة من النحاس، تشبه الأنية المصنوعة من الخزف التى نعرفها باسم: ظرف البيض، ويسمىها العرب باسم: ظرف. أما الفناجين فهى أحيانا من البورسلين وتستورد من ألمانيا، أو هى فى الغالب من الخزف وتزينها عدة نقوش، وهى تستورد كذلك من ألمانيا. ويكاد يكون استخدام السكر فى صنع القهوة غير معروف، وعندما وصل الفرنسيون إلى مصر ظل الأهليون لفترة طويلة يسخرون من تعودهم على وضع السكر فى البن. وفى نفس الوقت، يحتفظ مدير كل مقهى بعدد كبير من النارجيلات، مبسمها من العظم أو من الرخام أو الألبستر (الرخام الشفاف) بدلا من الكهرمان الأصفر، ويعددها للزبائن الذين يطلبونها، وينبغى على كل مرتاد أن يحمل معه تبغه، بل إن المعتادين على التدخين نادرا مايسيروا دون غلايينهم.

وتخضع مقاهى القاهرة للإشراف المباشر لرئيس يشترى لنفسه حق التزامها ، وتدفع له كل المقاهى رسما صغيرا من بداية السنة التركية «الهجرية» (أول المحرم) ، ويبلغ هذا الرسم ١٠ - ٤٠ مدينى ، وتعفى من دفعه المقاهى الفقيرة . ويستطيع كل من يريد أن يبنى مقهى أن يفعل ذلك بمطلق حريته ، لكنه لا يستطيع مباشرة العمل فيها قبل الحصول على تفويض من المشرف على الحرفة ، إذ هو على نحو ما مكلف عادة بالإدارة الداخلية والإشراف على هذه المنشآت ، كما أنه ملزم بتقديم مرتكبى المخالفات من أبناء هذه الحرفة إلى العدالة . وتوكل مهمة الإشراف هذه عادة إلى أغا الانكشارية (الكخيا المتولى) الذى يدفع حق هذا الالتزام إلى السلطة.

ويتردد على المقهى الفخم مابين مائتين إلى مائتين وخمسين فردا فى اليوم الواحد ، ويتناول الفرد عادة فنجانين إلى ثلاثة فناجين من القهوة فى مقابل بارة ونصف للفنجان ، وثمة أناس - فقراء مع ذلك - يبلغ استهلاكهم فى اليوم الواحد عشرين فنجانا ، لكن الاستهلاك المعتاد يبلغ من ٦ - ٧ فناجين ، ويكسب مدير المقهى كثيرا إذا كان زبائنه من الأثرياء.

وثمة كثير من المقاهى يباع فيها الأفيون ، وهو نوع من المعجون المخلوط بالأعشاب ، وتتخذ الطبقة الدنيا من الشعب من هذه العقاقير وسيلة للسكرو والانتشاء ، ويعتاد عليه ثلثا عدد الحرفيين ، وكذا الأمر بالنسبة للفئات الأخرى من السكان . وهم يسكرون داخل بيوتهم بالرغم من أن الدين يحرم ذلك . ويعتقل البوليس و يعاقب السكارى الذين يكون هذيانهم بالغ الصخب، وفيما عدا ذلك لا يضايقهم أحد ، ويكونون بمثابة تسلية بهيجة للناس بسبب هذيانهم وحركاتهم المجنونة^(١).

(١) لا يشبه السكر الناتج عن الأفيون ذلك السكر الذى تحدثه الخمور ، فعندما تتخذ حواس رجل ما بفعل الأفيون فإنه يبدو فى حالة شديدة من البهجة ، ويضحك بصوت عال ، ويكون هذيانه عادة

ويوجد فى كل مقهى عدد من الرواة والمنشدين ، يحكون أو يغنون حكاية صحيحة أو وهمية عن شخصية خارقة ورد اسمها فى النصوص الدينية أو التاريخ الإسلامى ، ويكون الإلقاء عادة حيا مليئا بالقوة والحيوية ، كما أن الأغنيات تمتليء بعقب الشعر ووجهه ، وتكون نغمة الحكى مرتفعة أما نغمة الحوار فمتوسطة ، ويتوقف الراوى فى معظم الأحيان ليسأل مستمعيه ما إن كانوا يشكون فى صحة حكاية ، أو ما إن كانت حكايته (فى مجملها) جميلة أو خيرة . ويزيد منشدو المقاهى هؤلاء حكاياتهم حيوية عن طريق حركات بالغة التعبير ، ويصحبونها أو يسبقونها بموسيقى غريبة تصدر عن آلة موسيقية وترية . وهى مصنوعة من الجلد ، ويحك العازف بقوسه الشعرات المشدودة بالآلة والتى تستخدم كأوتار ، فتصدر نغمات خشنة صماء . ويدفع مدير المقهى فى بعض الأحيان لهؤلاء المنشدين ، لكنهم فى العادة لا يحصلون من أجر إلا ما يدفعه الجمهور عن طيب خاطر . وتاريخ الأسكندرية وجنكيز خان هو الموضوع الذى يستوحى منه هؤلاء المنشدون العرب مادة أغانياتهم ، ويضيفون إلى ذلك ألوف الحكايات الرائعة ، بالإضافة إلى قصص المعارك البطولية التى يغترفونها من أحداث بلادهم.

ويستدعى المماليك من الطبقة الحاكمة والمشهود لهم بالشجاعة هؤلاء المنشدين إلى منازلهم ، ويكافئونهم بسخاء.

وفى المقاهى الفخمة تسمع أحيانا ألحانا من تلك الألحان الشائعة فى مصر ، يؤديها بعض الفنانين الذين يحصلون على أجورهم من أصحاب المقاهى ومن

=

مرحا . وفى بعض الأحيان يفرق فى أحلامه السعيدة ، وفى أحيان أخرى يُشرك معه الناس فى أحلامه وسعادته ، وقد يتخيل نفسه سلطانا أو شيخ بلد ، كما قد يظن نفسه أحيانا ممثليا صهوة حصان ، ويطلب من الآخرين أن يعاونوه على وضع قدمه على الأرض.

وإذا ما عارضه أحد فإنه لا يغضب مطلقا ، وإنما يصبح جبانا يفزعه أقل صوت . ونراه ينتقل من أشد حالات الابتهاج والمرح إلى أشد حالات اليأس والحزن ، فيبكى ويعول ويسقط فى غيبوبة.

يتطوع من الزبائن . وفى هذه الحالة يستمتع الرواد فى صمت ، بحيث لاتسمع صيحة ولاضجة ، ويبدو الفنان وهو يؤدي أغنية غارقا فى حلم عميق ، وهذا واحد من الملامح المميزة للطبع الشرقى . وفى بعض الأحيان يتنافس شخصان أو عدد أكبر على دور شطرنج ، ويخيل إليك وأنت تشاهدهم مندمجين فى اللعب أنهم بكم قد حرموا من نعمة الكلام ، ويتطلع المتفرجون دون أن ينبسوا بكلمة أو يهمسوا بفكرة ، ويمضى الأمر فى شكل تمثيل صامت (بانتوميم) إلا إذا جاء إلى المقهى مخمور أو فاقد وعيه ليعكر صفو هذا الهدوء ، وليدخل على اللاعبين ومشاهديهم البهجة بأفانين هذيانه^(١).

٩٩

الرياضة والألعاب

تتفق ألعاب الشرقيين مع حدة طباعهم ، ونستطيع أن نتعرف فيها على ذوق شعب مولع بالتفكير ، يعجبه أن يتأمل حتى وهو يمارس ضروب اللهو التى يهواها : فالطاولة والضامة والشطرنج هى الألعاب التى يفضلها المصريون ، وهى كذلك الألعاب التى ينفخس فيها أبناء الطبقات الراقية على وجه الخصوص ، والتى يفضلها الشعب بصفة عامة على بقية اللعابات . وتتمتع الشطرنج بشكل خاص

(١) قدمنا فى فقرة سابقة فكرة تقريبية عن المصاريف اللازمة لإدارة وتأمين حمام عام ، ونفعل الآن نفس الشئ بالنسبة للمقهى ، علما بأننا قلنا كلمة موجزة عنها فى الفصل الأول . يبلغ ثمن أثاثات أجمل مقهى بالقاهرة عندما لا يكون قد سبق استعماله ٤٠ بوظافة ، بينما لا يتجاوز ثمن أثاث المقهى المتواضعة ١٠ - ١٢ . وهو عبارة عن : ٧ - ٨ حصر ، ١٥ كنكة قهوة ، ١٥ فنجانا من الخزف ، عدد من الفناجين الصغيرة والظروف النحاسية التى يوضع فوقها الفنجان ، تلك هى كل الأتية التى ينبغى شراؤها ، ويلزم زيادة على ذلك ٢٥ - ٣٠ بارة يوميا ثمنا للخشب ، ورتلين من البن يبلغ ثمن الرطل ٤٠ بارة ، ونفقة خادمين ومدير المقهى . وهذا كله شئ بالغ الضالة ، لذا فإن حالة القهوجى بائسة جدا فى مصر . وقد رأينا مقهى بكامل أثاثها توجر فى اليوم الواحد بمبلغ ٧ - ١٥ بارة ، ويتعهد المستأجر بصيانة الأثاث .

بتفضيل الجميع ، والناس هناك شديداً الولع بهذه اللعبة ، وليس من النادر أن ترى لاعبين متنافسين يقضيان فى الدور الواحد أياما بأكملها . ورقعة الشطرنج شأنها شأن الدمي شديدة البساطة ، ولا يعود ذلك إلى أن المسلمين ينفرون من الصور والرسوم فحسب ، بل لأن صناعتهم فى نفس الوقت ليسوا شديداً المهارة ، كما أنهم لا يحصلون فى مقابلها على أجر يتناسب مع ما يبذلونه فى صنعها من جهد إذا ما عونا بتجويد عملهم^(١) . ورقع الشطرنج والضامة المصنوعة من الخشب الثمين لا يستخدمها إلا الأثرياء وكبار القوم ، أما أبناء الطبقة الشعبية فيستخدمون قطعة قماش خيطت فوقها مربعات من قماش الجوخ من ألوان مختلفة ، وتستخدم قطعة القماش هذه كرقعة للعب ثم كعلبة توضع فيها الدمي بعد انتهاء اللعب .

وثمة ألعاب مهارة أخرى تتطلب شيئاً من التأمل ، وتنتشر هناك لعبة المنقلة ، ويلعبها اثنان ، مع كل منهما لوحان حفرت فيهما ستة ثقوب ، ويضع اللاعبان فى كل ثقب من هذه الثقوب ست قطع من الحجارة أو مثلها من الزلط . ثم هناك تلك اللعبة التى يطلق عليها العرب اسم طاب ، والتى تحدث عنها كثيراً العلامة Th.Hyde ؛ وهى بدورها منتشرة بين الشرقيين . وتلعب بواسطة دمي مختلفة الألوان ، عددها فى سوريا ٢١ وفى مصر ١٩ أو ١٧ ، لكن عددها على الدوام فردى ، وتوضع فى الصف الخارجى عند بدء الدور ، وقد شاهدنا هذه اللعبة عند بعض المارونيين فى القاهرة . كان ثمة رقعة بها أربعة صفوف ، فى كل صف ٢١ مربعا ، ويمسك كل لاعب بأربع من العصى الصغيرة والمسطحة : سوداء من جانب وبيضاء من الجانب الآخر . وعندما تتم اللعبة فى الهواء الطلق تلقى هذه العصى على سكين مغروسة فى الأرض ، وعلى مسلة مرشوقة فى كنية عندما يلعبها

(١) ومع ذلك فقد رأينا فى مصر رقع شطرنج بالغة الفخامة ، ومصنوعة بشكل جيد لحد لا يمكن أن تصنع مثيلاتها فى أوروبا بسهولة . وهى مصنوعة من العاج وخشب الأكاسيا ، وكل ما فيها منفذ بشكل بديع ، ورسوماتها بالغة الجمال حتى ليندهش المرء كيف لا يلقى مثل هذا الفن ما يستحقه من رعاية ، ولا يملك مثل هذه الرقع الجميلة إلا الأثرياء وكبار القوم .

تأجران داخل متجرهما . وعند بدء اللعب يختار أحدهما اللعب عن اليمين ، ويختار الآخر اللعب عن اليسار ، بهدف أن تتقابل الدمي . وعندما يحصل الأول على طاب أو ثلاثة أبيض وواحد أسود^(١) يحرك قطعة من قطعه الموجودة بالمربع الأول من صفه إلى المربع الأول من الصف الثاني من جهته ، فإذا لم يحصل على طاب يحل الدور على الثاني ، وهكذا حتى يحصل أحدهما على طاب . ولا يمكن تحريك أية قطعة من الصف الخارجى لأول مرة إلا بعد حصول صاحبها على طاب . وهذا بيان بالنويات الأخرى :دق اثنين :أى اثنان أبيض واثنان أسود ، وفى هذه المرة تحرك القطعة التى سبق تحريكها فى الطاب الأول لمربعين ، دق ثلاثة أى ثلاثة أسود وواحد أبيض ، وفى هذه المرة يمكن تحريك الدمية لثلاث مربعات ، أربعة أسود وبعدها تتحرك الدمية أربعة مربعات ، ستة أو أربعة أبيض وتكسب ستة مربعات، واللاعب الذى يحصل على طاب أربعة أو ستة يستمر فى اللعب ويحرك دماه ، واللاعب الذى يدفع دماه كلها فى الصف الثانى يتدرج بها فى الصف الثالث ، وهكذا بالتبادل بين هذا وذاك حتى يتخلص أحدهما من دماه .

ويلعب الأتراك والعرب أيضا لعبة بالزوج والفرد. وقد شاهدنا فى القاهرة بعض المسيحيين من أهل البلاد يثبتون على الأرض قطعة من الفضة ، ويحاولون لمسها بكرة صغيرة ، وثمة قاعدة تنظم الحالات التى تتقابل فيها كرات اللاعبين ، لكننا للأسف قد أهملنا تدوين القواعد التى تنظم هذه الألعاب ، ولعل الكثير من قرائنا سوف يغفرون لنا عن طيب خاطر هذا التقصير من جانبنا .

وركوب الخيل هو الرياضة المفضلة عند العثمانيين وكبار الأتراك. وهم فى هذه اللعبة ينمون بالدرجة الأولى مهارتهم الحربية ، إذ يتجمع كبار الشخصيات فى القاهرة مرتين فى الأسبوع فى ميدان واسع يسمى المصطبة ، ويصحبون معهم أعدادا كبيرة من العبيد والخدم ، وكلهم يركبون الخيل مثل سادتهم ، ويتدربون

(١) يقول Th.Hyde: ثلاثة أسود وواحد أبيض ، إذن فأحدنا قد فهم الأمر على نحو خاطئ ، أو لعل قواعد اللعبة هى التى تتغير تبعا للبلاد التى تنتشر فيها .

على الجريد . وينقسمون إلى فريقين ، يحمل كل منهما على الآخر بأقصى سرعة ، وكل واحد مسلح بعصا من الجريد طولها أربعة أقدام ومتوسطة السمك ، ويقذف بها منافسه أفقيا وبقوة شديدة . وثمة فرسان يبدون في تدريبهم هذا من القوة والحيوية حدا يمكن معه لقذيفتهم تلك أن تكسر - فيما لو أصابت - عظام غريمه ، والمهارة هنا هي أن يتفادى الغريم عصا غريمه أو أن يلتقاها باليد ، وقد عرفت واحدا من الكبار انكسرت ساقه في شبابه بهذه الطريقة. أما أولئك الذين يفضلون التدريب على إطلاق النار فيضعون أصيصا (بردك) فوق كومة من الرمال ، ويصوبون عليها بالبنادق وهم يجرون فوق خيولهم بأقصى سرعة. وهم يستخدمون في هذا التدريب السهام بالرغم من أنه لا تنقصهم البنادق ، ولا يلجأ الرماة لتلك الوسيلة إلا لإجادة التصويب ، ذلك أن الهواء الذي يجذبهم بشدة عندما يجرون بأقصى سرعتهم سوف يمنع وصول الشرارة إلى الرصاصة فلا تنطلق ، بينما لا يوجد مثل هذا العيب عند التدريب بالسهام. ويتسلى السادة أيضا بجذب الأقواس، وتشاهد في الميادين عمد صغيرة ، نصبت تكريما لأولئك الذين أظهرها في التدريب قدرة خارقة للعادة . وعندما يبلغ ارتفاع النيل حدا معيناً يتنزّه الكبار في قواربهم الفخمة ، ويمارسون التجديف في بركة الفيل والأزبكية، وهناك يطلقون بنادق الرش ، ويصحبون معهم موسيقيين ليسروا عنهم أثناء نزعاتهم النيلية.

ويتدرب عامة الناس أيضا ، وهم في هذا يقلدون الكبار ، فيفعلون على نطاق ضيق ما يفعله هؤلاء على نطاق واسع ، فقد شاهدنا على سبيل المثال خدم الشخصيات الكبيرة في القاهرة يتدربون على قذف عصا طولها ٥ - ٦ أقدام في اتجاه أفقى ، وهم بهذا يهيئون أنفسهم لتدريب الجريد الذى سبق أن تحدثنا عنه ، وكانوا يمارسون تدريبهم وهم يجرون على أقدامهم حتى يكونوا أكثر مهارة عندما يحين وقت الرمي من فوق ظهر الحصان. ويتبارز أهالى المدن وكذا الفلاحون بعصا كبيرة مع مراعاة قواعد معينة ، وقد جرت العادة أن يقوم المتبارز في بداية اللعب بحركات معينة ، هي بالتأكيد نوع من التحية ، يحاول بعدها كل من

المتبارزين أن يضرب غريمه فى رأسه ، وهو العضو الوحيد فى الجسم الذى ينبغى استهدافه. وتتجلى المهارة فى تقادى الضربة ، وهذه المبارزة تشبه فن لاعبى العصا المشهورين فى نورمانديا وبريتانى. وثمة مصارعون مصريون يمسكون بعصا فى يدهم اليمنى وحشية صغيرة فى يدهم اليسرى ، ويوجهون الضربات إلى الذراعين فقط ، ويسمى هذا التدريب «لعب الكب» . وقد شاهدنا كذلك فى شوارع القاهرة مصارعين لا يرتدون من الملابس سوى سروال بالغ الضيق وكل جسمهم مدهون بالزيت ، ويتماسك هؤلاء المتصارعون ، ويحاولون أن يطرحوا بعضهم البعض أرضا ، لكن حركاتهم تنقصها القوة والحيوية والمهارة. وبعد دقائق طويلة يحدثون فيها بضع حركات - نسميها تجاوزا مجهودات - يدع أحد المتصارعين نفسه ليسقط ، وتنتهى بذلك المصارعة. وأمثال هؤلاء المصارعين لا يمكن لهم أن يتجاسروا على عرض مهارتهم تلك فى فارس ، حيث يبرع المصارعون هناك فى مثل هذه التدريبات الجسدية ، لكنهم يلفتون النظر فى مصر، وبرغم كل شئ، فليس ثمة فى بقية ولايات السلطان من هم أكثر من هؤلاء مهارة.

١٢

الأعياد الدينية ، المبادئ الرئيسية للعقيدة الإسلامية

ترتبط أعياد المسلمين بمناسبات دينية . وفى مصر ، يحرص الناس على الاحتفال بعيد لا يتصل بالمعتقدات الدينية ، هو عيد فتح الخليج فى القاهرة ، أو عيد وفاء النيل ، وهو عيد وطنى ، يعود إلى أزمنة ضاربة فى القدم . أما بقية الأعياد فتتوالى بالترتيب التالى:

شهر محرم : عودة المحمل من مكة .

شرحه (كذا) : عيد مولد النبى .

الشهور التى تلى ذلك : احتفالات متوالية بمولد الأولياء .

آخر أيام شعبان : ليلة أول رمضان ، ويعلن فى هذا العيد بدء الصيام

لمدة شهر قمرى له نفس الاسم (رمضان).

آخر أيام رمضان : عيد كبير يستمر ثلاثة أيام.

٢٧ شوال : سفر المحمل.

١٠ ذو الحجة : العيد الكبير ، ويتفق مع وصول الحجاج إلى مكة .

ويتصدر احتفال عيد الخليج الباشا ، وكبار شخصيات الحكومة ، مثل :شيخ البلد والقاضى والدفتردار أو مستشار الحكومة وكخيا الجاويشية ، وفرقة الانكشارية والكشاف وكل كبار الشخصيات . وعند الصباح يصل الباشا مع أهل بيته أى مع ضباطه ورجاله ، ويصل البكوات مع مماليكهم ، ويصحبهم جمهور كبير من الموسيقيين ويحتلون جزءا من الميدان ، وتغضى القوارب سطح التربة . وتمتاز قوارب السيدات بفخامتها وبهوادجها التى تغلق عليهن بدافع الغيرة ، ويخلع الباشا جبة على كل من الأغا وبقية كبار الضباط ، ثم يعطى الإشارة ، وعندئذ يقوم عمال معدون لهذا الغرض برمى تمثال أو عمود طينى فى النيل وسط ضجيج الهتافات والآلات الموسيقية ، ثم يقطع السد ، وتتدفق مياه النيل على الفور فى شوارع المدينة لتصبح أشبه بالبحيرات ، وقبل أن ينسحب الباشا يلقى فى النهر بقبضة من العملات الذهبية والفضية ، يتسابق إلى الفوز بها غواصون مهرة ، وينقضى ما يتبقى من النهار فى أفراح ومسرات تستمر حتى الليلة التالية. ولهذا الاستبشار والابتهاج العام ما يبرره ، حيث إن الفيضان هو ضمان الازدهار للجميع ، فعندما يحل الفيضان يبدأ الناس يأملون فى محصول وفير ، بل يمكن القول بأنهم قد بدأوا يحلمون بما يعدهم به من منافع ^(١) .

وفى أيام العيد يقوم الممثلون المهرجون الذين يعرفون باسم البهلوانات بإمتاع

(١) تسمى الدمية التى تلقى فى النيل عروسة أى الزوجة الجديدة. ويعتقد أن هذه العادة تعود إلى ديانة قدماء المصريين الذين كانوا يخصصون فيما يقال عذراء شابة ليلقوا بها فى النهر ، حسبما يقول كثير من مؤرخى مصر القديمة .

الجماهير بحركاتهم ودعاباتهم . ويمكن القول بأن ضروب اللهو لهذا الشعب تتجلى فى العروض الهزلية بل والمرجلة إلى حد ما ، والتي يعرضها فى الشوارع مهرجون متجولون ، كما أنها تتجلى فى القفزات التى يعرضها بعض الحواة المهرة إلى حد ما فى فنهم . وقد شاهدنا فى شوارع القاهرة عدة مرات رجالا يلعبون العرائس ، ويلقى هذا العرض الصغير إقبالا كبيرا ، والمسرح الذى يستخدم لذلك الغرض بالغ البساطة وبالغ الصغر ، ويستطيع شخص واحد بمفرده أن يحمله بسهولة . ويقف الممثل فى المربع الخشبي الذى يمد به بطريقة تمكنه من رؤية خشبة العرض والمتفرجون من خلال فتحات صنعت لهذا الغرض دون أن يراه أحد ، ويمرر دماه عن طريق فتحات أخرى ، لجعلها تؤدي الحركات التى يريدها عن طريق خيوط يحركها على هواه ، وحيث إنه ليس من المناسب أن تصدر هذه الدمى أصواتا تماثل قوة صوته هو ، فإنه يجعل صوته الطبيعى حادا ، ويتم ذلك بواسطة أداة صغيرة يضعها فى فمه ، ويجعله بالغ الرقة ومصحوبا بأنغام الناي وقت الحوار الذى يديره على ألسنة هذه الدمى الصغيرة ، ويمضى الأمر على مايرام إذا لم تكن التمثيلية معيبة . وتبدأ الدمى عادة بتهنئة بعضها البعض ثم يتشاجرن بعد ذلك ، وتنتهى تلك التمثيلية الهزلية عادة بالشجار ، وفى الواقع فإن عددا كبيرا من المشاهدين يهوى هذا النوع من ضروب الترفيه ، ويضطر البهلوان لأن يجاريهم فى ذلك .

وقد رأينا واحدا من الحواة يجوب شوارع القاهرة ومعه صنوبر متقطع ، أى تسيل المياه منه ثم تنقطع فجأة لتسيل لبعض لحظات . ويطلب الحاوى من صنوبره - حسب حالته الميكانيكية التى يعرفها جيدا - أن يتدفق بالمياه أو أن يتوقف ، لكن الناس تنطلى عليهم الخدعة ، ويصفقون لتلك المهارة المزعومة ويكافئونه بإعطائه قطع النقود . ويلقى آخر بحفنة من التراب فى إناء ملئ بالماء ، ثم يسترد التراب جافا من الإناء . ويمسك ثالث بكأس له قاعان يغلقيهما غطاءان ، وبعد أن يتحدث إلى جمهوره

طويلا وبعد كثير من المداعبات والتهريج ، ينفخ فى قوقعة كبيرة ، ثم يرفع غطاء أحد القاعين ليظهر بيضة ، ثم يواصل مداعباته وهزلياته ، ثم يكشف عن القاع الآخر للكأس ليظهر كتكوتان يظنهما الجمهور بديلا عن البيضة التى رأوها فى البداية . ويلقى مشعوذ رابع بقفل مغلق فى وجه طفل فينفتح القفل ، ويمسك بخد الطفل من الداخل والخارج . وهؤلاء المشعوذون يرفهون عن الشعب ، ويدفع لهم جمهورهم مبالغ شديدة التواضع ، وهم لا يطلبون من جمهورهم الدفع مقدما ، وعندما تنتهى اللعبة يدفع من يشاء على قدر ما يشاء .

وفى شهر رمضان ، وهو نفس الوقت الذى يحتفل فيه الاتراك (المسلمون) بالصوم ، يسرى أهالى القاهرة كثيرا عن أنفسهم وبخاصة فى الليل . وينام الأغنياء نهارا حيث لا يسمح الدين بالأكل طالما لا تزال الشمس فى الأفق ، ويتناولون طعامهم عند قدوم الليل . ومع ذلك فإنه يرى بالميادين أثناء النهار - وبخاصة فى ميدان الرميلى ، عند سفح القلعة - جمهور من الحواة يشبهون أولئك الذين تحدثنا عنهم .

ويشاهد فى مصر كذلك أشخاص ، ليست لهم من مهنة أو وسيلة لكسب العيش إلا عرض القروود والحيوانات التى تمتاز بالذكاء ، ودفعها لتقديم ألعاب لتسلية العامة . وثمة آخرون أكثر حيلة ، يعرضون الثعابين ويجعلونها ترقص على نغمات تعزف على آلة ما ^(١) ، وقد يبدو هذا الأمر بالغ الغرابة لمن لا يعرف حب الزواحف بشكل عام للموسيقى ، فهى ترفع رأسها والجزء الأمامى من جسمها عند سماع صوت المزمار ، وهذه الحركات هى التى تشكل رقصة الثعابين . ومن السهل كذلك دفع القروود للرقص ، فهى من نوع فى اليمن ، ويجلبها العربان من هناك حيث هى أكثر وداعة من بقية أصناف القروود ، ويقومون بتربيتها .

(١) كتبنا فى مكان آخر من هذا المؤلف فقرة عن سحرة الأفاعى المحدثين ، وهم امتداد للسحرة القدماء ، وانظر كذلك نبذة عن مدينة رشيد ، تأليف جولوا ، ص ٣٥٤ . (المجلد الثالث من الطبعة العربية - المترجم).

ولابد فى النهاية من كلمة عن الممثلين وعن بعض العروض التمثيلية فى مصر ، ونحن لا يخالجن الشك فى وجود ممثلين حقيقيين فى مصر ، مع وجود تمثيلات تتبع كافة قواعد التمثيلات . وقد شاهدنا فرقة من الممثلين الهزليين فى القاهرة تتألف من مسلمين ويهود ومسيحيين ، ويدل مظهرهم على أنهم لا يصادفون حظهم فى هذه البلاد . وهم يستخدمون فناء بيتهم كمسرح ، وثمة ساتر يحجب خلفه ملابسهم . ويذهب لمشاهدة هذه الفرقة كثير من الأوربيين الذين أقاموا فى مصر منذ عدة سنوات دون أن يشاهدوا أية عروض مسرحية ، كما تستدعى هذه الفرقة إلى بيوت التجار الإيطاليين ، وتقدم عرضها فى حجرة أعدت لهذا الغرض . ومع ذلك فلم نجد فى هذا العرض ما يرضينا : لا الموسيقى ، ولا أداء الممثلين ، بالإضافة إلى أننا لا نعرف من العربية ما يكفى لكى نفهمهم جيدا ، كما أننا وجدنا أن ليس ثمة ما يدعو لعناء أن يترجم لنا معنى التمثيلية ، فقد كان كل شئ رديئا وعاريا من الذوق ، كما كان الأداء متكلفا . وكان الأمر يدور حول امرأة عربية ، تستدرج المسافرين إلى خيمتها لتسرقهم وتسى معاملتهم ثم تطلق سراحهم ، وعندما كانت المرأة قد تمكنت من سرقة كثيرين وتهيات لتفعل الشئ نفسه مع آخرين ... عبر أحد التجار - من النظارة ، بصوت عال - عن القرف الذى يسببه له العرض ، وحتى لا يبدو الآخرون أقل رهافة حس منه فقد سارعوا بإيقاف العرض ، بينما لم يكن الممثلون قد وصلوا بعد إلى نصف التمثيلية .

كان ينبغى أن نتكلم هنا كذلك عن العوالم اللائى سبق لنا أن تحدثنا عنهن ، ولكن حيث إن هؤلاء النسوة كثيرات فى القاهرة ، وحيث إنهن يشكلن على نحو ما طائفة حرفية ، فسوف نتحدث عنهن فى الفصل المخصص للحرف .

الفصل الرابع

الإنسان المصرى فى طور الشيخوخة - الموت والجنازات

عن احترام الشيخوخة

قد لا يكون من المناسب أن نبحت عن ممارسة الفضائل الطبيعية عند الشعوب المتحضرة ، حيث تتوافق الأنانية والمصالح - وهما أبناء الحضارة الشرعيين - مع أضواء المعرفة ، إذا صح القول . ذلك أن أفق المعارف عند الشعوب كلما اتسع كلما ابتعدت هذه الشعوب عن حياة الطبيعة ، ولا ينبغي أن نمضى بهذه الفكرة لحد أبعد من ذلك . ومع أننا لا ننتوى هنا أن نعقد مقارنة متعسفة ، فإنه ينبغي علينا القول بأن الشرقيين وإن كانوا قد أهملوا تعلم العلوم والآداب ، فقد استطاعوا على الأقل أن يحتفظوا ببعض آثار من العادات والفضائل البدائية . وإلا ، فهل ثمة عند أمم الشرق ما يستوجب المديح أكثر من ذلك الاحترام العميق الذى يكونونه نحو الشيخوخة ؟ . ويتميز المصرى على وجه الخصوص بهذا الشعور النبيل ، ولقد حض عليه محمد فى تعاليمه لحد وجد من الضروري أن يجعل من ذلك مبدأ دينيا ومدنيا فى وقت معا ، وحتى اليوم ، فإن شيئا لم يستطع أن ينال من قوة هذا المطلب الذى حتمه المشرع ، كما أن الوضع الحالى للتقاليد سوف يهيئ لهذا الأمر فرصة لبقاء أطول . وفى مقابل ذلك ، فإن المفكر يستطيع أن ينعى على الشعوب الأوروبية - التى تطورت صناعاتها ومعارفها لحد مذهل - هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيخوخة ، وفى الوقت الذى تعمل فى مجتمعاتهم قوانين تنطق بالحكمة ، وتشهد بالعبقريّة والإحساس العظيم لواقعها ، وكذا بتلك الدرجة الكبيرة من التحضر التى وصل إليها أولئك الذين شرعت من أجلهم هذه القوانين - فإن المرء ليدهش حقا عندما لا يجد فى مجموعة القوانين هذه فصلا مخصصا للواجبات التى ينبغي مراعاتها نحو كبار السن . ونستعير هنا ، حول هذا الموضوع ، بعض الأفكار التى وردت على لسان مؤلف كتاب "رسائل عن مصر" : Lettres sur l'Egypte ، الذى انتقدنا بمرارة وأحيانا

بتحامل صارخ ، وترسم أقواله بدقة ذلك الفرق الكائن بين أفكار وعادات شعوب الشرق ، وبين مثيلاتها عند شعوب الغرب بخصوص الشيخوخة :

«إن الشيخوخة عند كل الشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الإنسان وسط عائلته فترة أقل ، لا تلقى من الاحترام نفس ما تلقاه في مصر ، بل إنها تكاد تكون في معظم الأحيان نقيصة ، حيث ينبغي على الملتحي ذى الشعيرات البيضاء أن يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وأن يلعب دور طفل حتى يمكن تحمله في داخل نطاق العائلة . فما أن يحس الإنسان عندنا بأن سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، وبأن مباهج حياته تتضاؤل ، حتى يرى نفسه وقد أصبح عبئا ثقيلا على أولئك الذين يدينون بوجودهم له ، وعندما يصبح في حاجة إلى المواساة والسلوى يرى نفسه وقد أنكر عليه حق الرعاية ، وأغلقت دونه القلوب ، عندئذ تزحف إلى جسمه برودة قاتلة ، وترتجف من برودة الوحدة روحه ، دون أن يجد من حب زوجه وحنانها ما يبعث بالدفء إليه ، في مثل هذه الأمم يموت العجوز - وهو الذى كان من قبل والدا عطوفا - قبل وقت طويل من نزوله إلى ظلمات القبر .»

«فلنخلع إذن النقاب عن وضع ليس عاما لحسن الحظ ، فتلك المشاهد المؤثرة التى كنت أراها كل يوم فى هذا البلد (مصر) قد اضطرتنى أن أقدم لكم هذا النقيض المقابل ، فهنا (فى مصر) ، يبتسم العجوز الذى تلامس لحيته صدره وهو يلقي الاحترام ، يبتسم - برغم وطأة وضعف هذه الشيخوخة - لأحفاده وهم يأتون لمداعبته ، وينشرح صدره وهو يرى أربعة أجيال تهرع نحوه لتقدم إليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون ، فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتى آخر لحظة من لحظات عمره^(١) .

وفى واقع الأمر فإن الأوربيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقة وإعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذى يبلغ مرتبة التقديس ، والذى توليه الأمم الإسلامية

Savary, Lettres sur l'Egypte .

(١)

لكبار السن ، فهوؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك النعت المقرز المرعب : المتوحشون والبرابرة ، يقدمون لنا فى هذا الخصوص مثالا يجدر بالاحتذاء ، على أجمل الفضائل ، فى حين أنها قل أن تنال اهتمامنا مع أنها تستحق كل إجلال . أما هنا فى مصر فكم يعرف الشيوخ ما سوف يلقون من محبة الشباب وعواطفهم ! لذا فإنهم هناك لا يلجأون لتلك الحيل التى لا جدوى منها ، لتفادى ما تعده لهم الأيام - حيث هم شيوخ - من إهانات ، بل على العكس من ذلك ، فهم يتباهون بخطوط السن التى تغضن وجوههم ، ولحياتهم البيضاء سبباً للاحترام المهيبة ، وملابسهم تتسق مع كرامة ووقار عمرهم ، وكل شئ فيهم يفصح عن المهابة والأهمية . فإذا تكلموا أنصت الجميع لما يقولون فى احترام شديد ، وليست أقوالهم بالأقوال الباطلة التافهة ، ولا هم يستشعرون مطلقاً تلك المرارة التى تقطر بها عادة سنوات العجز والشيخوخة . إنهم يتركون الحياة بلا ألم ، بل إنهم لا يكادون يشعرون بذلك على الإطلاق . فبقدر ما يزيد قريتهم من تلك النهاية المحتومة بقدر ما تتضاعف عناية ذويهم بهم ، فلا يعانون من الألم الذى تسببه رؤية أبناء عاقين يتشفون لساعاتهم الأخيرة حتى يقتسموا «أسلاب» تركاتهم ، فمثل هذا النهم البشع لا تعرفه مطلقاً أم الشرق . ومهما كان هؤلاء الأولاد فاسدين فإنهم على الدوام يجدون الدموع التى يذرفونها بغزارة على مقبرة أبيهم ، بل إنهم ليقبلون عن طيب خاطر القيام بأية توضحيات مهما عظمت ، لو كان فى ذلك ما يمد أياماً ثمينة فى عمر آبائهم . ولهذا السبب ، فجريمة قتل الوالدين ، تلك الجريمة البشعة التى يثير مجرد اسمها الهلع فى القلوب ، والتى لم يقرر بشأنها المشرعون القدامى أى جزاء ، كما لو كان من المستحيل عليهم أن يتخيلوا أن تقدم كائنات وهبها الله نعمة العقل على ارتكابها مطلقاً ^(١) ، مثل هذه الجريمة البشعة ، لم تعرفها مصر ، بل كل الولايات التركية ، على الإطلاق .

(١) نذكر فى هذا الصدد أن سولون قد أهمل سن قانون بخصوص قتل الوالدين ، إذ كان ينظر لهذه الجريمة باعتبارها أمراً مستحيلاً . انظر : Plutarque.

والشيخ العجوز هو الحكم الطبيعي الذي يفصل فى المنازعات الصغيرة التى تنشأ بين أفراد أسرته ، وما يقضى به حكم تلتزم به كافة الأطراف بلا تردد ، كما لو أنها حكمة مقدسة تلك التى جاءت على لسانه .

ويترجم العرب كلمة Vieillard (مسن - عجوز) بكلمة : شيخ ، وهو لقب شرف يوحي بمعنى التشريف والسيادة ^(١) ، فالمشايخ هم الذين يحكمون القبائل، ويمارسون على النفوس سطوة تماثل سلطة الحكام ، والكلمة الأولى فى كل العائلات المصرية للكبر سنا ، وهو الذى يتقدم الاحتفالات العامة ، وله مركز الصدارة فى المجالس ، ويقف الناس جميعا عند قدومه ، وتوجه إليه على الدوام علامات الاحترام والتقدير ، وأمامه يتحفظ الشباب وينضبط وهو الجموح بطبعه ، وينصت بشغف إلى ما يقصونه من حكايات ، ويجد فى أحاديثهم ما يرضيه ، بل إننا نكاد نصل لحد الاعتقاد بأن هذا التواصل الحر غير المتظاهر بالخبرة ، يساهم أكثر من أى شئ آخر فى إضفاء الوقار على طباع الرجل الشرقى منذ نعومة أظفاره ، وهو الوقار الذى لا يتكون عند أبناء الشعوب الأخرى إلا فى سن متأخرة ، وبفعل تقدم العمر .

وفضلا عن ذلك فإن الشرق - الذى نتفق على أنه مهد الحضارات - كان مسرحا للتقاليد الأبوية القديمة ، ففي هذه المنطقة من العالم تستمر التقاليد وقتا أطول من غيرها ، حتى أننا ما زلنا نجدهم يعيشون بكل بساطتهم التى كانت لهم وهم يعيشون تحت الخيام ، وثمة تقاليد عديدة تعود إلى عصور قديمة للغاية ، لكنها ما تزال مستمرة داخل العائلات ، وعندما استولى العرب على آسيا نشروا فيها مع معتقداتهم الدينية تلك العادات الاجتماعية التى لأبائهم . وحيث إن احترام الشيخوخة بالغ القدم بالفعل فى مصر كما تشهد بذلك نصوص عديدة من الكتابات المقدسة ، فإن هذا التقليد قد ازداد صرامة بفعل سطوة التقاليد العربية،

(١) بل إن كلمة Seigneur «سيد - شريف» تشتق من الكلمة اللاتينية Senior، وهى تساوى كلمة شيخ . وفى كل العصور نجد أن فكرة الشيخوخة تحمل معها فكرة الاحترام والسيطرة .

حيث الصولجان معقود للسلطة الأبوية التى يبدو أن طبيعة الحياة نفسها تهيئها لها ، وهو نفس ما كان يحدث فى مصر القديمة عندما كانت ما تزال مزدهرة ^(١) . أما السبب الذى ظلت بفضل هذه الفضيلة الحميدة بعيدة عن أى تغيير ، فهو أن الشعوب التى تمارسها لا تعاني من ذلك الفساد الروحى والأخلاقى الذى تعاني منه عادة المجتمعات الكبيرة ، وتجد سعادتها فى المباهج الطبيعية ، ونادرا ما تبحث عن هذه المباهج بعيدا عن وقائع حياتها الداخلية . ولأن أبناء هذه الشعوب كذلك سعداء فى جهالتهم حيث هم محرومون من المميزات التى تهيئها المدنية عادة ، فإنهم كذلك بعيدون عن المساوى التى تجرّها المدنية معها . وإذا كانت أوروبا هى وطن الفنون ومسرح ملذات الشباب ومغامراته ، فإن الشرق - ومصر بوجه خاص - هو على نحو ما ، جنة للشيوخ .

٢

الجنائزات

يكنّ المصريون المحدثون - شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم القدامى - احتراما خاصا للموت ، وتصحب الجنائز باحتفال كبير ، وإن كان الأمر يتم بشكل مغاير لما كان يحدث فى الماضى ، إذ لم تعد تحفظ أجسام الموتى ، لكنها - على الأقل - تودع فى احترام كبير فى القبر ، مثواها الأخير. ويبدى أهل المتوفى وأصدقائه أمارات على حزنهم ، ويجهز الموتى بشئ من الأبهة ، كما أن احترام المقابر واحد من المبادئ الإسلامية التى لا يمكن خرقها ^(٢) .

(١) لم يكن يتفق مع المصريين من الإغريق بخصوص احترام الصغار لكبار السن إلا أهالى لاسيديمونيا ، فإذا ما قابل شاب عجوزا فإنه يدع العجوز يسبقه ، وإذا ما قدم إلى مكان به بعض الشبان فإنهم ينهضون . انظر هيرودت ج ٢ ، الفقرة ٨ ، ترجمة Larcnet طبعة ١٧٨٦

(٢) يقسم المصريون عادة بقبر آبائهم ، ومن الشائع هناك أن تسممهم يقولون : بتربة الوالد ، بتربة أمى .

وليس ثمة ما يستطيع أن يصور ألم أسرة حرّمها الموت من عضو عزيز منها .
 ففي الأيام الأولى بعد الموت ، يكون يأس مرعب ، ثم يأخذ شيئاً فشيئاً ملمحاً
 أقل جزءاً . وتستسلم السيدات تلقائياً لأحزانهن الشديدة ، فيملأن الجو بالعويل ،
 ويتركن البيت الذى اختطف منه الموت واحداً من الأهل أو الابن أو الزوج ، ليعلن
 للجيران واللمارة - عن طريق صرخاتهن المدوية ، المثيرة للحن الشديد - بأنهن قد
 أصبن بخسارة لا تعوض . ويهرع الناس نحو المرأة المكومة ، ويحاولون تهدئة
 اضطرابها ، بينما هى فى أحزانها وجزعها تنزع شعرها وتضرب بقوة صدرها ،
 فيصحبونها إلى المنزل الذى حل به الموت ويدخلون معها . وتتجمع كثرات حول
 الميت : تحرك بعضهن ساقيه أو ذراعيه ، وتضع أخريات أيديهن فوق قلبه ليتأكدن
 أنه ليست هناك علامة أو نبضة تدل على الحياة ، وبعد ذلك يذهبن لإبلاغ شيخ
 الجامع الذى يعد على الفور بعض النائحات المأجورات (الندابات) . وهؤلاء النسوة
 مدربات على الإجهاش بالبكاء والعويل ، وعلى إلقاء المراثى المؤثرة ، وعلى إطلاق
 صيحات لها إيقاع حزين ، ويستدعين فى رثائهن أهل المتوفى وأصدقاءه ،
 وينشدن أناشيد تقال فى هذه المناسبات بنغمة بكائية ، وقد يكون ما يقال كلمات
 عادية شائعة ، مما يؤدى لحدوث مفارقة بين ما يقال وبين النغمة التى يلفظ بها .
 وإذا كان المتوفى ثرياً ، تقيم الندابات وسط عائلته فترة طويلة ، أما إذا كان غير
 ذلك فإنهن يرحلن بعد عدة أيام ، بل وفى بعض الأحيان ينصرفن مباشرة بعد
 إتمام الدفن .

والرجال عادة أكثر ثباتاً فى هذه الظروف المؤسسية ، فألمهم صامت ،
 يمارسون خلاله تعذيباً للنفس تكاد تظنهم يستعذبونه ، ومهما كانت المرارة التى
 تقعم قلوبهم ، فهم يجاهدون أن يكتموا ، ويساهم جمود ملامحهم بالإضافة إلى
 إيمانهم العميق بالقضاء والقدر ، فى جعل هذه المرارة رازحة ، ومع ذلك فهم
 يهجرون لعدة أيام مجتمع أصدقائهم ، فليست أحزانهم برغم وقارها أقل حدة .
 وهناك عادة أن يقوم الناس من أعضاء الأسرة المكومة - فى بعض الأحيان -

بصبغ أيديهم بالنييلة ، كما يمتنعون عن الاغتسال المعتاد طالما ظلت الصبغة فى أيديهم ، كما لا تكف النساء عن البكاء إلا إذا اختفت هذه الصبغة تماما .

ويتم الدفن بعد فترة قصيرة من إسلام المتوفى للروح ، إذ ينقل إلى المقابر فى ظرف ٥-٦ ساعات من موته ، إلا إذا كان ثمة دوافع تبعث على الشك فى أننا بصدد حالة استغراق فى النوم نتيجة لفقدان شديد للوعى ، فهذه العادة - عادة الدفن السريع - التى تنقصها الحيطة تتسبب فى بعض الحالات فى حدوث جرائم غير مقصودة ، فمن الممكن لنا أن نفترض فى بلد كهذا لا يزال فيه الدواء شبه مجهول ، أنهم قد يعتبرون موتا حقيقيا ما هو ليس بأكثر من غيبوبة حدثت بسبب هبوط فى بعض وظائف الجسم ، ولهذا فمن الممكن أن تقع بعض المساوئ نتيجة لهذه العجلة الشديدة فى إجراءات الدفن . فما أن يموت أحدهم حتى يرسل فى إحضار الرجال أو النساء ، حسب الجنس ، الذين يحترفون غسل الموتى ، ويقوم هؤلاء بإخطار بيت المال ، ويطلبون الإذن بالانتقال إلى البيت الذى به الجثة ، ويسجونها على طاولة وينظفونها بعناية فائقة ، ويغطون فى حضرة أقرب الأهل الأعضاء الجنسية للمتوفى ، ويلفونه بعد ذلك بقماش أبيض غير مخيط . وإذا كان الميت واحدا من العامة فإنه يكفن بأحسن ملابسه حالا ، لكن المسلمين المتنورين يدينون هذه العادة باعتبارها عادة سخيفة ومضحكة . وتوضع الجثة فى تابوت عمومى لا غطاء له ، ويغطى بقماش مطرز ، وتكون رأس الجثة دائما إلى الأمام ، كما يحرصون على وضع عمامة فوقها إذا كان الميت رجلا ، أو زهورا إذا كانت الجثة لامرأة .

وبعد هذه التجهيزات تبدأ الجنازة مسيرتها نحو المسجد ، ويفضل فى ذلك الجامع الأزهر باعتباره أقدس مساجد القاهرة ، ويتقدم الجنازة عدد من العميان بيدهم عصى ، ويسيرون فى ثلاثة صفوف من ستة أشخاص وهم متشابكو الأيدي ، وينشدون بنغمة وقورة ومهيبية صيغة العقيدة الإسلامية : " لا اله إلا الله ، محمد رسول الله " ، ويكررون ذلك حتى القبر . ويلى هؤلاء مباشرة خدم المتوفى ،

وهم يرتدون ملابس قاتمة ، وبعد هؤلاء تأتى الندابات مرتديات ثيابا زرقاء طويلة وحجابا أبيض ، ليسبقن مباشرة الجثة المحمولة على أكتاف رجال أربعة ، والموضوعة داخل التابوت ، وخلف النعش تسير العائلة يصحبها عادة شيخ الجامع ، وفى النهاية ، يختتم الجنازة أناس من العامة ، وتسير الجنازة فى سرعة وتناسق .

ويوضع الجثمان للحظة فى المسجد ، ويؤدى الابن الصلاة على أبيه أو يؤديها خلف واحد من رجال الشرع ، وعند الخروج من المسجد ينسحب جزء من الموكب ، ويصحب المشايخ الجثمان حتى مكان المقبرة ، ويتبع هؤلاء عادة بعض أطفال المدارس ، ويحصل رجال المسجد على أجرهم عند المقبرة نفسها ، وتلك عادة عامة .

وبعد الوصول إلى المقبرة ، يؤخذ الجثمان من النعش ، وينزل رجل فى الحفرة ليأخذ الجثمان ويودعه القبر بحيث تكون رأسه متجهة إلى الشرق ، وبعد ذلك يلقى أقرب أهل الميت بيده قليلا من التراب على الجثمان ، ويغطيها الحفاريون على الفور . وبعد ذلك يجلس الأغراب الذين صاحبوا الجنازة ويأكلون حول الحفرة ، ويعود الأهل مع الندابات ليقمن عندهم لآيام عدة مما يسبب مضايقات للجيران^(١) .

(١) فى مصر عادات كثيرة تشترك فيها مع كل ولايات الدولة العثمانية ، لكن ثمة عادات خاصة بمصر وحدها ، قد يكون من الطريف أن نعرض لها . ومن هذه العادات الخاصة بمصر بكاء الندابات أثناء الجنازة ، ولا يحدث هذا عادة فى القسطنطينية ولا فى سوريا ، بل يمكن القول بأنهن غير معروفات فى القسطنطينية أصلا . وفى مصر تظل زوجات المتوفى يطلقن الصرخات تسعة أيام متوالية ، ويستقبلن صديقاتهن اللاتي يأتين للبكاء معهن أو يتظاهرن بالبكاء . ومع ذلك فالمسلمون من الطبقات العليا وكذا العلماء ينظرون إلى هذا العويل باعتباره مخالفا لدين محمد ، ذلك أن الميت لم يفارق هذا العالم - فى رأيهم - إلا للذهاب إلى مكان أسعد (الجنة) ، لكن الدموع ينظر إليها بتسامح لأنها تصدر عن عاطفة محمودة . وعندما يموت رجال ميسورون يتمتعون باحترام كبير ، لا تحدث أية دلالة على القنوط أو اليأس ، بل يحدث العكس أحيانا فتتطلق زغاريد الفرحة .

ولا تدفن النعوش مطلقا ، فالجثمان - كما سبق القول - يودع فى الحفرة التى أعدها الحفارون - الذين أرسلهم الشيخ لهذا الغرض - فى مقابر الأسرة التى بنيت من قبل . وهى فى المقام الأول عبارة عن قبر من الحجارة تصف تحتها الأجساد بجوار بعضها البعض ، وطالما لم يبيل لحم الجثة فلا ينبغى إزعاج الميت ، ولكن عندما يبلى ما يغطى العظام فإن العظام تجمع فى لحد واحد ، وينظر إلى الاحتفاظ بأى جزء من الجثة باعتباره جريمة ، إذ ينبغى أن تدفن الجثة بأكملها . وعندما يموت أحد بعد قدوم الليل يتحتم انتظار شروق الشمس ليتم نقله إلى المقبرة ، ويعتبر المسلمون أن من مبادئ دينهم ألا يدفن الميت إلا والشمس فى الأفق ، بل ويعلقون على مراعاة أو خرق هذه العادة أهمية كبيرة ، حيث لها صلة بالسعادة أو الشقاء فى دار الخلود . ويقوم الأغنياء بدفع نفقات مقابر الفقراء ، ومقابر هؤلاء فى الواقع بسيطة ، لكن أهليهم وزوجاتهم يزينونها بزرع الورود بدافع من العاطفة .

وتوجد مقابر المسيحيين فى القاهرة بمصر القديمة ، ولا يسمح لهم بالدفن فى مكان آخر . وللاثر من مدفن خاص بهم ، وهذه الطائفة من المسيحيين ليست كبيرة العدد ، إذ لا يكاد يبلغ تعدادها ٤٠٠ - ٥٠٠ شخص مستقرين بالمدينة .

ويتمسك بعض المسيحيين فى مصر القديمة بعادة قديمة ، هى أن تكون لهم مقابر صغيرة فى بيوتهم يحتفظون فيها ببقايا جثث ذويهم . وربما لا تكون هذه العادة سوى أثر من ديانة قدماء المصريين ، لكنها محرمة بشدة فى القاهرة ، إما بدافع صحى وإما بسبب عدم التسامح من جانب المسلمين . ويلاحظ هذا الميل نحو المقابر المنزلية بين كبار الأقباط بوجه خاص ، لذا فقد شيدوا بيوتا لهم فى حى منزل فى مصر القديمة ؛ ليقيموا هناك مدافن لذويهم . ويتوجهون إلى هناك من القاهرة حيث يقيمون على فترات من العام ، كما يحتفلون هناك بالأعياد الكبرى لطائفتهم مع الأهل والأصدقاء ، ولا يوجد فى أى مكان آخر أثر لهذه العادة القديمة .

وفى نفس الوقت ، فإن الندابات وكذا الإشارات الخارجية الدالة على الحزن عند موت واحد من الأهل ، جزء أساسى بالدرجة الأولى من الطقوس الجنائزية القبطية ، بل إنهم يذهبون فى إشارات الحزن تلك لأبعد مما يذهب المسلمون ، فهم يملأون الضواحي المجاورة بصيحاتهم التى تعقبها على الفور صيحات الندابات ، ويستمر هذا العويل أحيانا عدة أسابيع . بل يمكننا الافتراض بأن الأقباط هم الذين نقلوا هذه العادات إلى المسلمين ، حيث من الثابت أن المسلمين فى الأجزاء الأخرى من آسيا لا يراعون هذه العادات على الإطلاق ، وثمة نص لهيرودت ننقله هنا ، يؤكد بالمثل أن البكاء - مصطنعا كان أو صحيحا - الذى يستسلم له الناس عند نعى قريب ، له أصل فى مصر بالغ القدم . يقول المؤرخ الإغريقى : «عندما يموت رجل هام يغطى كل نساء منزله روعسهن بل ووجوههن بالطين ، ويتركن الميت فى المنزل ، ويحزمن وسط جسمهن ، ويكشفن عن صدورهن، ويعبرن المدينة وهن يدقن على صدورهن ، وتحسبن فى ذلك قريباتهن ^(١) » . ألسنا نجد فى هذه العادات التى تمارسها هاتان الأمتان (المسلمون والمسيحيون) تماثلا كبيرا مع تلك التى نقلها هيرودت الموجز على الدوام والذى يبدو لنا عند قراءة نصه أنه قد تحدث بتفصيل أكبر مما يفعل عادة ؟ إن هؤلاء الأهل المكلمين فى الماضى قد تركوا مكانهم بلا جدال لندابات اليوم . ويقدم لنا بقية وصفه نفس التتابع مع اختلافات طفيفة للغاية ^(٢) .

(١) هيرودت : ج ٢ ، الفقرة ٨٥ ، ترجمة Larchet طبعة ١٧٨٦ .

(٢) يقدم لنا ديودور الصقلى نفس التفاصيل فيقول : «ما أن يموت أحد الناس حتى يسارع أهله وأصدقاؤه فيغطون رأسهم بالطين ، ويسيرون فى الشوارع يكون حتى يتم دفن الجثمان» . ولكن ثمة شيئا عند ديودور أكثر تحديدا عندما يتحدث عن حداد المصريين عند موت أحد الملوك : «عند موت الملك تدخل مصر كلها فى حداد ، فيمزق الناس ملابسهم وتغلق المعابد أبوابها وتعلق الأضحيان وتوقف الأعياد والاحتفالات لمدة ٧٢ يوما . ويقوم عدد من الرجال والنساء يبلغ ٢٠٠ - ٣٠٠ شخص ، رؤوسهم مغطاة بالطين وصدورهم محزمة برباط ، بالانتحاب والرتاء على صوت الموسيقى مرتين فى اليوم » . انظر ديودور ، الكتاب الأول ، الفصل الثانى .

وعندما يشعر رجل ما بدنو أجله فإنه ينظم شئونه ، وإذا ما كان حذرا فإنه يجمع عددا صغيرا من أصدقائه ليشاركهم فى رغباته الأخيرة . وتحتم الشريعة قبل توزيع التركة أن تجنب أولا المبالغ اللازمة لتسديد الديون ، وكذا الهبات الخيرية التى يكون المتوفى قد التزم بها . وللأبناء الشرعيين حق الإرث ، أما غير الشرعيين فلا يحق لهم الإرث دون نص صريح من الموصى . وهذه الترتيبات خاصة بالذكر وحدهم ، أما البنات والزوجات فليس لهن حق الإرث فى الملكيات العقارية . وسوف نتحدث بتفصيل أكبر عن هذه القوانين الجائرة فى الفصل القادم من مؤلفنا (الفصل الخامس) والخاص بالأنظمة والمؤسسات .

ويمكن للأرملة أن تتزوج مرة أخرى بعد مضى أربعة أشهر وعشرة أيام على وفاة زوجها إذا لم تكن حاملا ، وفى الحالة الأخيرة يمكنها أن تتزوج بعد الوضع . وللأبناء أيضا حق الزواج بعد موت والدهم ، لكن اللياقة تحتم انقضاء فترة بين حدث محزن لهذا الحد وبين فعل يتطلب على الدوام مظاهر الخفة والفرح ، وفى ذلك تناقض واضح ، ولذا فإن من يستبجح لنفسه أن يعقب جنازة أى من والديه بحفل زفافه يغطى نفسه بوصمة لا تغتفر لدى الرأى العام .

٣

المقابر

يبدى المصريون المحدثون اليوم عناية بمقابرهم - تماثل عناية أسلافهم فى الماضى - جعلتهم يقيمون منشآت أقل ضخامة حقيقة مما أسسه القدماء ، لكنها على روعة غير عادية إذا ما وضعنا فى الاعتبار حالة المصريين فى الوقت الحاضر . لقد حدثت ثورة تامة فى التقاليد والديانات والعادات الاجتماعية ، ومع ذلك فقد ظلت ضفاف النيل كما كانت فى الماضى ، هى المكان الذى تحترم فيه أكثر من غيره أجداد الموتى ، فليست هناك كما يحدث فى البلدان الأخرى تلك الأحواش الفقيرة والمتهدمة التى تضم مقابر أولئك الذين انطفأت شمعة حياتهم ،

ولا يحدث فيها - كما يحدث فى أماكن أخرى - أن يطاء المرء بقدميه وهو يسير فى أرض قاحلة أو يجوس خلال الأعشاب البرية عظاما بشرية مبعثرة كيفما اتفق . نعم ليس ثمة مثل هذه الأعمال المजوجة والناجمة عن الإهمال واللامبالاة ، والتي تكشف عن مدى ما تلقاه أرواح الموتى من إهانة وازدراء على يد الأحياء . فكل شئ هنا - فى هذا الصدد - يختلف ، فثمة أشجار باسقة تظلل المقابر ، أو ثمة على الأقل ورود زرعتهما بين القبور عاطفة محبة ، تحول مثل هذا المكان المقبض إلى نوع من الحدائق العامة ، و ثمة مقاعد وفراغات بين المقابر ترسم نوعا من الشوارع الصغيرة ، نرى على امتدادها آثار عمل الإنسان .

يالروعة بناء المقابر ! ويالروعة النقوش التى تغطيها .. إن المرء ليؤخذ بهذه الروعة الورعة لحد أن يتذكر ما كان يحدث فى الأزمنة الخوالى : « تتجلى عناية القدماء بمقابرهم فى تلك الأموال الطائلة التى ينفقونها عليها ، وفى إقامة الأهرامات والنحت فى الجبال واستخدام نقوش ورسوم بالغة البذخ .. وباختصار فى تلك الروعة المدهشة » . وما يزال نفس هذا الميل موجودا حتى اليوم ، وينفق المصريون فى هذا المجال من المال أكثر مما ينفقون على ملابسهم ومساكنهم . هنا يتجلى معنى ما قاله ديودور الصقلى عن أسلافهم من أنهم يعتبرون بيوتهم مجرد نزل عابرة لا ينبغى التوقف عندها طويلا ، لذا فعنايتهم بها قليلة ، هذا فى الوقت الذى يعتبرون فيه المقابر بمثابة دار للخلود ، فيشيدونها بكل الفن والمهارة ، وهو أمر كانوا ضليعين فيه . لقد تغيرت ديانتهم بشكل كامل ، ومع ذلك فقد ظلت العادة كما كانت فى الماضى : فبجوار كل مدينة كبيرة توجد مدينة صغيرة للموتى ، حيث يكون لكل أسرة ميسورة لحد ما مدفن خاص بها ، وحيث تزين كل المقابر بالنقوش والرسوم الجميلة (١) .

ويختار المصريون المحدثون لمقابرهم - شأنهم فى ذلك شأن المصريين القدماء - المناطق المرتفعة فوق مستوى النهر ، حتى لا تصل مياه النهر إليها

(١) انظر وصف مدينة طيبة فى دراسة المسير جومار عن المدافن الأرضية .

فتهدمها ، ومن جهة أخرى فإن الأراضي القابلة للزراعة فى الوادى غالية الثمن ، وضرورية للأحياء لدرجة لا يمكن معها أن يجعلوا منها مأواهم الأبدى ، وعلى هذا فينبغى أن يكون المكان الذى يستخدم كمقبرة قاحلا أجرد لا يبنى أو يزرع فيه . والأرض التى خصصت للناس لتكون مقرهم الأخير ينبغى أن توقف عليهم ، وألا تقلق هناك أجسادهم بأن يسمح للفلاح أن يغرس فيها سلاح محراثه . وإذا امتلأت مقبرة ما فلن يناع أحد عظام الموتى فى مكان خصص لها ، فلا تطفى المقبرة من العظام ليخلو المكان لموتى جدد . . هناك فى هذه المقابر يرقد الفقير مستريحا تحت المكان الحجري الذى خصص له ، أما الغنى فإن ما دفعه لشراء تلك المساحة الضيقة التى يشغلها قبره لن يضيع هباء . وهكذا ، فما أن تطفى المقابر مساحة الأرض التى خصصت للمدافن حتى تسمح الحكومة بأرض جديدة لنفس الغرض ، وتهجر الأولى ، ومع ذلك يظل ينظر إليها الناس باحترام وروع ، ويصبح من أعمال الخير - لوقت طويل من هذا الهجر - أن يضع الناس الورود فوق رخام المقابر .

ويقع المدفن ، أو مدينة المقابر ، فى مدخل المدن عادة ، وخارج نطاقها ، ويستطيع كل إنسان أن يدخلها بلا عائق ، إذ ليس ثمة حائط أو سور يعوق الاقتراب منها . ويا لها من مفاجأة بالنسبة للأجنىبى - الذى لم يكن قد رأى حتى هذه اللحظة إلا الأكواخ التى يسكنها الأحياء فى الريف - عندما يرى هذه المقابر الباذخة ! فثمة غابة من العواميد والنصب التذكارية والأضرحة . . تطفى مساحة شاسعة : وقد يظن المرء فى البداية أنه أمام مدينة بديعة هجرها عشية أمس سكانها ، وعندما يرى شوارع المدفن فقد يظن أنه فى سهل مزروع بالمقابر ، وفى كل مكان ستتجلى فنون العمارة التى تتضاءل إلى جوارها - وبخاصة الأضرحة الكبيرة - عمارة المساجد وقصور الكبار .

وتصنع الأعمدة وشواهد القبور من الرخام الأبيض ، أما أساس المقابر فمن الحجارة ، وتصنع القبة من الخشب وتغطيها طبقات من الجبس أو الجير شديد

البياض . ونقوش المقابر ذات ذوق شرقى ، وهى عبارة عن زخارف تحوى زهورا من مختلف الأنواع نُفذت بعناية ، وتغطيها رقائق ذهبية مما يعطيها مشهدا بديعا . أما أولئك الذين لم يحوزوا إلا ثروة متواضعة فيكتفون بالكتابة على مقابر أهلهم بالأسود ، لكن الكتابة التى ينفذها الأغنياء على مقابرهم ذهبية اللون . وتتكون المقابر العادية من حجر فوق اللحد ، يرتفع من أحد جانبيه عمود يحمل عمامة ، وينتهى جانبه الآخر بقطعة حجر مسطحة ، تنتهى بشكل مدبب ، وقد شذبت جوانبها لتأخذ شكل مسلة ، وتنقش عليها النقوش ، وهى فى بعض الأحيان نقش لشجرة سرو أو لورود منفذ بعناية شديدة . وتتكون مقابر السيدات من حجرين مسطحين ، ينهض أحدهما عند الرأس والآخر عند القدم ، وهما مليئان بالرسم والنقوش ، وينتهى كل منهما بشكل مسلة لكنها لاتحمل عمامة . وتصنع هذه الحجارة من الجرانيت ، أو من الحجارة الجبلية ، وفى هذه الحالة لاتكون مزدانة بأية نقوش . وفى بعض الأحيان تغطى المقبرة كتلة صماء من الحجر ، وهذا أمر كاف عند الأتقياء الورعين ، فكل إنسان يبذل ما يستطيع لتكريم ذكرى ذويه . وفى آسيا حيث الأراضى خصبة والأمطار غزيرة يزرع الأتراك فى المدافن أشجار السرو ، ويشبه المدفن عندئذ غابة واسعة ، إذ ترتفع هذه الأشجار إلى علو شاهق . ومهما بلغ عمر الشجرة فلا يسمح بقطعها ، فقطع هذه الأشجار جريمة لا يغفرها القانون .

ويوم الجمعة بوجه خاص هو اليوم المحدد لزيارة المقابر ، وتذهب الأسرة إلى هناك بأكملها ، فتصحب الأمهات أطفالهن ، ويتجمع هناك الأصدقاء ويجلسون حول مقبرة الفقيد ، ويتربعون على الحصر ليتناولوا بعض ما يحملون من هبات ، ويتحدثون بمرارة عن الخسارة التى حدثت ، وعن فضائل الفقيد وكفاءاته ومميزاته . وهم يذهبون إلى مدينة الموتى هذه عند شروق الشمس ، ويمضون فترة الصباح كلها فى الصلوات والدعوات الدينية . وفى هذه الأيام المهيبة يبلغ الزحام درجة تبدو معها المقابر وكأنما تقطنها جماهير غفيرة ، ويمكن أن نتخيل أحجة

النساء وهى ترفرف ، وملابس الرجال الزاهية بكل الألوان الفاقعة والمتنوعة ، وفخامة مباني المقابر التى تغطى السهل ، فنتذكر على الفور تلك الأساطير القديمة التى ولدت على نفس هذه الضفاف . . إذ تبدو هذه الأماكن وكأنها مقر لأشباح محظوظة ، يخيل للمرء أنها تهيم على وجوهها وهى تخطو خطوها البطيء وسط مساكن الموت هذه . أمام مجموعاتهم تلك المنتشرة هنا وهناك تحت أشجار الأكاسيا والجميز ، فتبدو وكأنها تقدم لعيون المسافرين لوحة من جنة الدار الآخرة تكملها وتجسدها مخيلته .

وتمتلك العائلات الغنية - كما سبق القول - مقابر رائعة الجمال ، ويعتبر بعضها فى الواقع مساجد صغيرة ، وهى محاطة بسور ، ويدفن فيها عبيد الأسرة وخدمها ، ويدفن السادة تحت القبة ، ثم تجمع عظامهم بعد ذلك فى قبر واحد . أما المقابر الأخرى فهى أكثر بساطة ، وتتكون من أساس من الحجارة تعلوه أربعة عواميد ، تحمل أقبية وسقيفة إما على شكل قبة أو على هيئة هرم ، وتوضع الأجساد عند الأساس ، أما المقبرة فتظل خالية وتبنى تحت القبة التى تحدثنا عنها .

وفى معظم الأحيان ثمة مربع محفور وسط المستطيل الذى يغطى المقبرة ، ويملؤه الناس بالتراب لتزرع فيه الزهور بدافع المحبة والاعتزاز والتبجيل .

أما العامة الذين لا يقدرّون حتى أن يثبتوا مجرد حجر عاوى علامة على المكان الذى يرقد فيه أعزّاءهم ، فإنهم يكتفون برفع مستوى الأرض حول حفراتهم ، ويزرعون فيها بالمثل ورودا يأتون كل أسبوع لريها .

ومدافن المصريين تحظى بتقديسهم ، وهم يحرصون على أن يبعدوا عنها كل ما يمكنه أن ينال من قداستها . وتحاط مدينة القاهرة بأحواش مقابر سبق أن تحدثنا عن فخامتها ، لكن ينبغى أيضا أن ننوه بمدينة الموتى فى سيوط (أسيوط) فى صعيد مصر ، فهى تقع عند سفح جبل على حافة واد يانع الخضرة ،

ويخترقها طريق واسع للغاية يفضى إلى الصحراء . ويحيط بكل مقبرة جدار أبيض، تعلوه رسوم زاهية اللون، وتظلله النخيل وأشجار الأكاسيا والجميز . وتعمل عاطفة الأحياء نحو ذويهم هناك على مضاعفة عدد هذه الأشجار والعناية بها .

وهكذا فإن المصريين الذين تربط بينهم على الدوام المودة وصلات الدم ، يقدمون بعد موت أحبائهم علامات مؤثرة على ذلك الحزن العميق الذى انتابهم بفقد هؤلاء . فهم - مثل أسلافهم - يحسون بقوة بمباهج المشاعر الأسرية ، وتصدمهم بشكل مؤثر تلك الضربات التى تحرمهم من مخلوقات عزيزة عليهم ، خسارتها لاتعوض . وهكذا أيضا نراهم بعد أن يكونوا قد تذوقوا سعادة أن تشملهم المحبة أثناء حياتهم ، يتمتعون بعد أن يتركوا العالم الأرضى ، بسعادة أن يخيم على ذويهم الأسف على فراقهم .

٤

الحداد والندابات

لدينا فى أوربا وقت محدد للحداد الكبير ، أما الحداد الصغير فيلى ذلك . لكن هذه الممارسات مجهولة فى الشرق ، فهناك يعبرون عن الحزن والأسى بطريقة أخرى ، كما أن للآلم هناك لغة غير تلك التى لدينا . فخلال عدد من الأيام حددها العرف ، تظل المرأة تبكى وفاة أقاربها سواء داخل بيتها أو فى المسجد أو على القبر ، وثمة وقت من أوقات النهار مخصص لهذا الواجب الحزين . وينفذ هذا الواجب بدقة تستعصى على الفهم . صحيح أننا نلاحظ فى بعض الأحيان نوعا من التكلف فى هذه الممارسات الخارجية ، إذ ليس من النادر على سبيل المثال أن نرى النسوة يعبرن الشارع - وهن فى طريقهن إلى المسجد أو إلى المقابر - دون أن يبدين أية دلالة على الحزن ، ثم ينهضن من هناك بعد أن يكن قد أطلقن صرخات الحزن المؤثرة لمدة تقرب من ساعة ، ويرحeln دون أن تحتفظ ملامحهن بأقل أثر لانفعالهن ، وبرغم ذلك فإن هذه المظاهر صادقة وحقيقية عند العدد

الأكبر من هؤلاء النسوة ، ولكي تقتنع بذلك ، فيكفيك أن ترى كما رأينا بأُسُات يهزهن الخوف من فقد أحد أقاربهن ، يحادثن أنفسهن ويُعبّرن بصوت خفيض وبطريقة تثير الشفقة عن القلق الذي يأكلهن . وكثيرا ماسمعنا نسوة ينطقن - أثناء سيرهن فى الشوارع - بالدعوات الحارة كي يبعد الله المصيبة التى تهدد أسرتهن، ولا يقطع حديثهن إلا العبرات التى تمزق صدورهن ، ويعبرن عن مشاعرهن تلك بلا حرج وبلهجة صادقة ، ويدعين الله أن يطيل عمر من يعانى من الخطر على حساب عمرهن، يقلن ذلك بحرارة لدرجة يكون من الظلم معها أن تشك فى إخلاصهن . فإذا كان الخوف من الخطر يعذبهن بمثل هذه الطريقة المؤلمة أفلا ينبغى أن تفترسهن الأحران إذا ما تحققت مخاوفهن ؟ وكثيرا ما رأينا سيدة فقدت طفلها العزيز وهى تندفع إلى خارج بيتها نائحة باكية ، لتجوب الشوارع وتلقى بصرخاتها المنتحبة تنادى طفلها بصوت يمزق القلب : يا والاد... يا والاد! (يا ولد.. يا ولد) .

والسيدات وحدهن فى مصر يقمن محافل البكاء بعد موت أقاربهن ، أما الرجال فعليهم كما سبق القول أن يظهروا قدرا أكبر من ضبط النفس ، فإذا تألوا فإن ألهم مركز ، بل إنهم يطلبون من النساء - إذا ما ذهبن إلى بعيد فى التعبير عن بؤسهن ^(١) - أن يعتدلن ويتحلين بالصبر . وفى الدموع والأحزان يتجلى حداد مصر ، ولا يفرض الدين زيا محددا للحداد ، ومع ذلك فإن الناس يرتدون ملابس قاتمة علامة على الحداد ، لكن أبناء الطبقات العليا لا يخضعون لهذه العادة ، فما أن يدفن شخص منهم وتؤدى عليه الصلوات حتى لا يعود ثمة أى حداد دينى ملزم ، ويكتفون بقضاء عدة أيام فى استقبال المعزين . ويدعى إلى وجبة جنازية كل أصدقاء المتوفى ، وتخصص هذه الوجبة لذكراه التى تكون موضوعا للحديث ، ويأخذ كل مدعو فى إعداد مناقبه .

(١) ليست النساء المسلمات وحدهن كما سبق القول من اللاتى يبكين موتاهن ، فربما تتفوق عليهن المسيحيات فى هذا الخصوص . وهذه العادة عامة فى مصر .

أما الندابات اللاتى يتبعن مراسيم الدفن فهن نساء من الشعب ، مدربات منذ زمن طويل على العويل وتصنع صرخات اليأس ، وليس ثمة مسلم متنور إلا ويدين هذه العادة الكاذبة ، ومع ذلك فقد لاحظنا أنها لاتصدم الرأى العام . وتلجأ زوجة الواحد من الكبار ، عندما تخشى أنها لن تستطيع أن تسكب وحدها على المرحوم قدرا كافيا من الدمع ، أو ربما عندما تجد أن مهمة الانتخاب لمدة طويلة بلا انقطاع تفوق طاقتها - تلجأ إلى استدعاء الندابات اللاتى يقمن فى الحجرة من البيت التى كان الجثمان مسجى فيها ، وهناك يقمن بتأبين الميت ولكن بطريقة شديدة النحيب . وتبدأ إحداهن بإطراء فضائل المتوفى ، وما أن تلفظ أول كلمة حتى تطلق الأخريات فى صوت واحد صيحات مفزعة ، كما لو كان ذلك للتعبير عن حجم الخسارة التى أصابت العائلة . وتشرب الندابات من إبريق موضوع على موقد فى نفس الحجرة وعقب كل نوبة تأبين ، قدحا من القهوة . ومع ذلك فليس فى صرخاتهن مايمس قلب الأجنبى ، فهن يعولن أكثر مما يبكين بعاطفة ، وأغلب هؤلاء التعيسات لايسكنن دموعا ، ويقتصر عملهن على الإتيان ببعض الحركات وأن يرثين بنوع من الإيقاع الحزين . ولايسمح النقاب الذى يغطى وجههن ، والذى بدونه لايمكن لهن أن يتجاسرن على الظهور أمام الناس - لايسمح للمرء أن يكشف كذب بكائهن .

وعلى الرغم من الاحتقار الذى يبدية المسلمون المتنورون لهذه الاحتفالات الجنائزية والتى تشبه مسرحية هزلية أكثر مما هى تعبير حقيقى عن الألم ، فإن من المحتمل أن تظل هذه العادة لوقت طويل فى كامل قوتها ، إذ من الصعب أن تقتلع معتقدات من جذورها بعد أن امتد بها العمر وتجسدت فى هذه العادة الضاربة فى القدم ، وإنه لأمر أكثر مشقة عند شعب روتينى ، يبدو كما لو كان يرى - على نحو ما - فى حذوه حذو أسلافه أمرا له قداسة الأديان .

الفصل الخامس

النظم والمؤسسات

.

رجال الشريعة والقضاء

بعد أن انتهينا من الحديث عن التقاليد الأسرية والعادات الاجتماعية للمصريين المحدثين ، وبعد أن تعقبناهم فى مختلف أطوار حياتهم من المهد إلى اللحد ، فسوف نهتم الآن بأنظمتهم ومؤسساتهم المدنية والدينية ، ولعل هذا هو أهم فصل فى مؤلفنا ، إذ كان من المستحيل على الرحالة الذين جاؤا إلى مصر قبل هزيمتها على يد الفرنسيين أن يحصلوا فى هذا الصدد على أفكار ومعلومات موضوعية ، فقد كان ثمة عقبات كبيرة تحول دون أبحاث بهذه الدقة ، كما أن مثل هذه الأبحاث كانت تثير الهلع كما كانت تثير ريبية وشكوك الحكومات المستبدة ، التى كانت تتولى شئون البلاد . لقد كان الأمر يتطلب وجود ودعم جيش منتصر مسيطر ، وعلاقات يومية ومباشرة مع السكان من كافة الطبقات ، حتى يمكن دراسة قوانين مصر ونظامها المالى والإدارى . وقد سبق أن قدمت دراسة «استيف» Estéve لوحة كاملة عن الدخل العام ، وتوزيع واستخدام الضرائب ومختلف أنواع الملكية ، أى أنها قدمت باختصار لوحة عن كافة أقسام الحكومة التى كان عملها الإشراف على مالية الدولة .

ولقد كانت المهام التى أوكلت إلى الأستاذ استيف هى التى مكنته من أن يرى بعينه كل شئ ، وأن يسبر فى ثنايا ذلك غور تلك الإدارة البطيئة والمعقدة . علينا إذن فى فصلنا هذا أن نهتم بالدرجة الأولى بالنظم والمؤسسات التى لا يدخل فى نطاقها الموضوع الذى عالج زميلنا ، وأن نبدأ بالقوانين المدنية التى يخضع لها المصريون فى الوقت الحاضر . ولكن من الأمور الملحة قبل أن نمضى فى تمحيص هذه القوانين أن نتعرف على الأشخاص الذين كانوا أعضاء فى هذه المؤسسات أو قائمين على أمر هذه النظم . وحيث إن الشريعة الإسلامية وكتابها «القرآن الكريم» هما القاعدة الرئيسية التى تنهض عليها القوانين المدنية ، فإن رجال

الدين قد أصبحوا فى نفس الوقت رجال القانون . وهؤلاء ينقسمون إلى عدة طوائف ، ومهامهم باللغة التنوع : فبعضهم تقتصر مهمته على العناية بالمساجد ، ومن هؤلاء الإمام ، وهذا النوع من الرجال ليسوا بالأغنياء ولا بذوى المكانة ، فبإمكان كل مسلم ملم بالقراءة والكتابة وإقامة الصلاة أن يكون إماما لمسجد . وهو ليس من رجال الدين المتخصصين ولا يرتدى زيا خاصا ، وهذا النوع من العمل وراثى فى العائلات ، ومن الممكن التنازل عن هذه الوظيفة لآخر مقابل جعل من المال .

والقاضى هو الذى يفحص الأئمة ، ويمكنه أن يقبلهم أو يرفضهم حسبما يتراءى له عن المرشح ، وهل هو فى مستوى الوظيفة أو ليس فى مستواها وليس ثمة هيرارشية (هرمية) بين الأئمة ، فهم أئمة المساجد وليس أكثر من ذلك . والباب العالى عليهم وعلى كل العلماء نوع من السطوة الروحية ، ولكن إذا حدث أن كان ببعض فرماناته ما يتعارض مع بعض ما جاء فى القرآن فإنهم لا يلزمون أنفسهم بطاعتها عن اعتقاد ، إذ لا ينبغى عليهم أن يطيعوا إلا الله ورسوله .

ويشكل الأشراف فى مصر طبقة منعزلة ، وهم يتمتعون بنفوذ كبير ، وسبب مكانتهم تلك هو اللقب الذى يحملونه ، فشریف معناه متميز ، وهذه الصفة لاتخلع إلا على أحفاد محمد من ابنته فاطمة ، ويحق لهم وحدهم لبس العمامة الخضراء . ويقول بعض العلماء : ويل لمن يدعى لنفسه الشرف دون أن يكون كذلك، وويل لمن يهجر الأشراف . ونحن نجد أشرافا من مختلف الطبقات ، وئمة أشراف لاتعرف ماهى مهنتهم بالضبط ، بل وئمة منهم من يمارسون أعمالا مرذولة . وينقل النساء هذا اللقب لأولادهن من الجنسين ، وحيث إن من حقهن أن يتزوجن بلا تمييز ، أى سواء من شريف أو من مسلم ليس من الأشراف ، فبإمكاننا أن نستنتج كيف يمكن أن يتضاعف عدد أفراد هذه الطائفة .

ويختار الباب العالى واحدا من أبرز هؤلاء الأشراف ، ليعينه نقيبا للأشراف ،

وهى وظيفة محترمة ، ويقوم من يتولاها فى القاهرة . ويأتى هذا النقيب عادة من القسطنطينية مع القاضى ، ويدفع فى مقابل وظيفته تلك حوالى أربعين ألف مدينى ، ويحصل على دخل عديد من القرى الصغيرة هى بمثابة إقطاع لوظيفته . ولا يعهد لشخص ما بهذا المنصب إلا لمدة عام ، يثبت فى نهايته النقيب أو يستبدل به غيره حسب مشيئة السلطان .

ويحاكم كل الأشراف أمام نقيبهم على ما يأتون من أخطاء بسيطة ، لكن ليس من سلطته أن يحكم على واحد منهم بالموت ، فالقاضى وحده هو الذى يختص بمحاكمتهم فى الأمور المدنية والجنائية مثلهم مثل بقية المسلمين . وعندما يحكم على واحد منهم بالإعدام يتولى النقيب تنفيذ الحكم . وللأشراف سجن خاص بهم ، ويستخدم جزء من دخول القرى الموقوفة على النقيب لإطعام المساجين من الأشراف^(١) .

وليس ثمة بلد يتمتع فيه الأشراف بامتياز أكبر مما يتمتعون به فى مكة ، إذ لهم الخطوة على سائر المسلمين فى كل الاحتفالات الدينية ، ولهم بخلاف ذلك امتيازات كثيرة ، ومع ذلك فشريف مكة ليس سوى أمير زمنى ، وليست له أية قداسة دينية ، بل إن الصلاة لاتقام مطلقا باسمه ، بل تقام الصلاة على الدوام فى الحرم المكى باسم السلطان .

ولقد سبق لنا أن تحدثنا عن العلماء ، وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاث طبقات كبرى : رجال الدين ، علماء الشريعة ، القضاة . والأولون هم الأئمة ، والآخرين هم رجال الإفتاء ، وهم بمثابة محامين استشاريين يبدون آراءهم فى كافة الأمور ، أما الفئة الثالثة فهم قضاة العدل . ويمنح القضاة من الدرجة الأولى لقب مولاي ، ومعناه

(١) يوجد كذلك اختلاف فى طريقة إعدام الأشراف ، إذ لا يمكن أن تفصل رؤوسهم عن أبدانهم ، ويرسل النقيب إلى السجن من يقوم بخلق المحكوم عليه بالإعدام ، ولا تعلق أجسادهم كذلك بعد تنفيذ الحكم ، بل تدفن على الفور .

سيد أوشريف . أما شيخ الإسلام - أو مفتى القسطنطينية - والوزير الأكبر (الصدر الأعظم) فهما أهم شخصيتين بعد السلطان في كل الامبراطورية ، وهما يمثلان السلطان : الأول في الشئون الروحية ، والثاني في الأمور الزمنية . وليس من حق السلطان أن يعدم المفتى بنفس الطريقة التي يُعَدَّم بها المذنبون العاديون ، وعندما يدان شخص ما وهو يتقلد هذا المنصب الخطير بجريمة كبيرة فإنه يلقي عقابا خاصا ، ربما كان أكبر بكثير من ذلك العقاب الذي يوقع على المجرمين العاديين .

وتعرض على المفتى المسائل العويصة التي قد تظهر عند تطبيق بعض أحكام الشريعة ، ويتوجه إليه للحصول على حكم منه باعتباره رجل الشريعة المكلف بإبداء الرأي في العقوبات التي تطبق في بعض الجنايات . وهذا الحكم الذي يصدره عن هذه الأمور الجنائية ، أو في غيرها من المسائل المدنية ، مثل حقوق أطراف النزاع في قضية ما - يسمى فتوى ، وهي تماثل منطوقا شرعيا تحدد مسار حكم القاضي . ويحرر هؤلاء فتوَاهم كتابة ، ولكن عندما يطلب إلى المفتى إيضاحات حول نقطة غامضة في القانون فإنه يستدعى كبار العلماء ليناقد الحالة معهم ، ومن النادر أن يلجأ قاض ضليع في الفقه إلى طلب رأي المفتى بل وأكثر من ذلك أن يلتزم بقراراته . ولكن عندما لا يكون القاضي ضليعا في الفقه كما يحدث في معظم الأحوال ، فإنه يلجأ على الدوام لطلب رأي المفتى قبل أن ينطق بالحكم .

ولكل من المذاهب الإسلامية الأربعة - التي تحدثنا عنها في الفصل الأول - مفت خاص بها في القاهرة ، لكن هذه الوظائف لاتمنح ، بل هي لقب أو جدارة تنال بالسمعة . أما في المدن الأخرى والتي تحظى ببعض الأهمية فإن المفتى يقوم بإرسال قاض يمثله فيها ، ولا يمارس هذا «المولى» وظيفته إلا لفترة قصيرة من الزمن ، وأمثاله في تركيا يغيرون كل شهر ، ويدفعون ثمنا لوظائفهم مبلغا يتفاوت بحسب ثراء المدينة التي سيمارسون فيها عملهم ، والمولى بعد الحاكم هو السلطة الأولى في المدينة .

وثمة في مصر نظام للنسك المسلمين ، وينتشر إلى حد ما في الولايات التركية الأخرى ، ويسمى المنتسبون إليه دراويش . وهم يعيشون في جماعة ، ويرحلون من خلوة إلى أخرى ، وليس محرما عليهم أن يتزوجوا ، لكن لا يمكن قبول زوجاتهم معهم في الخلوة ، وعلى هؤلاء أن يقمن في مساكن خاصة . ولكل جماعة من الدراويش دخول ، تأنيتها من هبات موصى بها ومن منشآت أوقفها عليهم الخيرون من المسلمين . ولكل طريقة رؤساؤها ، ولكل خلوة رئيس يسمى شيخا ، وفضلا عن ذلك فإن هؤلاء الدراويش يتمتعون باحترام عام ، ولكنهم يتهمون بالتفلسف ، وهذا اتهام خطير عند شعب جاهل يتشبه بأخطائه بحكم التعود الطويل . فالشرقيون يسمون فلاسفة كل العقول التي لايسهل عليها أن تتقبل بسهولة الكثير من الأفكار والآراء ، وبخاصة تلك العقول التي ليست على استعداد للاعتقاد في معجزات النبی . ومع ذلك فمن الصعب أن نقبل اتهامها كهذا يوجه إلى الدراويش ، فهم ليسوا متنورين للحد الذي يتعمقون معه في موضوعات جادة ، بل يبدو أن مثل هذه الموضوعات لاتثير اهتمامهم . ومهما يكن الأمر فإنه يظن بكثير منهم الهرطقة وعدم الورع ، ويقول خصومهم بأنهم يجعلون من إيمانهم بالله نهاية المطاف لعقيدتهم ، فلا يلتزمون بعد ذلك بإقامة الصلاة أو الامتنثال للفروض ، وبأنهم لا يخضعون إلا من حيث الشكل ، وبأن كل مايتظاهرون به فارغ لا قصد منه سوى الرياء . وثمة طوائف دينية أخرى كثيرة من المسلمين ، ولكن حيث إن بعض هؤلاء من النسك العاكفين وبعضهم الآخر حجاج جوابون ، فسوف يكون من الصعب علينا أن نقدم تفاصيل موضوعية عنهم ، ولكننا نكتفى هنا بأن نتحدث بعض الشيء عن الأولياء ، وهم بالنسبة للمصريين موضع تقديس خاص .

ليس ثمة شعب لم يخلط بمعتقداته وممارساته الدينية صورا من صور الامتنثال المضحك ، فلقد صور المصريون في عصورهم القديمة الآلهة في أشكال بالغة الغرابة والوحشية ، وقدس الإغريق آلهتهم الذين أظهروهم في شكل النهمين بالملذات الخليعة والمنفرة ، أما الرومان فقد كان لديهم عرافوهم الباحثون عن

شكل المستقبل بفحص أمعاء وجروح الأضحيات . وكم من مرة استسلم الشيوخ العظام لأول جمهورية عرفها التاريخ لشهية الدجاجات المقدسة ، أو لنتيجة استجلاء جروح الأضحيات حتى يقرروا مصير الوطن . أما عبادة الكهنة الغاليين فهي أكثر الأمور المفزعة التي يقدمها لنا التاريخ ، ومع ذلك فقد ظلت لوقت طويل عزيزة على الغاليين . وهكذا - وكأن هذا قدر لا يمكن الإفلات منه ، إذ يبدو أنه لصيق بكل أنظمة البشر - كرس المحدثون ، شأنهم شأن القدامى ، أخطاء ومعتقدات بعيدة عن العقل ، ربما لم يعد من الممكن اغتفارها مع هذا المدى الذي بلغه عقل الإنسان عما كان عليه في تلك الأزمان الضاربة في القدم . وفي هذا الصدد لا يقل المصريون المحدثون غرابة عن أسلافهم ، وإن كانوا أقل منهم عبقرية ومهارة ، فهم يقومون بعبادة أمور يمجهها العقل ، مثل الأضرحة والأولياء ، حيث يعتقد الناس هناك أن الله قد كلف أولياء بخدمتهم ، وهياهم للأمر بطريقة شاملة أصبحوا معها لا يبالون - أى الأولياء - بكل ما هو أَرْضَى ، بل إنهم جميعا قد فقدوا الشعور بأحاسيسهم الدنيوية ، وهكذا يلقي البلهاء في حياتهم الاحترام والإكبار باعتبارهم أولياء وقديسين . وثمة بعض من هؤلاء يتمتعون بقدرة ضئيل من المواهب الروحية والخلقية ، لكن هؤلاء ينسحبون إلى الأماكن المعزولة ليعيشوا كنسك زاهدين ، وينهمكون في الصلوات والتأمل . وثمة أولياء من كلا الجنسين ، ويرى هؤلاء على الدوام وهم يسرون عراة كما ولدتهم أمهاتهم ، لكن التقديس أو قل هو العمى العام يكون بالنسبة لهم بمثابة الرداء ^(١) . ويدفن هؤلاء الأشخاص بعد موتهم في احتفال كبير ، وتصبح مقابرهم بالنسبة للناس أماكن ملأى بالمعجزات . وفي الأرياف ، وكذا في الأحياء البعيدة عن وسط المدن ، يوجد الكثير من هذه الأضرحة التي تدين بوجودها لهبات المسلمين المتحمسين . وهي

(١) يروى عن كثير من الأولياء أنهم لم يكونوا على الدوام بمنأى عن ملذات الحس ، ويقال إن القداسة التي يتدثرون بها قد سهلت لهم على الدوام وسائل إشباع كل ملذاتهم دون أن تمس قداستهم ، حيث إنهم لم يخدموا الحياء العام أو يخرجوا على مقتضيات اللياقة .

على شكل قباب صغيرة تتفاوت درجة فخامتها ، وثمة رجال مكفون بالحفاظ عليها والقيام بوظيفة الإمام فى هذه المساجد - المقبرة ، لكن هذا العمل على الدوام ليس مجزيا ، وكثيرا ما نقابل فى الشوارع رجالا تغطيهم الهلاهيل ، يتموج شعرهم المتهدل ويمسكون بيدهم عصا . هؤلاء هم شيوخ مقابر الأولياء ، جاءوا يتكفون الناس .

وفى بعض الأحيان يلعب بعض المخاتلين دور الولى حتى ينعموا بالترحيب والاحترام ، وبخاصة كرم الضيافة ، ولكن بعد وقت - يطول أو يقصر - يتوصل الناس إلى اكتشاف الخدعة ، ويكون الهجر والاحتقار هو نصيب هؤلاء الأولياء المزيفين .

٢

الأعياد الدينية ، المبادئ الرئيسية للعقيدة الإسلامية

سبق لنا أن تحدثنا عن أعياد المصريين أثناء حديثنا عن الاحتفالات وضروب اللهو عند الشعب المصرى ، وعلى الرغم من أن أعياد المصريين كلها تعود إلى أصل دينى ، فليس ثمة سوى عيدين من هذه الأعياد يمكن اعتبارهما بحق أعيادا مقدسة ، وهذان العيدان هما : عيد رمضان (عيد الفطر) ، وعيد أضحية إبراهيم (عيد الأضحى) . ويبلغ طول العيد الأول ثلاثة أيام ، وفى هذا العيد يشكر المسلمون ربهم لأنه قد مكنهم من أن يمضوا فترة الصيام على خير . أما العيد الثانى ، العيد الكبير ، فيتم الاحتفال به فى العاشر من ذى الحجة ، وهو آخر شهور السنة ، ويستمر أربعة أيام بالنسبة لعامة الشعب ، لكن الأثرياء وكبار الشخصيات يحتفلون به لأسبوع كامل ، ويتفق حلول هذا العيد مع وصول الحجاج إلى مكة ، حيث يذبحون على الجبل أضحياتهم . وفى يوم العيد تذبح كل أسرة مسلمة فى كل أنحاء مصر حملا أو أى حيوان آخر بحسب إمكانياتها ، أما

الأغنياء فيذبحون ذبائح عدة بحيث تخصص لكل فرد من الأسرة ذبيحة على الأقل ، لكن الفقراء يكتفون بأضحية واحدة .

ومما هو جدير بالذكر أن الأعياد الدينية التي قررها محمد لا تشبه في شيء أعياد المسيحيين ، إذ هي ليست أياما للراحة ، فهي لا تفترق عن بقية الأيام إلا في الصلوات الإضافية والأدعية التي تتلى في كل مسجد ، وبخلاف ذلك فإن المحلات تظل مفتوحة ويستطيع العمال أن يقوموا بأعمالهم المعتادة ، لكن الناس يفضلون أن يرفهوا عن أنفسهم ، فيرتدون أجمل ملابسهم ، وتغص الشوارع بأناس انغمسوا في المرح .

وذكرى مولد النبي هي الأخرى مناسبة لمباهج كبرى للعامة ، فتمتلي الميادين بالمهرجين والحواة والعوالم وباعة الحلوى ، ومع ذلك فلا ينظر لهذه المناسبة باعتبارها عيداً إجبارياً ، إذ يمكن الاحتفال أو عدم الاحتفال به ، والعادة وحدها هي التي أقرته . وعند حلول المساء يسارع الناس بإضاءة الأنوار ، ويستمر اللهو حتى وقت متأخر من الليل .

وثمة عادة خاصة بمصر لا تشاركها فيها فيما يبدو بقية الدول الإسلامية ، تلك هي عادة إقامة الأعياد للأولياء ، حيث لكل قرية ولكل حي من مدن مصر الكبرى ولي يحتفل الشعب بيوم مولده ، وبرغم ذلك فلا تقام أية صلوات إضافية في المساجد . وعلى الرغم من الدافع الديني لهذه الأعياد فإن رجال الشريعة لا يشاركون فيها على الإطلاق ، ويتركون شئون الاحتفال للسكان من كافة الطبقات ، وهؤلاء نهمون على الدوام بالبهجة وضروب اللهو^(١) .

ومع ذلك فشهر رمضان هو أهم الأوقات التي ينغمس فيها المصريون في

(١) يفضل المصريون الاحتفال بأعيادهم ومسراتهم في الليل ، وهذه في الغالب عادة كل الشعوب التي تعيش في جو حار ، فالليل في المناطق المدارية في الواقع هو الوقت الذي تنشط فيه أجسامهم وملكاتهم .

المسرات ومختلف ضروب اللهو ، فهو فى مجموعه شهر صيام وشهر مهرجانات . وقد يبدو من الغريب أن يختاروا مثل هذا الوقت للقيام بممارسات متناقضة : التوبة وتطهير النفس من ناحية ، والملذات من الناحية الأخرى . ولكن ، فلعل المشرع قد أراد بذلك أن يخفف من وطأة تلك التوبة المهلكة ، فعمل على أن تصبحها أوقات تخصص للمسرات (كذا!) ، إذ يستطيع الناس بشكل أفضل أن يتحملوا من ضروب الحرمان تلك التى تعقبها المسرات والملذات .

ولن يكون بمقدورنا أن نكون فكرة تامة عن شهر رمضان ، شهر صيام المسلمين ، إذا اتخذنا من صيام المسيحيين طرفا للمقارنة ، فلقد منح محمد نفسه كامل الحرية فى تقديره لنمط الرجل الفاضل الذى ينشده والذى سيحوز مباحج العالم الآخر ، لدرجة أنه قرر نظاما بهذه القسوة مع أتباعه فى هذا الصيام السنوى . فالصوم يستمر لشهر قمرى كامل ، ويأتى فى أوقات غير محددة ، إذ يأتى أحيانا فى الصيف وأحيانا فى الشتاء ، لكن الشريعة تظل فى كلا الفصلين على قسوتها ، فينبغى على المرء أن يحرم نفسه من كل طعام ابتداء من شروق الشمس حتى غروبها ، ولا يستطيع خلال هذه المدة لا أن يشرب ولا أن يدخن ، ومن السهل أن نتخيل قسوة مثل هذا الصيام ، إذا ما تصورنا كيف يكون العطش فى منطقة مدارية كمصر ، وهو أشد أشكال الحرمان استعصاء على التحمل ، وفى الوقت نفسه يكون على العامة الذين لا يستطيعون الاستغناء عن عملهم اليومى الذى يتكسبون منه عيشهم ، الانتظار حتى نهاية اليوم ليروا غلتهم ، ويرى المرء فى فترة هذا الصوم حمالين يسيرون - كما فى الأيام العادية - وهم يحملون أحمالا ضخمة ، أو يعملون بطريقة شاقة أطول وقت من النهار ، دون أن يرطب حلقهم الجاف قطرة من ماء ، ودون أن يتناولوا وجبتهم الصغيرة المعهودة لتنشيط قواهم التى هدها العرق والتعب . ولكن ما أن يأتى المساء حتى يتغير المشهد ، إنهم لم يعودوا نفس الرجال ، فالليل بطوله ينقضى فى الولائم وضروب اللهو والفجور . فى النهار يفعل كل امرئ قدر طاقته كى ينهى أعماله

بسرعة ليخصص بضع ساعات للنوم ، فتري الفلاح راقدًا تحت النخلة بعد أن أنهى في فترة الصباح عمله ، وتري التاجر يرقد على بنك دكانه ، والعامّة ممددين في الشوارع بجوار جدران مساكنهم ، وكذلك الغنى راقد بالمثل ، نعلان ينتظر على أريكته الفاخرة الفترة التي تسبق غروب الشمس . وأخيرا تأتي تلك الساعة التي طال انتظارها ! فينهضون على عجل ، ويهرع كل امرئ للحصول على مكان مرتفع ، وتتجمع النساء في شرفات منازلهن ليرين حركة اختفاء الشمس . وتبدأ الشمس تشحب رويدا رويدا ، ويتأكل قرصها ليختفى وراء الأفق ، وتنمحي - والناس في مشقة الانتظار - أشعتها ، حتى أن العامة وسكان القصور والقابلات في معاقل الحريم - كل هؤلاء يحيون بصوت جماعي تلك النهاية التي تلكأت طويلا طويلا ، وتعلن الأغنيات البهيجة حلول وقت المسرات ووقت الطعام ، وتدوي من كل المساجد أصوات المؤذنين الجادة تنادي الناس للصلاة ، وتحدث همهمة واضطراب عام ، فيتفرق الناس على الفور ، وتنفض الجماعات ويتبعثر المتجمعون إما إلى المقاهي وإما إلى البيوت أو المساجد أو الميادين العامة . ويأكل كل امرئ بشراهة ، ويقيم الأثرياء مأدب باذخة ، ويقدمون للفقراء فضلات موائدهم . ويقدم الطعام للجميع - بلا تمييز - لكل الحاضرين ، وهذه العادة الحميدة بلا شك ، تطبق في كل ولايات السلطان .

ويعقب الطعام الاحتفالات والألعاب ، وتسيطر الخلاعة الجامحة على كل ضروب اللهو في ليالي الفسق هذه ، وتظل المساجد مضاعة حتى بزوغ النهار ، ويقضى أفاضل الناس ليلهم في حديث نافع ، لكن الجمهور يذهب إلى المقاهي حيث الرواة والمنشدون يقصون - بحماسة ملتهبة - مغامرات عجيبة تخلب الأبواب بطريقة فريدة . ويهرع البعض إلى الحمامات : فهناك على وجه الخصوص تزدهر المذات ، ويتم لقاءات الغرام ، والعاملون بالحمامات - المعتادون على هذا النوع من الأمور - هم على الدوام عصب هذه المغامرات العاطفية . وهكذا ينتقم الجنس من سجنائه وطفاة ، ولكن ينبغي أن تحاط مثل هذه المغامرات بأكبر قدر من السرية ، وإلا فإن غضب الزوج المطعون في كرامته لن يعرف لنفسه حدودا .

ويمكن القول أن الميادين العامة هي الأماكن التي تعرض فيها أكبر ما
 الفسق مدعاة للخلل ، فهناك يقدم بعض الحواة والمشعوذين مشاهد شـ
 تنتهى بلوحات بالغة الانحطاط والفضاظة ، تشكل فسادا مدهشاً للتقا
 والممثلون الرئيسيون فى هذه اللوحات هم على الدوام شيخ وطفل . وبرغم
 فلو أننا حكمنا على تقاليد الأمة بأكملها عن طريق الميل الذى يبدىه أبناء الـ
 عادة نحو هذه العروض ، لكونا بالتأكيد فكرة خاطئة وظالمة ، فمثل هذه الع
 الماجنة لا تجذب إلا السوق والرعاع ، ومثل هؤلاء الناس فى كل مكان ، ذ
 لرؤية مشاهد الغلظة والفسق بكل عريها ، لكن ما يدعو إلى الأسف حقاً ،
 تسمح السلطات بمثل هذه العروض .

بل إن مباهج رمضان تصل إلى معازل الحريم ، ففى رمضان يـ
 للسيدات باستدعاء العوالم وبعض الموسيقيين ، ويجلس الزوج باسترخاء ولا
 على أريكته ، ومبسم غليونه فى فمه ، وإلى جانبه أحب زوجاته إلى قلبه ، ليد
 بمتعة شديدة إلى أغنيات العوالم وصوت الموسيقى ، ويحيط الزوجين
 العبيد ، واقفين من حولهما أو جالسين القرقصاء على حصيرة . ولابد أن
 المرء إعجابه بذلك التمثيل الصامت (بانتوميم) للعالة الشابة وهى تصور فى
 وشهوانية ، الصراع بين الفسق وبين العفة . ويحيط بقامتها الرشيقة
 معقود برخاوة ، يبدو كأنه الحاجز الوحيد الذى يصد عنها هجمات الحب .
 لتعقده من جديد - برخاوة أيضا - كلما بدا أنه قد بدأ يستجيب بفعل قوة لا
 وهى ترقص على نغمات الآلات ، لكن الحزام تزعزعه حركات الراقصة فينة
 جديد رويدا رويدا . عندئذ تتنبه العفة فجأة بعد أن نومتها الشهوة ، فـ
 الراقصة الحزام من جديد ، وينفس الرخاوة ، ويتخذ الرقص مظهرا أكثر
 ووقارا . لكن ذلك يخلى مكانه مرة أخرى لحيوية الإحساسات والشهوة التـ
 العالة فريسة لها .. وتتجدد نفس الظروف وتضعف العقدة الرهيفة التى تحوا
 الحب ، وتعقدها الراقصة من جديد ، لكن الحب ينتصر ولا يعود أحد يع

على انتصاره ، وتستجيب العامة فى النهاية لعواطفها ، فتبسط من حركاتها وتبدو غارقة فى هيام لذيذ ، ويصفق الحاضرون لها بحماسة وإعجاب . ويحدث تمثيلها الشهوانى الصامت أثرا يفوق الوصف على مشاهديها ، وبخاصة على الزوجة ، فتخرج عن طورها - كما شاهدنا ذلك عدة مرات - متأثرة بتلك الرقصة الشهوانية ، فتصل صوتها بصوت المغنين وتقلد حركات العامة .

لن نمضى طويلا فى وصف تقاليد المسلمين أثناء شهر رمضان ، فقد حان الوقت لأن نعود إلى موضوعات أكثر جدية . لنلق نظرة سريعة على الدين بشكل عام ، حيث إن من الصحيح أن الدين فى مصر بصفة خاصة - وأكثر من كل البلدان الأخرى - تأثيرا على كل النظم المدنية والعادات الاجتماعية .

ينبغى على المسلم أن يعتقد بوحداية الله ^(١) فى رسالة محمد ، مع الإيمان بكل ما جاء فى القرآن باعتباره كلاما مقدسا ^(٢) ، وأن يؤدى الصلوات الخمس مع أداء الوضوء الذى لا غنى عنه لممارسة هذه الصلوات ، وأن يحرص على صيام رمضان ، وأن يؤدى للفقراء جزءا من دخوله هو حق لهؤلاء الفقراء ^(٣) ، وأن يحج إلى مكة مرة واحدة فى العمر .

ويعترف المسلمون - شأنهم شأن المسيحيين - بقدرة الله وعدالته ومعرفته بالغيب ، لكنهم يعتقدون أكثر من المسيحيين بالقضاء والقدر ، وإن كانوا يختلفون فى درجة تمثل هذه الفكرة . ويقودهم هذا الاعتقاد إلى استسلام لاحدود له يميزهم عن سائر الشعوب ، ويعتقدون فى نفس الوقت أن الأفعال الإنسانية وأحداث العالم محددة بنظام ثابت ، حتى أنه ليس بمقدور المرء أن يتفادى ما

(١) ينبغى الاعتقاد بصورة مطلقة فى وحدانية الله ، فعلى المسلم الحق أن يؤمن بأن الله أحد وبأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

(٢) يعتقد المسلمون أن الله أنزل القرآن على محمد عن طريق الملاك جبريل آية آية على مدار ٢٣ عاما .

(٣) من أهم الصدقات الإجبارية التى على المسلم تقديمها ، صدقة عيد الفطر

سيكون ضارا به حتى ولو كان مرضا معديا ^(١) . ويفسر استسلامهم الطبيعي على الدوام بأنه خضوع أعمى لمشيئة القدر .

ويرى المسلمون أنه لا يمكن تمثيل الله على أية صورة ، كما يرون أنه لا ينبغي التعمق في البحث في ذات الله ، ولكن ينبغي فقط البحث في صفاته . ويرى بعضهم أن الروح منبثة في كل خلايا الجسم ، وأنها تجرى مع الدم في العروق ، ويرى آخرون أنها مثل الشمس تتوزع أشعتها على كل أجزاء الجسم ، وقد قال محمد عن الروح أنها من أمر الله . وعلى العموم فإن المسائل الميتافيزيقية التي مزقت مدارسنا المسيحية طويلا ، لا يميل إليها علماء المسلمين إلا قليلا ، فمعتقداتهم أفكار مسبقة ، وهم لا يسعون لتفسير ذكاء العقل الإنساني ، وينظرون إلى موسى وإلى المسيح باعتبارهما من الأنبياء . فالمسيح هو روح الله جاء عن طريق نفخة من جبريل في العذراء ، وبعدما قام برسالاته على الأرض صعد إلى السماء حيث الذات العليا ، وحيث يعيش الآن ، وأن الكفرة الخاطئين في تواطئهم الإجرامى لم يقتلوا أو يعذبوا إلا شبيها له .

ويتفق العلماء على أن اليهود والمسيحيين الذين عاشوا قبل رسالة محمد كانوا مؤمنين بحق ، ولكن حيث إن هذه الرسالة الأخيرة قد جاءت لتغير وتصلح من كل الشرائع التي جاء بها الأنبياء السابقون ، فإن أتباع موسى الحاليين وكذا أتباع عيسى كفار وغير مؤمنين .

ويرى المسلمون أن العالم مخلوق ، وأن الله وحده هو الأزلى ، ولا يعود زمن الخلق إلا إلى ألف عام وبضعة قرون ، والفترة التي ينبغي أن يحياها العالم غير مؤكدة ، وينصح محمد أتباعه ألا يحاولوا مطلقا البحث فيها . وقد خلق الله الخلق في ستة أيام : فخلق الأرض في يوم السبت ، وشكل الجبال في اليوم التالي ،

(١) يختلف المسلمون حول هذه النقطة ، فيذهب الأحناف والأثرار عموما إلى أن الإجراءات الصحية تعتبر مظهرا مبينا لقدرة الله ، لكن بقية المذاهب أقل تعنتا .

وفى اليوم الثالث خلق الأشجار والنبات ، وفى الرابع خلق الآلام والفتن الاجتماعية (وهو يوم سئ الطالع) ، وفى اليوم الخامس خلق الظلمات والنور ، وفى السادس خلق الحيوانات . وظهر آدم فى اليوم السابع لأول مرة على ظهر الأرض ، وكان قد تشكل منذ أربعين يوما .

ويؤمن المسلمون أيضا بهذا الاعتقاد الباعث على الأمل والمواساة ، وهو : الإيمان بخلود الروح ، وهذه الفكرة هى بمثابة المحور لكل معتقداتهم . وعند الموت تصعد روح المسلم الحق إلى الجنة ، وهى خضراء على الدوام ، لتنتظر يوم الحساب الأكبر والأخير ، أما روح المسيئ فتبقى أسيرة فى المناطق المعتمة والآسنة . ولكن عندما تقوم الساعة ، وتحل ساعة الحساب ، فإن العالم سوف ينقلب رأسا على عقب ، وتتشكل الأرض من جديد ، وتفتح فى النهاية أبواب الجنة وأبواب النار ، ويتفحص الله محاطا بكل رسله أعمال البشر . وتعود الأرواح إلى الأجساد التى ستنهض من تلقاء نفسها بكل حيويتها ، وعندئذ يدخل العادلون فى جنة النعيم لكى لا يخرجوا منها ، أما الآخرون فيذهبون ليكفروا عن جرائمهم . ولكن ليس ثمة عذاب أبدى إلا لمن لم يصدقوا برسالة وكلمة محمد (١) .

(١) السعادة التى وعد بها محمد أتباعه حسية خالصة ، وهى عبارة عن ملذات شهوانية أبدية . ويقول المسلمون إن كل إنسان يوم البعث سيكون فى قوة وقامة الإنسان الأول ، التى لم تكن تقل - تبعاً لأقوالهم - عن خمسين قدما ، وسوف تكون النساء على درجة من الجمال تشعل معها قلوب الرجال بعاطفة تتجدد على الدوام ، ويستطيع الرجل إشباعها إلى ما لا نهاية دون نفور أو ملل . أما النساء فلن يحملن مطلقا ، لأن هذه الملذات ستكون على نحو ما ملذات علوية ، وإن يترتب عليها شئ من نقائص الطبيعة البشرية . وسيحتفظ العقل وكل الأطراف بكل حيويتها ، كما أن الذين سيعمرنون هذه الجنان سيتمتعون بسعادة لا تحول ويكل مباحج الوجود وملذات الحس ، إذ إن أجسامهم ستظل على قوتها للأبد . ويشيع الاعتقاد فى أوروبا أن محمدا قد استبعد النساء من جنته (٢٣) ، وهذا خطأ ، فقد قال مؤلف كلاسيكى . « إن ما قيل عن الرجال بخصوص الجنة هو نفسه ما قيل عن النساء » . وحيث إنهن خاضعات لنفس الفروض الدينية مثل الرجال فينبغى أن يتمتعن بنفس المكافأة .

=

وليس ثمة طريق للحصول على مكافأة الحياة الآخرة إلا الطهارة والصلوات ، ويستطيع المسلم أن يؤدي صلاته في أى مكان ، فيبسط على الأرض سجادة أو حصيرة أو حتى شال عمامته ، ويستدير بوجهه جهة مكة . وصلاته قصيرة لكنها حية ، وإذا لم يكن ثمة ما يمنعه من الذهاب إلى المسجد فينبغى أن يؤدي صلواته هناك ، فهذا أفضل ، أجل إن الله - حقا - فى كل مكان ، لكن من الأفضل أن نعبده فى بيته .

وفى داخل كل مسجد ، ثمة حوض كبير ملى بالمياه ، هناك يغسل المسلمون الأجزاء المستورة من جسمهم (الاستنجاء) ويطهرون أيضا لحيتهم وذراعيهم حتى المرفقين . وعندما يجوبون صحراوات لا ماء فيها ، فإنهم لا يعفون من أداء نوع من الوضوء ، يحل فيه الرمل الناعم أو التراب الطاهر محل الماء الذى ينقصهم (التميم) .

=

فالصلوات الخمس وصيام رمضان والحج إلى مكة ، كل هذه فروض إلزامية على الجنسين . لكن النساء لا يستطعن لأداء الصلاة ولا صيام رمضان أثناء فترات الدورة الشهرية ، لأنهن فى هذه الفترة لا يتمتعن بالطهارة الواجبة للعبادة . ويؤكد الكثيرون أن النساء كان بمقدورهن أن يتوجهن إلى المساجد فى أيام النبى ، لكن الخليفة عمر عندما لاحظ ما يسببه وجودهن من سرحان عند الرجال وما يمكن أن ينتج عن ذلك من فضائح ، أمرهن بأن يؤديين الصلاة فى بيوتهن .

(*) وهذا ما نجده عند منتسكيو حين يقول . « وحيث إن النساء من طبيعة بون طبيعتنا وحيث إن

أنبياءنا قد قالوا إنهن لن يدخلن الجنة ... Lettres Persanes, Lettre XVII

بل إن فولنى Volney نفسه - برغم تبحره فى دراساته الشرقية - قد ذهب إلى ذلك حيث يقول

فى كتابه : Voyage en Egypte et en Syrie, t. II, p. 323.

« إن محمدا برغم شدة ولعه بالنساء لم يمتحنهن شرف معاملتهن كجزء من الجنس البشرى ، فهو لم يشتر إليهن لا بخصوص الفرائض الدينية ولا بخصوص مكافآت العالم الآخر . لكن هذا الزعم لم تكذبه كل مؤلفات رجال الدين الإسلامى فحسب ، بل إن القرآن نفسه ليس فيه ما يؤكد صحة هذا الزعم .

والهدف من صيام رمضان بلا شك إرغام المسلمين على أن يولوا اهتماما أكبر إلى واجباتهم الدينية ، حيث إن عليهم فى هذا الوقت أن يحرّموا أنفسهم من جزء كبير من الملذات الحسية ، فأرواحهم التى تحررت طيلة النهار من الهموم التى تشغلها عادة ، يمكنها أن تنغمس بحماسة أكبر فى التأمل والصلاة . وهم لا يأكلون إلا فى الليل كما قلنا ، والليل هو كذلك الوقت الوحيد الذى يسمح لهم فيه أن يقربوا زوجاتهم . ومن جهة أخرى فقسوة الصيام لا تمتد لأبعد من ضروب الحرمان هذه ، إذ باستطاعتهم أن يأكلوا كل شئ كما يحدث طيلة العام . ورمضان هو زمن الصوم الإيجابى الوحيد ، وللمسافر الذى يقوم برحلته أثناء الصوم ألا يصوم ، لكنه ملزم بأن يعوض بعد ذلك الأيام التى سيفوته أن يصومها . والحج إلى مكة واجب إلزامى ، ينبغى على كل مسلم حق القيام به ، ومع ذلك فحيث ليست هناك سن محددة لأداء الحج ، وحيث إنه ليس ملزما بذلك إلا عند المقدرة ، فكل مسلم يؤجل هذه الرحلة ، وقد ينتهى به الأمر بأن يعفى نفسه نهائيا من الحج . ومن هنا يحدث أن كثيرا من المسلمين يموتون دون أدائهم للحج .

ويحرم محمد على أتباعه - وهو الذى يحتم عليهم الطهارة الخارجية فوق كل شئ - الاتصال بزوجاتهم أثناء الدورة الشهرية التى تتعرض لها النساء ، وكذلك أثناء الأربعين يوما التى تعقب الولادة ، لكنهم يستطيعون الاتصال بنسائهم أثناء الرضاعة . ويخول للمرأة التى تحمل أثناء الرضاعة أن تواصل إرضاع طفلها أثناء الأشهر الأولى من الحمل ، على الرغم من أن الأطباء يرون أن لبن الأم فى تلك الظروف لا يكون صحيا .

وتسمح الشريعة الإسلامية بأكل لحوم الحيوانات المجترة ، لكنها تحرم من بين كل الحيوانات ذات الظلفين أكل لحم الخنزير ، ولا يحرم أكل الخيول إلا أتباع المذهب الحنفى ، وينبغى على المرء أن يغسل الإناء الذى شرب منه الكلب سبع مرات قبل أن يستطيع استخدامه من جديد . وتختلف المذاهب حول علة هذا المبدأ ، فيرى البعض أن الكلب دنس بطبعه ، ويرى آخرون أن الدنس فيه فقط هو أنفه

وفمه ، ويرى فريق ثالث أن محمدا لم يقدم هذا النصح إلا خشية أن يكون الكلب قد تناول طعاما أو شرابا غير طاهر . ونحن ندخل فى كل هذه التفاصيل ، كى نعطي فكرة عن نوع عقلية المذاهب المختلفة ، فهي لا تختلف مطلقا إلا حول مثل هذه الأمور الواهية .

وينظر إلى الدم باعتباره غير طاهر ، لذا لا يمكن تناول لحم حيوان نفق بشكل طبيعى ، أو قام البعض بخنقه ، فلا بد أن يذبح وأن تسيل دماؤه . ويخضع لهذه القاعدة أيضا الصيد الذى يقتله طلق نارى ، لذا يسارع المسلمون بقطع رقاب الطيور والأرانب أو الحيوانات الأخرى التى يصيبونها بطلقاتهم ، والسماك وحده لا يتطلب مثل هذا الأمر (١) .

وقد لاحظنا أن ثمة تماثلا كبيرا بين تعاليم المشرع العربى ومحرمات موسى ، ومن الواضح أن محمدا قد استعار عن المشرع اليهودى إجراء صحيا أراد أن يجعله غير قابل للنقض من قبل الناس . صحيح أن لحم الخنزير له آثار بالغة الضرر على بنية من يتعودون عليه فى البلدان شديدة الحرارة مثل أفريقيا وآسيا ، بل إن هناك من يؤكد أن الجذام ليس له من سبب إلا التعود على أكل لحوم الخنزير ، وليس لمحمد من هدف فى إلزام أتباعه بالوضوء وطهارة الجسم سوى ضمان صحة أتباعه ، والقرآن ملئ بالمبادئ الحكيمة حول طريقة الحياة ، وكلها تهدف بوضوح لنفس الغاية . وختاما نقول إن المسلمين ينفذون بدقة كل ما فرض عليهم ، ونادرون أولئك الذين يسمحون لأنفسهم من بينهم بالخروج على أوامر النبى . ومع ذلك فلسوف تكون سعادتهم أكبر لو أدركوا المغزى الفلسفى العميق لبعض هذه الأوامر والمعتقدات ، تلك التى تبدو طيبة ومواتية وهى تحدث أثرها المطلوب فى أجسامهم .

(١) ليست النباتات ولا الحيوانات دنسة ، ومع ذلك يتمتع المسلمون عن أكل لحوم الفرائس لسبب يعود إلى نفور طبيعى أكثر مما يعود إلى دافع دينى . ويرى المذهب الشافعى والحنفى تحريم استخدام الزواحف كغذاء ، لكن المالكيين يستثنون من ذلك الثعابين إذا ذبحت .

الحكومة

كانت حكومة الإقليم تتكون قبل مجئ الجيش الفرنسى من : الباشا ، ورؤساء الأوجاقات السبعة ، و٢٤ بك . وكان البك الأول يتولى وظيفة شيخ البلد ، وكان يحكم القاهرة ومصر ، أما المنصب الثانى فهو منصب أمير الحج ، وذلك على الرغم من أن هذين المنصبين - حسب دراسة عن نظام البلاد الإدارى - يمكنهما أن يجتمعا فى منصب واحد . وأمير الحج موكل بحراسة المحمل ، ولا يعنى لقبه شيئا آخر سوى أمير الحج أو أمير الحجاج . والشخصية الثالثة فى الحكومة هو الدفتردار أو المستشار . وبعد هذه المناصب العليا يأتى البكوات حكام الأقاليم ، وتتحدد درجتهم بحسب أهمية ولاياتهم ، وعلى هذا كان حاكم جرجا يعد أول هؤلاء البكوات ، وكان يحمل لقب باشا بذيلين^(*) ، أما البكوات الآخرون فأقل امتيازاً .

وكانت كل السلطة التنفيذية مركزة فى يد شيخ البلد ، وهو فى الواقع حاكم مطلق ، إلا إذا جاءت ظروف غير عادية لترغمه على اقتسام السلطة . وهكذا كان

(*) يذكر الصديق الأستاذ رينيه خورى فى إحدى دراساته المخطوطة - وهو باحث مدقق - أنه كانت هناك درجات لرتبة الباشا هى كما يلى .-

- ١- باشا بذيل : وهذه الدرجة تعادل رتبة الفريق .
 - ٢- باشا بذيلين . وهى تعادل ما كان يسمى برتبة الميرميدان .
 - ٣- باشا بثلاثة ذيول . وهى تعادل ما يسمى برتبة المشير .
- ولم يكن يحمل الرتبة الأخيرة فى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية إلا ثلاثة فقط ، هم : الصدر الأعظم ، قبطان باشا ، والى مصر .

وعند مرور موكب أى باشا كانت تسبقه حربة مرفوعة، مثبت بها عدد الذيول التى تحدد درجته ، كما كانت توضع أمام بيوتهم فوانيس مذهبة أو فضية تنتهى رؤوسها بريشة واحدة أو اثنتين أو ثلاث بيضاء أو بنية اللون ، ويتفق عدد هذه الريشات مع درجة الباشا ساكن البيت . (المترجم) .

الأمر وقت نزول الجيش الفرنسى أرض مصر ، فقد كان مراد بك - وهو الذى كان أميراً للحج وشيخاً للبلد والذى لم يكن يحتفظ مع ذلك إلا بجزء من اختصاصات هذين المنصبين - يحكم ثنائية مع إبراهيم بك شيخ البلد الأصلى ، وكان يتحتم أن يوقع شيخ البلد كل الأوامر المتصلة بالإجراءات الاستثنائية والضرائب الإجبارية الباهظة على الولايات والمدن حتى تصبح سارية المفعول . وهكذا يمكن القول بأنه قد ركزت فى يده على الدوام قوة وسلطة الحكومة .

وكان حق تحصيل الضريبة المخصصة لمكة من اختصاص أمير الحج . لكن هذه الضريبة أصبحت شيئاً مخالفاً لما كانت عليه فى فترات سابقة ، حيث ظلت تنكمش شيئاً فشيئاً - بفعل سطو البكوات الآخرين - حتى لم تعد حصيلتها تبلغ إلا مقداراً ضئيلاً .

وكان شاغل هذين المنصبين بدرجة باشا بذيلين ، وكذلك كان حاكم ولاية الشرقية ، وإسلام باشى الذى كان مكلفاً بالسير أمام المحمل عندما يعود إلى القاهرة ، لكى يمد المسافرين بالمؤن والجمال والخيول والبغال .. الخ ، التى قد يكونون بحاجة إليها بعد سفر بهذا الطول . وفى البداية لم يشأ سليم الذى قسم وظائف الدولة على هذا النحو ، وحدد كذلك اختصاصاتها - أن يتم اختيار هؤلاء الموظفين الكبار من بين المماليك أو السناجق ولا من أبناء البلاد لأسباب أقوى ، إذ كان العثمانيون على الدوام يكونون نوعاً من الاحتقار للعرب ، وكان هؤلاء بدورهم برغم ريائهم للعثمانيون وخداعهم لهم يكونون لهم نفس الاحتقار . ويعود تعيين الـ ٢٤ سنجقاً كذلك إلى عهد سليم . وقد خول هذا الأمير ٢١ منهم بأن يكون لكل منهم فرقة من الموسيقيين ، تتألف من : ٦ طبلات ، ٦ نقارات (دفوف) ، ٦ مزمار ، نفيرين ، وصنجة واحدة . وكانوا يحصلون على عطاء يصل إلى ١,٠٠٠ أرب من القمح فى العام . أما البكوات الثلاثة الآخرون فلم يكن لهم الحق لا فى الفرقة الموسيقية ولا فى العطاء السنوى . وكان يختار من هيئة الـ ٢١ هؤلاء حكام ولايات : الشرقية ، المنصورة ، البحيرة ، المنوفية ، أطفح ، الجيزة ،

البهنساوية ، الفيوم . وكان بك جرجا يحكم البلاد التى تمتد من المنيا حتى آخر حدود الصعيد . وكان الدفتردار أيضا يخرج من بينهم .

وكانت الوظائف المشار إليها سنوية ، وفى نهاية العام ينتقل شاغلو هذه الوظائف إلى مراكز أخرى ، أو يصبحون أفرادا عاديين ، كما أن بإمكانهم أن يثبتوا ، وهذا ما كان يحدث عادة وخاصة فى السنوات الأخيرة . أما الباشا فكان يتغير على الدوام حسبما يتراءى للباب العالى أو بنصيحة من المماليك .

وفضلا عن ذلك ، فقلما كانت تسمح الشقاكات والنزاعات المستمرة التى تهز مصر لأصحاب المناصب البقاء فى مناصبهم تلك ، فقد كانت العصب المتشاحنة على الدوام يقلب بعضها البعض ، وتتبادل السيطرة والمناصب ، وذلك هو ماقدمته حكومات المماليك منذ حوالى نصف قرن .

وكانت للبكوات الثلاثة الأخيرين فى سلسلة الـ ٢٤ سنجقا مهام ثانوية . فكان أحدهم كخيا أو وكيلًا للباشا ، وكان الثانى شركة - بك ، وهو يقتسم منصبه مع زميل له ، ولم يكن أى منهما يتمتع بسلطة من أى نوع ، أما المنصب الثالث فكان يشغله كذلك اثنان من البكوات ، وكان أحدهما يحكم البلدة المسماة قران فى ضواحي الجيزة ، أما الآخر فكان يحكم المنطقة المجاورة للمنصورة .

وقد نظم سليم سبعة أوجاقات أو سبع فرق عسكرية : أولها فرقة (أوجاق) الانكشارية (ومعناها الفرقة الجديدة) ، ويشكل العزبان الأوجاق الثانى ، والمتفرقة الأوجاق الثالث ، والجاويشية الرابع ، والجاموليان الخامس ، والتافكجيان السادس ، وأخيرا يأتى أوجاق الشراكسة . وكان للأوجاقات الأربعة الأولى نظم خاصة بكل منهم ، أما الثلاثة الأخرى فتخضع لقانون عام .

وكانت حراسة القلعة موزعة بين الباشا وأوجاقى الانكشارية والعزبان ، وكان الباشا يحتل بابين من الأبواب الأربعة الموجودة فى القلعة : أحدهما يؤدى إلى الجبل والثانى إلى قراميدان . أما الباب الثالث فيسمى باب الانكشارية ، ويسمى

الباب الأخير باب العزبان . وكان يحرس باب الانكشارية كخيا (متولى) ، وكان تحت إمرته ٦ جاويشية و ٥٠ أوده باشى . وكان لكل من هؤلاء الضباط مسكن بالقرب من الباب ، ولهم أربعة رؤساء يختارون من بينهم هم الذين يصبحون جاويشية ، وكان الأوده باشى أو رئيس الحجرة لا يركب إلا الحمار . وكان للجاويش الدلامة السوداء ، وخفان أحمران ، وقاووق أو عمامة من القطيفة السوداء .

والدلامة ليست إلا جلبابا واسعا من الجوخ الأسود . وعندما يصبح هذا الشخص سراجا للأغا ، يضيف إلى قاووقه قطعة من الموسلين الأبيض .

لكن هذه الفرق العسكرية قد دبت فيها اليوم عوامل الوهن ، فالماليك وحدهم هم الذين يصنعون القانون ، وجنودهم هم الذين يحتلون الميادين الهامة ، ويديرون شئون الفرق الأخرى . ولم نتناول فى حديثنا عن الوظائف الهامة للحكومة اختصاصات القاضى ، ذلك أن اختصاصات القاضى ذات طابع مدنى صرف . وهو يعين من قبل الباب العالى مثل الباشا ، ويختار القاضى قضاة الأقاليم ، وهو يختارهم جميعا من أهالى البلاد ، ومن خريجى الأزهر ، حيث درسوا الشريعة وكيفية تطبيق القانون . ويفضل خريج الأزهر هذه الوظيفة على كل الوظائف الأخرى ، لأنها تقود بسرعة نحو الثروة ، وتحظى باحترام الناس .

وقد حدد السلطان سليم القلعة كمقر إقامة للباشا ، ولا يجوز له أن يختار مقرا آخر .

وكان هو الذى يخلع الخلعة على من وقع عليهم الاختيار لشغل المناصب ، ويتلقى هدية من كل من يعينهم ^(١) . ولكن بعد أن استعاد المماليك سطوتهم تغير كل شئ ، ولم يعد الباشا فى السلطة إلا مجرد ظل يعانى من كل نزوات المماليك ،

(١) كانت الخلعة عند الأتراك - كما هو معروف - تقدم إلى المحتفى بهم فى حفل تنصيبهم ، وهى عبارة عن قفطان وجبة ، ولم يكن يقدم فى المناسبات الثانوية سوى القفطان ، وهو معطف مفتوح من قماش متين ، بطانته بيضاء بورود صفراء . وقد جرت العادة أن تزdan الجبة بفراء ثمين ، وأحيانا كان يكتفى بتزيين حوافها ، وكانت الجبات التى يخلعها السلطان غالية الثمن .

بل يمكن القول بأنه كان واقعا تحت رحمتهم ، وهذا هو الحال الذى كانت عليه مصر عندما دخلتها قواتنا .

قلنا إن أمير الحج أو أمير المحمل كان موكلا بوجه خاص بقيادة الحجاج إلى مكة، ويتأمين طريق العودة لهم . وحيث إن سفر المحمل كان حدثا هاما بالنسبة لمدينة القاهرة بل لمصر كلها، فسندخل فى بعض التفاصيل عن الحفلات التى كانت تتم بهذه المناسبة .

عندما يقترب الموعد المحدد لسفر المحمل يتجمع فى القاهرة كل المسلمين القادمين من أفريقيا، والذين يريدون الانضمام إلى المحمل، ويصل آخرون من القسطنطينية، ومن روميلى، ومن الأناضول، عن طريق البحر، حتى يختصروا جزءا من المسافة التى كان يجب عليهم سلوكها إذا ما اتبعوا الطريق المعتاد . ويعسكر هؤلاء الحجاج خارج المدينة، ويكون عددهم فى بعض الأحيان كبيرا جدا، إذ يخرج من مصر وحدها ما بين ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ حاج . وحيث إن هؤلاء الحجاج مضطرون لاجتياز مناطق شاسعة، تكاد تكون كلها صحراوية، ومبتلاة بعشائر العريان الذين ليست لهم من حرفة سوى السلب والنهب، فإنهم مرغمون على التزود بالسلاح والذخيرة، وتهيئ لهم حكومة مصر فوق ذلك ركبا قوامه ٥٠٠ فارس تحت إمرة أمير الحج، يضيف إليهم هذا القائد بيته العسكرى (مماليكه) وبعض جنود من البرابرة، بالإضافة إلى الرجال العاملين فى خدمة كبار الشخصيات الموجودة بالمحمل . ومن حق أمير الحج أن يرث كل حاج يموت فى الطريق، وليس من حق أحد أن يطالب بشئ من مثل هذه التركات . وتستغرق رحلة الذهاب أربعين يوما، ومثلها فى رحلة العودة، وبذا تمتد فترة المحمل إلى حوالى ثلاثة أشهر . وتبدأ مسيرة المحمل فى السابع والعشرين من شوال، لكن الصعوبة التى نجمت عن فرض إتاقوة أصبحت تؤدى - منذ عدة سنوات - إلى تعطيل السفر حتى ٢ أو ٣ من الشهر التالى . ويختار كل حاج أن يركب نوع الدابة التى تروقه، وهم يفضلون

على وجه الخصوص البغال والحمير؛ لأن هذه الحيوانات أكثر من الحصان تحملا للتعب وضروب الحرمان .

وقبل الرحيل بعدة أيام ، تعرض الكسوة أو السجادة المخصصة لتزيين الكعبة فى موكب كبير . وهذا الموكب عيد شعبى كبير، فيذهب كل سكان القاهرة فى جماهير غفيرة إلى الميدان الكبير الذى تطل عليه القلعة والذى يسمى قراميدان، وهناك يسلم الباشا - يحيط به عدد كبير من البكوات مع بيوتهم^(١)، ورجال الأوجاقات والأغا وكبار موظفى الحكومة - يسلم السجادة المقدسة إلى يدى أمير الحج بعظمة وخيلاء، وتحرر حجة بهذه الوديعة، وبعد ذلك يكون من واجب كل أئمة المساجد وكل المتدينين بالمدينة أن يصحبوا السجادة، فتحمل على جمل وتمر من باب النصر، ويمضى الموكب إلى معسكر الحجاج، وتوضع السجادة فى صندوق مغطى بأقمشة فاخرة مطرزة تطريزا فاخرا . ومنذ هذه اللحظة يقيم البك أمير الحج وسط المعسكر، ويضرب كل المسافرين تجارا كانوا أو حجاجا خيامهم حول خيمته، ويكون من حق أى منهم أن يشرع فى السفر، لذلك ينتهز كثير من التجار هذه الفرصة الفريدة لى ينقلوا بضائعهم دون أن يدفعوا رسوم الدخول أو الخروج، فيحملون على ظهور الجمال صبغة النيلة والأصواف وبضائع ثمينة أخرى وكثيرا من الأموال، ويجلبون معهم عند العودة شيلان (شال) الكشمير والموسلين والأقمشة الفاخرة والبن^(٢) .

(١) يقصد بالبيت عند الحديث عن أحد البكوات كل رجاله ومماليكه .

(٢) من نافلة القول أن تلفت الأنظار إلى أن الحج إلى مكة الذى فرضه محمد أغراضا سياسية أكثر منها دينية، إذ كان يأمل عن طريق الحج أن تزدهر التجارة فى شبه الجزيرة العربية، لتصبح واحدة من أهم أسواق التجارة فى العالم.

وقد تحقق هدفه ولو كان جزئيا، إذ يمكن القول بأن الدافع وراء سفر نصف الحجاج على الأقل ليس سوى مصالحهم التجارية . ويلاحظ مؤلف كتاب : Tableau de l'empire ottoman - ونحن نقره على ذلك - أن « محمدا قد حدد لعيد الأضحى وقت قدوم الربيع حتى يجعل السفر على الحجاج أقل مشقة ، ولكى يسهل فى نفس الوقت نقل وبيع البضائع ، ذلك أن الحج ليس له مبدئيا سوى قصد سياسى يتخفى تحت ستار الدين والغرض الرئيسى منه هو التجارة وإقامة أسواق هائلة » . ولقد تفهم

=

ويكون وصول الجمل المقدس ^(١) إشارة ببدء الرحيل، ويقود هذا الجمل إلى المعسكر جمهور غفير . وعندئذ تطوى كل الخيام، ويتوغل المسافرون فى الصحراء، وبعد أقل من ساعة لا يعود الميدان الواسع الذى كان الحجاج يشغلونه سوى مكان موحش . ويسير أمير الحج فى المقدمة، وتصطف فرق الحراسة على جانبيه الموكب، وكذلك عند مؤخرته، ويظلون على هذه الحال حتى وصول الركب إلى مقصده .

ولا نستطيع أن نوفى فخامة هذا الحفل ما يليق بها من وصف، على الرغم من أنها فى الأزمنة الأخيرة قد فقدت الكثير من روعتها التى كانت لها . فقد كان على مراد بك فى معظم الأحيان - وهو الموكل إليه منصب أمير الحج - أن يقاتل العربان فى الصحراء، بعد أن أصبحوا أكثر سطوة بسبب ضعف أسلافه. ولو كان مجرد تأمين طريق المحمل والتجارة التى كانت تحظى برعايته كفيلا بإعادة ازدهارها السابق، لربما كان بمقدور هذا الرجل المقدام أن يفعل ذلك، لكن حوادث السلب، والانتهاكات، بالإضافة إلى الحالة المتدهورة للحكومة ... كل ذلك لم يكن يوفر ما يكفى من الأمان للسكان أنفسهم، وهم الذين لم يعد بإمكانهم القيام بأعمال كهذه، أصبحت تعد ضريبا من المضاربات غير مأمونة العواقب .

= المسلمون جيدا أهداف المشرع ، بحيث جعلوا من هذه الرحلة أمرا مفيدا فى العلاقات التجارية. ويصعب علينا أن نكون فكرة صحيحة عن الثروات التى تكسدت فى مكة، أو تلك التى فى الكعبة وقت الأضحيان. وتتم هناك عمليات تجارية كبرى ، وتكون حركة البيع والشراء والتبادل خلال خمسة عشر يوما عظيمة ، لحد أن الذين يشهدونها لا يستطيعون تقدير قيمتها ولو بشكل تقريبي .

(١) يعود ظهور الجمل المقدس فى مواكب الحج بل ووجود هذا الجمل نفسه، إلى خرافات المسلمين وبساطة مفاهيمهم . إذ هم يدعون أن محمدا فى رحلاته قد حمل عرشه (١) على ظهر جمل ، وقد تناسل هذا الجمل بعد ذلك . وقد حرص السلطان على أن يمتلك اثنين من هذه الجمال التى تعد مطية النبى المفضلة، ولكن حيث إن من الخطر أن تتعرض هذه الجمال لمتاعب الحج، فإنه يلجأ إلى جمال أخرى يقال إن لها نفس الأصل وتربى فى دمشق وفى القاهرة . وهذه الجمال أقل تكلفة، وتقوم بالرحلة إلى المدينة المقدسة . وتخليدا لذكرى أن محمدا كان يقوم بأسفاره على الدوام من مكة إلى جبل عرفات على جملة فإن الحجاج يحرصون دائما أن يصبحوا جمال القاهرة المقدس، وكذا جمل دمشق المقدس، فى كل الاسفار التى ينبغى عليهم القيام بها فى اليومين اللذين يسبقان ذبح الأضحيان .

القضاء

يرتبط القضاء الموكله إليهم مهمة إقامة العدالة في مصر بالهيئة القضائية الإسلامية التي مقرها القسطنطينية، ومن بين امتيازات الباب العالي حق اختيار القضاة من الدرجة الأولى، كما أنه قد احتفظ لنفسه بحق تعيين باشا. ولكن إذا كانت سلطة الباب العالي في تعيين الباشا ليست سوى وهم، وإذا كان نفوذ ممثله قد تضاعف لحد العدم شبه التام، فإن الأمر لم يكن كذلك بخصوص إدارة القضاء، إذ لم يكن في هذا الأمر ما يتعارض مع رغبات الممالك، أو ما يضعف من نفوذهم السياسي، لذا فقد قبلوا عن طيب خاطر أن يرسل إليهم السلطان رجالا موكلين بتلك المهمة الصعبة : مهمة تطبيق الشريعة ، بل إنها لمشقة وفرها هو عليهم. وعلى هذا فإنه لم يحدث مطلقا أن عارض الممالك سلطات القسطنطينية القضائية في حق تعيين رؤساء المحاكم بمصر، بل إنهم باستقبالهم لهؤلاء القضاة الذين لن يؤثروا مطلقا على نفوذهم السياسي، كانوا يهيئون لأنفسهم مزية لا تكلفهم شيئا على الإطلاق، تلك هي مزية تقديم الدليل على الولاء للسلطان.

وبشكل القضاء في تركيا على نحو ما طائفة مهنية، لها رؤسائها الخاضعون للإشراف المباشر للمفتي الأكبر^(١)، وكل مناصب هذه الهيئة قابلة للتغيير،

(١) المفتي والصدر الأعظم هما أكبر شخصيات الدولة بعد السلطان، وتتكون الهيئة القضائية من علماء كبار. وفي عهد السلاطين الأول كان العلماء ينقسمون إلى ثلاث درجات : الأئمة (إمام) وهم الموكلون بالعبادات ، المفتي أى فقيه الشريعة ، ثم القضاة : فقهاء العدل . وهؤلاء الآخرون هم أكثر الجميع امتيازاً، وقد منح مراد الأول أكبر القضاة لقب قاضى العسكر، وأنشأ محمد الثانى منصب قاضى عسكر ثان، وأعلى عليهما سليمان الأول مفتى العاصمة، وهو الآن شيخ هيئة العلماء، ويحمل لقب شيخ الإسلام. وصدارة المفتي مقصورة على قضاة العاصمة، وبشكل قاضى عسكر الأناضول المحكمة الثانية في الإمبراطورية، ويحكم باسمه في كل القضايا المتصلة بالمواريث في كل أقاليم آسيا، وهذه واحدة من المهام الأساسية لوظيفته. ويدفع له كل شهر مبلغ يتفاوت قدره من رؤساء قرى ومقاطعات ولايته . وقد أصبحت وظيفة القاضى قابلة للتغيير كل عام عند نهاية القرن الأخير، وكان من النادر أن يشغل الشخص نفسه الوظيفة الواحدة مرتين إلا إذا اتخذت ترتيبات معينة مع خلفه، وكانت وظيفة الصدر الرومى - وهى التى تلو كثيرا على مركز قاضى عسكر الأناضول - هى وحدها التى تستثنى من هذه القاعدة .

غيريات فيها بالغة الشيوخ، ويمكن لنفس الشخص أن يصبح - بالتناوب - بلا وظيفة أعلى أو أدنى من تلك التي كان يشغلها. ويقوم أحد كبار أعضاء هذه رة القضائية بتعيين كل قضاة مصر، وعددهم ٣٦ قاضيا بما فيهم قاضى مكر المكلف بإدارة شئون القضاء فى القاهرة، والذي يعتبر القاضى الأول فى يم. وعلى الرغم من صدارته على كل القضاة الآخرين بسبب علو منصبه وكبر ، وما له من اعتبار، فإن القضاة الآخرين لم يكونوا تابعين له، إذ كانوا يتبعون عطنطينية مباشرة. ومعظم هؤلاء القضاة يجهلون لغة البلاد، وكان قاضى مكر على الدوام يستعين ب مترجمين، كانوا يقرأون النصوص ويترجمونها كما لهم، كما كانوا يحصلون إتاوات شتى .

وقلما كانت مدة ممارسة أى من هذه الوظائف تتجاوز السنتين، بل كثيرا ما يخرج القاضى من وظيفته بعد عام واحد . وكان كل واحد من هؤلاء القضاة ، عند رحيله من القسطنطينية قرارا يحدد الولاية التى سيدير شئون القضاء ، كما يحدد المدة التى سيقضيها فى وظيفته، وإذا لم يتلق القاضى بعد هذا ر أمرا بتثبيته فإنه يوقف مباشرة أعماله القضائية . وقد جرت العادة فى هذه ل أن يترك مقره المعتاد كشئ انتقالى إلى أن يتم تثبيته أو وصول بديل له . هذه الفترة يتولى رجل الشرع العمل نيابة عن القاضى، ويستلزم هذا الأمر رسم إلى القاضى المساعد بالمحكمة. وكان قاضى العسكر عادة لا يبقى فى ، إلا لعام واحد، ثم يمضى بعد ذلك إلى وظائف أخرى، وعندما يصل القاضى يد من القسطنطينية، فإنه فى غالب الأحيان يبيع الوظائف التى كانت فى ته إلى سلفه ، ولسنا نعرف مقدار الثمن الذى يمكن أن يبلغه هذا النوع من خيص، ولا المبلغ الذى يقرضه صاحب الوظيفة حتى يتنازل عنها، وكانت هذه نقات تتم بالتراضى بين الطرفين، وبهذه الوسيلة كان القاضى يظل فى عمله بلغ أربع أو خمس سنوات .

وإذا ما لاحظ الباشا المقيم فى القاهرة بعد انقضاء عمل القاضى أن مساعد هذا القاضى ليس جديرا بأن يخلفه فى عمله، فإن بإمكانه أن يكلف الإمام الخاص به بهذا العمل الهام، وبهذه الطريقة اختار إبراهيم بك منذ عدة سنوات - عندما كان فى منصب قائم مقام - الشيخ العريشى لكى يقوم بصفة انتقالية بمهام القاضى، بسبب غيبة إمام الباشا .

وكان نفوذ قاضى القاهرة يمتد إلى مصر القديمة وبولاق، أما الجيزة فكانت لها محكمة خاصة بها، وكان القاضى يعين ممثلين عنه فى دوائر القاهرة المختلفة: ٩ فى المدينة، واحدا فى بولاق، وآخر فى مصر القديمة، وكان هؤلاء القضاة الرؤوسون، الذين لهم بدورهم مساعدون، يفصلون فى القضايا باسم القاضى. وعندما كان يتغير قاضى العسكر، كان هؤلاء القضاة يشترتون من خلفه حق التثبيت فى وظائفهم. وكان من المتبع فى البداية حسب الأنظمة السائدة أن يفصل فى كل القضايا المقدمة إلى دائرة ما، ثم حدثت فى الآونة الأخيرة مجموعة من التجديدات فى هذا النوع من فروع الإدارة كما فى بقية فروعها، وترفع القضايا الكبرى عادة إلى محكمة القاضى، الذى يكلف أحد ممثليه بالانتقال إلى مكان الجناية، والبدء فى التحقيق .

ويتسلم القاضى عند دخوله الوظيفة فرمانا من الباب العالى يعهد إليه بوظيفة قاض، ويخول له أن يختار العدد الذى يراه مناسبا من المساعدين، ومع ذلك فقد كان هذا العدد محددافعل العادة التى لها فى الولاية الإسلامية قوة القانون .

والحكم فى أية قضية لا نقض له ^(١)، ومع ذلك فقد وضع الدين شروطا مقيدة تنفى عن هذا الإجراء التشريعى صفة الإطلاق. فعندما تكون القضية خطيرة أو عندما تحظى باهتمام الشخصيات الكبيرة، فإن القاضى يستضى بنصائح رجال

(١) نقرأ فى مجموعة فتاوى المفتى بهجت عبد الله أفندى أن كل قضية تحمل إلى القضاء وتفحص ويفصل فيها لا تحمل إلى القضاء مرة أخرى .

الشرع، ويستطيع الأطراف أن يحصلوا مقدما على نوع القرار الذى يصدره المفتى، ويلجأ القضاة عادة إلى هؤلاء المفتين، ولرأيهم سلطة معترف بها، ويصدر المفتى على الدوام فتواه أو رأيه القاطع، وإذا كان حكم القاضى قد صدر فهو عندئذ بمثابة قضاء من عند الله، ومع ذلك فإذا حدث أن أجمع مفتو المذاهب المختلفة على نقض قرارات القاضى، فإن القاضى يعترف بخطئه ويسحب حكمه الأول

والقوانين التى يحكم بمقتضاها كلها مكتوبة، وتستخلص أصولها من القرآن، وتفسيرات هذا الكتاب السياسى والدينى هى ثمرة عمل جمهور كبير من المفتين، نميز من بينها كتب أئمة المذاهب السنية الأربعة، وهذه المذاهب هى : الحنفى، المالكى، الشافعى، الحنبلى . وكل علماء مصر تقريبا يتبعون المذهب الثالث، ومع ذلك فإن القضاء فى مصر - ومنذ ثلاثة قرون - يتم وفقا لأحكام المذهب الحنفى السائد فى القسطنطينية .

أما مهام قاضى العسكر المختلفة فهى :

١ - الفصل فى القضايا .

٢ - اختيار أئمة المساجد .

٣ - إدارة الأوقاف الخيرية .

٤ - تقسيم التركات .

٥ - تحصيل الرسوم المقررة على بيع ونقل الملكيات .

ومصاريف القضاء - كقاعدة عامة - تحصل من موضوع النزاع، أو من الشخص الذى يحكم لصالحه، ويعتبر المسلمون أن فرض مصاريف على الشخص الذى لم يحكم لصالحه عمل متناقض وبالعكس، ويفصل فى القضايا عادة على الفور، ومع ذلك فثمة قضايا يستغرق فحصها عدة أيام، بل يصل الأمر أحيانا إلى شهرين أو ثلاثة شهور .

وفى كل قضية نميز أربعة أطراف : القاضى، المدعى، المدعى عليه، موضوع النزاع . ولا يفصل فى أية قضية ، أو تحدث أية إدانة عن الأخطاء ، فى غيبة واحد من هذه الأطراف. وعندما يرفض المدعى عليه الحضور فإنه يستدعى بالقوة، وعندما لا يستطيع أحد الأطراف أن ينتقل إلى المكان الذى تنظر فيه القضية، يقوم القاضى بتعيين شخص مشهود له بالاستقامة والنزاهة ليمثله. وكل طرف يدافع عادة عن موقفه، ويمكنه أن يعهد بذلك إلى رجل شريعة أو إلى صديق. ولا يتلقى الشهود مطلقاً أجراً على شهادتهم، ويمكن دعوتهم إلى القسم، لكنهم ليسوا ملزمين بذلك، لكن المذهب المالكي وحده هو الذى يحتم ضرورة القسم .

ولم تكن مصاريف القضاء قبل مجئ الحملة منظمة، وكان قاضى العسكر أو ممثله يحصلون حوالى $\frac{1}{2}$ ٪ من قيمة الأشياء موضوع النزاع، لكنهم فى العادة كانوا يفرضون رسماً أكبر، وكان ذلك أمراً بالغ السهولة لدرجة أنهم كانوا يحددون حسبما يتراعى لهم رسوم القضايا . ومن هنا كانت مصاريف الدعوى تصل فى بعض الأحيان إلى ٨ ٪ أو ١٠ ٪ بما فى ذلك أجور الكتبة والمترجم . وقد وضع الفرنسيون حداً لهذه الانتهاكات البربرية كما سبق أن قلنا، ومع ذلك، فإذا كان رافع الدعوى شخصية كبيرة فإن القاضى لا يستطيع أن يفرض رسماً أكبر من $\frac{1}{2}$ ٪ . وفى نفس الوقت لم يكن القاضى يتقاضى شيئاً من الفقراء، وإذا ما كان ينقض ما يعلنه مسلم أمامه من أنه فقير . ومن المبادئ التى تشيع بين القضاة أن الفقير طرف له قداسته .

هكذا وضع العرف والأخلاق حدوداً لجشع القضاة، بل لقد لوحظ أن قاضى العسكر - وهو رجل ذو طباع حادة وله سطوته واحترامه - كان يكتفى بما يقدم له دون أن يفرض بنفسه شيئاً، حتى يحتفظ بتقدير الكبار وحب العامة . ومنذ أن تغلبت سطوة البكوات فى مصر، اعتاد القضاة ألا يطلبوا رسوماً من أولئك الذين يخلع عليهم البكوات حمايتهم ^(١) .

(١) يحدث عادة ألا تسمح طبيعة الشئ المتنازع عليه بتحصيل رسوم، مثال ذلك عندما تكون الشكوى مقدمة عن أشخاص وليس عن ممتلكات ، لكن أموراً من هذا النوع تنتهى عادة عند الشرقيين بأن تقوم بثمان ، وهكذا أصبح القاضى يحصل رسومه فى مثل هذه القضايا بفرض نوع من الغرامات النقدية .

وكانت الأحكام التى يصدرها ممثلو القاضى ، بالرغم من كونها مختومة بخاتمه ، تخضع فى حالات كثيرة لنوع من النقض، وخاصة فيما يختص بالإجراءات التى تتخذ ضد المتنازعين المتخالفين، أو فيما يختص بالأحكام التى تحدد التعويضات التى يلتزم بها الأزواج ، ويمكن لقضايا من هذا النوع أن تحمل من محكمة لأخرى، وهكذا حتى يأخذ القاضى علما ويصدر فيها حكمه النهائى .

سبق أن قلنا إن قاضى العسكر يشترى وظيفته من القسطنطينية، ويدفع التزامها إلى رئيس قضاة الأناضول وإلى شيخ الإسلام، ولم نستطع أن نستدل على مقدار ما يدفعه للأول، لكن الثانى كان يتلقى منه عشرة آلاف مدينى فى الشهر^(١). ولتعويض كل ذلك كان قاضى العسكر يفرض على ممثليه إتاوة لا تتجاوز فى بعض الأحيان ٩٠٠ مدينى فى الشهر، ويستطيع هؤلاء القضاة المرؤوسون أن يحصلوا فى مقابل ذلك ثروة طيبة فى وقت قصير . وثمة كثيرون منهم يفصلون فى قضايا كثيرة للغاية، لكنهم لا يدفعون أكثر مما هو مقرر، ومن الصحيح أنه لا يسمح لهم بالفصل فى كل هذه القضايا، لكنهم يرفعون رسوم التقاضى إلى ٨ - ١٠ ٪ ، لذا يسهل عليهم على الدوام أن يكونوا ثروات ضخمة فى وقت قصير .

رأينا من قبل أن وظائف القضاة الـ ٣٦ كانت تباع فى القسطنطينية لرجال

(١) يشغل وظائف القضاة الستة والثلاثين فى مصر، قضاة من الدرجة الرابعة، وهم ينقسمون إلى ست درجات، وقد جعل سليم الأول من حق بعض هؤلاء أن يستمروا فى مناصبهم . وهؤلاء القضاة هم مساعدون أو نواب، ويشكلون الدرجة الخامسة فى السلم القضائى، وليس من الضرورى أن يكون منصب هؤلاء قابلا للتغيير. وهم يشترى وظائفهم من القاضى فى شكل التزام أو فى شكل مخالف، لذا كانوا يستمرون فى مراكزهم لأية فترة حسب أهواء رؤسائهم . وعندما كانت تنقضى مدة القاضى، كان هؤلاء النواب الذين يرون من مصالحهم الاستمرار فى مناصبهم يسارعون بتقديم ولائهم للقاضى الجديد، ونادرا ما كان يرفض واحدا منهم إلا إذا كان ثمة ضده شكاوى من نوع خطير .

مشهود لهم بالاستقامة، وكانت النتيجة الطبيعية لنظام من هذا النوع أن كل قضاة مصر كانوا غرباء على البلاد التي عليهم أن يمارسوا فيها وظائف على مثل هذه الدرجة من الخطورة. وبالرغم من أن أحدا من المواطنين لا يستطيع فى ظل السيطرة العثمانية أن يرنوا إلى وظيفة قاض، فقد رأينا فى السنوات الأخيرة كثيرا من المحاكم يرأسها مصريون، حيث لم يكن الأجانب الذين يصلون إلى مصر ومعهم فرمان تعيينهم فى وظيفة قاض، يلزمون أنفسهم على الدوام بالعمل فى سلك القضاء، بل كانوا يبيعون وظيفتهم، إما إلى سلفهم كما سبق لنا القول، وإما إلى رجل آخر من رجال الشرع يستطيع أن يدفع الثمن. وسعر هذه الوظائف غير معروف لنا على وجه التحديد، ومع ذلك فيبدو أنه لم يكن يجاوز ٤٠ ألف مدينى فى العام لوظيفة تدر دخلا متوسطا .

وفى أثناء احتلال القاهرة من قبل الفرنسيين، أغلقت لبعض الوقت كثير من المحاكم الخاصة فى المدينة، وتوقفت العلاقات المدنية الصرف بين السكان، وحيث إن المصرى بطبعه شكاك وخجول فى نفس الوقت، فقد كتم المصريون شكوكهم، وبدأوا وكأنهم قد انهمكوا فى أعمالهم مراعين نفس الدرجة من الأمن التى كانت سائدة فى الماضى . ولم نعرف - نحن الفرنسيين - إلا بعد وقت طويل حقيقة التأثير الذى أحدثه فى النفوس مثل هذا الإجراء الشاذ، لكن الاعتدال الذى سيطر بعد الغزو قد طمأن بشكل (لا شعورى) من روع هذا الشعب، وهو الذى ما يزال يتذكر فظائع حسن باشا أثناء حملة ١٧٨٦ .

وعندما بدأت الإدارة الفرنسية تحظى بنوع من الاستقرار، أى بعد الاحتلال بعام، افتتحت كل الغرف القضائية التى كانت قد أغلقت بصفة مؤقتة فى البداية، وأعطى القائد العام للجيش أوامره فى هذا الخصوص بعد اطلاع على تقرير قدم إليه، وكلف قوميسير الحكومة لدى ديوان القاهرة بالتأكد من تنفيذ ذلك. وعندئذ نظمت رسوم التقاضى، وتحددت بنسبة ٢ ٪ من قيمة الشئ موضوع النزاع، وتوزع حصيلة هذا الرسم بين القاضى والكتبة. ولم تحدث أية تعديلات أخرى فى

إدارة القضاء، وسارت الأمور على نفس نظامها فى الماضى، وبدأت ثقة الناس التى كانت قد تزعزعت لحين تعود منذ الآن، ومنذ هذه اللحظة بدأ المنتصرون يجنون ثمار انتصارهم .

ومع ذلك فإن نظام التعيين فى الوظائف القضائية لم يعد هو نفسه ما كان فى الماضى، واتخذت لذلك الإجراءات اللازمة. فثبت كل رجال القضاء الذين كانوا قائمين بالعمل فى مناصبهم، وعزل قاضى العسكر الذى كان من أنصار أمير الحج، وخلفه فى منصبه الشيخ العريشى، وهو الذى ظل فى هذا المنصب حتى نهاية الاحتلال .

وإذا ما تأملنا لحظة نمط الأنظمة القضائية العثمانية وطريقة اختيار رجال القضاء، فإننا سنجد فى هذه الوقائع نفسها منبع المساوىء التى كان ينبغى أن تنجم عن هذه الوقائع بالضرورة . وفى الواقع، فإن رجال القضاء الغرباء، بجهلهم لغة البلاد التى ذهبوا إليها ليرسموا قدر وكرامة ونمط حياة مواطنيها، لم تكن تحركهم أية عواطف من تلك التى تفرض نزاهة القضاء، كما أن اعتبارات المواطنة واعتبارات القربى التى لها على الدوام تأثير كبير على القلوب لم يكن لها على الإطلاق وجود عندهم، وحيث إنهم قدموا قبضات من الذهب حتى يتولوا أمر محكمة ما، فمن الطبيعى ألا يكون سيف العدالة الذى يضعه القانون فى يدهم سوى أداة للإثراء . فكانوا يستخدمونه وسيلة لتعويض الأموال التى أنفقوها، بل ولتكوين ثرواتهم الخاصة، ووجهت الوسائل الكبرى التى فى حوزتهم نحو نفس الغرض، غرض تكديس الأموال، لذلك فإنهم لم يدعوا أية فرصة تغفلت دون أن يستغلوها لتنمية ثرواتهم . أما أولئك الذين يخفف حب العدل والإنسانية عندهم من جموح ذلك التعطش إلى المال، فقد كانوا أكثر ميلا للعدالة، بينما لم يكن يكبح جماح الآخرين إلا الخوف من تدهور سمعتهم . وفضلا عن ذلك فإن العادة التى سادت فى مصر، عادة بيع أو تأجير وظائف بمثل هذه الدرجة من الخطورة من شخص لآخر، هى واحدة من تلك المساوىء الشيطانية التى لا يمكن لأية حكومة

عاقلة أن تتساهل فيها، إذ هي نوع من الفوضى أو الخيانة لا يسمح بقيامها إلا بالبرابرة .

ولنعد إلى ممارسة الوظائف القضائية: يحوز حكم القاضى فى معظم الأحوال قبول كل الناس المتنورين، وقد يكون من الظلم أن نوجه إلى رجال القضاء هؤلاء، ذلك الاتهام القاسى بالمحاباة أو الفساد، وهو الاتهام الذى يوجهه كثيرون إلى القضاة المسلمين عامة، إذ لا يمكن لقاض أن يتجاسر ويصدر حكما قليل التطابق مع روح الشرع، أو منحازا بشكل ما لمصالح الطرف الذى يريد أن يعمل لصالحه، إلا فى حالة واحدة، هى تلك الحالة التى تكون نصوص القانون فيها غامضة، وتحتمل التفسير على وجوه عدة مختلفة أو متعارضة. لكن المساوئ تنجم بشكل أكبر عن ذلك التقدير العشوائى والجائر لتقدير رسوم التقاضى، ويتهامس الناس حول تحصيل هذه الرسوم بشكل غير معتاد. وفى القاهرة تنهض الصفات الشخصية لقاضى العسكر، وكذا الرقابة التى يمارسها العلماء، بل وحكومة الممالك - بحماية الشعب على نحو ما ضد جشع القضاة والكتبة، لكن الأمر لا يسير على هذا النحو فى الأقاليم، حيث يستطيع القاضى هناك أن يستوثق من صداقة وحماية البك حاكم الإقليم عن طريق تقديم الهدايا أو أية وسيلة أخرى، وبذلك يكون حرا من كافة القيود وهو يقوم بتقدير رسم يفوق بكثير ذلك الرسم القانونى. ومع ذلك فمن الصحيح أيضا أنه حتى فى هذه الظروف، كان القضاة يستطيعون كبح جماح جشعهم. وكانوا فى بعض الأحيان يتظاهرون بفرض رسوم لصالح كتابهم ومرووسيتهم، على الرغم من أن هؤلاء لم يكونوا يحصلون مطلقا إلا على قدر ضئيل من هذه الرسوم، وكان هؤلاء يلجأون فى معظم الأحيان إلى وسائل مشابهة .

سبق لنا القول بأن أحكام القاضى تصدر بلا نقض، وأن الدين يعالج جزئيا تلك المساوئ الناتجة عن مثل هذا التفويض الواسع الممنوح للقاضى بفعل العادة، حيث العادة فى مصر كما فى كل أجزاء الامبراطورية العثمانية هى كل شئ، بل

يمكن القول بأنها هي التي تصنع القانون . لذا فإن العادة التي يعتادها أمير أو رجل قضاء أو حتى ضابط صغير وهو يتعامل مع من هم دونه، تصبح إلزامية لكل من يقومون بنفس هذه الأعمال . وتبرهن مثل هذه المساوئ على ضرورة إرساء النظام القضائي على أسس ثابتة ومستقرة ، وهذه الحاجة التي تتضح أهميتها يوما بعد يوم لا تجد الاستجابة الواعية من جانب الحكام، أو قل إنها بالأحرى تقع تحت رحمة روتين غير قابل للهزيمة، لحد يفضل معه الحكام أن يتحملوا مساوئهم تلك عن أن يبتعدوا عنها .

وتنهض العدالة في مصر على أساس المذهب الحنفى، ولا يمكن أن يحدث الأمر على نحو آخر، حيث إن كل رجال القضاء الذين ترسلهم القسطنطينية يتبعون هذا المذهب، وهو نفس مذهب السلطان نفسه ، وكذا شريف مكة . وقد بدأ هذا الأمر منذ بداية القرن السادس عشر، ومن المحتم أن يكون سليم غازي مصر هو الذى وضع أساس ذلك، حيث إنه هو الذى أقام حكومته على نفس الأسس التي تنهض عليها اليوم . ومع ذلك فحيث إن المذهب الشافعى هو السائد في مصر، وحيث إن كل شيوخ الأزهر يتبعون هذا المذهب فربما كان من الأفضل الامتثال لأحكام هذا المذهب، وتلك مسألة تتطلب دراسة عميقة أولى بها أولئك الذين يعينهم الأمر .

وطيلة فترة الاحتلال الفرنسى لم تحصل أية رسوم عن التعيين فى الوظائف القضائية، ويبرر ذلك تواضع الدخول التي يمكن تحصيلها من مثل هذا الأمر، إن من الممكن إلغاء هذه المساومة على وظائف بهذه الخطورة دونما تأثير كبير على خزانة الدولة، ومن المعروف أن هذه المساوئ لم تكن تحدث مطلقا فى عهود الخلفاء، وإنما بدأت مع بداية الحكم المملوكى، ثم دعمتها العادة، ودعمها كذلك وبدرجة أكبر، ذلك النموذج التركى الذى تسوده مثل هذه العادات .

عن الحقوق المدنية

الملكية

لا شك أن النظام الذى يساهم فى ربط المواطنين بمسقط رأسهم، هو واحد من أهم النظم الوطنية، ونحن هنا نتحدث عن نظام الملكية، هذا الحق الطبيعى الذى كرسه كل المشرعين، ولا يخرقه أو ينكره سوى البرابرة. لكن طغاة مصر، عندما ألقوا تحت أقدامهم بكل مبدأ حكيم وعادل، لم يحترموا هذا الامتياز المقدس، الذى هو فى جملته أساس لضمان السعادة الاجتماعية. فثمة كثير من المزارعين الأحرار على ضفاف النيل قد أصبحوا مجرد فلاحين أجراء، أو عبيدا مطحونين تحت وطأة تلك الضرائب الباهظة، يفلحون هناك - وفى حلوقةهم غصة - أراضى خصبة، لكنهم لا يستطيعون أن يجنوا لها ثمارا. فهذا الوادى الخصيب فى الفيوم، وتلك السهول الخصبة فى الدلتا، التى كانت غزيرة الإنتاج تحت حكم الفراعنة والبطالمة بل وتحت السيطرة العثمانية، لا تنتج الآن بالكاد ربع ما كانت تنتجه فى الماضى. ومن السهل أن نلتمس أسباب ذلك التغيير المحزن، لكننا لا ينبغي أن نبحث عن التفسير عند الطبيعة أو عند تقلبات الطقس مهما كانت عنيفة، فالنهر على الدوام هو نفس النهر، وفيضانه السنوى - شأنه شأن الماضى - يأتى كل عام ليروى الوادى. فقط اختفى الأمل، فما عاد يلهب حماسة الفلاح ولا عاد يستثير همته، إذ هو يعلم الآن أن ثمة أجنبيا بغياضا هو الذى سيحصل على ثمن عرقه هو. نعم، ماذا سيعود على الفلاح لو أنه عمل على إنماء محاصيل جديدة، ما دامت لن تعود عليه ولا على أولاده خيراتها؟ إنه يبذر البذور وهو حائق، ويجنى محصوله وهو خائف، ويعمل جهده ليخفى عن نظرات طغاته الجشعين قدرا ضئيلا من الحبوب، يمكنه أن يحصل به على بعض احتياجات أسرته العديدة. فالفلاح فى هذه البلاد البائسة ليس بمالك للأرض، وليس بمقدوره أن يكون ذلك، إنه ليس

بصاحب للأرض، ولكنه قن لها منذ ولادته، يعمل لحساب تلك العصابة التي قهرت وطنه واستذلته، إنه رقيق الدولة فى اسبارطة القديمة، وعبد المستعمرات الأمريكية التعس ! .

يرتبط توزيع الأرض فى مصر بعدد قراها، إذ تمتلك كل قرية مساحة من الأراضى القابلة للزراعة تتفاوت مساحتها، وتنقسم أراضى كل قرية إلى ٢٤ جزءا. ويبلغ عدد القرى فى كل الوادى ما بين ٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ قرية كبيرة أو صغيرة : منها ٤٠٠ من أسوان إلى المنيا ، ٥٠٠ من المنيا إلى القاهرة بما فى ذلك الفيوم، ٦٦٠ فى الدلتا، ١٠٠٠ فى بقية المناطق^(١) .

وهناك بعض الأفراد يتسمون باسم الملتزمين (ملتزم)، وهؤلاء هم الذين يمتلكون أراضى هذه القرى امتلاكاً فعلياً، ويعنى الفلاحون باقتسام هذه الأرض بينهم وبين هؤلاء الملتزمين، ولكن انظر إلى أى حد تضاعفت حقوق الفلاحين، وإلى أى حد وصلت سطوة الآخرين ! .

إن مالك عدد معين من القراريط يحصل من الفلاح الذى يفلحها ضريبة ثابتة كانت قيمتها فى الماضى محدودة، وتسجل هذه الضريبة باسم المال الحر. وبخلاف ضريبة المال الحر التى تلزم القوانين الفلاح بها، قام الملتزمون بتحميل الفلاح بعدد هائل من الضرائب والإتاوات لم تكن موجودة قط من قبل، أو كان ينظر إلى بعضها فى البداية على أنه - على الأكثر - مجرد هدايا، لكنها بمرور الزمن أصبحت ضرائب إجبارية واجبة الدفع، ومسجلة، وتحصل بقسوة بالغة. وتسمى حصيلة كل هذه الرسوم التى ينظر إليها السكان باعتبارها نتيجة لقهر وطنهم : "البرانى"، وتحمل هذه الضرائب أحيانا اسم : "مضاف"، كما لو كان للإشارة إلى

(١) لعل التقدير الأخير مبالغ فيه، ولعل تقدير عدد قرى الدلتا أقل من الواقع. لمزيد من التفاصيل انظر دراسة جاكوتان Jacotin عن مساحة أرض مصر، وكذلك دراسة جومار Jomard عن المقارنة بين سكان مصر فى الزمن القديم وسكانها الحاليين .

أنها مستقلة عن بقية الضرائب، وأنها أضيفت أو زيدت على الضرائب المشروعة .
ويحصل الملتزم مجموع هذه الضرائب : المال الحر والبرانى، ومن هذه الحصيلة يدفع الميرى، وهو الضريبة الثابتة والمقررة بموجب قانون إدارى قديم^(١)، وهو يحصل باسم السلطان بواسطة الموظف الذى يمثلته. ويتحمل المصريون هذه الضريبة أكثر مما يتحملون الضرائب الأخرى، إذ هى فى نظرهم اعتراف بسيادة السلطان، ولأن لها طابعا مشروعا .

ويشكل ما يتبقى من المال الحر بعد سداد الميرى ما يسمى بالفايز (الفائض)، ويكون بالإضافة إلى البرانى مجموع ما يحصل عليه الملتزم من فوائد. لكن عليه فى نفس الوقت أن يدفع - خصما من هذه الفوائد - مصاريف إدارية كبيرة، وفاء لمسئوليات تقع على عاتقه، ليس من بينها أية مبالغ مخصصة للفلاح، لا تعويضا عن فلاحته للأرض، ولا كمقابل لمجهوده أيام الحصاد .

ويورث الفلاح لأبنائه حق زراعة الأرض التى فى حوزته، وعلى هؤلاء أولا أن يدفعوا للملتزم نوعا من رسوم التقليد، وينظر لهذا الرسم باعتباره هدية أكدتها العادة، ومع ذلك فنادرا ما يسددها الفلاحون بالرغم من أن الملتزم حق تحصيلها. وتبلغ هذه الضريبة ثلاثة أمثال عائد الأرض المنزرعة، ويمكن للملتزم حسب تساهله أن يتنازل عن جزء منها أو يتنازل عنها كلية إذا كانت الأرض ضعيفة، ولكن إذا رفض الفلاح المورث أن يسدد هذه الضريبة بالرغم من أوامر وتنبيهات المالك الملتزم، فإن الأخير يستطيع أن يرغمه على ذلك بمنعه من استغلال الأرض التى كانت فى حوزة أبيه. فانظر إذن بأية طريقة وبأى ثمن يستطيع الفلاح المصرى أن يورث أبنائه إرثه التعس .

ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن الفلاح لا يستطيع أن يبيع الأرض التى يزرعها، حيث إن ملكيتها الحقيقية ليست فى يده، ومع ذلك فقد كان له الحق

(١) يدفع الميرى عينا أو نقدا، ويدفع جزء منه فى الصعيد عينا .

فى أن يؤجرها لبعض الوقت، ويظل يحتفظ لنفسه بحق الرجوع إليها . وعندما يكون الفلاح معسرا غير قادر على سداد ما عليه، فإن الملتزم يستدعيه أمام القاضى، ويثبت عن طريق شهود أنه لا يستطيع تحصيل شئ منه، أى من الفلاح، وعندئذ يعزل المسكين من الأرض، ويصبح لسيده الحق فى إحلال فلاح آخر محله. ويرشح الفلاح الجديد عادة عن طريق شيخ أول القرية، ويقبل الملتزم هذا الاختيار، لكن ذلك لا يعنى أن الفلاح القديم قد انتزع من أرضه بغير عودة، فيكفى أن يستطيع دفع الأقساط المتراكمة عليه لكى يحصل من جديد على أرضه. ومن جهة أخرى فإذا حدث أن وقع ضرر بين وبالع القسوة على الفلاح على يد الملتزم، فإن بمقدور الفلاح أن يهجر حقله ، و فى هذه الحالة يقوم شيخ الفلاحين والملتزم بإحلال فلاح آخر محله .

ولا ينبغى أن ننسى أنه ليست للقوانين الوضعية - لا فى هذا المجال ولا فى أى مجال آخر بمصر - لا الدقة ولا الفاعلية التى للمؤسسات والأنظمة الأوربية. ويمكن القول بأنه ليست للقانون - المكتوب على ضفاف النيل - إلا أهمية ثانوية، بينما يرسم العرف أوامر وأحكام رجال القضاء، كما أنه هو الذى يبرر تلك الابتزازات الإجرامية للرجال القادرين من كل الطبقات ، ونتيجة لهذه السوءة البربرية فإن الفلاحين يعيشون فى شكل عبودية أكبر بكثير مما ينبغى، فأقذارهم تحت رحمة نزوات الملتزم الذى يستطيع - حسبما يتراءى له - أن يودى بهم إلى حالة من البؤس المفزع، أو أن يهيئ لهم عيشا رغدا ، إن هذه الأوضاع الشيطانية فى مجموعها ليست أقل سوءا من بقية الأمور التى تستوجب نظاما تشريعيًا جديدا فى مصر (١) .

(١) يمكن القول بأن الأراضى - فى المنطقة المحيطة بحلب - مقسمة بين السلطان الذى يحصل الميرى من الملك، والمالك الذى يقدر لنفسه دخلا سنويا عينا ونقدا، والمزارع الذى يحتفظ لنفسه بجزء من ثمرات جهده . وثمة سكان من القسطنطينية يمتلكون أراضى فى هذه المنطقة .

والملتزم الحق أن يبيع التزامه، وعندما يحدث ذلك يقوم الملتزم الجديد بدفع الميرى بدلا منه . وبخلاف الأرض التي يزرعها الفلاحون فى القرية ، ثمة جزء من أرض هذه القرية لا يخضع لنفس النظام، حيث يمكن القول بأن هذه القطعة مقسمة بين الملاك (الملتزمين) بنسبة عدد القراريط التي يملكونها من أرض القرية ، وتسمى هذه الأرض : الوسية ^(١) . ولا يقوم الفلاحون بزراعة هذه الأرض بنفس الطريقة التي تنظم زراعتهم للأراضي الأخرى، بل إن الملتزم يستخدم فيها من يشاء بالشروط التي تتراعى له . ومع ذلك فعندما يبيع التزامه فى أرض الفلاحين فإنه يبيع كذلك الجزء الذى فى حوزته والمقابل لتلك فى أرض الوسية ، إذ لا يمكن أن تنفصل هاتان الملكيتان .

ويرث أبناء الملتزم الالتزام عن والدهم، لكنهم لا يخلفونه إلا بعد موافقة الباشا . وفى هذه الحالة يحصل هذا الضابط - باعتباره ممثلا للسلطان- على جعل يصل إلى ثلاثة أمثال قيمة الفايط السنوى غير مشتمل على البرانى، ويؤكد الباشوات هذه الضريبة بأن يدفعوا إلى بلاد القسطنطينية جزءا من عائد عقودهم هذه . ويعدل الباشوات فى معظم الحالات من المبلغ المفروض كضريبة إرث، ويمارسون فى هذا الخصوص نحو الملتزمين ما يمارسه هؤلاء نحو الفلاحين فى نفس الظروف، وينظر المصريون إلى ضرائب الإرث هذه باعتبارها استردادا للأرض، وهكذا يصبح أبناء الملتزم أصحاب حق فى الحصول على ممتلكات أبيهم بعد دفع الضريبة المفروضة .

وفيما مضى كانت مصر مملوكة لجمهرة من كبار الملاك، لكن الممالك تخلصوا من هؤلاء حتى يقتسموا فيما بينهم أسلابهم . وقد نتج عن هذا السلب أن أصبح أعضاء الحكومات المملوكية، يمتلكون كل أرض مصر على وجه التقريب، فكانوا

(١) لا توجد وسية فى الصعيد ابتداء من المنيا .

(وقد بين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم فى كتابه الريف المصرى فى القرن الثامن عشر أن هذا خطأ وقع فيه علماء الحملة الفرنسية) . (المترجم) .

يتملكون على الأقل ثلثى الأراضى القابلة للزراعة. ولا يمنع هذا من أن هناك بعض الأفراد كانوا يحوزون بعض الأملاك الهامة، نذكر من بين هؤلاء الشيخ همام الذى كان حائزا على أراضى عدد كبير من قرى الصعيد .

وبرغم كل ذلك فسوف نقع فى خطأ بين إذا ما استنتجنا مما تقدم أنه ليست لدى المصريين فكرة صحيحة عن الملكية الحقة، إنهم يعرفون معنى هذه الملكية الحقة بلا ريب، ولكن كيف يمكنهم أن يتمتعوا بها، بينما كل شئ هناك يعترض سبيل سعادتهم؟ فالعادات وطغيان الحكومات وجشع الملتزمين، كل ذلك عقبات لا يمكن التغلب عليها . لا مفر من إصلاح تام ، بل يمكن القول بأنه لا بد من توزيع جديد للأرض . ولو كان الفرنسيون قد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم فى البلاد، فليس من شك فى أنهم كانوا سيصلحون من مساوئ هذا النظام . وإذا ما حدث ووجد أبناء ريف مصر أنفسهم يعيشون فى ظل حماية القوانين فإنهم سيحصلون فى وقت معا على الأمل والهمة، وعندئذ فكم من الثروات سوف تغل هذه الأرض الخصبة المعطاء، التى استحققت ذات يوم اسم : مزرعة روما (١) .

(١) لكى نقدم فكرة تقريبية عن بؤس الفلاحين فسوف نعتمد على شهادة المعلم يعقوب، المباشر القبطى الذى أكد لنا أن عشرة فدادين من الأرض فى الصعيد تنتج خمسين أردبا من القمح من بذور خمسة أرادب، كما أكد لنا بالمثل أن الأقساط التى يدفعها الفلاحون للملتزم عينا لا تقل مطلقا عن ٢-٣ أردب من الحبوب عن الغدان، فإذا قمنا بخصم مصاريف الحرث والبذر، نجد أنه لا يتبقى شئ على وجه التقريب لهؤلاء الفلاحين التعساء .

عن الرق وعن العتق

تحتفظ الشعوب الشرقية بتلك العادة القديمة، عادة استخدام العبيد، ونحن لن نمسك فى هذا الخصوص عن إبداء أى رأى مهما بدا قاسيا . ومهما كانت انتقاداتنا وملاماتنا مشروعة فإنها تقع جميعها على أوروبا، كما أن كل واحدة من هذه الانتقادات والملاحظات ليست سوى نقد حر لتلك التجارة المخزية التى تسامحت فيها أوروبا حتى اليوم . فمستعمرات العالم الجديد، وجزر البحر الأفريقى - مسارح همجية الشعوب المتحضرة - تقدم أكثر مشاهد العبودية بشاعة، بل وربما أكبرها إهدارا للحقوق المقدسة للإنسان . إذ ينبغى أن نعتزف هنا - وهذا أمر مخز للحضارة والمدنية - أن قدر العبيد فى مصر كما فى كل بلاد الشرق، أقل حافزا على الشكوى من قدرهم هناك فى أمريكا، حيث يروون بعرقهم ودمائهم حقول سوق لا رحمة فيه. أما رقيق مصر - على العكس من ذلك - فيمكن القول بأنهم يقبلون فى العائلات كأفراد فيها، وليس ثمة ما يقومون به من عمل سوى خدمة المنزل، كما أن حالتهم ليست على الدوام بائسة، بل إن الرق عندما يكون السيد واحدا من البكوات، يكون فى معظم الأحوال بمثابة الخطوة الأولى نحو الثروة أو نحو السلطة.

وفى مصر نوعان من الرقيق : السود من وسط أفريقيا ويأتون إلى مصر وإلى المدن الكبرى عن طريق قوافل، والبيض ويأتون من أقاليم آسيا المجاورة للبحر الأسود . وثمة فرق هائل بين ثمن هؤلاء و ثمن أولئك ، فقلما يبلغ ثمن الأسود : ٤٠ - ٨٠ قرشا أسبانيا، بينما يعتبر الناس أن من الطبيعى أن يدفعوا فى شراء شاب شركسى ٦٠٠-٨٠٠ سكين Sequin ، وهو عملة ذهبية إيطالية تقدر القطعة منها بـ ١٢٠ بارة ، أى حوالى ٣٠٠٠ فرنك . وقد كان ثمن الألفى بك ألف سكين ، ومن هنا جاء اسمه : الألفى .

ويعتبر العبد جزءاً مكملاً لثروة سيده الذى يستطيع أن يبيعه أو يبادل به أو يعتقه، وذلك حسبما يتراءى له، وليس للعبد أن يمتلك شيئاً خاصاً به، فكل ما يمكن أن يحصل عليه يكون من حق سيده، ولا يتمتع العبد بأى حق مدنى، ويعتمد فى كل أموره على إرادة سيده . ومع ذلك فإذا قام الأخير - بالجوء إلى العنف أو لاية وسيلة أخرى - بفعل مخالف للقوانين أو الطبيعة ، فإن العبد يستطيع أن يشكوه أمام القاضى الذى يرغم سيده - حسب الحالة المعروضة عليه - على بيعه للآخرين . ومع ذلك فنادراً ما يتهم العبد سيده بالطغيان، فكل ما يفرض عليه من واجبات يتعلق فقط بالخدمات المنزلية، فهو يعنى بمنزل سيده، ويخدم على المائدة، أو يقوم بأية أعمال أخرى تتصل بشخص سيده، لكنه بعيد عن الزراعة وعن كل الأعمال الشاقة . ولعل أشق عمل يكلف به العبيد، هو أن يعهد إليهم سادتهم بالعناية بخيولهم، وهم عامة يعاملون بلطف تام، ونادراً ما لا ينتهى بهم الأمر إلى العتق خلال بضعة سنوات أو عند موت سيدهم .

ويمكن القول بأن العبد الأبيض يعتبر عضواً من أعضاء الأسرة، وعندما يرضى تاجر عن عبده فإنه يشركه فى تجارته ، ويزوجه من ابنته ، ويهيئ له حياة طيبة، أما أولئك الرقيق الذين يكونون فى خدمة البكوات الكشاف أو كبار ضباط حكومة الممالك فإن حظهم أكثر بريقاً، فحيث إن سادتهم أنفسهم قد بدأوا حياتهم عبيداً، فإنهم بدورهم يولون عبيدهم جل عنايتهم، ويهيئون لهم نوعاً من التدريب العسكرى ليشكلوا فيما بعد جيش الممالك . وتتجلى قوة كل بك فى عدد رجاله وفى شجاعته، لذا فهو يعنى بتقدمهم وثروتهم كما لو كانوا أبناءه ، وفضلاً عن ذلك فقد كان الممالك يدعمون حزبهم عن طريق نفوذ رجالهم، وهو النفوذ الذى هيأته لرجالهم هذه المناصب التى ولوهم - هم أنفسهم - فيها .

لكن الشجاعة والمميزات الشخصية لعبد ما - ليست على الدوام هى الأسباب الوحيدة التى تحدد بشريف مملوك، أن يهيئ لعبده هذا التقدم السريع، ويؤكد

البعض أن الجمال والصفات الجسمانية تلعب دورا كبيرا فى أقدار هؤلاء العبيد . ويشكل هؤلاء الرجال ذور الأصل الغامض، والذين نهج بلاد معظمهم، طائفة النبلاء الحقيقيين برغم كل ما قيل، فهم وحدهم يحوزون المناصب، ويعمرون بيوت وعائلات سادتهم، التى كانت ستخيو فيها بدونهم أضواء الحياة منذ الجيل الثانى . ومن نافلة القول أن نذكر أن الإماماء البيضاء القادما من نفس بلدان هؤلاء البكوات والكشاف والممالك الآخرين، يتمتعن هن أيضا باعتبار خاص، ذلك أنهن - عادة - يصبحن زوجات هؤلاء أو إماءهم المفضلات .

وبالرغم من الامتيازات التى أتاحت للعبيد الممالك من وجودهم بالقرب من البكوات، فإن من الواجب أن نلفت النظر إلى أن العرف قد وضع حدا لتقدمهم . ويمكن القول بأن الممالك ومع أنهم كانوا يعدون جزءا من أسرة سيدهم، لم يكونوا ليتمتعوا بأى حق مدنى فى ميراثهم، إذ إن العلاقة التى نشأت بينهم لم تكن تساوى علاقة التبنى . فليس للعبد - حتى إذا أعتق - أى حق فى تركة سيده التى توزع على أبنائه الشرعيين . صحيح أن بمقدور السيد أن يخصص جزءا من ثروته لصالح العبد، لكن هذه الهبة لم تكن لتبلغ مطلقا أكثر من ثلث الثروة، حتى ولو لم يكن للمتوفى أى أبناء . وعلى العكس من ذلك فإذا مات المعتوق دون ذرية، فإن ثروته كلها تؤول إلى سيده القديم .

وتباع الإماماء من كلا اللونين بثمن أغلى من ثمن العبيد الذكور، وإذا ما نشأت علاقة بين السيد وبين واحدة من إماءه وأصبحت هذه أما، فإنه لا يستطيع أن يبيعها، إذ تصبح فى حكم الزوجة الحرة حتى يموت سيدها . وعندما تموت هى يصبح ابنها شرعيا ويرث شأنه شأن أبناء الزوجة الحرة، ولكن إذا أراد السيد أن يتخذ من إحدى إماءه زوجة شرعية فعليه أولا أن يعتقها .

ويمكن للمسلم أن يعاشر إحدى إماءه ، دون أن تخرج - من أجل ذلك - من خدمته، فهو يحتفظ لنفسه عليها بكل حقوق الملكية، فيستطيع أن يستردها وأن

يجعلها تقوم بخدمته ، بل وأن يبيعهها من جديد ، ولكنه فقط لا يستطيع أكثر من معاشرتها . وثمة أمثلة على زواج من هذا النوع ، وإن كان المعتاد أن يقوم الزوج بعق تلك التى يختارها زوجة له .

ويدرك العبد أنه مملوك كلية لسيده، وهو يقف أمامه ويده مضمومتان إلى صدره، وعيناه مثبتتان على عينيه ليدرس أقل رغبات سيده، حتى ينفذها قبل أن يعبر سيده عنها . وحالته فى نظر نفسه طبيعية ، وهو لا يستشعر مطلقا لا الرغبة ولا الحاجة فى قطع قيوده، بل إن المعتوق نفسه يظل يحتفظ لسيده القديم بالاحترام والولاء مما يصعب على أى رجل حر قبوله ، لكن العرفان هو الذى يفسره . وقد رفع على بك الشهير بـ (الكبير) كثيرا من مماليكه إلى مراتب البكوات والكشاف، ومع ذلك فقد كانوا - عندما يأتون لزيارته - يظلون واقفين فى مظهر خانع، ولا يجلسون مطلقا أمامه إلا إذا دعاهم لذلك ، كما كانوا يحرصون على ألا يجلسوا على نفس الأريكة التى يجلس عليها سيدهم القديم . ويلاحظ نفس التحفظ والمراعاة من جانب المعتوقات نحو السيدات اللاتى كن مملوكات لهن .

ومن المؤلف لدى الشرقيين أن يروا العبيد المعتوقين يصلون إلى ذروة المجد، ولا يمكن أن يحقر الرجل مطلقا من قبل الرأى العام لأنه كان من قبل عبدا، ودائما ما يسعى الناس لصداقته ومودته. وهكذا فإن الأمر الذى يعد عند الشعوب الأخرى شيئا جديرا بالتحقير، يصبح هنا وكأنه أمر مرغوب، بل ثمة من يؤكد أن نقيب الأشراف فى مكة قد زوج ابنته من معتوق .

سبق لنا أن قلنا إن الرجل الحر الذى يريد أن يتزوج من أمتة عليه أن يعتقها، ونفس الأمر بخصوص أولاده، فإنه لابد أن يسمح لابنه بالارتباط بإحدى إمائته (أى إماء الأب) وإلا فلن يتمتع الأطفال الذين يأتون عن طريق هذا الاتصال بأى حق مدنى، بل سيظلون عبيدا حتى موت أمهم إلا إذا اعترف الأب بهم، الأمر الذى يعنى عتق الأم .

وصيغة العتق بالغة السهولة، فهي عبارة عن كلمة من السيد تقال فى أى مكان، فى المنزل أو الشارع أو أى مكان آخر. ولكن إذا خشى العبد من تقلب مزاج سيده فإنه يطلب تحرير وثيقة بالعتق تبرهن على صحة عتقه، ونادرا مايرفض طلب كهذا. وليس لحق السيد على عبده من حد إلا الحق الطبيعى، وعلى سبيل المثال، فإن الأمة التى من واجبها الاستجابة لكل رغبات سيدها تستطيع أن ترفض أى فعل يهين طبيعتها. وعندما يرتكب عبد ما جريمة قتل فإنه يمثل أمام القاضى مع سيده، ويقدم كلاهما للمحاكمة، وإن كان لأسرة القتيل أن تعفو أو تكتفى بتعويض نقدى. وقد سبق لنا القول بأن المعتوق لايرث عن سيده القديم، ومع ذلك فإن سيده إذا ما مات دون ذرية فإن السلطان والقاضى - وهما الورثة فى هذه الحال ، فالأول يرث ثروة المتوفى والثانى يرث وظائفه - يعطيان كل شىء أو جزءا منه إلى معتوقه ، وليس هذا حقا مقررأ له، ولكن العرف هو الذى جعل منه نوعا من الإلزام. وفيما مضى ، عندما كان التبنى شائعا، لم يكن الأمر يصل لهذا الحد، ويمكن الآن للرجل أن يتبنى عبده، أو هو على الأقل يستطيع ذلك، على نفس النحو الذى كان يتم فى الماضى.

والعتق هو مكافأة على إخلاص وحماسة وتضحية العبيد، وهذا الفعل شائع لحد أنك لا تستطيع أن ترى إلا عددا بالغ الضلالة من الرقيق وهم يموتون فى ظل حالة الرق، فجميع العبيد رجالا ونساء، بيضا وملونين ، يعتقدون على قدم المساواة، وثمة طواشيون عند الممالك، وكان عددهم عند مراد بك يبلغ العشرين، ولكن لم تجر العادة مطلقا فى القاهرة على اللجوء لخدمات هؤلاء التعساء. ويدين الدين هذه العادة ، ولايمارسها بخلاف الممالك إلا عدد بالغ الضلالة من السكان ، فتدمر معين الحياة عند رجل جريمة كبرى فى نظر المسلمين ذوى الحمية الدينية. ويمكن للطواشى أن يعتق شأته شأنا أى عبد، وهو ما يحدث فى معظم الأحوال، ولا يحتقر الطواشى إلا إذا كان الاحتقار من نصيب سيده، ولا تجلب عليه حالته كطواشى أى تحقيق خاص، بل كان يرى طواشيو الرجل القوى يحصلون لأنفسهم على شىء من التقدير الذى يحظى به سيدهم .

ويعتد موت أحد الأثرياء يقتسم الورثة تركته، ويدخل العبيد ضمن هذه التركة شأنهم شأن بقية أجزائها، ولا يستثنى من هؤلاء إلا من أعتقهم سيدهم عند موته، أو أولئك الذين كان سيدهم قد وعدهم بذلك من قبل، وفي هذه الحالة فإن الأمة التي صارت أما بفعل سيدها تأخذ كل حقوق الزوجة الحرة، وهو الأمر الذي لم تكن قد تمتعت به حتى هذه اللحظة .

- ٧ -

الوصاية، التركة، الشهود

عندما يموت رجل تاركا أبناء صغار السن، فإن جدهم لأبيهم يصبح هو الوصى الشرعى عليهم، أما إذا لم يكن هذا الجد على قيد الحياة فإن القاضى يختار بمعرفته وصيا على هؤلاء اليتامى ، لكن الوصى ليس له حق التصرف فى ثروة القصر. وتخصص نفقات هؤلاء وكذا مصاريف تعليمهم من ثروتهم، وإذا ما أراد الوصى بدافع من العاطفة أن يستثمر أموالهم، فإنه يقوم بذلك مخاطرة من جانبه يتحمل هو كامل مسؤوليتها، وهو ملزم على الدوام بأن يقدم إلى القاضى حساب المبالغ التى فى يديه .

أما التربية فهى مستقلة عن الثروة، حيث يعهد بها إلى الأم حتى سن السابعة بالنسبة للأولاد، وحتى سن الزواج بالنسبة للبنات، ولا يفوت الوصى أن يعلم الأولاد القراءة والكتابة ، وأن يهيئهم لنوع من الحياة حسب درجة ثرائهم . ولا يحق إلا للأب أو الجد أن يعقد زواجا لأبناء دون سن البلوغ، أما الأقارب الآخرون فغير مخولين فى ذلك. وعندما يبلغ الأولاد سن الرشد ، فإنهم يستطيعون أن يرفضوا الامتثال للقرار الذى اتخذته الأب أو الجد. وقد سبق لنا أن قلنا إن سن البلوغ للولد محدد بخمسة عشر عاما، وفى هذه الحالة يقدم الوصى الحساب إلى القاضى عن ثروات هذا الولد الذى سيصبح الآن قيما على نفسه، ومع ذلك فينبغى - حسب المذهب الحنفى - أن يُعيَّن على هذا الولد وصى حتى يبلغ سن الخامسة والعشرين، لكن

القضاة لا يمثلون لهذا الرأي. ويمكن للابن عند بلوغه سن البلوغ أن يترك منزل الأب ، ولا تعود أسرته ملزمة بإطعامه .

والابن - فى التركات - ضعف حق البنت، فعندما يكون لرجل بنتان وولد واحد على سبيل المثال ، فإن الزوجة تأخذ لنفسها ٢٤/٣ من التركة ، ويأخذ الابن ٢٤/١٠ و ٢/١٠ (الجزء، أى ١٠ . ٥) وكل من البننتين ٢٤/٥ و ٤/١٠ (الجزء، أى ٢٥ . ٥). وعندما يكون للمتوفى وريث ذكر، فإنه لا يكون لأخوة المتوفى أو أخواته حق فى الميراث .

وأنصبة الأخوة الذكور متساوية فيما بينهم، وإذا لم يكن ثمة ذرية فلا يؤول لزوجة المتوفى إلا ٤/١ تركته ، ويؤول الباقي لأبيه . ولا يحق لأخواته إرثه إلا إذا كان الأب متوفيا. أما إذا ترك المتوفى ابنة فإن نصيب الزوجة على الدوام ٢٤/٣، والبنت فى هذه الحالة ٢٤/١٢، وإذا كان له أكثر من ابنة واحدة فإنهن يقتسمن ٣/٢ ثروة والدهن . وعندما تموت الزوجة يحصل الزوج من ميراثها على ضعف ما كانت ستحصل عليه فى الحالة المماثلة .

وقبل الشروع فى تقسيم التركات تجنب مصاريف الجنازة ثم ديون المتوفى، ثم يتم الوفاء بشروط الوصية التى تركها المتوفى ، بحيث لا تتجاوز الهبات بأى حال ١/٣ صافى التركة . أما إذا لم يخلف وريثا فمن حقه أن يهب كل شئ لأحد أصدقائه، وينبغى أن نستنتج أنه فى بلد تتشعب فيه العلاقات الأسرية لهذا الحد، فإن حالة كهذه تبدو بالغة الندرة .

وليس للأبناء الطبيعيين (غير الشرعيين) أى حق فى الميراث، حتى ولو كان الأب قد تزوج من أمهم، إذا لم يكن هو قد اعترف ببنوتهم. ولكن فى هذه الحالة -حالة الاعتراف - يصبح حتى أبناء الأمة أبناء شرعيين، ويستطيعون الإرث كما بينا من قبل .

ونعتقد حتى تكتمل دراستنا عن المواريث، أن من الواجب أن نقدم هنا من القرآن النصوص التي تتصل بالمواريث لنرى كيف عبر محمد عن كل الحالات المحتملة : «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين، وأبأؤكم وأبنأؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً . ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهبن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حلیم» (*) .

ويمكن لرب الأسرة أن يخصص ٣/٨ تركته لصالح من يريد، ولا تعارض القوانين في ذلك، وتتأكد هذه الهبة كتابة أو عن طريق شهود، بل إن الكتابة تفترض وجود شاهدين، وإذا أنكر الأبناء أن والدهم قد خصص المبلغ المطلوب كهبة، فإنهم يرغمون على القسم، وينبغي أن نلاحظ أن الشريعة تحتم القسم على من ينكر .

وحيث إنه لا يسمح مطلقاً بأن يوهب ما هو أكثر من ثلث ما يمكن أن يتركه المرء، فإن ثمة وسيلة للتملص من هذا التشريع لإعطاء كل الثروة كهبة، ولا يحدث هذا إلا عندما يموت رجل دون ذرية . إذ يمكن في هذه الحالة أن يوقف تركته على أحد المساجد، مع تخصيص حق الانتفاع للشخص أو الأشخاص الذين يفضلهم،

(*) القرآن الكريم، الآيتان (١١، ١٢) من سورة النساء . (المترجم) .

بل حتى لذريتهم ومماليكهم، ولا يمكن أن يوصى بشئ للعبد حيث لا أهلية له حتى يملك، إذ إن قميصه نفسه ليس ملكا له .

ويمكن القول بأن الشهادة لازمة في كل الأمور الهامة، وإذا ما حدث - على سبيل المثال - أن وقع إيصال من جانب المدين وشاهدين، ثم مات هذان الشاهدان، فإن للمدين الحق في أن يرفض السداد، لكن هذا لا يحدث في الواقع إلا إذا كان الدين كبيرا. وإليك كيف يفصل في الأمر : يستدعى المدين ودائته إلى القضاء، وعليهما أن يقسما، ولكن إذا افترضنا أن المدين قد يقسم اليمين باطلا فإن الآخر (الدائن) لا يقسم، لأن القسم دائما على من ينكر . ويفترض القانون أن الكتابة يمكن أن تزيف أكثر مما يفترض أنه يمكن للمسلم أن يحدث في قسمه .

ولا تقبل شهادة المسيحيين أو أى رجل ليس دينه الإسلام أمام المحاكم الإسلامية ضد المسلمين، لذا لا يستدعى الكفار مطلقا عند الفصل في الأمور المدنية أو الجنائية عند الأتراك، ومع ذلك فيمكن لقائد الشرطة أن يستعلم من كافر عن أمور تدخل في اختصاصه. وثمة أمر آخر يبعث على الدهشة ، فعندما يدعى - على سبيل المثال - شخص أن ثمة شخصا آخر قد طلب منه مائة خردة، وشهد على صحة هذا الدين اثنان، فإن هذه المائة خردة تستوجب الدفع ، حتى ولو لم يكن قد تم الدين في واقع الأمر، ولكن إذا ما عاد هذان الشاهدان - بعد أن غلبهما الندم - ليعلنا أمام القاضى أنهما قد حنثا في قسمهما، فإن القاضى يلزمهما أنفسهما بدفع هذه المائة خردة إلى الشخص الذى دفعها ظلما، ويحتفظ المدعى النهاب بالمبلغ الذى حصل عليه ، ولا يلزمه القاضى بأى التزام، ذلك أن هذا المبلغ غير المستحق قد جاء فقط من جانب الشاهدين سيئى الزمة، ولذا يقع العقاب عليهما وحدهما، أما إذا لم يرجع فى شهادته سوى شاهد واحد، فإنه يقوم بدفع نصف المبلغ المستلب .

ويمكن لرجل ما فى غيبة الشهود أن ينكر دينا مؤكداً، فالشهود وحدهم هم الذين يبرهنون على صحة الدين، ويعفيه القانون لذلك من سداد هذا الدين، وإذا ما ظهر شهود على هذا الدين، فإن المدين يلزم بالدفع ، ويكون الحكم فى هذه المرة بمثابة إيقاف للحكم الأول . وفى الحالة التى يطالب فيها شخص ما بدين لا ينكره المدين ، وإنما يدعى أنه قد قام بتسديده، فإن القاضى يطلب من الطرفين أن يقسما، ولكن إذا أنكر الدائن أنه حصل دينه مهما كانت حقيقة ما حدث، فإن المدين يلزم بالسداد مرة أخرى، لأن القانون - كما سبق أن قلنا - يقف فى صف الشخص الذى ينكر إذا ما أقسم على ذلك .

- ٨ -

عن الدين، وعن الاقتراض بالربا

تعتبر شريعة محمد أن الربا جريمة، وقد حرم هذا المشرع الربا لأنه يطمح إلى أن يعتبر كل أتباعه أنفسهم أخوة ، وأن يتعاونوا فيما بينهم، ومع ذلك، فحيث إن إغراء الكسب أقوى من الخوف من رقابة الدين، فإن المسلمين قد استطاعوا على نحو ما أن يتحايلوا على هذا المبدأ الذى لا يستطيع أن يتبعه شعب من المضاربين والتجار . وإليكم كيف أن محمداً يجعل من وسيلة التعاقد إلزاماً شرعياً: «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم

ولا يضار كاتب ولا شهيد^(*) « وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته^(**) ». وتبعا لذلك فإن المسلم الذي يقترض مبلغا من المال، أو الذي يعقد ديناً ما، عليه أن يحرر ورقة إلى دائئه في حضور شاهدين، ولا يستطيع أن يعفى نفسه من هذا الإجراء، إلا إذا كان الدائن يوليه ثقة كبيرة لدرجة يكتفى معها بكلمة منه . ولا تكفى الكتابة وحدها بدون حضور الشهود لإدانة رجل خرب الذمة، يستطيع أن يحلف أمام القاضي بأنه غير مدين بالمبلغ المطلوب، وهكذا فمن المهم لتفادي مثل هذا النوع من الإنكار التاكيد من الشهود، ويكفى الشاهدان وحدهما في غيبة الكتابة لتأكيد الدين على المدين، وقد سبق أن تعرضنا لذلك من قبل .

ويلزم الشاب البالغ بدفع الدين الذي حرره على نفسه، وتنتظر الشريعة لذلك باعتباره أمراً مشروعاً، حيث إنها تعتبر أن الشاب يتصرف عندئذ، وهو على دراية تامة بالأمور .

ويسمح القانون بالإرغام الجسدى لسداد الدين، فالمدين ملزم ببيع كافة ما يمتلك، فيما عدا الملابس التي يرتديها، إذا أرغمه الدائن على ذلك . وعندما يشك الدائن أن المدين قد أخفى في بيت أحد أصدقائه نقوداً أو أشياء ليفلت بها من الدائن، فإنه يساق إلى السجن، ويظل هناك حتى يثبت بشهادة شاهدين مشهود لهما بالنزاهة أنه لا يمتلك في الواقع شيئاً، عندئذ يأمر القاضي بإطلاق سراحه حتى يستطيع أن يحصل عن طريق عمله على ما يستطيع به سداد دينه . وما أن يجنى المدين بعض المال، وما أن يبرهن الدائن على ذلك أمام القاضي، حتى يتعرض المدين لإرغام جديد، ولكن لا يسمح للدائن مطلقاً باستخدام القوة من جانبه ضد مدينه، ولا أن يفتشه دون تخويل صريح من المحكمة .

(*) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢٨٢ . (المترجم) .

(**) القرآن الكريم، سورة البقرة الآية ٢٨٣ . (المترجم) .

ويخضع الفلاح المزارع لكل صرامة القانون، فيمكن إرغامه على بيع كل شئ، حتى ثيرانه ومحراثه، ولكن حيث إن المشرع يطلب من الدائن قدرا أكبر من الاعتدال نحو مدينه، فإن المدين يتمكن على الدوام تقريبا من الحصول على مهلة للوفاء بالتزاماته، أو يرتب ذلك مع الدائن بطريق ودى .

والشخص الذى يودع لديه مبلغ من المال أو أى شئ آخر أيا كان، لا يعد مسئولا إذا ما برهن أمام القاضى بشهادة شاهدين، أن الوديعة قد سلبت منه عن طريق قوة القاهرة، وفى هذه الحالة نفسها فإن قسمه وحده يكفى - إذا لم يكن ثمة شهود - لتحرره من كل التزام .

ومع ذلك فإن المسلمين فى مصر يبدون الكثير من النزاهة والأمانة فى معاملاتهم، فيصرفون شئون تجارتهم بذمة طيبة ، حتى عندما تكون تجارتهم هذه مع تجار من ديانة أخرى . ويفضل الأوربيون التعامل معهم أكثر مما يفضلون التعامل مع المسيحيين، سواء كانوا من أهل البلاد أو كانوا من السوريين، الذين هم أبعد ما يكونون عن التباهى بنفس الطيبة، والذين يتحتم على المرء أن يتخذ أكبر قدر من الحيطة عند التعامل معهم . ولا نستطيع أن نعطي صورة عن نزاهة المسلمين فى مصر عامة ، أفضل من أن نذكر على سبيل المثال أمانة أناس الطبقات الدنيا، فنقل الأموال والمجوهرات الثمينة يتم عادة عن طريق قوارب تسبح فوق النيل، ومن النادر أن تتخذ احتياطات للتأكد من أمانة البحارة ، ولم نكد نسمع مطلقا أن أحدا منهم قد أساء استخدام الثقة التى وضعت فيه .

وللتحايل على الإجراءات القانونية التى تحرم الربا، يمكننا أن نتصور ما يلى:

يقترض رجل مبلغا من النقود يريد أن يستغلها، فيعتبر الدائن نفسه شريكا له فى المشروع . وعندئذ يحصل على نصيب شرعى من الربح الذى يدره هذا المشروع، ويسمح القانون أحيانا أن يقدم المقترض إلى الشخص الذى يقترض منه هدية سنوية أو شهرية طيلة المدة التى يحتفظ خلالها بالمبلغ، ويمكنه أن يحصل

على هديته هذه بقسم منه ، ونحن نرى أن هذا الإجراء يساوى الربا بشكل تام، بل إنه يفوقه فى أنه غير محصور داخل نفس الحدود .

والشخص الذى يستغل مبلغا من المال، أو الذى يحصل على إيجار منزل ، أو على دخل من ملكية أيا كانت، يلتزم بأن يقدم كل عام للفقراء ١/٤٠ من ربح رأس المال، وللحاكم الحق فى أن يرغمه على ذلك. أما كل الممتلكات التى تستخدم فى الاستعمال الشخصى كالبيت الذى يقيم فيه المرء أو الأرض التى يطعم أسرته من نتاجها ... الخ ، فهى لا تخضع لهذا النوع من الضرائب . ويمكن القول بأن هذه الضرائب ليست إلا أمرا يعود إلى ضمير المرء، ولا تفرض المحاكم ضرورة دفعها، لذا فإن المسلمين نوى الحماية الدينية، هم وحدهم تقريبا الذين يؤدونها .

قلنا إن الدائن يرتب أموره مع مدينه، ونتيجة لذلك فنادرة هى حالات الإفلاس بالتدليس فى مصر، لكن حوادث المصادرة معروفة وشائعة، وكثيرا ما توضع الأختام على المحلات التجارية ، وبيوت أولئك الذين تريد الحكومة أن تصادر ممتلكاتهم . وتوضع هذه الأختام بطريقتين : إما بواسطة مسمار يضعه موظفو القضاء فى قفل الباب، وعندئذ لا يستطيع أحد أن يخالف هذا المنع دون أن يعرض نفسه لقطع يده ، وإما بوضع قليل من الطين على القفل مع ترك علامة ما . وعند مرورنا فى الرملة مع فرقة عسكرية من فرقتنا مررنا بمحل يحتوى على كمية هائلة من القمح ، ومختوم بعلامة الطين، وكان من المستحيل علينا وقتها أن نترك حامية فى المدينة، حيث إننا كنا لانزال نحارب المماليك . وحيث إن هذا القمح قد آل إلينا ، بينما نحن لم نصبح بعد فى وضع يجعل الآخرين يحترمون قوتنا، فقد كان من المحتمل أن يقوم العامة - بدافع من الرغبة فى السلب، أكثر منه بفعل الحقد الذى كانوا يكتونه لنا ، وكأمر طبيعى فى الأيام الأولى لقدمنا - باقتحام هذا المحل وسلبه، ومع ذلك فإن شيئا من ذلك لم يحدث، فعندما عدنا إلى المدينة من جديد - أى بعد حوالى شهر - وجدنا المخزن سليما لم تمسه يد .

عن الزنا وعن الاغتصاب

يبدو أن نبي الإسلام كان ينظر إلى الزنا باعتباره أمرا يبعث على اضطراب الأسرة، وأنه ينبغي لذلك ألا ينتشر أمره لابين العامة ولا أمام المحاكم. صحيح أنه أمر بأن يرجم أى متزوج يدان بهذه الجريمة، ولكنه أرغم الرجل الذى ينتهك عرضة، والذى يريد اتهام زوجته بمثل هذه التهمة، أرغمه على الصمت حين حتم عليه إحضار أربعة شهود عيان، وجلد من لا يستطيع تقديم الدليل على هذا الاتهام ٤٠٠(*) جلدة. وقد حانت الفرصة ذات مرة لكى يقوم هو نفسه بتطبيق هذا المبدأ، حين جاءه ذات يوم رجل فاجأ زوجته وهى ترتكب جريمة الزنا ليطلب إليه تطبيق العقاب على زوجته الأثمة، فسأله محمد إن كان له على ذلك أربعة شهود، فأجاب الزوج الذى أهين فى شرفه بالنفى. عندئذ قال له محمد إنه سيعاقبه بتهمة القذف فى حق زوجته.

ولم يرد إلا ذكر امرأة واحدة رجمت لأنها اتهمت بالزنا، وقد تم ذلك لأنها هى نفسها التى اعترفت بجريمتها. وعند تنفيذ حكم من هذا النوع فعلى الحاكم أو الوالى الذى يمثله أن يلقى بأول حجر.

وتقضى الشريعة بجلد العزب الذى يتهم بالزنا مائة جلدة، ويجلد العبد الذى يدان بنفس الجريمة والذى يعيش فى كنف سيده خمسين جلدة فقط.

ويدان الزوج الذى يفاجئ زوجته وهى تزنى ثم قتلها، بالقتل، ويلقى عقاب الموت، فليس له فى هذه الحالة إلا أن يطلقها أو أن يلجأ إلى القاضى. وعندما لا يتوافر له الشهود فإنه يقسم أربع مرات بأنه صادق فى اتهامه، وفى القسم الخامس يدعو على نفسه باللعة إن كان كاذبا. وعندما لا ترد المرأة بشئ على هذا

(*) ومن المعلوم أن يجلد ثمانين جلدة. كما ورد فى سورة النور آية ٤. (المترجم).

الاتهام ، فإنها تدان بسبب صمتها ، وعقابها فى هذه الحالة عبارة عن جلدها مائة جلدة وحبسها بقية عمرها ، أما إذا برهنت على براعتها بنفس طريقة القسم ، فإن القاضى يطلق سراحها . ويكون انفصالها عن زوجها أمرا لامحيص عنه ولا رجعة فيه^(١) .

وقد يحدث أن يجد رجل ماعبده فى أحضان زوجته ، ومع ذلك فلن يكون له إلا حق عقابه أو بيعه ، أما إذا قتله أو حرمه من أعضائه التناسلية فإنه سيكون قد ارتكب جريمة كبرى . لكن مثل هذه الأفعال العنيفة ستبقى دون شك بغير عقاب ، فى بلد تسيطر فيه العادة والعواطف الجامحة أكثر مما يسيطر القانون ، وفضلا عن ذلك فسيكون من السهل على فرد ما أن يخفى جريمة قتل يمكن أن يقتربها داخل منزله ، أو يستطيع على الأقل أن يجعل هذه الجريمة تمضى باعتبار أن الموت قد حدث بشكل طبيعى .

ويعاقب على الاغتصاب بمائة جلدة ويلزم لاثباته أربعة شهود .

وبالرغم من أن البغاء جريمة ، فإن الشريعة لم تفرض عقابا زمنيا على هؤلاء اللاتى يمارسنه . أما الاضطراب الذى تحدثه النسوة اللاتى يعشن هذه العيشة الدنسة ، فهو من اختصاص الشرطة ، وعدد هؤلاء التعيسات فى القاهرة وكذا فى كثير من مدن مصر كبير جدا ، والمقيمات منهن بالقاهرة يدفعن ضريبة للوالى . ولم يفرض محمد على الرجال الذين يتصلون بالبغايا عقوبات زمنية ، لكنه أنذرهم بعذاب النار بعد الموت .

(١) يقول القرآن عن الزوجة التى تتهم بالزنا : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » . النساء ، آية ١٥ .

ويقول عن الأمة المتزوجة التى تزنى : « فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » . النساء ، آية ٢٥ . (المترجم) .

والفتاة التي تحترف البغاء ثم تصبح أما تفقد فجأة احترام العامة ، ومع ذلك فهي لا تحتقر لدرجة لاتجد معها لنفسها بعد ذلك زوجا . والشخص الذى يتزوجها يقوم بفعل خير فى نظر الله ، لأنه ينتشلها من الضياع الذى ستنتهى إليه لامحالة ، لكن الرجل الحساس والذى يحرص على تقدير أصدقائه يتفادى ارتباط كهذا ، غير أن أمثال هذا الرجل قليلون .

١٠

عن السرقة والقتل ، وعن القصص

يعاقب على السرقة بقسوة ، وبرغم ذلك فلا يعاقب المذنب مطلقا بالموت ، إلا إذا كانت السرقة قد اقترنت بالقتل . والشخص الذى يدان بالسرقة مع استخدام العنف داخل محل تجارى أو داخل بيت أو داخل نطاق ما ، تقطع يده ، ولكنه إذا ارتكب هذه السرقة من شخص أو من معروضات ، وباختصار إذا سرق خارج مكان مسور ، فإن القانون يحكم فقط بضربة بالعصا وبإعادة المسروقات . إذن فاقترحام المسكن وانتهاك حرمة هي التى تشكل خطورة فى هذه الجريمة . ولا تصدر حرية المذنب فى كل الحالات ، ويتركه القضاء لحال سبيله بعد تنفيذ الحكم عليه .

وليس ثمة عقوبات أخرى للخادم أو العبد الذى يسرق سيده ، وكذلك لا ينظر للشخص الذى يسرق مسجدا باعتباره أكبر جرما من الشخص الذى ارتكب السرقة فى أى مكان آخر .

ولاتضيف العودة إلى السرقة شيئا إلى الجريمة ، فالمجرم يلقى فى جريمته الثانية نفس العقاب الذى تلقاه على جريمته الأولى ، إذا ما تمت السرقة فى ظروف مشابهة . فإذا كان قد فقد يده اليمنى تقطع له اليسرى ، ويلزم وجود شاهد عيان لإثبات السرقة ، ولاتقبل شهادة النساء مطلقا . وعندما لا يستطيع المدعى أن يحضر شهودا ، فإن القاضى يلزم المدعى عليه بأداء اليمين ، فإذا رفض يدان ، أما إذا أقسم فيعفى عنه .

وإذا تخلص اللص من الأشياء المسروقة ولم يستطع أن يردّها ، فإنه لا يودع السجن من أجل ذلك ، وإنما يدخل ضمن طائفة المدينين المعسرّين ، ويمنحه

القانون نفس التساهل . ويحكم على من يقوم بإخفاء المسروقات بإعادة الأشياء التي تسلمها إلى صاحبها، لكن الشرطة تستطيع عقابه بطريقة أخرى . فإذا كانت هذه المسروقات قد بيعت وتعرف عليها صاحبها وأثبت أنها تخصه في الواقع، فإنه يستعيدها دون أن يكون ملزماً بتعويض مشتريها .

وكانت حوادث السرقة منتشرة قبل مجيئ الفرنسيين، وكان عدد كبير منها يرتكب داخل البيوت بالرغم من بشاعة العقاب ، ولكن ما أن أصبح على رأس السلطة موظفون فرنسيون حتى أصبحت هذه الجرائم نادرة تماماً .

ولاشك أن أكبر وأبشع الجرائم التي على المجتمع أن يقمعها وأن يعاقب عليها، هي جرائم القتل . ويتفق محمد في الرأي حول هذه النقطة مع كل المشرعين القدامى والمحدثين ، وحكم على القاتل بالموت . لكنه مع ذلك يتميز عن أسلافه ، إذ هو أكثر منهم حنكة في ذلك الفن الصعب، فن سياسة الأمم، ويتجلى ذلك في تلك النصوص التي جاء بها حول هذه الجريمة، ليخفف من وقعها، وليغير من أثرها . فقد أباح لأهل القتل أن يكتفوا بتعويض مالي ، وذلك عندما ترك لهم الخيار بين هذا الإجراء ، وبين إنزال القصاص بالمذنب ، فنحن من جهة نقرأ في الجزء الأول (*) من القرآن : "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم " . ومن جهة أخرى نقرأ في الجزئين الثالث والرابع (**): « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله » . وفي الجزء الخامس (***) : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » .

(*) صحتها في الجزء الثاني، الآية ١٧٨ البقرة . (المترجم)

(**) صحتها في الجزء الخامس، الآية ٩٢ النساء . (المترجم)

(***) صحتها في الجزء السادس ، الآية ٣٢ المائدة . (المترجم)

وتبعاً لهذه النصوص المختلفة فإننا نرى أن محمداً مع اعترافه بضخامة الجريمة، ومع تشريعه بعقابها، يميل نحو التخفيف ويحبذ التسامح . ومع ذلك فإن مشاعر اللياقة هذه من جانب المشرع، ليست بذات سطوة كبيرة على عقل وروح الشرقيين، فهذه الشعوب تفضل الانتقام أكثر مما تحبذ هذا التعويض البسيط^(١) فليس المال هو الذى يرضيهم ، وإنما يرضيهم رأس القاتل، لذلك فحوادث القتل نادرة فى بلادهم . وينظر إليه رجال الدين باعتباره تعدياً على الله ، وعلى أهل البيت ، وعلى الحكومة ، ولكن إذا عفا الورثة بقبول مبلغ على سبيل التعويض، فإن الله بدوره سيعفو لأنه غفور رحيم، وستعفو الحكومة أيضاً لأنها لا يمكن أن تكون أكثر تشدداً من الطرف الذى يهمله الأمر . من هنا يأتى قانون حق الدم (الدية) ، وهو نوع من الإتاوة يفرض على القاتل فى مقابل رأسه، وينظر إليه كإرث حقيقى . وينتج عن ذلك أن كل من لهم الحق فى إرث القتل يمكن لهم أن يوقفوا تنفيذ القصاص فى قاتله، وإذا كانت زوجة القتيل حاملاً فإنهم ينتظرون إلى اليوم الذى يستطيع فيه الوليد أن يعقل ليفصل فى مصير القاتل .

ويكفى أن يطالب أحد الورثة - مهما كان نصيبه فى الإرث ضئيلاً - بحق الدم، لكى لا ينفذ حكم القصاص ، حتى ولو كان الآخرون قد أجمعوا على عقابه .

(١) الانتقام هو العاطفة المسيطرة على المصريين . وبينما كنا فى قرية شنديا (مركز إيتاى البارود) كان بعضنا يتنزه ذات يوم مع القائد فى حديقة منزله، عندما جاء شاب يبلغ من العمر ١٤ أو ١٥ سنة ليرتدى تحت قدمى القائد راجياً مستعطفاً ويده مضمومتان إلى صدره وهو يصيح فيه : الانتقام ! فأنهضه القائد وسأله عن سبب صراخه فقال : كان والدى شيخاً لششت الأنعام فذبحه شيخ البلد الحالى منذ أربع سنوات ليتولى منصبه، وإنى أطلب منك الانتقام لذلك «فأجاب القائد وقد أخذه ثبات الشاب وحزمه : «هل لديك شهود؟» فصاح الشاب : «أما شهودى فهؤلاء هم ا» وفى اللحظة أخرج من صدره قميصاً مصبوغاً بالدم بعث منظره بالفزع إلى قلوبنا : «هذا قميص أبى وقد اخترقته الطلقات التى تلقاها وهو مغطى بدمائه، إننى أحمله فوق قلبى وسيظل فى مكانه هذا حتى أنتقم له» . وتوصلنا إلى تهدئة هذا الابن اليأس وأعدين إياه بأننا سندرس الأمر وتركتنا وهو نصف راضٍ لأنه كان يظن قبل مجيئه أنه يرى بعينه يوم الانتقام .

وإذا كان أحد الورثة غائبا فإن القاضى يؤجل تنفيذ القصاص، وإذا كان القاتل معروفا ومن السهل العثور عليه، يطلق سراحه، أما إذا كان يخشى من هروبه فإنه يسجن أو على الأقل يفرض عليه أن يقدم كفילה. ويتحاشى القانون على الدوام وبقدر الإمكان إصدار حكم بالموت، ولكن إذا لم يرد أهل القتيل قبول أى تعويض، فإن القاضى يصدر فى النهاية ذلك الحكم على القاتل ويسلمه للأسرة، ويسأل ما إن كان أحد من أفرادها يريد تنفيذ الحكم بنفسه. فإذا لم يتقدم أحد، وإذا لم ترشح الأسرة جلادا من عندها، يكلف الوالى الأغا بتطبيق العقوبة.

وتستطيع الأسرة أن تتقدم بعفوها فى أى وقت حتى وقت التنفيذ، وحيث إن الحكم لم يصدر إلا برجائها هى، فهى حرة فى أن تعفو عن القاتل فى الوقت الذى يتراعى لها. ويبرهن كل هذا بوضوح على أن القانون لا ينظر إلى القتل باعتباره جريمة اجتماعية بقدر ما ينظر إليه باعتباره جريمة فى حق الأسرة، حيث إن القاتل لا يطارد إلا بطلب من أهل القتيل. بل إن الأغا نفسه - وهو يمارس واجباته - لا يستطيع أن يأمر بموت رجل مهما كانت جريمته دون موافقة الحاكم، وينبغى لى يسمح لنفسه بالتصرف على نحو مخالف، أن يكون المذنب متشردا وليس له أهل ولا نفوذ. وهكذا لم تكن اختصاصات الشرطة فى الأزمان الأخيرة تصل لحد الإعدام، إلا إذا كان الأمر يمس رجالا مجهولين لا أهمية لهم.

ولا يصدر القاضى مطلقا حكما بالإعدام على قاتل إلا إذا قدمت البراهين التامة على الواقعة، وإلا إذا عرفت الظروف كلها وسمعت شهادة الشهود. ويلزم وجود شاهدين على الأقل يشهدان بأنهما رأيا ارتكاب الجريمة، ولا تقبل شهادة واحد بمفرده مهما كان مركزه أو نفوذه، ولا يمكن للنساء أن يشهدن فى قضايا الإجرام، ولا يلقى بال لشهادتهن إلا فى الأمور المدنية.

وتعتبر شهادة اثنين من دين مخالف ضد مسلم صالحة ومقبولة. وفى الحالة التى لاتكفى فيها الأدلة لإدانة المتهم، فإنه يستطيع بتقديم مبلغ من المال لعائلة القتيل

أن يحمر عن نفسه هذه الوصمة التى يطلخه بها عادة مثل هذا الاتهام الخطير.
ويعاقب على قتل المرأة بنفس الطريقة التى يعاقب بها على قتل الرجل،
ولا يضع المذهب الحنفى أية تفرقة كذلك بالنسبة لقتل العبد.

وإذا ما قتل غريب ولم يطلب أحد ثمنًا لدمه فإن وارثه - أى الحاكم - يرفع
القضية الجنائية عن طريق ممثليه. كما يلاحق السيد الذى يقتل عبده كذلك باسم
الحاكم، الحافظ لحقوق المجتمع حسب رأى المذهب الحنفى، أما المذاهب الأخرى
فترى أن السيد قد عوقب بما فيه الكفاية بفقد عبده .

وموت الفلاح المدين تحت ضربات عصا المالك، يعرض الأخير لنتائج العمل
الإجرامى، ولكن النفوذ وسطوة الثروة الكبيرة أو سطوة أصدقاء لهم نفوذ، تجعله
فى معظم الأحوال فوق القانون .

وإذا كانت الشريعة لم تقرر إلا عقابا بسيطا للمسلم الذى يقتل كافرا، فإن
الحكومة - وهى يعنىها أن تحمى كل الناس بما فيهم الأجانب شأنهم فى ذلك شأن
رعاياها أنفسهم - تحكم بالإعدام على قاتل المسيحى أو اليهودى. وفى عام
١٧٧٠ أو ١٧٧٢ اغتيل أحد الفرنسيين بيد قواس أحد الكشاف ، فأمر أغا
الانكشارية بقطع رأس القواس ونفى الكاشف .

وإعدام القاتل لا يحقر من شأن أولاده، فالجريمة عند المصريين وعند كل
المسلمين شخصية، بينما تبدو مصادرة الثروات باعتبارها شيئا بشعا وظالما
لورثته، لكن هذا الإجراء كان يحدث فى بعض الأحيان أثناء حكم البكوات، وكان
ذلك إحدى السوءات التى أدخلوها مع ما أدخلوه من سوءات .

وتحكم الشريعة بالقصاص على الشخص الذى يجرح قرينه «النفس بالنفس
والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص»^(*) .

(*) القرآن الكريم، الآية ٤٥، المائدة . (المترجم) .

والشخص الذى يدان بارتكاب هذا الفعل العنيف، يستطيع أن يفتخر فعلته بأن يدفع إلى المجرور نصف المبلغ الذى كان سيضطر لدفعه لو أنه قتله .
ولا يمكن أن يحكم بالموت على من قتل خطأ، ولكنه يدين لأسرة القتل بثمن حق الدم، باعتباره قد حرمها من أحد أفرادها .

وحسبما يرى العلماء فإن الشريعة فوق الحاكم، لذا فإنه لا حق لأحد فى أن يحكم على إنسان مثله بالقتل، إلا إذا كان القاضى هو الذى أصدر هذا الحكم. وفى عهد السلاطين الأول، كان لأهالى الشخص الذى أمر رئيس الشرطة بقتله، الحق فى استدعاء هذا الضابط أمام القاضى ليطلبوا القصاص منه، بل إن السلطان نفسه لا يستطيع أن يحكم بالموت كما يتراعى له على مذنب فاجأه هو بنفسه وهو يرتكب جريمته. فقد رأى الغورى سلطان مصر بعينيه واحدا يرتكب جريمة زنا، فجمع القاضى والمذنبين ، وأمر الأول بأن يقتل الأخيرين ، فأجابه القاضى : «أعرف أنك شاهدت هذين اللذين تتهمهما، وكان فى يدك السيف لى تضرب عنقهما ، لكننى لى الحق فى أن أدينهما بلا أدلة، أحضر لى إذن شهودا حقيقيين أفحص لك القضية » . ويقدم لنا التاريخ مثالا آخر أكثر دلالة على سطوة الشريعة على كبار الأمراء فى أزمنة الإسلام الأولى، فقد استدعى الخليفة هارون الرشيد فى قضية ، وعندما حضر إلى المحكمة استقبله القاضى جالسا، وفحص القضية وأنهاها بشكل ودى ، ثم نهض القاضى - الذى لم ينهض عند حضور الأمير إذ كان من المحتمل أن يكون مذنباً - بعد الحكم، وصحبه إلى حصانه وساعده على الركوب.

ومع ذلك فتحت الادعاء بأن الصالح العام يحتّم على الدوام اتخاذ إجراءات عاجلة، فقد كان الوالى أو رئيس الشرطة الليلية يقطع رأس الشخص الذى يجده متلبسا بارتكاب جريمته ، دون بحث أو تحريات قضائية، ولم يحدث مطلقا منذ أن استقر الأتراك بمصر أن تجاسرت أسرة رجل مات بهذه الطريقة أن تتقدم بشكوى

إلى القاضى، فسيف الوالى صريح وخارج القانون كما يقول العامة . ولكن سلطة رؤساء السلطة - كما سبق أن نوهنا - قد أصبحت فى الآونة الأخيرة أقل استبدادا، فلم يعد رجال الشرطة يقتلون أى شخص إلا إذا حصلوا مقدما على تفويض بذلك من شيخ البلد .

وليس ثمة مأوى له حرمة لقاتل، فهو يلاحق فى كل مكان حتى فى المساجد وحجرات الحرم، ومع ذلك فإن الرجل الكريم الذى يخفيه من غضب الأسرة المكومة يمتدح بأنه قد قام بفعل خير سوف تكافئه عليه السماء ذات يوم، خاصة إذا لم يكن قد أوى القاتل إلا لى يلمس من ملاحقيه توضيح العقاب الذى يطلبونه، أما إذا أصر أهل القتل على طلب رأس القاتل فإن حاميه يضطر لتسليمه طواعية، وإلا يرغم على ذلك بقوة السلطة.

وحوادث القتل نادرة للغاية فى المدن الكبرى وبخاصة فى القاهرة، وربما لا يعود الأمر إلى قوة القانون بقدر ما يعود إلى الطابع الخجول للسكان، وإلى يقظة لشرطة المتحفزة على الدوام ، والتي تنقض كالصاعقة . ولكن فى الأقاليم حيث لا توجد شرطة عمومية، وحيث ترين البلادة والخمول والجهل على الفلاحين وقبائل هربان التى تعمم الريف، فإن حوادث القتل أكثر انتشارا .

وقد دخلت فى عهد محمد بك عادة همجية سببت عددا لا يحصى من الجرائم، ففى موسم البرسيم كان سياس (جمع سايس) الممالك يذهبون إلى حقول البرسيم لرعاية الماشية وجمع الكلا ، وقد تسببت هذه الانتهاكات فى كثير من حوادث القتل، وكثرت الشكوى من ذلك لدرجة أن الحكومة تساهلت فى الأمر حتى توفر على نفسها مشقة قمع هذه الأمور الجامحة. وحتى لا يعود الأمر يسبب لها من الضيق ماهى فى غنى عنه ، خولت الفلاحين على نحو ما قتل السياس النهابين، كما خولت هؤلاء كذلك حق الدفاع عن حياتهم، شريطة ألا يستخدم أى طرف من الاثنين الأسلحة النارية، ولم يكن القاتل من أى من الطرفين يلحق أى نوع من العقاب .

الفصل السادس

عن التجارة والصناعة والزراعة

تجارة مصر منذ العصور القديمة حتى اليوم

كانت مصر على الدوام مركزاً لتجارة هامة، وهى تدين بذلك لموقعها الجغرافى بقدر ماتدين به كذلك لكثرة وتنوع منتجاتها الزراعية، فهى تقع على بحرين، ويمكن القول بأنها تشكل نقطة التقاء بين ثلاث قارات كبرى من العالم القديم، وعلى هذا فقد كانت سوقاً كبيراً لمختلف الأمم، حيث سهلت لها سبيل الاتصال الملاحه فى نهر النيل وفى ترعه وفروعه التى لا يحصىها عد . لذلك يخبرنا الكتاب المقدس بنبأ أولئك التجار الإسماعيليين الذين جذبتهم التجارة إلى مصر، فساروا إليها ومعهم أشهر أبناء يعقوب الذى اشتروه. ويبرهن هذا النص الهام - بالإضافة إلى الحكاية التى تليه ، وبطريقة لاتقبل الجدل - على أن بلاد الفراعنة كانت منذ الأزمنة البعيدة مزدهرة ازدهارا كبيرا بفضل التجارة والصناعة. ومع ذلك فإن الخرافات والروحانيات قد وضعت لذلك حدوداً، إذ اتخذت شعوب مصر - حسبما يقول هيرودت ومؤرخون آخرون جديرون بالثقة - من البحر عدواً، ونظروا للأسفار التى تتم عن طريقه باعتبارها أفعالا تدنس مقدساتهم. ومن الممكن تفسير هذه الفكرة العجيبة بنفور المصريين الطبيعى من بقية الأمم ، أو بالرجوع إلى البحث فى أنساب ألتهتم . لكن بحثاً من هذا النوع سوف ينأى بنا كثيراً عن موضوعنا . ويكفى هنا أن نقول بأن مصر إذا كانت قد ظلت - برغم هذا التحريم - تحتفظ بأهميتها فى مجال التجارة، فإن هذه التجارة تدين برواجها لخصوبة أرض مصر، ولاحتياجات الشعوب المجاورة التى كانت تجد فى مصر، ليس فقط كل ماتحتاج إليه من مواد غذائية، بل كانت تجد كذلك مختلف المنتجات التى تساهم فى إضفاء طابع الفخامة على مدنها الكبرى .

ولعل أول تجارة شهيرة يذكرها التاريخ هى تجارة الفينيقيين مع المصريين، وتجارة المصريين مع الأحباش والجزيرة العربية فى موانئ البحر الأحمر. وكان الفرس والهنود يجلبون إلى الجزيرة العربية أقطانهم وعطورهم وأحجارهم الكريمة وبضائع أخرى، وكانوا يحملون معهم عند عودتهم المنتجات الصناعية الفينيقية المصرية. وفضلا عن ذلك كانت توجد فى هذه الفترة وسائل للتبادل التجارى، لم تنتقل تقاليدنا إلينا على الإطلاق. أما بخصوص اليونانيين ، فعلى الرغم من أنهم يدينون بأصلهم جزئيا إلى المستعمرات المصرية، فإنهم لم يبدأوا إلا جدد متأخرين فى ممارسة علاقاتهم التجارية مع مصر. وقد سمح لهم فى عصر أمازييس بأن يتخذوا من نكراتيس^(*) مستودعا لتجارته، وهو امتياز لم يكونوا قد حظوا به حتى ذلك الوقت. وقبل هذه الفترة، كانت المستعمرات اليونانية فى آسيا تستطيع الاتصال بمصر ، وبخاصة منذ الدعم الذى قدمه الأيونيون والكاريون Cariens لأبسماتيك على منافسيه، لكن العلاقات بين مصر واليونان لم تصبح طليقة من القيود إلا فى عهد أمازييس .

ومن بين كل الشعوب كان أبناء قرطاجة - بعد الفينيقيين - هم الشعب الذى أثرى ثراء كبيرا عن طريق التجارة، بل ويتفق مؤرخو الأزمنة القديمة على وضعهم فى الصف الأول . وكانت الأساطيل التجارية لهذه الجمهورية القوية تجوب كل أنحاء البحر المتوسط وموانئ أسبانيا والشواطئ الغربية من أفريقيا .

ويقول العلامة Huet فى زمن فتوحات الإسكندر: «كانت سفن القرطاجيين والفينيقيين - التى كانت فى ذلك الوقت تحت سيطرة الفرس - تغطى البحار من الهند والحبشة حتى المحيط الغربى» . لكن تخريب مدينة Tyr (حاليا: صور) وانتصارات البطل المقدونى وتأسيس مدينة الإسكندرية قد أحدث ثورة كبيرة فى مسار التجارة البحرية . فقد أصبحت هذه المدينة الجديدة المقر الرئيسى لتجارة الهند فى عصر (فيلافوس بطليموس الثانى)، وصارت فى ذلك الوقت من أغنى

(*) حاليا : كوم جعيف (المترجم) .

دول العالم، فكانت هى التى تمون كل موانى البحر الأبيض، إذ كانت اليونان وإيطاليا وآسيا وأفريقيا تأتى إلى أسواق الإسكندرية للحصول على تموينها . وقد بنى بطليموس الثانى مدينة بيرنيس على البحر الأحمر، وقد سهل ذلك نقل البضائع التى كانت تصل إلى مصر من الهند، فكانت تفرغ فى بيرنيس ، ومن هناك تنقلها القوافل إلى قفط Coptos على النيل، ومن هناك تنزل إلى النهرحتى المكان الذى تبدأ منه ترعة الإسكندرية . وقد اهتم هذا الحاكم كذلك بإنشاء محطات مريحة فى الصحراء للقوافل ، مما جعل هذا السفر الطويل أقل مشقة مما يبدو لأعيننا الآن، ولم يهجر طريق بيرنيس إلا فى أواخر عهد البطالمة .

وكانت كورنثة - فى اليونان - مزدهرة فى الوقت الذى كانت الإسكندرية فيه فى قمة مجدها تحت حكم البطالمة، وقد استطاع أهالى كورنثة الذين أثروا من عملياتهم التجارية، أن يجعلوا من مدينتهم السوق الرئيسية فى الغرب . لكن الوقت لم يطل بها حتى عانت من الآثار البغيضة لغيرة روما، فسلب منها القنصل موميوس Mummius (*) مجدها التجارى بنفس الطريقة التى تدهورت بها مدينة صور فى الماضى بفعل إنشاء الإسكندرية، ففى هذه الفترة أصبحت جزيرة ديλος Délos (**) - التى كانت لاتعرف حتى ذلك الوقت إلا بمعبدتها وألهتها - المركز الرئيسى لتجارة البحر الأبيض .

وفى العام الـ ٧٢٥ من تأسيس روما تضاعفت مصر لتصبح مجرد إقليم رومانى، ومنذ ذلك الوقت استغل الرومان - وكانوا قد أصبحوا سادة مطلقين للبحار- تجارة الهند لحسابهم، ومع ذلك فلم تكن أساطيلهم تبحر إلى ما وراء الهند حسب شهادة مؤرخى ذلك العصر . وكان اليهود والرومان - كما يذكر بلين Pliny- يرحلون من الإسكندرية فى منتصف الصيف، أى فى الأيام الأولى لفيضان النيل

(*) قنصل الرومان عام ١٠٦ قبل الميلاد، وقد استولى على كورنثة وأخضع اليونان . (المترجم) .

(**) من جزر الأرخيل . (المترجم) .

بلا شك، وكانوا يصلون إلى بيرنيس بعد ٢٤ يوما، ويستغرقون ٧٠ يوما ليصلوا إلى الهند، ولم يكن يلزمهم أقل من عام في رحلة الذهاب والعودة . واستمرت هذه الحال حتى الغزو العربى أى منذ أغسطس حتى قسطنطين، ذلك لأن إنشاء القسطنطينية على يد هذا الحاكم قد أضر كثيرا بازدهار تجارة مصر، وفيما بعد، عندما عمل الخليفة عمر على إنشاء البصرة على نهر الفرات، وأصبحت تجارة الهند وقفا على هذه المدينة الجديدة، ويمكن القول بأن التجارة قد أصبحت محصورة بحدود الخليج الفارسي. لكن مصر لم تكن قد فقدت بعد ازدهارها القديم: إذ كانت القاهرة التى بناها بعد ذلك الخليفة الفاطمي المعز لدين الله عام ٩٨٤ قد أصبحت مدينة هامة . وفى القرن الثانى عشر استردت الأسكندرية جزءا من امتيازها ، وأصبحت تنهال عليها بضائع الهند من كل جانب، لكن اكتشاف البرتغاليين لطريق يؤدي إلى الهند عن طريق المحيط الأطلسي ورأس الرجاء الصالح، كان هو القشة الأخيرة التى قصمت ظهر مصر، ويمكن القول بأن ذلك قد قلص مكانتها التجارية لدرجة لم تعد تنشغل معها إلا بتجاريتها المحلية. وقد تأثر بذلك وبنفس القدر أهالى البندقية وجنوة الذين كانوا قد أثروا لفترة طويلة عن طريق تجارتهم مع القسطنطينية والبحر الأسود وآسيا الصغرى، ثم أضيروا بسبب النتائج التى أدت إليها فى آسيا الاكتشافات البحرية البرتغالية. فقد كان تجار البندقية وحدهم - على وجه التقريب - هم الذين يستحوذون على كل تجارة مصر ، حيث كانوا يأتون إلى الأسكندرية للحصول على كل المواد الغذائية اللازمة لأوروبا، ويحملون إلى مصر أخشاب البناء والمعادن والأصواف والسلاح والزجاج .. الخ . وفى القرن الرابع عشر، عندما استطاع أهالى فلورنسا الارتفاع بمستوى صناعة الحرير والزجاج لحد كبير، فإنهم توسعوا فى علاقاتهم ومبادلاتهم، فكانوا يأتون إلى الأسكندرية ويقتسمون التجارة مع أهالى البندقية، وقد كان هؤلاء من قبل لا يلقون أية منافسة، وأنشأ أهالى فلورنسا البنوك، واحتلوا مركزا بارزا بين الأمم التجارية فى ذلك العصر.

هذه هي كل عصور التجارة المصرية ، منذ العصور الضارية فى القدم حتى العصور القريية من عصرنا . فلنر الآن ماذا أصبحت عليه التجارة تحت الإدارة المخزية للممالك، وتحت تأثير العثمانيين، وهو لا يقل عن تأثير الممالك دمارا .

مما لاجدال فيه أنه لو كانت حالة التجارة لبلد ما تعتمد على الحكومة التى تحكمه ، كانت مصر قد أوقفت منذ زمان طويل كل أنواع التبادل مع الشعوب المجاورة . ومع ذلك فقد كان ثمة تجارة شأنها شأن كل فروع الأعمال التى يحترفها شعب من الشعوب، لقد كان هذا الضرب من ضروب النشاط يسير نفسه بنفسه، لأن كل إنسان يشعر بحاجته إليه . إن من الممكن إعاقته ولكن يستحيل القضاء كلية على أثرها النافع، وهذا هو ما حدث تحت استبداد الممالك، فكانت المبادلات التجارية تتم على الدوام . وبالرغم من أن عدد البيوتات الأوروبية التى استقرت فى القاهرة أو الأسكندرية قد أصبح ضئيلا، فإنه كان ما يزال كافيا للقيام بنشاط كبير فى مجال المعاملات التجارية بين مصر وأوربا . وبخلاف هذه التجارة كان ثمة تجارة أخرى - لا تقل أهمية - بين مصر والقسطنطينية، تلك هى تجارة الرقيق الأبيض من كلا الجنسين ، والذين يبدلون بعبيد سود قادمين من أعماق أفريقيا . وكانت القوافل تجلب إلى مصر من سوريا وفلسطين المواد الغذائية والبضائع المختلفة، لتحمل معها بضائع أخرى عند عودتها .

ولكن أهم فرع من فروع التجارة المصرية كان هو استيراد وتصدير البن القادم من الجزيرة العربية، فكانت السفن تقوم برحلة سنوية من السويس، لتتجه إلى جدة، لتحمل من هناك البن الذى كان عرب اليمن قد جلبوه إليها، كما كانت تحمل الأقمشة والتوابل والبخور القادمة من الهند ، إما عن طريق الإنجليز من البنغال وسورات ومدراس ، وإما بواسطة الهنود أنفسهم . وكانت السفن المصرية تبحر من السويس فى الفصل الذى تهب فيه رياح الشمال ، وكان يلزمها ١٧-٢٠ يوما للوصول إلى جدة . ولم تكن ترفع شراعها إلا أثناء النهار، وكانت تلقى مراسيها فى الليل ، وكانت تحرص على التزام الشاطئ ، ونادرا ما كانت تتوغل فى عرض البحر، وكانت رحلة العودة تستغرق شهرين .

وكانت القوافل القادمة من دارفور وسنار، وكذلك القادمة من بلاد النوبة، تجلب إلى مصر بخلاف العبيد السود من كلا الجنسين، أصنافا عديدة من المواد الثمينة، مثل: تراب الذهب والعاج والمسك والأبنوس والعنبر وريش النعام والصمغ من مختلف الأنواع. ويفترض مايبه Maillet أن مصر تحصل من فرنسا وإيطاليا في العام الواحد على ٤٠٠ - ٥٠٠ ألف قرش، وأنها تحصل من أعماق أفريقيا على ١٠٠٠-١٢٠٠ قنطار من تراب الذهب، وعلى أكثر من مليون ريال فرنسي (écus) من القسطنطينية وآسيا، ثمنا لأقمشتها وبها وأرزها ومختلف الأنواع من البقول.

وتشتمل تجارة التصدير المصرية أساساً على: الأرز والبن وجلود الماعز والأقمشة والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والخضروات الجافة. وكانت الحنة - وهي نبات يستخدم في صبغ الأظافر والأقدام والأيدي باللون الأحمر البرتقالي - مرغوبة بكثرة في كل البلاد، لأنه كان من عادة المسلمين بصفة عامة استخدامها.

وكان جزء من مالية مصر يذهب إلى تركيا لتسديد الجزية التي يدفعها الباشا للسلطان، مع ما يرسل من هدايا كان يقدمها للوزراء والمقربين من السلطان، حتى يثبت في مكانه. وكان جزء كبير من مال مصر كذلك يختفى عن طريق أبنائها الذين يخشون على الدوام من السلب، وقد انتهت هذه العادة المحزنة - وهي شائعة عند كل الشرقيين - بتسرب كثير من الأموال إلى خارج مصر، وبهذه الطريقة ضاعت على مصر مبالغ طائلة، وإلى الأبد.

وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا لصالح مصر بشكل كبير، إذ لم تكن مصر تدفع أموالاً على الإطلاق، وكان المقابل يتم دائماً في صورة بضائع، بينما كانت أوروبا مضطرة في معظم الأحيان إلى دفع الأموال. وكانت فرنسا ترسل الأصواف وصبغة النيلة والأسلحة ومختلف المواد اللازمة لصناعة الحدايد

والنحاس ، أما البندقية فكانت تصدر لمصر العملات الذهبية الإيطالية (سكين Séquins) والخرز والمرايا ، أما ألمانيا فكانت ترسل البورسلين والأواني الزجاجية والمواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس .

وكانت مصر ترسل فى مقابل ذلك : السنامكى ، والصمغ ، وكثيرا من المنسوجات القطنية الخشنة، وغزل القطن، والسكر الخام ، والبن إلى مرسيليا . وكانت ترسل إلى البندقية : كميات كبيرة من البن ، والعقاقير الطبية. وكانت ترسل إلى ألمانيا: العاج ، والأبنوس ، والصمغ .

وكان من المفيد فى السنوات الأخيرة إرسال النقود إلى مصر، لأن قيمتها الإسمية كانت فى ارتفاع، ويرجع السبب فى ذلك إلى ندرة النقود، وإلى أن قيمة العملات الوطنية كانت فى تدهور مستمر. أما البضائع الضرورية كالأصواف ونحوها، فكان يفضل الحصول فى مقابلها على بضائع، حيث كان سعر هذه الأصواف قد ارتفع .

أما تجارة الهند وجدة، فكانت - على العكس من ذلك - مكلفة لمصر، لأنها لم تكن تصدر فى مقابلها إلى هناك إلا أصوفا رديئة، ولأن تجارة البن كانت تقتضى منها أن تدفع ٤/٥ ثمنه نقدا . أما تجارة قوافل أفريقيا فلم تكن تتطلب قطعة واحدة من النقد، وكانت هذه القوافل تجلب - كما سبق القول - العبيد ، والصمغ ، وسن الفيل ، وريش النعام ، وتراب الذهب، وتحصل فى مقابل ذلك على : الأصواف الفاخرة ، والمجوهرات ، والأسلحة النارية المصنوعة فى أوروبا .

ولكى نعطى للقارئ فكرة موضوعية عن تجارة مصر، نضع تحت يده جداول مختلفة ، نوضح فيها بالتفصيل كل مواد الاستيراد والتصدير التى تغذى هذه التجارة، وتعود هذه الأرقام إلى عام ١٧٧٥ .

تفاصيل البضائع المستوردة

من : لندن ، مارسيليا ، ليفورنيو ، البندقية ، تريستا ، القسطنطينية ،
وأزمير ، ومدن تركية أخرى - إلى القاهرة للاستهلاك السنوى بمصر عام ١٧٧٥

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية الستوية	نوع النقد	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
جوخ إنجليرى سوبر فاين (فاخر)	طرد	٥٠	قطعة ذهبية	٢ - ٢١/٤	٩٠	نواع مقاس القسطنطينية
» فرنسى »	»	٥٠	»	١ - ١١/٤	٩٠	»
» هولندى »	»	٢٠	»	٢ - ٢١/٢	٩٠	»
» فرنسى خشن وعريض	»	٢٥٠	ديوانى	٧٥ - ٩٠	٩٠	»
» إنجليزى »	»	٢٥٠	»	٦٠ - ٧٥	٩٠	»
» فرنسى عريض	»	١٥٠	»	٥٥ - ٧٠	٩٠	»
» منقوش للأرائك والمخدرات	»	١٠	»	٦٠ - ٩٠	٩٠	»
أقمشة صوف إنجليزى	»	٢٠٠	»	٣٢ - ٣٥	٨٥	»
قلل	»	٣٠٠	-	٣٠ - ٣٥	٦٠	قنطار ١٠٠ رطل
زهرة القرنفل	»	١٠	ديوانى	١٦٠ - ١٨٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
الحشيشة المغربية	بالة	١٠	»	٤٦٠٠ - ٤٧٠٠	٩٠	قنطار ١١٠ رطل
ورق بثلاث هلالا وارد فرنسا أو جنييف	»	١٠٠٠	-	١٧ - ١٣	٦٠	بالة ٢٤ رزمة
صوف فاخر من انجلترا يسمى باشماوت	»	٥٠	قطعة ذهبية	٢ - ٢٣/٤	٩٠	وزنة القسطنطينية
» من لندن موديل فرنساوى	»	١٥٠	ديوانى	٧٥ - ٩٠	٨٥	»
» المانى	»	٦٠	قطعة ذهبية	٢ - ٣	٩٠	»
ورد الشمس ومشروبات روحية أخرى وارد المانيا والبندقية	»	١٠٠٠	ديوانى	٤٣ - ٤٨	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
نحاس مستعمل	»	١٠٠	»	٢٥ - ٢٨	٩٠	»
ورق تبغ وارد سالونيك وقوة	»	٥٠٠٠	فندقل	٦ - ١٢	١٤٦	أقة
أقمشة قطنية وارد بورصة	»	٢٠٠	ديوانى	٣٤٠ - ٣٦٠	٨٥	القطعة
مناديل من الموسلين	»	١٠	»	٦٠ - ١٠٠	٩٠	الواحدة
سجاجيد متنوعة من القطنية وسجاجيد سادة	»	٥٠	قرش	١٧ - ٥٠	٤٠	»
قطيفة منتقاة مطعمة بالذهب أو الفضة أو سادة	»	١٠٠٠	بطاقة	٣ - ١٢	٩٠	النزج
أقمشة قطنية وحريرية من دمشق وحلب	»	١٠٠	ديوانى	٤٥٠ - ٥٠٠	٩٠	القطعة
صابون سورى درجة ١	»	١٠٠٠	»	٣٠ - ٣٢	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
» نقى من كريت	»	٢٠٠٠	بطاقة	١٠ - ١٢	٩٠	قنطار ١٢٠ أقة
تبغ سورى	»	٤٠٠٠	فندقل	١٥ - ١٦	١٤٦	قنطار ٤٠ أقة
تين مجفف من ستانخيو ورووس	»	١٠٠٠	ديوانى	٥ - ٧	٩٠	أقة دراهم

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقد	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
حرير خام من بورصة	بالة	١٠٠	بوظة ألمانية	٥ - ٦	٩٠	أقة درهم
» » » زاجورة	»	٢٠	»	٥ - ٦	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
» أبيض وأصفر من قبرص	»	٥٠٠	»	٥ - ١٤	٩٠	أقة ٤٥٤ درهم
» » » بيروت	»	٥٠٠	»	٤ - ٤١/٢	٩٠	رطل ٢٢٩,٥ درهم
» » » طرابلس	»	٥٠٠	»	-	-	-
قطن من عكا أو من قبرص	»	٦٠٠	قرشا	٤٥ - ٦٠	٢٠	قنطار ١٠٠ رطل
وسالونيك	»	٣٠٠	فندقلى	١٠ - ١٢	١٤٦	أقة ٤٠٠ درهم
تبغ ورق من هنجاريا	»	١٠٠٠	مدينى	٩٠ - ١٠٠	٩٠	الوزمة
ورق رفيع بثلاث هلالا	»	٥٠٠	»	٦٠ - ٧٥	-	»
ورق خشن	»	٢٠٠	»	٥٠ - ٦٥	-	»
» أصناف أخرى	»	١٠٠	»	٨٠ - ١٠٠	٩٠	»
» من ألمانيا	الطرد	٥٠٠	-	١٠ - ١٢	٧٣	قنطار ٢٢٣,٥ رطل
حديد من ألمانيا	صندوق	٢٠٠٠	-	-	-	-
زفت من ستانجيو ورويس	الطن	١٠	ديوانى	١٢٠٠ - ١٢٥٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل
زنجينا	»	٢٠٠	-	١٠ - ١٢	٦٠	» ١٢٠
حبوب للمسابع والعقود - عادى	»	١٠٠	قطعة ذهبية	١٠ - ١٢	٦٠	» بالارطال
» » »	»	١٠	»	١٨ - ٢١	٦٠	-
» » » وارد هولندا	»	١٠٠	ديوانى	٥٥ - ٦٠	٩٠	الباكس
وألمانيا	»	٦٠	زرمحوب	١٠ - ١١	١٢٠	قنطار ١١٠ رطل
أوراق معدنية رقيقة	»	١٠	ديوانى	٤٠٠ - ٤٥٠	٩٠	لكل مائة
لوندة فرنسية	البرميل	١٠٠٠	»	٢٢ - ٢٤	٩٠	أقة بالدرهم
علب كبيرة	الطن	١٠	مدينى	٧٥ - ٨٠	٩٠	»
زيت من كريت	ط صغير	١٠	بالذهب	٢٦ - ٢٦	٩٠	القنطار ١٥٠ رطل
كسرولات فاخرة	»	٥	فندقلى	١٨ - ٢٠	١٤٦	» بالارطال
أسلاك حديدية متنوعة	»	٢	»	١٦ - ١٨	١٤٦	» »
» نحاس أصفر متنوعة	»	٥٠	مدينى	٦٠٠ - ٦٤٠	٨٥	» ١٢٠ رطل
» نحاسية	صندوق	٦	ديوانى	٥٠ - ٦٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
زئبق	»	٥٠	-	-	-	السعر حسب الصنف
سلال من مختلف الأنواع	»	١٠	ديوانى	٩ - ١١	٩٠	المسبحة
أقراط - سكاكين من أحجام مختلفة - علب للنشوق - زهور صناعية	»	١٠	»	٤ - ٥	٩٠	»
حبات مسبحة بيضاوية ألوان مختلفة نمرة ٢، نمرة ٣	»	١٠	»	٨٠ - ٢٠٠	٩٠	بالآلف
حبات مسبحة بيضاوية نمرة ٤	»	٥	»	٨٠ - ٩٠	٩٠	»
حبات مسبحة بيضاوية زرقاء وخضراء	»	١٠	»	-	-	-
حبات مسبحة بيضاوية منقطة	»	١٠	»	-	-	-

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقد	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
حبات مسبحة بيضاوية ألوان مختلفة	صندوق	٥	ديوانى	٩ - ١١	٩٠	بالمسبحة
» » من العقيق الصناعى	»	١٠	»	١٩٠ - ٢٠٠	٩٠	بالمسبحة ١٢ - ١٤٠ ح
» » » الياقوت نمره ٢، نمره ٣	»	١٠	»	١٠ - ١٢	٩٠	» » »
أوراق فضية رقيقة	»	١٠٠	-	٢٤ - ٢٦	٦٠	بالصندوق
رقائق نحاسية	»	١٠	قطع ذهبية	٩٠ - ٩٥	٩٠	البلكوه حزمات
مبارد نمره ١، نمره ٢	»	٥	ديوانى	١٢ - ١٤	٩٠	بالبكو
سيوف عريضة ذات حدين	»	١٠	»	٨٠ - ٨٥	٩٠	لكل
مواسير بئانيق	»	١٠	»	٩٠ - ١٠٠	٩٠	»
نحاس جديد مصنع	»	٢٠٠	»	٦٠ - ٦٥	٩٠	آقة بالدراهم
كلور الزئبق	»	١٠	»	٣٦٠ - ٣٨٠	٩٠	آقة ٤٠٠ درهم
معادن مضروب إلى رقائق خفيفة	»	١٠	»	٢٠٠ - ٢٢٠	٩٠	بالبكو
شيلان من قماش الأنجورا	»	٣٠٠	نقد ألماني	١٧ - ١٨	٩٠	بالقطعة
كركم فى علب صغيرة	»	٢٠	ديوانى	٤٣ - ٥٠	٩٠	الآقة ١١٠ درهم
» غير معبأ	»	١٠	»	٨٠ - ٩٠	٩٠	» بالدراهم
أحذية بدون كعوب (بابوش) وارد	»	١٠٠	»	٦٠ - ٨٠	٩٠	الزئج
القسطنطينية وأزمير	»	٤٠٠	مدينى	١١٥ - ١٢٠	٩٠	الآقة ٤٠٠ درهم
مستكة وارد خيوس	»	١٠٠٠	»	٣٠٠ - ٣٤٠	٩٠	القنطار ١٠٥ رطل
صلب عادى	»	٥٠٠	»	٣٠٠ - ٣٤٠	٩٠	قنطار بالأرطال
» صلب أجود	»	٥٠٠	»	٨ - ٩	٦٠	الصندوق
أكسيد الرصاص وارد فينسيا	»	٢٠	»	٨٤٠ - ٨٦٠	٩٠	القنطار ١٠٢ رطل
كبريتات الزئبق	»	٢٠	»	-	-	السعر حسب الصنف
سكاكين ذات مقابض وارد سوريا	»	١٠	مدينى	٤٠ - ٤٣	٩٠	الحزمة
سكاكين بدون مقابض	»	٥	»	١٣ - ١٩	٩٠	الستة
مقصات ضخمة	»	١٠	»	٢٠ - ٢٥	٩٠	-
أمواس ممتازة وعادية وارد	»	٥٠	ريال ألماني	٣ - ٥٠	-	كل حسب حجمه
ألمانيا	»	٢٠	»	٦ - ٤٠	-	» »
أكواب زجاجية ومرايا متنوعة	»	١٠	-	-	-	السعر حسب الصنف
وارد فينسيا	»	٥٠	مدينى	٢٤ - ٣٠	٩٠	الصندوق
مرايا وارد ألمانيا	»	٢٠	فندقلى	١/٢ - ٨	١٤٦	»
أكواب زجاجية ومرايا وارد	»	٢٠٠	ديوانى	٤٧٠ - ٤٩٠	٩٠	القنطار ١٤٠ رطل
بوهيميا	»	٢٠٠	»	٥٠٠ - ٥٦٠	٩٠	» ١٢٥ »
مشروبات روحية وارد أسبانيا	»	٢٠	»	٧٠ - ٧٥	٩٠	الآقة ٤٠٠ درهم
زجاج مرايا بدون إطار	»	٢٠	»	٢٥٠ - ٢٨٠	٩٠	بالآلف
رصاص على شكل سبائك	»	١٠٠٠٠	»	٢٠٠ - ٢٥٠	٩٠	»
زرنخ أصفر وأبيض	»	١٠٠٠٠	»	٢٠ - ٣٠	-	»
أكسيد النحاس على شكل قطع	»	١٠٠٠٠	»	٢٢٠٠ - ٢٣٠٠	٩٠	القنطار ١٥٠ رطل
إبر نمره ١، ٢، ٣، ٤	-	-	مدينى	-	-	-
دبابيس	-	-	-	-	-	-
سنارات أنواع مختلفة	-	-	-	-	-	-
رقائق نحاسية وأسياخ حديد	-	-	-	-	-	-

أنواع البضائع	الوحدة	المكية السنوية	نوع النقد	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
ألواح زجاجية من البندقية سادة ومنقوش	—	—	—	—	—	—
الصنوبر (للصباغة باللون الأحمر)	صناديق	١٠	ديوانى	٨٤٠٠ - ٨٦٠٠	٩٠	قنطار ١٢٠ رطل
حلى من فرنسا وجنيف	العلبة	٢٠٠	»	٨ - ٣٠	٩٠	العلبة
تبي مخفف من أزمير	»	٨٠٠٠	»	٨ - ١٢	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
قطران (زفت) من ستانخوس	القرية	٥٠٠	—	—	—	—
وردس	البرميل	١٠٠	قطعة ذهبية	١٠ - ١٦	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
صبغة النيلة	»	»	ديوانى	١٦٠ - ١٧٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
جوزة الطيب	»	»	»	١٢٠٠ - ١٣٠٠	٩٠	قنطار ١٠٢ رطل
قصدير باللفة	»	»	»	٤٧٠ - ٤٩٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل برميل
عقاقير لعلاج العينين	»	»	»	١٤٠٠ - ١٤٦٠	٩٠	» ١٠٢ »
جيلامين لتنظيف الأسنان	»	»	»	—	٦٠	البرميل ٤٥٠ لوج
ألواح قصدير	»	»	ديوانى	٥٢٠ - ٥٤٠	٩٠	قنطار ١٣٠ رطل
أكسيد الرصاص الأحمر	»	»	قطعة ذهبية	١٣ - ١٣	٩٠	» ١١٠ »
سكر من لشبونة	»	»	ديوانى	١٠٠٠ - ١٠٥٠	٩٠	» ١٥٠ »
شبة من انجلترا	»	»	»	١٦٥ - ١٧٥	٩٠	» ١٥٠ »
كبريتات	»	»	قطعة ذهبية	١٩ - ٢٤	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
مسامير كبيرة الحجم	»	»	مدينى	٢٢ - ٢٥	٩٠	» » »
أنية حديدية	»	»	»	٧٠ - ٧٥	٩٠	» دراهم
» نحاسية	»	»	ديوانى	٢٤ - ٢٨	٩٠	» ٤٠٠ درهم
زيت من المغرب وتونس	الجرة	٤٠٠٠	»	٢٢ - ٢٤	٩٠	» دراهم
صابون رخو من المغرب	»	»	مدينى	٥٠ - ٦٠	٩٠	» » »
تبغ مدقوق	الواحدة	٢٠	قطعة ذهبية	٣٠ - ٤٠٠	—	الواحدة
مزاويل	»	»	»	١٥ - ١٠٠	—	»
بنول	»	»	»	»	»	»
أقمشة من البندقية أرجوانية اللون تسمى سائ	القطع	٢٠٠	»	٣ ١/٤ - ٣ ٣/٤	٩٠	ذراع القسطنطينية
أقمشة أرجوانية اللون	»	»	»	١/٢ - ٥	٩٠	»
» تسمى بنوايل نصف فاخرة	»	»	»	٢ - ٢ ١/٢	٩٠	»
أقمشة حريرية وكتانية سادة	»	»	نقود ألمانية	٥ - ٧	٩٠	القطعة
أقمشة قطنية خشنة من القسطنطينية	القطع	١٠٠٠	ديوانى	٨٠٠ - ٨٥٠	٩٠	»
فلانيلة منقوشة من ألمانيا	»	»	مدينى	٢٠ - ٢٥	٩٠	ذراع القسطنطينية
جوخ خشن وارد ألمانيا	»	»	»	٥٨٠	—	—
مناديل متنوعة وارد ألمانيا	»	»	ريال ألماني	٨ - ١٠	٩٠	القطعة
» كتانية »	»	»	»	٣ ٣/٤ - ٣	٩٠	»
قماش أبيض سادة ومنقوش	»	»	—	—	—	حسب الصنف
» مشمع سادة ومنقوش	»	»	ريال ألماني	٨ - ٦	٩٠	القطعة

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقد	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
ساعات ذهبية وفضية	الدستة	٢٠	قطعة ذهبية	٢٠ - ٢٠	-	الوحدة
عقيق صناعى	»	٢٠٠٠	ديوانى	٢٠ - ٢٤	٩٠	-
مناديل أنواع مختلفة	»	٢٠٠	مدينى	٦٠٠ - ٥٨٠	٩٠	الدستة
ورق مذهب	الرزمة	١٠٠	ديوانى	٢٢٠ - ٢٩٠	٩٠	الرزمة
»	»	١٠٠	»	٥٢٠ - ٤٩٠	٩٠	»
» مفضض	»	١٠٠	»	١٠٠ - ٨٠	٩٠	»
ساتان من فلورنسا درجة أولى وثانية	الذراع	١٠٠٠	»	١٠٠ - ٩٥	٨٥	ذراع القسطنطينية
ساتان من فرنسا درجة أولى وثانية سادة ومنقوش	»	٥٠٠	»	١٢٠ - ١٠٠	٨٥	»
أقمشة مذهبة ومفضضة من فرنسا وفلورنسا	»	٦٠٠٠	قطعة ذهبية	١٠ - ٣	٨٥	»
ساتان عريض وسميك	»	١٠٠٠	ديوانى	١٠٠ - ٦٠	٨٥	»
» خفيف وغير عريض	»	١٥٠٠	»	٦٠ - ٤٥	٨٥	»
» عريض ومتين من ألمانيا	»	٥٠٠	»	١٥٠ - ١٢٠	٨٥	»
» تفتان أسود وأبيض من البندقية	»	٤٠٠	»	١٠٠ - ٩٥	٨٥	»
ساتان من فرنسا نمر ١ ونمر ٢	»	٥٠٠	»	١٢٠ - ١٠٠	٨٥	»
قطيفة مضلعة وسادة	»	٢٠٠	قطعة ذهبية	٢ - ١ ١/٢	٨٥	»
ساتان مضلع وسادة	»	٦٠٠٠	مدينى	٨٥ - ٦٠	٨٥	»
ساتان مذهب ومفضض	»	٤٠٠٠	»	٣٦٠ - ١٥٠	٨٥	»
أقمشة مذهبة ومفضضة من البندقية	»	٢٠٠٠	ريال المانى	١٢ - ٣	٩٠	»
أقمشة متجانسة من دمشق	»	٢٠٠٠	مدينى	١٦٠ - ١٠٠	٩٠	»
كبريت عمود	القنطار	٢٠٠٠	ديوانى	٢٥٠ - ٢٠٠	٩٠	قنطار ١٥٠ رطل
عنبر أبيض نمر ١	الأقة	١٠٠٠	»	٦٥٠ - ٥٥٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
مرجان وارد فرنسا وراجوزة	الرطل	٢٠٠٠	»	٣٤٠٠ - ٧٢٠	٩٠	رطل ١٥١ درهم
وليفورنيو	الأقة	٤٠٠٠	»	٢٠٠٠ - ١٨٠٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
عنبر أصفر نمر ١	المتقال	٦٠٠٠	»	٣٥ - ٣٠	٨٥	ذراع القسطنطينية
شرايط من القصب أو الحرير	»	٢٠٠٠	»	٣٢ - ٢٨	٨٥	متقال
مذهب ومفضضة	»	٥٠٠٠	»	٢٠ - ٢٥	٨٥	»
شرايط قصب وحرير ذهبية	»	٣٠٠٠	مدينى	٣٥ - ٣٠	٩٠	»
وفضية من كل الأنواع	قضببان	٦٠٠٠	-	٩ - ٨	٧٣	قنطار ٢٣٣ ١/٣ رطل
حديد من السويد وسكوفيا	الكتلة	٢٠٠٠	ديوانى	١٠٠٠ - ٨٥٨	٩٠	» ١٢٥ رطل
فرنامبوك (خشب للسلام)	-	-	-	-	-	-
خمور من كل الأنواع من أسبانيا	-	-	-	-	-	-
وفرنس وتيسكانيا	-	-	-	-	-	-
بنادق حديد وطبناجات إنجليزية	-	-	قطعة ذهبية	٥٠ - ١٠	-	التمن حسب الصنف
أحجام صغيرة	-	-	-	-	-	-

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقد	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
ألواح خشبية للمباني من كل نوع	-	٦	-	-	-	الثلث حسب الحجم
أخشاب من رودينا والبحر الاسود	-	-	-	-	-	-
وقود على	الحمولة	١٠	-	-	-	» » »
فستق من سوريا بكميات صغيرة	-	-	ديوانى	٤٠ - ٣٠	٩٠	أقة بالدراهم
راتنج (صمغ صنوبر) من	-	-	-	-	-	-
سالونيك بكميات صغيرة	-	-	-	-	-	-
أقمشة تيلية للقلاع مستوردة من	-	-	-	-	-	-
روسيا وبكمية صغيرة من	-	-	-	-	-	-
تريستا	-	-	-	-	-	-
أنواع نحاسية ونحاس بكميات	-	-	-	-	-	-
صغيرة واردة تريستا	-	-	-	-	-	-
أقمشة دمشقية مختلفة الأنواع	-	-	-	-	-	-

مجوهرات القسطنطينية مجهرة أو غير مجهرة

الماس، زمرد، لآلى من كل الأصناف .

١٠٠٠ قيراط من الألماس الأحمر من حلب ، ويفقد القيراط من ١٠ - ٢٠

خردة حسب الصنف، تفقد اللآلى من ٢ - ٨ خردة فى المئقال الواحد ، أما اللآلى الكبرى فحسب النوع .

الجلود : جلد الجبة ، وتأتى من روسيا ، وتشمل جلود الذئب الأبيض والأصفر والسمور ، وتساوى الواحدة من ١٠ - ٢٠٠ خردة .

الخمور: من قبرص وجزر أخرى من الأرخبيل.

موازين البضائع المختلفة بشكل عام فى القاهرة

الأقة فى القاهرة = ٤٠٠ درهم ، وهى تساوى أقة القسطنطينية إلا بخصوص الحرير الوارد من بورصة Bursa وراجوزة وقبرص ، حيث تساوى الأقة ٤٠٤ درهم. الرطل = ١٤٤ درهم .

رطل الحرير السورى = $\frac{1}{2}$ ٢٢٩ درهم .

وعند وزن مختلف الأنواع يخصم الوزن العيار العديل (وزن الوعاء) عن كل الطرود والبراميل ... الخ .

ومع ذلك فإنه يوجد على الدوام فضلات أكبر مما يفترض فى الواقع، حيث يصل القنطار إلى ١٠٢، ١٠٥، ١١٠، ١٣٠ رطلا من كل ١٠٠ . وينبغى أن نلاحظ أن هناك بضائع يبلغ القنطار فيها بعد خصم العيار العديل إلى ١٥٠ أو $\frac{1}{8}$ ١٣٣ بدلا من ١٠٠ .

١٠٠ رطل فى القاهرة تساوى بالضبط ١٠٠ ليرة فى لندن .

و = $\frac{1}{2}$ ١١٢ ليرة (Livra) فى مارسيليا .

و = ١٣٠ ليرة (Livra) فى ليفورنيو، = ١٥٠ ليرة صغيرة فى البندقية، و ١٠٠ ليرة كبيرة فى البندقية أيضاً، وفى تريستا نفس الشئ .
 ١٠٠ فوندى فى تريستا أو البندقية = $\frac{1}{2}$ ١١٧ ليرة كبيرة فى البندقية،
 و ١٨٥ ليرة كبيرة فى تريستا .
 ١٠٠ رطل فى القاهرة = ٣٦ أقة فى القسطنطينية وأزمير .

النقود التى يفضل استخدامها فى عمليات الشراء

قطعة ذات ٧٣ مدينى أو ديوانى
 قطعة ذات ٧٠ مدينى أو ديوانى
 قطعة ذات ٦٠ مدينى أو ديوانى
 قطعة ذات ٣٣ مدينى أو ديوانى
 قطعة ذات ٦٠ مدينى أو ديوانى
 الفندقلى ويساوى ١٤٦ ديوانى .

المجوهرات الذهبية والفضية

١ قيراط = ٤ حبات
 ١ درهم = ١٦ قيراطاً
 ١ مثقال = ٢٤ قيراطاً
 ١ أوقية = $\frac{2}{1}$ ٨ دراهم
 ١٠٠ قيراط بنغالى = ١١٢ درهماً .

وتباع المجوهرات المجهزة دون وزن ، وتباع الأحجار الكريمة بالقيراط دون

خصم العيار العدلي ، وتباع اللآلى بدون خيط وبدون خصم العيار العدلي ، أما إذا كانت ملصومة فتوزن ١٠٥ فى مقابل ١٠٠ ، ويوزن المرجان مع أحبال حريرية صغيرة ، والعيار العدلي هو ١٥١ درهماً مقابل ١٤٤ ، ويبيع بالرطل أو الدرهم .

١٠٠ درهم من وزن القسطنطينية من المجوهرات الذهبية أو الفضية = ١٣٣ درهماً فى القاهرة ، أما جواهر البندقية التى تزن فى أوروبا ١٨ قيراطاً فيجب أن تعطى فى القاهرة ١٨ ١/٢ قيراطاً ، وهذا الفرق يساوى مقدار ربع حبة .
١٠٠ قيراط بوزن البندقية لا بد أن تساوى فى القاهرة ١٠٢ قيراط .

والقطعة الذهبية من المجر تزن نفس وزنها الأصلي ، أما الدينار الذهبى الأسباني (دوبلون) فيزن فى القاهرة ٩ دراهم ، ويزن الفندقى ١٨ قيراطاً ، ويزن الواحد من الزر محبوب ١٣ ١/٢ قيراطاً ، وتزن قطعة الخردة ٩ دراهم .

أما المقاييس المستخدمة فى القاهرة بالنسبة للأقمشة فهى ذراع القسطنطينية ، أما ذراع القاهرة فهو أقصر ، ويستخدمه التجار لبيع القطاعى .

قيمة العملات الأجنبية التى تصل القاهرة عن طريق التجارة

السكين Séquin البندقى = ٢ خردة و ١٣ - ١٨ مدينى حسب المنطقة ،
القطعة الألمانية = ٢ قطعة ذهبية وه - ١٠ مدينى ، ويبلغ سعر الدوبلون الأسباني والسكين البربرى والمراكشى والجزائرى والتونسى والطرابلسى ١٣٠ - ١٤٠ مدينى ، أما الدولار الأسباني ذو العمودين أو القرشين فيساوى ١ خردة (بوظاقة) و ٣ - ١٥ مدينى ، ويستخدم بخاصة فى الفكة . وهذا بخلاف كميات كبيرة من أنواع أخرى من النقود ومن تزاب الذهب والسبائك التى تجلبها القوافل . وتراب الذهب عادة رخيص الثمن ، لكنه منذ فترة قصيرة بدأ يستخدم بكميات كبيرة فى صنع قطع النقود الصغيرة فى القاهرة .

المقاييس الأجنبية مقارنة بمقاييس القاهرة

الذراع الإنجليزى $\frac{1}{4}$ من ذراع القسطنطينية ، وهو المقياس المستخدم فى القاهرة .

ذراع مرسيليا = $\frac{3}{4}$ من ذراع القسطنطينية، ذراع البندقية = ذراع القسطنطينية بالنسبة للأقمشة الصوفية، أما بالنسبة للأقمشة الحريرية فإن ١٠٠ ذراع بندقى = ٩٣ من ذراع القسطنطينية ، و ١٠٠ ذراع تريستى = $\frac{3}{4}$ من ١٠٤ من ذراع القسطنطينية .

البضائع التي تصدرها مصر

إلى: لندن ، ومارسيلييا ، وليفوريو ، والبندقية ، وتريستا ، والقسطنطينية ،

وأزمير ، وسالونيك ، وبلاد أخرى فى تركيا .

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	العملة التي تباع بها	السعر	ديوانى	الأوزان والمقاييس
بن وارد اليمن	بالة	٣٠٠٠	دولارتوسكانى	٢٣ - ٢٨	٨٥	قنطار ١٠٥ رطل
خشب السنط	-	-	»	٢٠ - ٢٠	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
خشب السنط وخشب زغرتا	-	-	»	٢٢ - ٢٨	٦٠	قنطار ١٠٠ رطل
جوز القى	-	-	»	٢١ - ١٩	٦٠	»
المر بأنواع مختلفة	-	-	»	٤٣ - ٢٤٦	٦٠	»
مر فقط	-	-	»	٧٨ - ٨٢	٦٠	»
الحلثيت (صمغ لتسكين التقلصات)	-	-	»	٢٨ - ٣٣	٦٠	»
جنود الزعفران	-	-	»	٢٨ - ٣١	٦٠	»
قرفة	-	-	»	٢٨ - ٣٣	٦٠	»
قرفة شرقية	-	-	»	١٨ - ٢٢	٦٠	»
كتان مغزول	-	٣٠٠	»	٤٠ - ٤٥	-	بالة ٢٠٠٠ كيس
فلفل طويل	-	-	ديوانى	٧٥ - ٨٥	٩٠	أقة بالدراهم
جلود ثيران بأحجام مختلفة	-	٤٠٠	مدينى	٢٢٠ - ٣٠٠	-	للجلد الواحد
» » » »	-	٦٠٠	»	١١٠ - ١٣٠	-	»
جلود بقر	-	٣٠٠	»	٩٥ - ١١٠	-	»
قماش خشن أزرق يسمى منون	بالقطع	٤٠٠	»	٩٠ - ١٠٠	-	للقطعة
قماش خشن أبيض	»	٤٠٠	»	٦٥ - ٨٠	-	»
لاى	-	-	ديوانى	١٥٠ - ١٦٥	٩٠	»
صمغ عربى من سنار	-	-	دولارتوسكانى	١٦ - ٧٣	٧٣	قنطار ١٣٣ ١٣ رطل
صمغ عربى من جدة	-	-	فندقى	٥ - ٦ ١	١٤٦	»
» » » »	-	-	دولارتوسكانى	١٣ - ١٥	٨٥	قنطار بالرطل
» » » »	-	-	»	١٠ - ١٣	٨٥	»
غاز الأمليلج (للأفران الطبية)	-	-	قطع ذهبية	١١ - ١٣	٦٠	-
بخور	-	-	»	١٣ - ١٨	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
بخور من مختلف الأنواع	-	-	»	٨ - ١٠	٦٠	قنطار
سن الفيل	القنطار	-	»	٦٠ - ٦٥	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
زهو الزعفران قلفة أولى وثانية	»	-	»	-	-	-
زراعة الصعيد	»	٢٠٠٠	»	١٨ - ٢٢	٦٠	قنطار رطل
تمر حنه	»	٢٠٠	»	١٩ - ٢٢	٦٠	قنطار
ملح النشادر إنتاج الجيزة نمرة ١	»	٢٠٠	دولارتوسكانى	٥٠ - ٥٥	٨٥	٧٢ أقة أو ٢٠٠ رطل
ملح النشادر إنتاج المنصورة	-	-	-	-	-	-
ورشيد نمرة ١	-	٨٠٠	»	٤٠ - ٤٨	٨٥	» »

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	العملة التي تباع بها	السعر	ديوانى	الأوزان والمقاييس
البليج	قنطار	٣٠٠٠	دولارتوسكانى	$٤ - ٢ \frac{١}{٢}$	٨٥	قنطار ١٢٠ رطل
السلمكة	»	١٠٠٠٠	القطع الذهبية	٣٠	٦٠	» ١١٠ »
الجراپ	»	٢٠٠٠	»	٣٥	٦٠	قنطار بالرطل
بودرة السلمكة	»	٢٠٠٠	»	٥	٦٠	»
قطن مغزول	»	٦٠٠٠	زرمحيوب	١٤ - ١٠	١٢٠	»
الفتنة	»	٣٠٠٠	دولارتوسكانى	$٤ - ٢ \frac{١}{٢}$	٨٥	قنطار ١٥٠ رطل
صوف يعبله	»	٤٥٠٠	—	—	—	—
كتان أصناف متعددة	»	٣٠٠٠٠	—	—	—	—
لونه هندی من الهند	—	—	ديوانى	٢١٠ - ١٩٠	٩٠	أقة بالدراهم
كرکم	—	—	»	٢٢ - ١٨	٩٠	»
حبهان كبير	—	—	»	١٦٠ - ١٤٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
حبهان صغير	—	—	»	٤٥ - ٣٥	—	أقة بالدراهم
دم التتین	—	—	مدینى	١١٥ - ١٠٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
دم التتین ناعم وارد الهند	—	—	»	١٣٠ - ١٢٠	٩٠	»
شمع جديد	قنطار	٢٠٠٠	»	٦٠ - ٥٠	٩٠	»
أفین نمره ٢٠	—	—	»	٤٠٠ - ٣٦٠	٩٠	»
حنة للصباغة بالأحمر	زكبية	٨٠٠٠	»	٥١٠ - ١٤٠	٨٥	الزكبية ٣٥ أقة
حنة للصباغة بالأصفر	»	٨٠٠٠	»	١٢٠ - ١١٠	٨٥	»
حب اليسر	—	—	فندقلى	٢١ - ١٩	١٤٦	—
أرذمياطى	الأردب	٣٠٠٠٠	بالقطع الذهبية	٤٠ - ٣٨	٣٠	الأردب ٢٢٥ أقة
أرذرشيدى	»	٢٥٠٠٠	»	٢٥ - ٢٣	٣٣	الأردب ١٥٣ أقة
كميات كبيرة من الأقمشة	—	—	—	—	—	—
الكتانية والقطنية من الصعيد	—	—	—	—	—	—
وإمبابة ورشيد ودمياط	—	—	—	—	—	—

العملات المتداولة فى القاهرة

يستخدم المدينى والديوانى فى الفكة، أما الزر محبوب فيساوى ١٢٠ مدينى، ويساوى القرش ٤٠ - ٦٠ مدينى .

وثمة عملة أخرى من راجوزة تقيم بـ ٦٠ مدينى ، وهى عملة مطلوبة فى آسيا، وترسل منها كميات كبيرة إلى سوريا حيث تلقى إقبالا كبيرا .

أما الـ بوطاقة أو الخردة فإن سعر استبدالها العادى يبلغ فى رشيد والأسكندرية ودمياط ٨٦ مدينى، ويصل فى القاهرة إلى ٨٥ مدينى ، وبسبب ندرتها ارتفع سعرها الآن إلى ٩٢ مدينى . أما فى تجارة المواد الغذائية الغالية فهى تساوى ٨٥، ٩٠، ٩٢ مدينى . أما الدولارات التوسكانية التى تعرف باسم البوطاقة فتتداول بسعر ٨٠، ٨٢ مدينى ، وهى تساوى قطعة الخردة، وتفضل فى آسيا .

وتصل قيمة فندقلى القسطنطينية ١٦٠ مدينى ، ولكنه نادر .

ويختلف مقدار الرسوم المفروضة على البضائع المستوردة من أوروبا وآسيا بحسب أثمانها، فهى تبلغ ٨٪ على المجوهرات ، وبالنسبة لصبغة النيل وبضائع أخرى ثمانية ٩٪، الجوخ والورق ... الخ ١٣٪، الرصاص وبضائع أخرى رخيصة القيمة ١٥ - ١٦٪ ، البضائع الواردة من تركيا ٢٠٪ . أما بالنسبة للرسوم الجمركية فتتراوح بين ٨ - ١٥٪ ، أما الأخشاب وورق التبغ والصابون والفواكه فتدفع رسومها نقدا .

أما البضائع المصدرة من مصر إلى أوروبا، فتبلغ الرسوم المفروضة عليها من ١٥ - ٢٠٪ ، وينبغى على هذه البضائع أن تدفع رسوما إلى القناصل وإلى أشخاص آخرين حتى تحصل على تصريح بالخروج . وكان تصدير البن والأرز والحبوب ممنوعا فى معظم الأحيان . وتحصل البضائع المصدرة إلى تركيا على بعض التسهيلات حسب الظروف. وكانت حسابات البن والأرز والصمغ العربى وارد

سنار والبخور والفتنة وملح النشادر الجيد وأخشاب السنط الممتازة وبضائع أخرى - كانت تسوى نقداً، وفي بعض الأحيان كانت تقايض ببضائع أخرى، ويمكن شراء البضائع الأخرى عن طريق المقايضة مع تقدير سعرها بحسب سعر السوق. وتختلف تجارة مصر اختلافاً بيناً عن تجارة أوروبا، بسبب الاضطرابات الكبيرة التي تتعرض لها الحكومات، وبسبب أحداث أخرى تتعرض لها التجارة، فتنخفض حركتها بشدة أثناء بعض هذه الأحداث، أو تزدهر خلال أحداث أخرى، لذلك ينبغي أن يكون التاجر يقظاً، وعليه على الدوام اقتناص الفرص المواتية.

وشهر رمضان هو الشهر الملائم لبيع المنسوجات الصوفية والحريرية، ففي هذا الوقت يشتري العامة وكذا أبناء الطبقة العليا ملابس جديدة لأنفسهم ولزوجاتهم وخدمهم.

وتجلب سفن وقوافل جدة البن والبخور والصمغ وبضائع أخرى من الهند والجزيرة العربية والحبشة، وعندما تعود إلى جدة، تحمل معها النيلة والرصاص والحديد والحلى الزجاجية وبضائع أخرى تستورد من البندقية، خاصة باليمن والحبشة والهند.

وكانت بضائع الهند تأتي دوماً مع محمل الحج، وهذا ما يعفيها من دفع الرسوم في القاهرة، إذ كان للمحمل امتياز عدم دفع أية رسوم على الإطلاق.

وكانت قوافل النوبة تجلب الصمغ العربي من سنار، وسن الفيل وبضائع أخرى من هذا البلد أيضاً، وتأخذ عند عودتها الجوخ الفرنسي المسمى لوندان والجوخ الإنجليزي والورق والقرنفل والمرجان .. الخ وأنواعاً مختلفة من خزف المحلة وطنطا الذي تقوم عليه تجارة كبيرة. وتجلب هذه القوافل أيضاً كمية كبيرة من تراب الذهب، الذي يباع عادة بـ ٢٠٠ - ٢٠٨ بوظاقة لكل ١٣٥ درهم، ولكن منذ عهد محمد بك استخدم تراب الذهب بكميات كبيرة في ضرب النقود، مما جعل سعر هذه الوزن يرتفع إلى ٢١٢ - ٢١٦ حسب الجودة.

وشهرا يوليو وأغسطس هما وقت الزعفران والحناء والبلح، أما سبتمبر وأكتوبر فهما شهرا الأرز والكتان، وديسمبر ويناير للسنامكي والفتنة، وفي هذه الفترة ينبغي على المرء أن يختزن بضائع جيدة سيبيعها بربح مضمون ومجز لحد كبير.

وسوف يكون الأمر مجحفا بالنسبة للذين يرسلون بضائعهم من أوروبا لوتعجلوا بيعها فى الحال، ذلك أن التجار المصريين المتفهمين للأمور سييخسون هذه البضائع حقها، كما أنهم سيحاولون - فى نفس الوقت - أن يبيعوا بأعلى سعر يستطيعون الوصول إليه ، تلك البضائع التى يراد إرسالها فى مقابل البضائع التى اشتروها بهذه الطريقة .

ولقد كانت هذه عادة الفرنسيين فيما مضى، ولكنهم عندما تبيينوا العاقبة السيئة لذلك ، أنشأوا لأنفسهم محلات واتخذوا لهم وكلاء ، ووصلت بذلك تجارتهم لدرجة مزدهرة، لحد أنهم استطاعوا أن يكتسحوا - على وجه التقريب - كل الأجناس الأخرى .

٢

عن حالة الصناعة

لا يمكن للمكات شعب من الشعوب - ذهنية كانت أم روحية - أن تنمو، وأن يجنى هو بالتالى ثمرات ذلك، إلا فى ظل أنظمة ترعاها، وينطبق هذا القول نفسه على الصناعة، وإلا فإنها ستظل راكدة حيث لا اختراع ولا تحسن . وهكذا، فإن الحرف والمنتجات الصناعية فى وادى النيل تشى بحضارة لا تزال فى طور الطفولة، أو تشى بالأحرى بتقاعس العمال وأصحاب الأعمال، فليس ثمة شئ دقيق، أو معتنى به يخرج من المصانع المصرية إذا ما استثنينا التطريز، فالمنسوجات القطنية والصوفية وبقية الأشياء ذات الاستعمال الطويل، تظهر بشكل خشن وغير دقيق، لحد سوف يذهلنا إذا نحن لم نلق بالا لتلك الظروف التى يحياها الشعب الذى أنتجها، فلقد ظل المصريون المحدثون - برغم كل العناصر التى كان يمكنها أن تؤدى للنماء والازدهار - متخلفين، لأن سطوة الطغيان قد حصرت عقولهم، بل يمكن القول بأنها شلت قدرتهم على التفكير . وليست مصر هى الدولة الوحيدة فى كل دول الشرق التى تحيا فى مثل هذه الحالة المحزنة ، بل إننا نرى - للأسف الشديد، فى كل مكان من الشرق - نفس التدهور ، ونفس الجمود، ونفس النتائج .

ومع ذلك، وبالرغم من تلك الحياة المنحطة التى قدر على المصريين أن يحيوها فى ظل حكومة المماليك، فإنه لم يفتهم حتى الآن أن يستغلوا شيئا من المصادر الهائلة التى تهيئها منتجات أرضهم للصناعة ، فصناعة الأقمشة الخشنة من القطن والكتان، تتيح فرص العمل لآلاف الأيدي . وتقوم المحلة الكبيرة - وهى مدينة يبلغ تعدادها حوالى ثمانية آلاف نفس - بصنع أقمشة حريرية وشيلان من الحرير تعرف باسم شيت وحرير، وبعض المنسوجات القطنية الخشنة، ونوع من التفتاز الأسود تستخدمه زوجات البكوات ككنقاب يتخفين به . ويعمل فى هذه المصانع ٨٠٠-١٠٠٠ عامل من كلا الجنسين، ومن مختلف الأعمار.

وتصنع سمند - وهى مدينة لا يبلغ تعدادها بالكاد ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ نسمة - بعض المنسوجات الشعبية من الكتان . وتصنع منوف كثيرا من هذه المنسوجات نفسها ، كما تصنع أجمل حصر البلاد . أما مدينة طنطا الشهيرة بأسواقها وبضريح السيد البدوي، فتصنع كثيرا من المنسوجات الكتانية لكنها منسوجات بالغة الدقة والإتقان ، وتعرف باسم قماش (١) .

ويخلاف هذه المنسوجات - بالإضافة إلى التطريز الذى يبرع فيه المصريون كما سبق القول - يصنع المصريون كذلك كثيرا من الأنية الفخارية الشعبية، والقلل (وهى أنية مرطبة) ، والأنية الزجاجية وهى خشنة ، كما يصنعون السجاجيد، وأحجار النارجلية من الطين المحروق، ويصدر إلى كل دول الشرق، ويصنعون فى نفس الوقت أجواخا شعبية، ونوعا من اللباد المخلوط بالصوف، يستخدم فى صناعة الخيام. أما كل التركيبات التى لها صلة بالكيمياء مثل صناعة ملح النوشادر وتقطير الخمور والعطور، فهى صناعات ماتزال بعد فى طور الأمنيات، أما أجهزتهم فهى منفرة بقدر ما هى عاجزة، وكثيرا ما يستخدمون البوص المثقوب بدلا من الأنابيب الزجاجية، أما الآلات المائية التى يستخدمونها للرى، ففيها شئ من الدقة، والميكانيكا عندهم ماهرة فى بعض الأحيان، وهى تستطيع - لولا

(١) هذه الكلمة باللغة العربية تعنى كافة أنواع المنسوجات

معوقات الروتين - اختراع ماكينات تستطيع أن تعطي نفس النتائج فى وقت أقل وباستخدام عدد أقل من الرجال. وباختصار، فنحن نلاحظ فى كافة ضروب الأعمال بساطة كبيرة سواء فى الأدوات أو فى التنفيذ. ويستخدم العمال أقدامهم بنفس المهارة التى يستخدمون بها أيديهم، وهذا مما يزيد فى سرعة إنجاز العمل، وهذه العادة شائعة عند النجارين والنحاسين والنساجين وصناع القياطين، وعند كل الحرفيين عموماً. ومن الطريف أن نلفت النظر برغم ذلك، إلى أن أقدامهم عارية، وتغطى فقط بأحذية واسعة للغاية يتركونها عند دخول الورشة، وتعمل الغالبية منهم وهم جالسون، وهذا مما يسهل استخدام أقدامهم.

ويستخدم الخراطون قوساً يحركونه بيد، بينما هم باليد الأخرى يشكلون الآلة القاطعة على الشئ الذى يريدون تشكيله، وهم يديرون هذه الآلة بإبهام القدم اليمنى التى يستخدمونها بالمثل كنقطة ارتكاز، وبهذه الطريقة يصنعون أجزاء وقضباناً حديدية وشبكات تستخدم فى صنع أشكال أكبر.

وليس ثمة شئ غير عادى فى إعدادهم للجبس، فقد ينبغى أن نلاحظ أننا فى بلاد نصف بربرية كهذه، كنا نتوقع أن يكون الناس فى هذا المجال - شأنهم فى ذلك مثل شأنهم فى بقية المجالات - أكثر تخلفاً، وأقل حذقاً، فى الوسائل التى يستخدمونها لسحق هذه المادة، عما نحن عليه. فالإنسان عندنا فى أوربا هو الذى يتحمل عبء هذا العمل الشاق، برغم أنه من المؤكد أن سحق الجبس يضر بصحة العمال الذين يقومون به، لكن المصريين استطاعوا تفادى هذا الخطر، إذ يقومون بسحق الجبس المحروق بواسطة طاحونة يحركها حصان. وهذه الأداة بالغة البساطة لكنها فعالة، وهى مخروطية الشكل وذات ثقل هائل.

ويلزم الكثير بالنسبة للطواحين المخصصة لطحن القمح، حتى تصبح فى دقة وفعالية طاحونات أوربا، فرحاًها صغيرة لا يزيد قطرها عن ٢ - ٢ ١/٢ قدم، وطحنها غير ناعم، ولا تقوم بفصل الردة عن الدقيق، لذا فيكاد يكون مستحيلاً أن تأكل فى مصر خبزاً يماثل خبز باريس أو بروفانس فى جماله وخفته.

ويستخدم البيطار يون أداة خاصة لقطع حافر الخيل، وهذه الأداة التي لاتشبه فى شىء تلك التي نستخدمها فى أوربا لنفس الغرض، تعمل كذلك بشكل مخالف، وتتطلب طريقة فى العمل تتعارض مع طريقتنا .

وحرفة الحدادة قليلة الانتشار فى هذه البلاد، حيث إن الفحم نفسه نادر، وهم لا يستخدمون عادة إلا أقفالا خشبية صنعت بعناية. وعدد الصاغة وتجار المجوهرات قليل، وهم لا يصنعون إلا حليا متواضعة. ومن السهل أن نلاحظ أن المصرى الحديث يستطيع - بفضل الاستعداد الطبيعى للعمل، وبفضل المهارة والذكاء اللذين زودته بهما الطبيعة - أن يرتفع إلى مصاف الشهرة التي تمتع بها أسلافه، لولا تلك العقبات التي لا يحلو للتعصب والطغيان إلا أن يكسهاها فى طريقه.

وعما قليل سنتحدث عن الفلاح، وستكون الزراعة موضوعا لفقرة مستقلة، أما بخصوص الحرف الأخرى التي لم نتعرض لها مطلقا فى هذا الفصل، فقد وصفت فى شرح لوحات الحرف والفنون Explication des planches d'arts et métiers فى دراسات خاصة مثل معامل التفريخ، صناعة ملح النوشادر.. الخ . ونحن نحيل القارئ إليها، وسيجدها مشروحة بكل تفاصيلها .

طريقة صنع جلد السختيان الأحمر (الفاسى) فى القاهرة

لصناعة جلد السختيان (الجلد الفاسى أو المراكشى) لاتستخدم إلا جلود الماعز، ولكى يتم ذلك يبسط العامل على السطح الداخلى لهذه الجلود، طبقة من معجون الجير، ويتركه هكذا لمدة أربعة أيام، ثم يضع الجلود بعد ذلك فى ماء الجير، حيث تبقى لمدة عشرة أيام ، فى الصيف أو ١٥ يوما فى الشتاء، وبعد هذه التجهيزات ينزع الشعر، وتجرد الجلود بسكين مقوسة لها مقبضان، وتسمى داس، ثم توضع الجلود فى حوض، وعلى كل جلد منها طبقة من زبل الحمام، وتبقى على هذه الحال لمدة ٢٤ ساعة، ثم تغسل بعد ذلك بعناية فائقة مع دوسها بالأقدام، ومع

تغيير ماء الحوض عدة مرات، وعندما تنظف جيدا توضع فى حوض آخر مملوء بمياه مخلوطة بالردة، وتترك هناك حتى تختمر، وعندئذ تسحب وتغسل من جديد بالمياه العذبة، لتوضع مرة أخرى فى ماء العسل المخلوط بالردة لمدة خمسة أيام فى الصيف أو عشرة فى الشتاء، وعند سحبها تكون منتفخة تماما، ثم تبسط ويرش فوقها الملح، وبعد دوسها بالأقدام حتى تعود إلى سمكها الطبيعى، تجرد من جديد وبخاصة من سطحها وقد كان أقل نعومة من سطحها الآخر فى العملية الأولى، ثم تبسط الجلود واحدا فوق الآخر على حصيرة نظيفة بعد أن ترش الجلود مرة أخرى بالملح، وتنتقل بعد أن تجهز بهذه الطريقة إلى يد الصباغ .

ويغمرها الصباغ فى دن من الخشب صب فيه السائل الملون، ثم ينتشلها ويغمرها عدة مرات فى هذه الصبغة ، ثم يعلقها لتتساقط منها نقاط الصبغة، ويكررنفس العملية حتى تأخذ الجلود اللون الأحمر، وعندما تحصل على درجة اللون المناسبة ، يعلقونها لتتساقط منها نقاط الصبغة من جديد، ثم تغمس فى دن به ماء بارد وحبوب القرض المصحون، وتبقى الجلود لمدة يوم كامل فى هذا الدن شتاء، ثم يجرد بعد ذلك سطحها الداخلى لثالث مرة، ثم يغمس الجلد مرة أخرى فى نفس الدن ثلاث أو أربع مرات، ولا تتطلب هذه العملية الأخيرة إلا يوما واحدا فى الصيف، وأخيرا، وبعد أن يمر الجلد بكل هذه العمليات ، يغسل بالماء العذب وهو لا يزال رطبا، ويدهن السطح الداخلى بزيت الكتان، ويلقى فى الهواء الطلق حتى يجف تماما، ثم يُلَمَّع بين اسطوانتين من الخشب .

أما عن الصباغة فإليك كيف يعدونها، وبأية عناصر يكونونها: توضع حوالى عشر قرب من الماء فى دن من النحاس ، وينقع فيها على البارد لمدة ليلة كاملة كمية معينة من عشب القرض الذى يجمع فى ضواحي الأسكندرية، وبعد ذلك تسخن المياه حتى تبلغ درجة الغليان، فيسحب العشب ليوضع فى الدن حفنة من قشر الرمان وأوقيتان من الشبة ، ثم ٥٠٠ درهم من مسحوق دودة القرمز، وبعد ذلك يغمس الصباغ جلدا فى الدن ليتأكد من سلامة الخلطة، فإذا لم تثبت المادة الملونة بشكل جيد يضيف مرة أخرى أوقية من الشبة أو أكثر أو أقل ، فإذا كانت

الخلطة فاتحة أكثر مما ينبغي تزود كمية مسحوق الدودة القرمزية قليلا، وعند استعمال الصبغة ينبغي أن تكون حرارة السائل معتدلة لدرجة تتحملها اليد .

والجلد الذى يستخدم فى صنع نعال الأحذية هو عادة من جلد الجاموس، ويصل هذا الجلد عادة إلى المدبغة وهو مملح، ويوضع فى أحواض مليئة بماء الجير، ويمكث هناك لمدة حوالى عشرة أيام، وبعد ذلك ينزع شعره ويوضع من جديد لمدة يومين أو ثلاثة أيام، ويجرده العامل بسكين ذات مقبضين، ويفسله بالماء العذب عدة مرات، وبعد ذلك يضعه فى أحواض حجرية مع نوع من الحب المصحون، ويبدو أن هذه الحبوب هى والجير المجففان الوحيدان اللذان يستخدمان، وتبقى الجلود لمدة ١٥ يوما فى الحوض الأخير، ثم تسحب لتغسل بعناية ، ثم ترش ببذر الكتان، وبعد أن يمر الجلد بهذه العملية وبعد أن يجف يباع لصناع الأحذية .

ومن نافلة القول أن نلفت النظر إلى أن أحذية المصريين ليست لها نفس المتانة التى لأحذيتنا، فهى مجرد «شباشب» أو أخفاف من السختيان متعدد الألوان، أما نعول جلد الجاموس فهى تسمح بتسرب الماء على الدوام كما لو كانت من الأسفنج ، لكن هذا العيب الذى ينظر إليه فى أوروبا - حيث الأمطار تهطل على الدوام - على أنه عيب خطير، ليس كذلك فى مصر، فالأرض جافة باستمرار . وحيث إن جلد الجاموس مرن بطبعه فإنه يناسب الأرض المنبسطة الرملية والخالية من الأحجار، وتختلف أحذية شعوب الشرق قليلا عن أحذية المصريين .

وقد وصل فن الصباغة إلى أرقى درجة عند قدماء المصريين بالنسبة لتنوعها وبريقها، وبخاصة فى طول مدة ثبات الألوان، لكن الصباغة فى مصر اليوم شأنها شأن الصباغة فى كل مكان، ولم يحتفظ الذين يمارسونها هناك اليوم إلا بالقليل النادر من فن أسلافهم، فهم يكتفون بغمس المنسوجات أو غزل القطن الذى يراد صباغته فى المادة الملونة وهى تغلى، كما أن ورشهم غاية فى البساطة، كما أن الألوان التى يستخدمونها تعد بشكل مجاف للذوق . وأكثر المواد الصابغة استعمالا

هى النيله، وهم يصبغون كذلك بالألوان: الأحمر، والأصفر، والأخضر، ويستخدمون على وجه الخصوص ألوانا يستخرجونها من الحبوب والحشائش .

٣

عن الزراعة، وعن الفلاحين

كانت الزراعة هى السبب الرئيسى فى ازدهار مصر، وهى تشكل حتى اليوم العنصر الأساسى لتجارتها وصناعاتها، ولولا تلك المصادر الهائلة التى يستمدتها المصريون من خصوبة تربتهم لكانوا أبأس شعوب الدنيا، خصوصا فى ظل حكومة قاهرة مثل حكومة المماليك . ومع ذلك فينبغى أن تلقى الزراعة كما سبق القول العناية التى تليق بها لكى تصبح زراعة بمعنى الكلمة، فينبغى الاستفادة من كل الأراضى التى يمكن استصلاحها . إن هذا الإهمال المحزن لهو النتيجة الطبيعية لهذا اللون من العبودية الذى تضاعف فى ظله قدر المصريين ، وسوف نرى عما قليل بشاعة ظروفهم، وسنستنتج بسهولة أن مثل هذا السلوك المجافى لأصول الحكم والسياسة من جانب الملاك والسلطات الحاكمة ، لا يمكن أن تكون له نتائج أخرى .

ولا تنتج الأراضى المخصصة لزراعة القمح عادة إلا محصولا واحدا، وباستطاعتها أن تعطى محصولين، فهناك فى جزيرة الفنتين على سبيل المثال تحصد الأرض ثلاث مرات فى العام بانتظام، وتنتج الأرض مثل الكمية المبذورة ١٤ مرة، ويلزم لبذر الفدان ١/٢ أردب من الحبوب.

ويكفى ثمن الأردب الواحد لسداد مصاريف الزراعة والحصاد، ويبقى بعد ذلك خمسة أرداب هى بمثابة عائد الفدان الواحد. أما فى فرنسا فإن فدان القمح ينتج من خمسة إلى ثمانية أرداب ، ومن جهة أخرى فإن أحدا لا يجهل أن كمية كبيرة من البذور التى تبذر فى الأراضى الفرنسية لا تنبت مطلقا، فالحكم هنا إذن فى

صالح خصوبة أرض مصر، حيث يحصل الفلاح هناك - وبدون أن يكلف نفسه ذلك القدر من العناء الذى يتكلفه فلاحنا كل عام - على هذه النتيجة المزدهرة . وينبغى أن نضيف كذلك أن غلة الأرض تقل أو تزيد حسب طبيعة المحصول، إذ تنتج الذرة على سبيل المثال ٢٠ مرة من مثل الكمية المبدورة.

ولا يمكن أن نحصى فى مصر أكثر من ١٠٠٠ فرسخ من الأرض المزروعة، ويوجد فى الفرسخ المربع حوالى ٣,٣٣٠ فدان، وهكذا فإن فرسخا واحدا من الأرض المزروعة قمحا يغل أكثر من ١٦,٠٠٠ أردب من القمح كعائد صاف، وإذا افترضنا أن الأردب يساوى ثمانية فرنكات فإن العائد يبلغ ١٣٣,٠٠٠ فرنك . ويمكن مضاعفة العائد إذا ما استبدلنا بزراعة القمح مزروعات أخرى أكثر ربحا، مثل السكر والنيلة، فالمحصول الأول يعطى عائدا أكبر من القمح ١٥ مرة ولكنه يتطلب رأس مال أكبر بكثير، وبمقارنة الربح فى الحالىين نجد أن ربح السكر أقل نسبيا من ربح القمح، أى أن ربح الأموال المستغلة فى زراعة السكر أقل بكثير من ربح نفس المبلغ إذا ما استغل فى زراعة القمح، والفائدة الوحيدة التى تحسب لصالح السكر، بل التعويض الوحيد الذى يمكن أن تقدمه هذه الزراعة هو أن محصول السكر يحتاج لمساحة صغيرة من الأرض، بينما يحتاج القمح إلى مساحة كبيرة .

وقد يكون من السهل كذلك زيادة مساحة الأرض القابلة للزراعة، ولكن برغم أن ذلك أمر ميسور فإننا لا نظن أن مصر فى قبضة ملاكها الحالىين ستدر أكثر من ١٥٠ مليون فرنك، وينبغى أن نخصم من هذا المبلغ ٤٠ مليونا كمصاريف بذر وحصاد، فيصل صافى الربح إلى ١١٠ مليون فقط . ونحن على يقين من أن الصناعة الأوروبية كلها قد تتوصل بصعوبة بالغة إلى إنتاج ثلاثة أمثال بل حتى ضعف هذا الإنتاج الذى تدره أرض مصر . ولكن فى نفس الوقت فعلى مصر أن تفعل الكثير، إذا ما افترضنا أنها ستكون قادرة على ذلك ذات يوم، لكى تقترب من ثروة فرنسا الزراعية، بالرغم من خصوبة أرض مصر الهائلة، حيث إن الضريبة على الأراضى وحدها فى فرنسا تصل لأكثر من ٣٠٠ مليون فرنك.

والمنشآت الخيرية التى يقرها الباشا ممثل السلطان تعفى من دفع الميرى، بينما تخضع كل الملكيات العقارية لهذه الضريبة التى سبق أن تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل السابق.

ويبذر الكتان والقمح فى نوفمبر بمجرد أن تنحسر مياه الفيضان، ويتم البذر مبكرا عن ذلك فى الصعيد، حيث تكون مياه الفيضان على جانبى النهر أقل كثافة، ويزرع القطن فى نهاية شهر مارس وبداية شهر أبريل، ويحصد فى يولية وأغسطس، أما المحصولات الأخرى فتتضح بعد خمسة أشهر.

ويستخدم المصريون المحدثون، وعلى منوال أسلافهم، الرى فى زراعة الأراضى، ولكن هذه الطريقة الماهرة التى مضى بها الأقدمون إلى أعلى درجة من الرقى، قد فقدت الكثير عند استخدام المحدثين لها. وفصلا عن ذلك فالمحراث تقريبا هو نفس المحراث الذى وجدناه مرسوما فى الكهوف، أو على الأقل ثمة تشابه كبير بينه وبين المحراث الذى يستخدمه المزارعون فى مصر اليوم، وهو بالغ البساطة، حيث إن الأراضى فى كل مكان لا تبدى إلا مقاومة ضعيفة. ويلاحظ أيضا ذلك التشابه الكبير بين الطرق القديمة والطرق الحديثة فى درس القمح، ومع ذلك فإنهم يستخدمون اليوم عددا أقل من الأبقار فى درس القمح، وهى تقوم بفصل الحب فى الوقت الذى تجر فيه النورج .

ومن المفيد بعد أن تحدثنا عن الأرض وعن زراعتها أن نقول شيئا عن هؤلاء الذين يفلحونها، وهؤلاء هم الفلاحون البؤساء الذين تكرر اسمهم كثيرا على صفحات هذا المؤلف، وهم لا يشبهون فى شىء فلاحى أو مزارعى البلدان الأخرى، ولم يول الرحالة الذين عبروا مصر خلال القرن الأخير أى اهتمام بهذه الطبقة العاملة المضطهدة، وسوف تكون التفاصيل التى نقدمها هنا جديدة على أكبر عدد من القراء .

والفلاح المصرى هو أكثر الناس حياء، وطبيعته الخوافة هى بلا جدال نتيجة

طبيعية لحالة القهر التى حصره فى داخلها سيدان لا سبيل إلى قهرهما: إذ إن متاعبه من ملاحقة البكوات والضباط لا تنتهى إلا لتبدأ مع العربان. فعندما يحصل هؤلاء على كفايتهم، يتعرض الفلاح لانتهاكات وابتزازات جديدة من جانب البكوات والكشاف، تأتى لتسلبه ما قد يكون قد تبقى له، وهكذا يظل الفلاح المسكين بلا أى دعم أو سند، فريسة لنزوات كل هؤلاء الناس من راكبي الخيل، والمسلحين على الدوام بسلاح الحرب ، ولو كانوا فى نزهة صغيرة. ويقدم الفلاح لهؤلاء الكثير من الأبقار والخراف ومكايل الحبوب التى يجنيها، ثم يذهب ويئن من وطأة الجوع مع زوجته وأولاده، ومع ذلك فإن تعقل الفلاح واعتداله يسمحان له بتدبير ما هو لازم لمعيشته ومعيشة أسرته، وهو يستغل وقته، ويتلقى كأجر عددا متفقا عليه من مكايل الذرة والحبوب. وفى كل مساء يجهز لنفسه خبزه ، وهو يطحن الحبوب بواسطة رحى ، وينضج الخبز على رماد ساخن، لأنه لا يمتلك فرنا على الإطلاق. ولكى يحصل على البلح والبصل والزبد والبيض واللبن ، فإنه يستبدل ذلك مع فلاح آخر ببعض القمح والفلو اللذين يتلقاهما من المالك. وهو قانع بهذا النمط من الحياة ، حيث إن الشقاء الذى اعتاده جعله يعيش فى طور الفطرة، وهو يتناسى الماشية التى يسرقها منه البدو، كما ينسى الإتاوات المتزايدة التى يفرضها عليه طغاته. وعندما يدر العمل عائدا كبيرا ويحصل بالتالى على أجر أفضل يستطيع أن يوفر منه شيئا، فإنه يشتري من جديد حمارا وبعض الخراف وأدوات زراعية ويعود إلى مسكنه الأول، ويرد الشيخ إليه الأراضى التى كان يفلحها من قبل.

وملابس الفلاحين عبارة عن قميص بسيط ، وهذا الملبس مشقوق من الرقبة حتى أسفل البطن، وليست له أكمام، وينزل حتى الركبتين، ويثبت بالجسم بواسطة حزام من الجلد، وهو من القطن ولونه أزرق، وبخلاف ذلك يغطون رأسهم بغطاء من اللباد الأحمر يسمى طربوشا . أما الفلاح الميسور بعض الشيء، فيغطى رأسه بعمامة تتكون من شال من قماش قطنى مخطط يلف حول الطربوش، وما عدا ذلك فإن أذرع الفلاحين وسيقانهم وأقدامهم عارية تماما، بل إن كثيرين منهم لا يمتلكون

حتى القميص الذى تحدثنا عنه، ويكتفى هؤلاء بأن يثبتوا بحزامهم قطعة من القماش تلف حول وسطهم، ويرتدى الأغنياء منهم طربوشا وسروالا ومعطفا أسود اللون من الصوف فوق القميص، ويطلق على هذا المعطف اسم: بشت.

وعندما نعرف ببؤس وهوان وقدهور حال الفلاحين، فإننا نستطيع أن نكون فكرة عما ستكون عليه ملامح وجوههم. فهل يمكن أن يكون لأناس كهؤلاء حكم عليهم بهذا التحقير وتلك العبودية، وبأن يظلوا على الدوام لعبة فى أيدي عدد كبير من السادة - هل يمكن أن يكون لهم نظرة صريحة جريئة، ووجه صاف بشوش، ولقاء حر مفتوح؟. إن مظهر هؤلاء البؤساء ليعلن عن حيرتهم، والخوف يقرأ فى عيونهم، وهم يمشون بقلق، ورؤوسهم محنية إلى الأمام، وإذا ما ظن الفلاح عند لقائه شخصا ما، أن هذا الشخص يحوز ولو قدرا ضئيلا من الجاه أو الثروة، فإنه يقترب منه ويده مبسوطه، كما لو كان ليستجدى حماية أو يطلب إحسانا.

يا له من تناقض يبعث على الإثارة بين وضعهم الذليل والمستجدى، وبين ملامح الخشونة والجد التى ترتسم على وجوههم التى تعطى لها لحيتهم الطويلة قدرا كبيرا من النبل! وشكلهم فى عمومهم جميل، وتتميز جباههم - برغم أن جزءا منها تغطيه العمامة - بالاتساع، ولوجنات خدودهم نتوء شديد الوضوح، وخط الأنف واضح بشدة، أما الذقن فممشوقة، ويبدو الأمر وكأن ثمة رجلا قد منحتهم الطبيعة هذا الملمح الوقور، لكن عليهم أن يعانون من كل عوامل القهر والجبن والإذلال. فكل ما فيهم يشهد ببؤس حالهم، فلست تراهم إلا باسطى الأيدي مكررين عبارة: فضة، فضة - أى أعطني بارة، بارة واحدة. وقد لا يدرك الغريب - الذى لا يعرف عادات البلاد - أن هؤلاء الذين يتسولون بهذا الإلحاح، يدفعون إيجار أراض عديدة يفلحونها، وأنهم يمتلكون ماشية وحميرا وخيولا، وأنهم يعولون عائلة كبيرة العدد، عن طريق زراعتهم الفاكهة والخضار، التى يعرفون كيف يعودون منها بالنفع عليهم وعلى أسرهم وقت الحصاد.

وهكذا فسوف نقع فى خطأ بين إذا ما حكمنا على الحالة الحقيقية للفلاح استنادا إلى مظهره الخارجى، فهو لا يلجأ لهذا التسول المظهرى إلا ليخدع مضطهديه، فمن المهم بالنسبة له أن يظنه الناس بلا مورد رزق وبلا وسيلة للعيش، ذلك أنه يرتجف على الدوام خوفا من أن يرى نفسه وقد انتزع منه القليل الذى يملكه، لهذا فإنه يشهد العالم كله على فقره وعوزه، ويرتدى من الملابس ما ينسجم مع الانطباع الذى يريد أن يحدثه فى مشاهدته، فهو داخل قميصه هذا عار كما ولدته أمه، ويقبل بنهم على أى طعام يقدم له، ويجمع قطع المدينى التى يحصل عليها بعناية فائقة فى طرف منديله، ويقاسى الأمرين حتى لا ينفق قطعة واحدة من نقوده إلا عند الضرورة الملحة، وباختصار فإنه لا يفوته شىء مطلقا يمكن أن يساهم فى إقناع الناس ببؤسه الشديد.

وعندما لا يكون الفلاح فى حقله، فإنه يجلس القرفصاء أمام منزله. وحول كل القرى المصرية تشاهد آلاف الأكوام الطينية الناتجة عن الخرائب والهدم، وهذه الأطلال كثيرة فى هذه البلدان، أكثر منها فى أى مكان آخر بسبب رداءة بناء الأكواخ، وكذلك رداءة الخامات المستخدمة فى ذلك، فهى على الدوام من الطين أو من الطوب النيئ. وعندما يكون الفلاح بلا عمل، فإنه يصعد هذه الأكوام، ويظل جالسا أكبر فترة من النهار، ويدخن الغليون، وينظر إلى الخلاء. وفى بعض الأحيان يقوم بغزل القطن أو الكتان، بينما تعجن زوجته روث الماشية، لتشكل منها نوعا من الأقراص، تجففها بلصقها على جدران كوخها، وبهذه القاذورات يحصل الفلاح على وقوده، وينضج خبزه وطعامه.

وقد يظن المرء وهو يلاحظ بلدة وخمول هؤلاء البؤساء الذين يعيشون وسط خطوط لا تنتهى، أنهم شبه محرومين من موهبة الفكر، ولكن، لعل من الأصوب أن نقول بأنه يبدو أن العناية الإلهية، بينما هى تهيب للإنسان ملكاته الروحية والذهنية التى تنسجم مع الظروف التى وضعته فيها، فإنها قد شاعت أن تقرن البلادة بالفقر، كما لو كان بغرض أن تخفى عنه الشقاء الذى قدر عليه أن يحيا فيه.

عن الحرف

ينقسم العمال فى مصر حسب حرفهم ، وليس ثمة قواعد لاحتراف الحرف ، فالأب الذى يريد أن يعلم ولده حرفة يسلمه لمحل أو عند معلم ، ويحمل الصبى معه وجبات ليمضى اليوم ثم يعود فى المساء إلى بيت والده ، وبمجرد أن يتعلم فإنه يحصل على أجر يزيد بزيادة مهارته .

وتنقسم الحرف المختلفة إلى طوائف لها رؤساء ، ويشرف على معظمها وكيل الانكشارية (الكخيا المتولى) وهو رئيس الشرطة فى القاهرة ، وتخضع بعض هذه الطوائف لإشراف أغا العزبان والمحتسب ، وللأخير حق الإشراف الخاص على المواد الغذائية . وثمة حرف لا ترتبط بأى من هؤلاء الرؤساء ، وتشكل طوائف هامشية ، مثل : الراقصات والراقصين على سبيل المثال ، وعازفى المزامير ، وباعة الحدايد ، وعموما كل تجار الخردة .

ويرأس شيخ الحمامات ٢٤ شيخا من مختلف المهن ، مثل : صناع الخيام ، والجمالين ، ولاعبى العصا ، والمغنين ، ومنشدى الشوارع ، والحمارين . وهو يحكم فى الخلافات الصغيرة التى تنشأ بين هذه الطبقة من الناس فى موضوع حرفتهم ، ويتوجه الناس إليه عند طلب عدد كبير من دواب النقل لغرض ما ، ويحصل من أتباعه عددا من الضرائب الصغيرة ، بعضها ثابت وبعضها طارئ . ولكى يحصل على هذا الامتياز فإنه يلزم بدفع إتاوات ثابتة لمختلف ضباط الأوجاقات ، نقدا أو فى شكل أشياء تدخل فى تشكيل أثاث البيوت . ولا ينبغى أن ننسى أن هذه الرسوم التى يحصلها الملتزمون أو مساعدوهم ، إنما هى فى الغالب رسوم استبدادية ، مثل كل ما يحدث تبعا للعادات الإسلامية . ولكن شيخ الطائفة بالرغم من اتساع سلطته فى زيادة الضرائب التى يفرضها ، يلتزم مع ذلك بحدود الاعتدال حتى لا يفقد الاحترام العام ، فيفقد بالتالى عمله وأمله فى أن يشغل وظائف أخرى .

وإذا لم يكن لدى الصناع ما يشكون منه من شيخهم، وإذا رغبوا فى الاحتفاظ به، فإن الكخيا المتولى لا يستطيع فى نهاية العام أن يبدله، كما أنه ليس فى مقدور هذا الأخير زيادة مبلغ الالتزام الذى يحدد بشكل لا يقبل التغيير. وعندما لا يكون الصناع راضين عن شيخهم، يضطر الكخيا لتعيين شيخ آخر، ويطلب إلى الطائفة أن تحدد له شخصا بعينه، ويتم ذلك بطريق النداء، وبدون أية صيغة أخرى، وبدون اللجوء إلى طريقة الاقتراع، على الرغم من معرفة الأتراك لهذه الطريقة. وعندما يريد الكخيا أن يرغم الصناع على اختيار شيخ معين، يجتمع كل مديرى الحمامات ليعترضوا على هذا العنف غير المشروع.

وفى الفصل الأول من مؤلفنا هذا قدرنا عدد عمال اليومية بـ ١٥ ألفا فى مدينة القاهرة، ويمكن تقسيم هذه الكتلة من الناس إلى ثلاث طبقات: الأولى: وهى أكثرهم بؤسا وتضم ١٠ آلاف شخص، وهؤلاء يستخدمون فى أعمال ثانوية، ولا يحصلون إلا على أجر بالغ التواضع يفى بالكاد لمعيشتهم، وهم يرتدون قميصا بسيطا أزرق اللون من الصوف، ويحزم بحبل عند وسط الجسم، وتغطى رؤوسهم بلبدة بيضاء، أما مسكنهم فعبارة عن كوخ يكلفهم إيجاره الشهرى ١٠ بارات، وكل أثاثهم عبارة عن مزقة من الحصير ينامون عليها مع زوجاتهم وأولادهم، ويمكن للعامل من هذه الطبقة أن يكسب حوالى ١٥ بارة فى اليوم، وتشتغل زوجته (إذ ليست له إلا زوجة واحدة) بأعمال أخرى أقل كسبا، تدر عليها على الأكثر ٤-٥ بارات، ولا يأكل هؤلاء البؤساء اللحم على الإطلاق، وهم يشترون الخبز وشيئا من الحبوب المطبوخة والبيض. وينفق الرجل بعض نقوده فى المقهى، ويدخن تبغا بالغ الرداءة، ويخدر نفسه بأكل القنب الأخضر المعد، فقد أصبح الخدر بالنسبة له شبه ضرورى. وترتدى المرأة كذلك قميصا أزرق اللون، ويسير الأطفال عراة أو تغطيتهم بعض الهلاهيل.

وتتضم الطبقة الثانية حوالى ٣ آلاف عامل يومية، ظروفهم ليست أقل من ظروف الأولين مدعاة للشكوى، برغم أنهم ليسوا على نفس الدرجة من البؤس ، وأجرهم ليس أكبر من أجر الأولين مع أنهم يعتبرون نوعا من وكلاء الأعمال، لكنهم يحصلون على بعض المكاسب البسيطة لا يحصل عليها الأولون، ومسكنهم أكثر راحة وأحسن تائثيا، ويتكون رداؤهم الطويل من قميصين أو ثلاثة يرتدونها فى بعض الأحيان الواحد فوق الآخر ، وبخلاف ذلك فإن طريقتهم فى الحياة هى نفس طريقة الأولين.

ويمكننا أن نضع فى صفوف الطبقة الثالثة ٢.٠٠٠ من العمال، وهم فى حالة أكثر يسرا من الأولين بقليل، ويعمل هؤلاء كرؤساء ورش، ويسكنون فى مبنى كبير به دهاليز عديدة تؤدى إلى مساكنهم، وهذه المباني تشبه الأديرة، ويقطن كل عامل فى حجرة، ويعد طعامه فى مسكنه، وزوجته هى التى تقوم بهذا العمل، ويدفع ٣٠ مدينى كإيجار شهري، ويمتلك حصيرة خشنة من ألياف الكتان، وبعض المخدات التى لها غطاء ردى، بالإضافة إلى إناء للطبخ أو إناعين، مع أنية أخرى رخيصة الثمن. لكن ما يميزهم على وجه الخصوص أنهم يرتدون ملابس أكثر وأفخم : شال من الموسلين أو الصوف حول طربوش ليشكل عمامة، وملابسهم الداخلية من التيل، ويمتلك الواحد منهم دفية زيادة على الجلاب الطويل، وهذه الدفية عبارة عن معطف من الصوف الأسود، كما يرتدى ملاية، وهى قطعة طويلة من قماش قطنى بها مربعات بيضاء وزرقاء، وكل هذه الأشياء التى يعنى بتجديدها عندما تبلى يمكن أن تكلف العامل من ٩ - ٢٠ بوطاقة (خردة)، ومع ذلك فأجر هؤلاء العمال ليس أكبر بكثير من أجر الأولين، لكن ما يجعلهم يعيشون فى بحبوحة أكثر، هو أنهم يعملون طيلة العام باعتبارهم أكثر شهرة وأكثر دراية. وترتدى زوجاتهم قميصا أسود للزينة، وقميصين أو ثلاثة لبقية الأيام. وهن يعملن فى غسل ونسج القطن، ويعود عليهن هذا العمل بأجر متواضع.

ويبلغ عدد الخدم العاملين بالقاهرة - كما سبق أن قلنا فى الفقرة الخاصة بسكان هذه المدينة فى الفصل الأول - ثلاثة آلاف، ويمكن أن ننظر إليهم باعتبارهم يشكلون ثلاث طبقات متميزة فيما بينها ، بسبب طبيعة أعمالهم ، وهم :
السياس (السياس)، الفراشون (الفراش)، القواسون (القواس) .

وينام السياس بالقرب من الخيول التى يوكل إليه أمر العناية بها، ويكاد السياس لا يتقاضى أجرا، إذ لا يعطى إلا ١ - ٢ بارة فى اليوم، وكمية من الخبز تبلغ ١/٢ رطل، لكنه يحصل على عدد لا يحصى من المكاسب الصغيرة المحظورة، ويحصل فى معظم الأحيان على هدايا بمناسبة الأعياد (عيدية) ، وباختصار فهو يعيش فى بحبوحة . ومعظم هؤلاء الخدم لا يتزوجون، وهم نظفاء، وملابسهم حسنة، ويتميزون بمهارتهم فى معاملة الجياد، وهم متكبرون وقحون بطبعهم، وعنيدون، لكنهم لا ينساقون لغضبهم إلا فيما بينهم، وهم يبدون الكثير من الخضوع نحو أسيادهم .

ويمكن أن نشبه الفراش بالـ Valet de chambre عندنا، فهو الذى يعنى بالأثاث، وهو الذى يسهر على نظافة البيوت وعلى الإضاءة، وهو يقيم عند سيده ، ولا يترك مسكنه إلا عند زواجه ، ولكى يحصل على هذه المرتبة فإنه ينتظر حتى يصبح رئيسا للفراشين، وهو على الدوام حسن الملبس. وهذه الطبقة هى التى تساهم فى إعداد ملذات سادتهم المنحطة، وهم يندفعون فى القيام بهذه الخدمات لأبعد مما كان السادة يرغبون، وأجرهم ليس محددًا، وإنما يتوقف على مشيئة السادة .

وعندما يصبح هؤلاء الخدم رؤساء، يصبح لهم منزل ، وأحيانا منزلان قليلا الاتساع ، تقيم فى كل واحد منهما زوجة، وأثاثهم فاخر لحد ما، وتمتلك زوجاتهم بعض الحلى .

ويسير الشرقيون من ذوى المكانة أمامهم خدما ، يسبقونهم سائرين على الأقدام ، وحاملين عصا لإبعاد الجمهور، وليهيئوا لسادتهم مكانا . ويسمى الخادم من هذا النوع : القواس، وهم ينقلون سيدهم فى داخل المدينة وإلى القرى المجاورة، ويختار لهذا العمل فلاحون ورجال من أبناء الريف ، لأن مظهرهم وقامتهم أكثر مهابة من مظهر وقامة سكان المدن . ولا يدفع للقواس أجر، ولا يحصل هو إلا على الخبز، لكنه يعوض هذا الغرم إلى حد كبير، على حساب الذين يحمل إليهم أوامر أو رسائل من طرف سيده ، وبخاصة إذا ما كان لسيده نفوذ كبير . وليس ثمة أى نوع من المغارم أو الإتاوات إلا ويحصلها لحسابه . والقواس عند الكبار هو الذى يقوم لحسابهم بارتكاب أحداث السلب والانتقام، وهو الذى يهوى بعصاه على من يريد سيده أن يعاقبه أو يهينه ، كما أنه الذى ينزل الشخص الذى يخضع لهذه الإهانة من فوق ظهر حصانه . وكل هؤلاء الخدم على وجه التقريب متزوجون ، وترتدى زوجاتهم مثلما ترتدى زوجة حرفى ميسور، وملابسهم على الدوام من قماش خشن من الصوف الأسود، وهم يرتدون شالا من الصوف أو ملاية تتدلى على كتفهم، ويغطون رؤوسهم بلبدة بيضاء، ثم بطربوش أحمر، وهم يحرصون على أن يضعوا بينهما كثيرا من الورق وقطعا من أقمشة رديئة لتمدن ضربات العصا التى تنهال عليهم عادة من ساداتهم، ويسمى رئيس هذه الطائفة من الخدم : مقدم، ويفرض هؤلاء الرؤساء عددا كبيرا من الإتاوات ويغتنون بسرعة.

أما السقاعون فهم على نحو ما رسل الحريم، وينتهى بهم الأمر بأن يكونوا ثروات كبيرة، والنساء هن اللاتى يخترنهم ويتبادلنهم فيما بينهن . ويتمتع هؤلاء الخدم عامة بحظ أوفر من الآخرين، ويوليههم أرباب البيوت أكبر قدر من الرعاية، وتبسط النساء عليهم حمايتهم، ويحرصن على راحتهم. ويمكن أن يكون لهذا التكريم أسباب عديدة، فالنساء - وهن بطبعهن رقيقات وشفوقات - لا يمكن أن يسلكن هذا المسلك إلا ربما بدافع من شفقة حميدة، وربما بسبب من تصنع الدافع الإنسانى، ومع ذلك فيحتمل أن تكون ثمة نواحي ضعف خفية هى التى تحدو بهن إلى إكرام رجال يكنن لهم قدرا من العاطفة .

وفيما عدا ذلك، فإن الخدم في مصر يلقون معاملة طيبة على وجه العموم ، وإذا ما نحينا بعض المحن البسيطة، وبعض العقوبات التي قد تكون قاسية بعض الشيء في بعض الأحيان، والتي يوقعها عليهم السادة بسبب تقلب أهوائهم، أو بسبب نفاق صبرهم، فليس ثمة في حياة هؤلاء الخدم ما يمكنهم أن يشكوا منه، فالسادة يولونهم الكثير من العطف، بل ويرى السادة في معظم الأحيان يتخذون جانب خدمهم بحماسة فريدة، سواء كانوا مخطئين أو كانوا على صواب، وسواء كان الأمر بدافع من العطف عليهم أو بدافع من كبريائهم وكرامتهم هم . وتذكر كثير من الأمثلة على بكوات تشاجروا بغضب فيما بينهم بسبب مشاحنات خدمهم .

وطابع هؤلاء الخدم عادة سيئ مرذول، والذين يتوصلون منهم إلى الحصول على نوع من الثراء يصبحون وقحين متعاضمين، وهم وشاة غدارون ومخاتلون ماكرون، وويل لمن لا حماية لهم أو جاء حين يتعاملون معهم ! إنهم أكثر غلظة وقسوة من الممالك الذين يخدمونهم. والفراش والسائس والمقدم والسقاء مرتبطون بسادتهم، وهم راضون عن حظوظهم ولا يكادون يغيرون سيدهم . وهؤلاء السادة يعاملون خدمهم برقة في غالب الأحيان كما سبق القول، وهم يعنون بأبناء هؤلاء الذين يولدون في كنفهم، لأن المصريين جميعا مولعون بالغلمان ويتبادلونهم فيما بينهم. وتستقبل هذه الهدايا بسرور بالغ، فلماذا إذن والأمر كذلك، لا تكون بقية الأمور متسقة مع هذه الميل الطبيعية، والملاذات البريئة الظاهرة ؟.

الملاحق

نبذة عن الحفل الذي يقام عند مولد الأطفال

سنقدم هنا مذكرة طبعت بالفعل فى القاهرة، وتعطى فكرة دقيقة عن العادات التى تتم عند مولد الأطفال الذكور . ويعجب المرء من أن الأب لا يدخل مطلقا وبأية طريقة ضمن إطار هذا الحفل الشيق .

فى اليوم السابع لمولد الطفل تجمع الوالدة صديقاتها ، وتمضى اليوم كله فى لهو معهن .

وتنقضى الفترة بين الوجبتين فى غناء ورقص تقوم بهما العوالم ، وبعد الغداء يتم حفل تعميد الطفل الجديد، ويطلق على هذا الحفل اسم : السبوع، وهو عبارة عن نزهة فى كل حجرات مسكن الحريم، وتمشى واحدة من الخادومات الرئيسيات على رأس الاحتفال حاملة صينية من النحاس ، وضع فوقها وبشكل دائرى عدد من الشموع يعادل عدد النساء اللاتى يشاركن فى هذا الاحتفال، وهذه الشموع مضاءة وألوانها متعددة، وتسير بعدها القابلة الموكلة بالطفل وعلى جانبيها خادمتان، تحمل صغراهما موقدا من النحاس الأصفر، وتحمل الأخرى طبقا يحتوى على حبوب شعير وقمح وعدس وفول وأرز وملح بحرئ وبخور ، أى سبعة أصناف بعدد الأيام التى انقضت منذ مولد الطفل .

وتمشى الأم بعد ذلك تحيط بها العوالم وأقرب صديقاتها إليها، وتشكل الزوجات الأخريات آخر مجموعة فى الموكب . وفى أثناء السير تعزف موسيقى صاخبة للغاية، وفى كل مرة يدخل فيها الموكب حجرة من حجرات الحريم، تأخذ القابلة حفنة من الحبوب والبخور بيمنها وترمى بجزء منه فى الحجرة، ويرد عليها بزغاريد طويلة جدا، ويصبح إيقاع الموسيقى أسرع وأكثر صخبا، وتحاول النساء السير فوق الحب المنتشر فى كل مكان .

وعند العودة إلى حجرة الحريم الرئيسية، توضع صينية الشموع على كرسى بدون مسند، موضوع وسط الحجرة، وتأتى كل واحدة من المشتركات لتضع قبضة من البارات، وترتمى الفتيات الصغيرات والخادومات على الشموع ليتنازعن عليها. وبعد ذلك تحمل القابلة الصينية، وتحصى دخلها من النقود التى تجدها فيها، والتى ألقيت هناك من أجلها .

وينتهى الحفل بزيارة للطفل، وتزين رأسه بقطع من النقود الذهبية التى تقدم له كهدية، أو توضع فى مناديل غالية تحت رأسه .

٢

جهل المصريين والنوبيين

بخصوص رسم الصور الإنسانية

سبق أن تحدثنا عن قلة معرفة المصريين المحدثين بكل ما يتصل بالفنون الجميلة، ولكن يتبقى علينا أن نقول كلمة عن أى حد يبلغ عمق هذا الجهل فى موضوع الرسم والتصوير نتيجة للمعتقدات التى تصاحب الدين الإسلامى، إذ سوف يوضح ذلك كثير من الأحداث التى وقعت أمام أعيننا، أكثر مما توضحه الأفكار أو الآراء التى يمكن أن نقدمها .

كان الأستاذ ريجو Rigo الرسام وعضو المجمع العلمى المصرى، قد بدأ سلسلة من الدراسات حول ملامح السكان . وقد كان وصول قافلة النوبة إلى القاهرة عام ١٧٩٩ فرصة طيبة بالنسبة له، ينبغى الإمساك بها، وكان قائد القافلة عبد الكريم على وجه الخصوص يلفت النظر بقوة الملامح النوبية المرتسمة على وجهه . ونجح الأستاذ ريجو فى أن يجذبه إليه بإغراء النقود . وبعد مفاوضات طويلة - كثيرا ما انقطعت - جاء عبد الكريم إلى الرسم فى حراسة ١٠ - ١٢ شخصا من مواطنيه، مع كل الاحتياطات التى يمكن أن يقوم بها رجل مقتنع بأنه

مستدرج إلى كمين . ومع ذلك فلقد أمكن طمأننته في النهاية وإقناعه بصرف حراسه، وبدأ الأستاذ ريجو في عمل صورة له بالحجم الطبيعي، وبدأ النوبى في أول الأمر مسرورا بالخطوط الأولية في الرسم، وكان يشير بأصبعه إلى أجزاء الرسم، وإلى الأجزاء التى تقابلها في وجهه وهو يقول: طيب . طيب . ولكن عندما بدأ الفنان يضع الألوان على الصورة، كان التأثير مختلفا تماما، فلم يكذب عبد الكريم يلقى عليها نظرة حتى تراجع وهو يصرخ صرخات مرعبة، وكان من المستحيل تهدئته، وما أن فتح باب الرسم، حتى أطلق لساقيه العنان، وصاح في الشارع بأنه قادم من بيت نزعوا فيه رأسه ونصف جسده .

وبعد ذلك بعدة أيام ، جاء ريجو إلى المرسم بنوبى آخر، يعمل بوابا لأحد بيوت المعهد، فلم يكن أقل من مواطنه شعورا بالعرب عند رؤيته للرسم، وجرى يقص على كل جيرانه، بأنه شاهد عند رجل فرنسى عددا هائلا من الروس والأطراف المقطوعة، فسخر إخوانه منه، وتجمع عشرة منهم ليتأكدوا من صحة الواقعة، ولكن لم يكن ثمة واحد من بينهم لم يملكه الفزع عند دخول المرسم، ولم يشأ واحد منهم أن يبقى في المرسم لحظة واحدة .

وقد رسم الأستاذ ريجو سيدة من نفس هذه البلاد جاءت إلى القاهرة مع عبد الكريم ، وكان على الرسام أن يرغمها حتى تقتنع بأن تدع نفسها تُرسم، وما أن انتهى الفنان من رسم الرأس والذراعين حتى قالت له : « لماذا تأخذ رأسى؟ ولماذا تنزع عنى ذراعى؟ » . وبدأ أنها مقتنعة بأن كل أجزاء جسمها التى انتقلت صورتها إلى اللوحة، سوف تذبل .

ويعتقد المسيحيون من أهل البلاد أن كل الرسوم تمثل قديسين، وكان يوجد فى هذا المرسم لوحة لفرنسى، كان الأقباط يخرون أمامها ساجدين عند دخولهم المرسم، كما كانوا يقبلونها فى خشوع شديد ^(١) .

فن الأفاعى أو سحرة الثعابين

أعتقد أن علينا - قبل أن ننهى هذا المؤلف - أن نتحدث عن هؤلاء الرجال غير العاديين ، الذين يحترفون اكتشاف الثعابين وتطهير المنازل منها . وعلى الرغم مما هو واضح فى عملهم هذا من دجل وشعوذة، وعلى الرغم من أننا نقر مقدما أن قليلا من القراء فقط هم الذين سيولون الثقة بهذه المعجزات المزعومة، فإنه مما لا مندوحة لنا عنه أن ندخل فى تفاصيل حول هذا الموضوع . ونحن نعتزف - دون أن يعنى ذلك بساطة مفاهيمنا، أو أننا من بين أولئك الذين يسهل إقناعهم - بأننا كنا بأنفسنا شهودا على بعض الوقائع بالغة الغرابة ، لدرجة أننا لا نستطيع أن ندخل فن الأفاعى ضمن إطار الأمور المتوهمة والخيالية، بل إن واحدا مثل بروسبير ألبان Prosperé Alpin ذلك الطبيب ذائع الصيت - ولا يمكن أن نصفه بأنه واحد ممن يعتقدون فى الخرافات - قد نقل إلينا أنه رأى رجالا يتعاملون دون أن يصيبهم أدنى أذى، مع الزواحف السامة والعقارب .

وقبله عرف سترابون Strabon الحواة الذين كان المصريون القدماء ينظرون إليهم، على اعتبار أن لديهم موهبة سحر الثعابين، وكل ما نقله إلينا المؤلف بخصوص هؤلاء الحواة يتجدد هذه الأيام .

أثناء وجود الجيش الفرنسى فى مصر، أراد عديد من الأطباء المهرة أن يتأكدوا بأنفسهم من حقيقة تلك الثقة التى يوليها الرحالة لهؤلاء السحرة . وكان من السهل عليهم فى البداية أن يعترفوا بشعوذة البعض، على الأقل فيما يتعلق بتلك الممارسات الغريبة التى يستغلون بها بساطة مفهوم جمهور جاهل أبشع استغلال. فلكى يدخل هؤلاء المشعوذون شخصا ما فى رفقتهم، ولكى يجعلوه فى مأمن من لدغات الثعابين، فإنهم يقومون بصب بعض الماء فى إناء، ثم يضيفون إليه الزيت والسكر، ويحاولون عمل مزيج من هذا الخليط، وبعد تلاوة بعض الأدعية يبصقون

فى الإناء، ويأمرونه بشرب هذه الجرعة المنقرة، وبعد ذلك يعلقون فى أذنيه ثعبانين كبيرين من أسنانهما، ويظل الثعبانان متدليين هكذا لمدة ربع ساعة، وبعد انتهاء العملية، يخرج هذا «المأذون» من كيسه ثمن الخدمة الجليلة التى أسديت إليه، وينسحب، وهو شديد الاقتناع بأن ليس عليه أن يخشى بعد اليوم من لدغات الثعابين .

ولعل هذا الاقتناع الذى حصل عليه هذا «المأذون» ، والذى جعل منه المشعوذون اقتناعا تاما يمثل هذه العملية الشائعة، هو الفائدة الوحيدة التى جناها هذا الرجل، إذ إننا فى الواقع نستطيع بسهولة أن نتجاسر على الأشياء التى تقل خشيتنا لها، وهذه الثعابين تشبه نوعا من الحيوانات لا يصبح ضارا، إلا عندما تظن أن من يقترب منها - بسبب اضطرابه غير الواثق وتردده - يريد إيذاها . إننا مضطرون للتفكير على هذا النحو، على الأقل حتى يمكننا أن نفسر النتائج الغريبة لهذا التلقين الغريب لهؤلاء السحرة، إذ كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يحملوا فى ملابسهم، بل وعلى صدورهم، زواحف من كل نوع يلتقطونها بالصدفة، دون أن تقع لهم أحداث مؤلة ؟ كيف يمكنهم أن يضعوا - دون أن يصيبهم أدنى أذى - عقارب حية تحت عمامتهم الحمراء التى تغطى رؤوسهم الحقيقية ؟ . لقد ظننا فى البداية أنهم كانوا ينزعون أسنان الثعابين أو فكى العقارب، لكن واحدا من زملائنا مر بتجربة تثبت العكس . فقد أراد ذات يوم أن يتأكد من الحقيقة، ونقل شكوكه هذه إلى واحد من هؤلاء الرفاعية، فما كان من الأخير إلا أن تناول أصبعه على الفور، ودسها فى فم الثعبان الذى يمسك به بين أصابعه، وأخذ زميلنا بفعل المفاجأة، وشعر بأسنان الثعبان الدقيقة والناعمة للغاية . صحيح أن كل هذا يمكن تفسيره، إذا ما تبيننا رأى بوكوك Pocoke : فهذا العالم الرحالة كان يزعم أن ليس ثمة ثعابين سامة فى مصر . ولكن هل تأكدت صحة مثل هذا الزعم ؟ وهل الأفعى العادية، أو الأفعى ذات القرون، وهى المعروفة بخطرورها فى أوربا، تكون أقل خطورة منها فى أفريقيا ؟ وهكذا فلا يمكن أن يكون زعمه صحيحا، وفضلا عن ذلك، فقد حدثت تحت ناظرنا أمور برهنت على عكس هذا الرأى .

يبقى علينا أن نتحدث عن فن استدعاء الثعبان من شقه، وهو أمر أكثر مثارا للدهشة، بل إنه يشبه المعجزة . وقد وانتنا هذه الفرصة لنرى هذا المشهد الفريد لأول مرة فى طهطا بالصعيد عند آباء الدعوة . كان ثمة رجل يمر بالشارع و ثمة سلة تتدلى من ذراعه، ويعلن بصوت عال أنه يطهر البيوت من الثعابين التى يمكن أن تحتويها ، وأردنا أن نضع نداء الرجل موضع الاختبار، فى الدير نفسه، بالرغم من تعليمات رجال الدين، الذين يُعلّمون تلاميذهم ألا يكونوا على استعداد مطلقا لتقبل مثل هذه الأفكار . ومع ذلك فقد كان ثمة واحد من الآباء أقل تشددا من إخوانه، وحبذ فكرتنا، واستدعى الرجل الذى نحن بصدد الحديث عنه إلى فناء صغير من أفنية الدير ، وكانت سلته تحتوى على ثعابين كبيرة ومن أنواع مختلفة، قال إنه أخرجها من البيوت المجاورة التى دعى إليها . وسألناه ما ان كان ثمة زواحف بالدير، وما ان كان بمقدوره أن يخرجها، عندئذ شكل قسمات وجهه، وجهد لكى يضيف على وجهه مسحة من الغموض، وجال ببصره فى كل الأماكن المحيطة به، وكانت كل إشاراته توحى بالجدية والخطورة، وكان يتخذ هيئة الرجل الملهم، ثم أوقف بصره فى النهاية على حجرة معتمة للغاية وهو يتشمم الهواء، كما لو كان بإمكانه أن يستدل على وجود الثعابين عن طريق الشم، ثم أجاب بأنه لا توجد زواحف إلا فى هذه الحجرة . وفتح باب الحجرة وتقدم بخطى بطيئة ، حاملا فى يده عصى صغيرة ، وكان يغمغم بكلمات بنغمة خاصة وبصوت خفيض، ولم يفهم رجال الدين من كلماته إلا كلمة : السلام عليكم، وبعد هذا النوع من «التعزيم» الذى استغرق خمس دقائق على الأكثر، وضع إحدى قدميه فى الحجرة، وبصق على الأرض، وانحنى، ثم نهض على الفور، وقدم إلينا ثعبانا يبلغ طوله أربعة أقدام، وكان يمسك به من ذيله، ويسنده بعصاه . ولم يكن هذا كل شئ ، فقد قام بهذه الطقوس مرتين وأحضر ثعبانين آخرين من حجم صغير، وضعهما مع الثعبان الكبير فى السلة . وصرفنا الرجل، ودفعنا له ثمن المشهد الذى قدمه لنا . ونحن نعترف - برغم قلة ميلنا إلى تصديق ما حدث - بأن الخداع كان كاملا، وأننا منذ

ذلك الوقت، أصبحنا أكثر ميلا للاعتقاد فى وجود السحرة الذين عقدوا صلات مع الشيطان، حسب أفكار الأقباط الدينية .

ولعل من الممكن الاعتقاد بأن هذه العملية ليست سوى حيلة من حيل السحرة أو الحواة - وهو ما اعتقده كثيرون - لكننا كنا قد اتخذنا كل الاحتياطات الممكنة، التى لا يمكن معها خداعنا، بل ويمكننا أن نؤكد بأن الحاوى لا يخبئ مطلقا ثعابين فى ملبسه . وفضلا عن ذلك فقد أرغم البعض منا - كى نبذل كل شك - هؤلاء الرجال على أن يتجردوا من ملابسهم، ومع ذلك فقد حازوا نفس النجاح فى عملهم، ونستطيع أن نقدم على ذلك الكثير من الأدلة، لدرجة لا يمكن معها أن نتهم بعدم الكفاءة . لكن ذلك يعنى أن نتوقف طويلا حول هذا الأمر، ومع ذلك، فلكى نفسر بطريقة صحيحة وموضوعية وقائع خارجة عن المألوف مثل تلك الوقائع، فنحن نعتقد أن بالإمكان الافتراض بأن الحواة المصريين لديهم القدرة على أن يعطوا لأصواتهم نغمة قادرة على جذب الثعابين، بنفس الطريقة التى يستطيع بها الصياد أن ينغم صوته لكى يخدع فريسته التى يجذبها إلى شباكه . ويؤكد الأستاذ دى لاسبيد de Lacépède فى كتابه Histoire naturelle أن الثعابين عامة، تفرز رائحة قوية، وأن بعض الناس يفرزون بالمثل رائحة مسكية . ويذكر واقعة تؤيد ما ذهب إليه، يمكن أن نستنتج منها أن الرائحة تخدم الرفاعية عند اكتشاف الزواحف، بنفس القدر الذى يخدمهم صوتهم .

ويبدو أن هؤلاء الناس قد عرفوا تأثير اللعاب على هذه الحيوانات الخطرة، وكل العمليات التى يتبعونها توضح ذلك بجلاء، وتتفق كثيرا مع رأى جاليان Galien الذى يدعى أن اللعاب سام بالنسبة للعقارب والثعابين ، وقد شاهدنا كثيرا من العلامات التى تدعم ما ذهب إليه هذا الطبيب العالم . فالواحد من هؤلاء الحواة، يعرض أمام الناس ثعبانا ضخما، ويظل يهيج حتى يوشك الحيوان أن يعضه، وعندئذ يصق فى فمه فيتوقف غضب الثعبان على الفور، بل يظل بلا حراك تقريبا . وهذه التجارب التى تتكرر مرات كثيرة، وبنفس النجاح، لا تسمح

مطلقا بإثارة الشك حول مفعول اللعاب، إن لم يكن كسم للثعبان، فعلى الأقل كمخدر، وقد اتبع بعض أطباء الجيش نفس هذه الطرق مع العقارب، فحصلوا على نفس النتائج .

وأشهر الثعابين المصرية على الإطلاق هو بلا جدال ثعبان الصعيد، الذى يعرف باسم الشيخ هريدى . وقد تحدث كل من نوردن Norden وبروس Bruce وسافارى Savary عن هذا الثعبان الشهير، الذى رفعته سذاجة العامة واحتيال المشايخ المسلمين إلى مرتبة ولى من الدرجة الثانية. ويمكن أن نرجع هذا التقديس غير المؤلف، إلى أزمنة ضاربة فى القدم، حيث كانت شعوب مصر - كما يقول هيروdot واليان Elien - تولى للثعبان بشكل خاص، قدرا كبيرا من التقديس، فكانوا يتخذون منه رمزا للخصوبة . وقد تحدث دوبوى Dupuis عن تلك العبادات العالمية التى اتخذت الثعبان موضوعا لها ، وعن الدور الذى لعبته الثعابين فى كل الرموز العالمية التى أدت إلى نشأة العبادات المختلفة . لكن ما سوف يدهش عددا كبيرا من القراء بلا جدال ، هو أن يظل الثعبان هريدى، يلقي فى مصر، وتحت سيادة المبادئ الإسلامية، نفس المكانة التى كانت له فى الماضى عند عبدة إيزيس وأوزيريس، رمز الخصوبة، وأنه لا يختلف فى شئ ، لا فى الشكل ولا فى الطبيعة، عما وصفه اليان . وقد أخطأ هيروdot عندما خلط بين هذا الثعبان ، وبين الحية ذات القرون . وتأتى النساء العقيمات لزيارة الأماكن التى كانت مخصصة له، لكى يحصلن بفعل القرايين والأضحيات على نهاية لعقمهن ، كما تذهب إليه الفتيات ليسرن إليه برغباتهن فى أن يصبحن عما قريب زوجات وأمهات . وسوف نلزم الصمت عن كل الخدع المقززة للمشرفين على مزار هذا الثعبان - الإله، وكذلك عن المشاهد الشهوانية، التى هى نتيجة طبيعية لعبادة غريبة، بعيدة عن العقل لهذه الدرجة، ويكفي أن نقول بأن النساء بعد أن يذبحن أضحية عند باب المزار، يصعدن عند دخول الليل إلى قمة سلم يبلغ عدد سللماته ١٠ - ١٢ سلمة، وما أن يحل الظلام، حتى ينزلن بطريقة غامضة إلى داخل المزار ليقضين بقية الليل مع

شيخ . ومن نافلة القول، أن نذكر أن هؤلاء السيدات ينجحن فى معظم الأحيان فى تحقيق الهدف الذى قمن بهذه الزيارة من أجله .

ويحكى عن أصل اسم الشيخ هريدى ، أن شيخا بهذا الاسم كان معروفا بفضائله، قد ظهر من جديد - بعد موته - فى صورة شعبان، وهذه الخرافة التى يجد شيوخ البلاد مصلحتهم فى نشرها وتدعيمها، أصبحت طعما يسهل بلعه، وتلك هى نشأة كل الخرافات (١) .

(١) فى نهاية هذا المؤلف علينا أن نبدى عرفاننا إلى الأستاذ فورييه Fourier السكرتير الدائم للمعهد العلمى المصرى، للمجاملة التى أبداهما نحونا، عندما أمدنا بمذكراته عن مصر، والتى كانت مصدرا لكثير من أدق الأفكار . وكان مركز القومسيير الفرنسى عند ديوان القاهرة - وهو المنصب الذى كان يشغله أثناء الحملة - قد جعله على صلة يومية بكبار المشايخ ورجال الشريعة ، وأكثر أهل البلاد تنورا ونفوذا . كما أن المخطوطات التى تركها المرحوم الأستاذ جلوتيه Gloutier - عضو المعهد المصرى ، قسم الاقتصاد السياسى - لم تكن بأقل نفعا لنا ، فقد استطاع جلوتيه - بوصفه مديرا للمالية - أن يحصل على كل المعلومات الدقيقة . كما لا ينبغى أن نلزم الصمت إزاء الأفضال التى ندين بها للأستاذ جومار Jomard ، عضو المعهد، بخصوص كل المعلومات القيمة التى قدمها لنا، وللعناية الخاصة التى أبداهما بمراجعته هذا المؤلف .

كما أننى فى النهاية، أقدم بخالص شكرى، إلى السادة : باريسفال جرانميزون Parseval Granmaison ، ورويه Rouyer ، وبوديه Boudet ، ودالماس Dalmas ، الذين زودونى - بالمثل - بالمعلومات الهامة التى جمعوها فى ظروف مواتية .

كما أن الرحالة المدقق نيبور Niebuhr ، قد قدم ملاحظة بالغة الإثارة عن الرياضة والألعاب عند المصريين، وعن ملابسهم، وعندما حانت لنا فرصة مراجعة دقة هذه الملاحظات، أخذنا عنه الكثير وأدخلناه فى دراستنا هذه .

الكتاب الثاني

دراسات تكميلية

مذكرة مقدمة من السيو بانكوك
إلى سيمون وزير الداخلية بخصوص إعادة
طبع كتاب «وصف مصر» (*)

كانت مصر موضوعا لعدد ضخم من المؤلفات، كما وصفت من قبل مرات كثيرة، لكن أحدا لم يتمكن، حتى وقت قريب، من الحصول على معرفة تامة ودقيقة عن هذه المنطقة من العالم . كان ذلك فى الحقيقة يتطلب حدثا غير عادى، وظروفا مواتية لا يستطيع أن يهيئها إلا جيش منتصر، حتى تنهيا الوسائل اللازمة لدراسة مصر بالعبارة التى تليق بها . لقد كانت هذه البلاد، التى زارها أشهر فلاسفة الزمن القديم ، هى النبع الذى اعترف منه الإغريق، بل الرومان كذلك، بمبادئ القوانين والعلوم والفنون، ولم يك مسموحا للأجانب فى عهد الإغريق والرومان أن يتوغلوا فى هذه البلاد حتى يبلغوا معابدها، ولم تعد هذه المنشآت فيما بعد - بعد أن حاق بها الإهمال بفعل الثورات الدينية والسياسية المتوالية - أكثر منالا بالنسبة للرحالة الأوربيين منذ أن استقرت الديانة المحمدية هناك.

أما أن توصف وترسم الصروح القديمة التى يمكن القول بأنها كانت تغطى أرض مصر، وأن تجمع وتفحص كل منتجاتها الطبيعية، وأن توضع خرائط دقيقة ومفصلة عن هذه البلاد، وأن تجمع الشظايا القديمة (من أثارها)، وأن تدرس الأرض والطقس والجغرافية الطبيعية، وأخيرا أن يلم الناس بكل ما يتصل بتاريخ المجتمع، وتاريخ العلوم والفنون - فلقد كانت تلك هى غاية هذه المهمة التى تطلبت إسهام عدد كبير من الدارسين، كانت تحركهم جميعا نفس الغايات، وهذا العمل الذى ننشر منه اليوم طبعته الثانية ، هو الثمرة المشتركة لجهودهم.

(*) نشرت هذه المذكرة بدون أى عنوان . (المترجم) .

وما أن عاد إلى أرض الوطن هؤلاء العلماء والرياضيون والفلكيون والمهندسون وعلماء الطبيعة والمستشرقون ورجال الأدب، والمعماريون والرسميون، بعد أن تعرضوا - خلال ما يقرب من أربع سنوات - لكل أخطار هذه الحملة العسكرية الخالدة، وهم السادة: برتوليه Berthollet، مونج Monge، كونتيه Conté، كوستان Costaz، ديليل Delile، ديجينيت Desgenettes، ديفيليه Devilliers، فورييه Fourier، جيرار Girard، جولوا Jollois، لانكريه Lancret، جومار (١) Jomard، أندريوسى Andréossy، بلزاك Balzac، بليتست Belleteste، بيرتر Bertre، بوديه Boudet، كريستى Caristie، كاست Castex، سييل Cécile، دى شابرول de Chabrol، كورابوف Coraboeuf، دى كورانسى de Corancez، كورديه Cordier، كوتل Coutelle، دى لابورت de laporte، ديكوتيل Descotils، دى بوا ايميه Dubois-Aymé، دوشانوى Duchanoy، دوترتر Dutertre، فافيه Favier، فاي Faye، فيف Fève، جراتيان لوبير Gratien - Lepère، جيوفروى Geoffroy، جاكوتان Jacotin، جوبير Jaubert، لارى Larrey، ليسيسن Lecesne، لوجنتى Legentil، لنوار Lenoir، لوبير الأكبر Lepère ainé، لوبير المهندس المعماري Lepère architecte، مالو Malus، مارسيل Marcel، مارتان Martin، نورى Norry، نويه Nouet، بروتان Protain، رافينو Raffeneau، ريج Raige، ريدوتيه Redouté، روييه Rouyer، سان جيني Saint-Genis، صامويل Samuel Bernard، سافينيى Savigny، فيار Viard، فيوتو Villoteau، فانسان Vincent - ما أن عاد هؤلاء إلى أرض الوطن حتى أنفقوا سبعة عشر عاما فى إعداد وتصنيف المواد التى كانت قد تجمعت لديهم .. وإننا لنأسف لأننا لم نتمكن من أن نذكر هنا أسماء كل أولئك الذين سقطوا ضحية لحبهم للتضحية أو سقطوا بفعل الحرب أو الطقس.

(١) كل هؤلاء أعضاء فى اللجنة التنفيذية التى كان يرأسها المسيو برتوليه والتى يتولى سكرتاريتها جولوا، أما المسيو جومار قوميسيير الحكومة، فقد تولى إدارة وتنسيق العمل منذ وفاة المسيو لانكريه . وقد توفى عشرة من الباقين منذ عودتهم (من مصر حتى الآن) .

لقد حشدت فرنسا كل جهودها لفتح هذه البلاد، ولقد وظفت كذلك كل جهود الفنون من أجل وصفها، ولقد أكب عدد كبير من الخطاطين والرسامين ورجال الطباعة المهرة والميكانيكيين، وما يقرب من أربعمئة من الحفارين .. عملوا جميعا بمثابرة تدعو للإعجاب فى إقامة هذا الصرح (وصف مصر) ، الذى يجمع ما بين مجد فرنسا الحديثة وكل ذكريات مصر القديمة . إن هذا العمل المخصص لوصف الكثير من روائع المنجزات العملاقة، هو نفسه إنجاز عملاق فى مجالات الآداب والفنون والعلوم، ولقد تجاوز هذا الإنجاز العظيم الحدود المألوفة حتى الآن بالنسبة للمجموعات المحفورة (اللوحات) . فقد كان يلزم الورق قوالب وأشكال (فورمات) لم يسبق استعمالها، بل لقد تطلب الأمر أن نعث لها حتى على اسم جديد . إن مصانع أوروبا لم تصنع حتى اليوم أوراقا بهذا الحجم أو على هذه الدرجة من الجمال، بل لقد اصطنعت وسائل جيدة لتطوير فن النحت أسرع بتقدمه، كما أشرى فن الطباعة بطرق مستحدثة طورته .

وفى النهاية، وبعد الكثير من العناء والمثابرة، وبعد مجهودات من كل نوع شغلت أو نالت عناية أكثر من ألفى شخص كل عام فى فرنسا، وبعد أن أسهمت العديد من الفنون الهامة بالكثير، وبعد أن نفذت - بعناية ومثابرة - خطة لم يتناولها أى تغيير، بعد ذلك كله أتمت لجنة مصر Commission d'Egypte هذا المؤلف الضخم، الذى لا يمكن أن نجد ما يضارعه فى حوليات العلوم .

لقد كان بوسعنا أن نطلق عليه اسم «موسوعة مصر»، فهو يعرف بها تاريخا ومنشآت ومنتجات، وليس ثمة بلد يحوز وصفا بهذه الدرجة من التمام والكمال فى كل مناطقه، وليس هناك من سبيل فى أن نأمل أن تتوفر على الإطلاق مثل هذه الظروف المتألفة والإرادة القادرة على إنتاج سلسلة مماثلة من الإنجازات ، أو أن تقيم مثل هذا الصرح. إن فرنسا لتستحق - دون جدال - أن تكون موضوعا لوصف يتم بنفس هذا النسق .

ولقد أثار هذا العمل إعجاب كل أوروبا، لكن هذا الإعجاب كان بالأحرى ناتجا عن عواطف ود ارتباطت به، أكثر منه ناتجا عن معرفة حقيقية بمحتوياته. فلقد ظل شأنه شأن آلهة مصر، حبيسا داخل محراب الفنون، ولقد كان هذا العمل جديرا

بالأمة التي أنجبت المقاتلين والعلماء والفنانين الذين ندين لهم بهذا العمل، كما كان جديرا بالحكومة التي أمرت بإتمامه، لكنه مع ذلك ظل شبه مجهول من الفرنسيين أنفسهم . وكم تمنى الرسامون والمعماريون والعلماء ورجال الأدب أن يستمتعوا بهذا العمل الذي لا يمكن لأية إمكانيات فردية أن تحصل عليه، لكن الطلب يشتد عليه، وكان ينبغي له أن يحمل منذ زمن طويل إلى الأجنبي أمارات لا حصر لها على المجد الذي حازه الفرنسيون .

وحين نغض الطرف عن المبالغ الضخمة التي أنفقت على وضع هذا السفر، ونقتصر على حساب المصاريف الجديدة التي تتطلبها إعادة طبع تسعمائة لوحة، إلى جانب النصوص التي تكون هذا السفر، وإذا ما نشرناه في شكل أجزاء صغيرة، مقدمين بذلك تسهيلات طيبة للكثيرين من ذوى القدرة المحدودة، فلا بد أن نكون على ثقة من إمكانية انتشار هذا المؤلف ورواجه في كل أوروبا .

كانت تلك هي الدوافع التي عرضها المسيوس . ل . ف بانكوك C.L.F Panckoucke على صاحب السعادة وزير الداخلية الكونت سيميون Siméon . ونرفق فيما يلي إجابته، وكذلك الأمر الملكى الذى أجاز نشر هذه الطبعة الثانية .

سيدي ..

لقد وضعت تحت تصرف الملك اقتراحاتكم المتعلقة بإعادة طبع المؤلف الكبير الذى وضع عن مصر، وقد وقفت فى صف هذه الاقتراحات، وقد شاء جلالته أن يوافق عليها، وأرسل لكم هذه النسخة من المرسوم الصادر فى هذا الخصوص، وعليكم أن تتخذوا فيما يخصكم كل إجراءات التنفيذ .

إنها مهمة نبيلة، ولست أشك فى أنكم ستقومون بها، بطريقة تحقق الثقة التى وضعت فيكم .

سيميون

(توقيع)

مرسوم ملكي

لويس ، بحمد الله ، ملك فرنسا ونافار

إلى كل من سيطلع على هذه الأوراق :

حول تقرير وزيرنا سكرتير الدولة للشئون الداخلية، ومستشار دولتنا المختص،

أمرنا ونأمر بما يلي :

مادة أولى : يقبل الاقتراح المقدم من المسيو س . ل . ف . بانكوك بإعادة طبع «وصف مصر» ، والمرفوع إلينا من قبل وزير داخليتنا، ويلحق هذا الاقتراح بهذا المرسوم .

مادة ثانية : بالنسبة للحصيلة التي ستعود على الحكومة من عائد هذا العمل : توزع حصة (يحددها وزير الداخلية) على الذين ساهموا في الطبعة الكبيرة والتي تمت على نفقة الخزينة، ويخصص الباقي لتشجيع العلوم والفنون الجميلة وبخاصة فن الحفر .

مادة ثالثة : يكلف وزيرنا سكرتير الدولة للشئون الداخلية بتنفيذ هذا المرسوم .

صدر بقصر التويليرى فى ٢٣ يونية من عام الشكر ١٨٢٠ العام السادس والعشرين من عهدنا .

لويس

(توقيع)

الدراسة الأولى :

دراسات موجزة حول

البنية الجسدية للمصريين

البارون لارى

العنوان الأصلي للدراسة: «دراسة موجزة حول البنية الجسدية للمصريين
ولمختلف الأجناس التي تقطن مصر، وتليها بعض أفكار حول تحنيط
المومياءات» ، تأليف المسيو البارون لارى، دكتوراه فى الجراحة من باريس ..
ودكتوراه الطب من جامعة بينا، وعضو المجمع العلمى المصرى، وعضو العديد
من الاكاديميات، والجراح الأول فى حرس صاحب الجلالة الامبراطور الملك،
والمفتش العام بمصلحة صحة الجيوش، وأحد القادة الحاصلين على وسام
الشرف والفارس من طبقة التاج الحديدى .

كان من الضروري، فيما بدا لى، حتى أستطيع أن أميز الملامح الجسدية للمصريين الحقيقيين، عن ملامح بقية سكان مصر ، أن أبدأ بفحص مختلف هؤلاء السكان، فى صلاتهم الأساسية . ولكى أسترشد فى فحصى هذا بشئ من المنهج، فسوف أميز هؤلاء السكان، كما فعل رحالة فرنسى من قبل، فى أربع طبقات (أو أجناس) تشتمل على : الممالك، الأتراك أو التركمان، العرب، وأخيرا الأقباط .

لقد استقر الممالك فى مصر، وهم حكامها اليوم، عند حوالى القرن العاشر، وتنحدر سلالة هؤلاء من جبل القوقاز، وقد وصلوا إلى هذه البلاد بعد جولات قاموا بها فى سوريا . ويمكن لنا تمييز هؤلاء، الذين أشار إليهم مقاتلونا الصليبيون بالاسم الذى لا يزالون يحملونه حتى اليوم، عن بقية السكان الآخرين فى مصر بميزاتهم الجسمية وبطابعهم العسكرى العدوانى ، وهم جميعا ذوو قامة مديدة وبنية شديدة ، وتقاطيع خلقتهم جميلة متناسقة، ويتمتعون بوجه بيضوى ، وجمجمة ضخمة، وجبهة عريضة، وعيون واسعة نجلاء، وأنف مستقيم، أو أقنى بعض الشئ، وفم متوسط، وذقن ناتئة على نحو خفيف : أما شعرهم وجفونهم ورموشهم فسمراء داكنة أو كستنائية اللون، كما أن بشرتهم بيضاء فى غير لمعان. ولنسائهم – وهن قادمات من نفس البلاد – نفس الملامح، مع تغيرات كبيرة، ونجد من بينهن نسوة بارعات الجمال .

وتلفت رؤوس المسنين من هؤلاء الشرقيين النظر، إذ يضىفى نتوءها عليها روعة، يزيد منها جمال ملامح الوجه، ويباخر لحياتهم الأخاذ، والتي يتركونها تنمو حتى تلامس أسفل الصدر : ويعد مراد بك النموذج الأمثل لهذه البنية الجسدية الجميلة. أما طبع هؤلاء الممالك ففخور، جسور فى غير غلظة، وهم

يشتهرون بالكرم، وحسن وفادة الضيف. ولا يتزوج الواحد منهم إلا إذا بلغ مرتبة عالية، وفى النهاية، فإنهم جميعا متمرسون على فنون القتال، واعتقد من جانبى أن الناس محقون حين ينظرون إلى هؤلاء باعتبارهم الفرسان الأول فى العالم .

ويتكون الجنس التالى (من سكان مصر) من الأتراك أو التركمان، القادمين من تركيا أو من بلاد التركستان، وتقترب بنية هؤلاء من بنية الجورجيين أو الشراكسة المماليك الذين كنت أتحدث للتو عنهم، وإن كان لون بشرتهم يميل إلى سمرة برنزية ، كما أن وجههم أكثر تسطحيا، وجمجمتهم محدبة على نحو أكبر، وهى كذلك أكثر كروية، وعيونهم أكثر صفرا، ونظراتهم غامضة معتمة، وحاجبهم أسود حالك سواده، كما أن لحيتهم بالمثل سوداء . وطابع هؤلاء الترك أو التركمان أقل حيوية ، مع شئ من غلظة . ورجال هذا الجنس كثيرون بعض الشئ فى القاهرة، وهم يأترون بأوامر الباشا مباشرة، وتتكون الطبقة (الجنس) الثالثة من العرب، وهؤلاء يمكن لنا أن نقسمهم إلى ثلاثة فروع مختلفة : فرع العرب الشرقيين القادمين من حواف البحر الأحمر أو من الجزيرة العربية، والعرب الغربيين أو الأفارقة، وينتمى هؤلاء فى الأصل إلى موريتانيا أو سواحل أفريقيا، ثم أخيرا العربان البدو أو Scénites القادمين من الصحراوات .

وللأفراد من الفرع الأول - وهم الذين تحولوا إلى الأبد فى طبقة الفلاحين والصناع أو الحرفيين فى كل مصر السفلى - قامة فوق المتوسطة بقليل، وهم متينو البنية، جميلو الخلقة على نحو كاف، وبشرتهم جافة داكنة ، تكاد تكون سوداء ، ولهم وجه نحاسى بيضوى ، وجبهة عريضة ومحدودة ، وجفنان متباعدان أسودان، وعيون لها نفس اللون صغيرة ولامعة وغائرة، وأنف مستقيم متوسط

الحجم ، وفم مخروط فى شئ من الحسن ، وأسنان منتظمة حسنة القطع ، بيضاء كالعاج. ونلاحظ عند نسائهم اختلافات طيبة، ويعجب المرء فيهن - بصفة خاصة - محيط أطرافهن الرشيقة ، والتناسب المنتظم لأيديهن وأقدامهن، كما يعجب بما فى مشيتهن ووقفتهن من اعتداد .

ويشارك العرب الأفريقيون سابقهم فى مجمل شكل البنية الجسدية ، وكذلك فى لون العيون وحيويتها، لكن صلتهم بأبناء ساحل أفريقيا تتضح فى شكل الأنف والفك والشفاه، ويتمثل طبع هؤلاء مع طبع الأجناس الأخرى من العرب . وينتشر هذا النوع من العرب فى مصر العليا، وهم هناك يزرعون الأرض ويمارسون الحرف كالأولين .

وعادة ما ينقسم البدو أو العربان الرعاة إلى قبائل متناثرة على مشارف الأرض الخصيبة عند مداخل الصحراوات . وهم يقيمون تحت خيام يحملونها من مكان لآخر حسب الحاجة ، ولهم بعض صلات شبه بالآخرين ، وإن كانت عيونهم أقل بريقا فى العادة ، كما أن ملامح الوجه أقل وضوحا، وهيئتهم أكثر جمالا ، فى حين أن قامتهم أقل حجما، وهم أكثر خفة وأشد نحولا، ومع ذلك فهم أشداء متينو البنية، ذوو روح متوثبة، وطبع فخور. لكنهم حذرون جفولون، كما أنهم نفيعيون كتومون هائمون يضربون على غير هدى، وفضلا عن ذلك فسرعان ما يصبح الواحد منهم فارسا ماهرا، تمتدح مهارته فى استخدام السهام والحراب . وتقاليده وعادات هؤلاء العرب هى هى على وجه التقريب ، وهم يربون قطعان الضأن والجمال والخيول من صنف ثمين للغاية .

أما الطبقة الرابعة من سكان مصر، والتي كانت الموضوع الرئيسى لأبحاثى، فتتكون من الأقباط الذين يوجدون بأعداد كبيرة فى القاهرة ومصر العليا . وهؤلاء - دون شك - هم أنسال المصريين الحقيقيين والقدماء ، ولقد احتفظوا من هؤلاء بخلقتهم الجسدية ، ولهجتهم (كذا) وتقاليدهم وعاداتهم ، ويبدو أن أصولهم قد

التي كانت في عصور بالغة القدم . وقد كانوا يقطنون مصر العليا من قبل عصر
البرونز ، ويؤكد هيرودت أن المصريين من سلالة الأحباش
والأثيوبيين ، ويتفق كل المؤرخين في هذه النقطة مع هيرودت، وتدعوى الأبحاث
التي أجريت بها في هذا المجال إلى تبني هذا الرأي .

وتعرب بشرة الأقباط إلى الصفرة وإلى العتمة مثل الأحباش، ووجههم ممتلئ
في شمس انتفاخ، وعيونهم جميلة ، لوزية الشكل، ذات نظرات ذابلة واهنة، أما
الأنف، ففاتنة ، ويكاد يكون الأنف مستقيما ، مستديرا عند قمته، لكن المنحارين
والأسنان ، والفم متوسط، والشفاه غليظة ، والأسنان بيضاء منتظمة ، وإن تكن ناتئة
بشيء الشيء، ولحيتهم وشعر رأسهم أسود جعد، والنسوة نفس الملامح مع
المتغيرات تأتي لصالحهن . ويبرهن كل ذلك - وهو عكس ما رآه فولني Volney -
على أن هؤلاء القوم لا ينحدرون مطلقا من جنس الزنوج في أواسط أفريقيا، إذ
ليس ثمة أي نوع من التشابه بين هؤلاء الأخيرين وبين الأقباط، وفي الواقع فإن
الزنج الأفريقيين أسنانا أكبر حجما وأكثر بروزا، كما أن تجويفهم الصدري أكثر
انفتاحا وأكثر تحديدا، وشفاهم المدلاة أكثر غلظة، كما أن خدودهم أصغر،
وعيونهم كابية على نحو أكبر، كما أنها أكثر استدارة، ولشعرهم شكل الزغب أو
السوف . أما الحبشي فعلى العكس من ذلك عينا، واسعتان، ونظرته مريحة،
والزوايا صمدية تنحني نحوه، ووجنتاه أكثر نتوءا، وتشكل خدوده مع الزوايا المحددة
الفم مثلثا أكثر انتظاما ، والشفاه غليظة حقا لكنها غير مدلاة مثلما عند
الزنج، وكما سبق لي القول فإن الأسنان جميلة وأقل نتوءا، أما تجويف الصدر
فأقل اتساعا ، وفي النهاية فإن بشرة الأحباش نحاسية اللون .

وبكل هذه الملامح تلاحظ مع فروق لا تكاد تحس بها لدى الأقباط، أو المصريين
الحقيقيين، وتجد نفس هذه الملامح مرة أخرى في رؤوس التماثيل القديمة وبخاصة
تلك التي من أبي الهول . ولكي أتأكد من هذه الظواهر قمت بتجميع عدد محدود من
البرونز من مقابر عديدة للأقباط ، كان لا مفر من إزالتها لمقتضيات المصلحة

العامّة، ثم قارنتها بغيرها من جماجم الأجناس الأخرى، التي جمعت منها بالآلاف مجموعات كبيرة (١)، وبخاصّة جماجم لأحباش وأثيوبيين حصلت عليها أثناء الحملة، الطريقة، وقد اقتنعت بأن هذين النوعين من الجماجم يمثلان نفس الخلقة على الرغم من التقريب .

ولقد مكنتني الزيارة التي قمت بها إلى أهرام سقارة من وضع سمج لي، أن أنقب عن عدد كبير لحد كاف من المومياوات، قدمت لي جماجمها نفس الملامح التي قدمتها الجماجم الأولى، مثل نتوءات الوجنت، وأقواسها، والشكل العام للفتحات الأنفية، والبروز القليل لأقواس الصدر.

وتبدو مختلف الموازنات التي انتهت من إقامتها، وكذا العلاقات التي وجدت على الدوام، والتي لا تزال موجودة حتى اليوم، بين الأحباش وبين الأقباص والتوافق بين تقاليد وعادات هؤلاء وأولئك، بل وديانتهم، كل ذلك يبدو كافيا لي يبرهن على أن المصريين إنما ينحدرون حقيقة من الأحباش والأثيوبيين. وزياد على ذلك، فمن الطبيعي أن نتخيل أن الأثيوبيين قد اتبعوا مجرى النيل منذ الأزل إلى الأولى، وأنهم كانوا يتوقفون أولا بأول في البلاد التي يخصبها هذا النهر، لكن هذه الإقامة كانت على التوالي، وهكذا فقد انتشر هذا الشعب بالتتابع من القاهرة إلى طيبة إلى ممفيس إلى هليوبوليس، أما المدن الأخرى شمال هذه المدن، فإنها تتكون إلا بعد ذلك بوقت طويل .

وقد لاحظت كذلك ثلاثة أنواع من المومياوات، تنتمي - فيما بدا لي - إلى ثلاث طبقات من المواطنين، بل ربما إلى ثلاثة أجيال مختلفة . فمومياوات من العلية في العادة أكثر جمالا، وتلقى عناية أكبر من مومياوات مصر السفلى، أما

(١) حيث أتى الطاعون على الأشخاص الذين تركتهم بمنزلي في القاهرة أثناء سفرنا إلى الإسكندرية، وحيث غادر الجيش هذه المدينة ليعود رأسا إلى فرنسا، فإنني لم أستطع إنقاذ هذه المجموعات كما لم أتمكن من إنقاذ أبحاثي .

المومياوات التى أضعها فى الصف الأول فمتماسكة متينة، مطلية بالقار، ومحنطة بنفس المادة، وتحاط بأشرطة من قماش الكتان، مشكلة عددا من ضمادات الجراحة والتشريح مساويا لعدد أجزاء جسم الإنسان . وهى مغلفة بغلاف كرتونى، تنتشر عليه الكتابات الهيروغليفية .

ويضم كل هذه الأجزاء صندوق من خشب الجميز، رسمت على غطاءه صورة الشخص (المتوفى) .

وكما قال هيرودت ، فيبدو أنه بعد أن كانت تفرغ التجاويف الثلاثة الرئيسية للجسم، كانت هذه التجاويف تملأ بالقار، كذلك كانت تحقق به الأطراف ، وكل الأجزاء الخارجية . وحين تكون هذه المادة فى كامل انصهارها فإنها تنفذ داخل هذه الأجزاء بعمق ، لحد تتشربها معه عظام هذه الأجساد ، حتى أنها استطاعت – ولا تزال تستطيع – البقاء بالمثل لوقت أطول، ما دامت توجد فى طقس تندر فيه الأمطار، وحيث تظل الأماكن التى أودعت بها شديدة الجفاف، محرومة من التهوية. وبعد انتزاع أغلفة المومياوات، نجدنا نتعرف أولا على جنس صاحب المومياء وملامحه الرئيسية ، ونجد أن وجه وأيدى وأقدام بعضها مغطاة بأوراق من الذهب ثبتت فوقها بشكل فنى حاذق، وتحت ذراعى أو فى داخل جسم هذه المومياوات وجدنا هذه الكتابات النادرة التى عرفت باسم البرديات ، والتى لا تزال حروفها مجهولة بالنسبة لنا حتى اليوم . وتحمل كل واحدة من هذه المومياوات، بالإضافة إلى ذلك، كل شواهد الحرفة أو المهنة التى كان يمارسها صاحبها فى حياته، وتحفظ أنيته معه فى التابوت . ويخصص هذا النوع من التحنيط لكبار المواطنين فى الدولة، وكان يتطلب استعدادات طويلة وشاقة، كما كان يتطلب توفير الكثير من العناصر المقيمة ، مما كانت تجعله ولا بد بالغ التكلفة .

وكانت الطبقة الثانية من المومياوات أقل جمالا وأقل تماما، وكانت ضماداتها من قماش أقل نعومة، ومثبتة بدرجة أقل من الفن، ولم تكن لهذه المومياوات أغلفة

كرتونية . أما التابوت المصنوع من خشب الجميز، والذي كان يحويها، فكان مصنوعاً بشئ من الخشونة، كما لم يكن مزداناً بالرسوم شأنه شأن النوع الأول .

وكان أفراد الطبقة الثالثة يحنطون بمصاريف أقل، وتختلف أساليب تحنيط هؤلاء لغير ما حد، وقد أعدت كل المومياوات من هذه الطبقة بالحقن بمواد ملحية، تتفاوت درجة قابليتها للذوبان، وكانت توضع داخل تجاويف الجسم ، مثل محلول النطرون أو الملح البحري . وبعد أن كانت تملح الأجساد جيداً على هذا النحو، كانت تترك لتجف في الشمس، أو كانت تعرض لتأثير النار حتى تبلغ درجة اليبوسة التامة، ثم توضع بعد ذلك في صناديق من خشب الجميز ، خرطت بشكل خشن .

وكانت كل هذه العمليات تتم دون جدال تحت إشراف رجال متبحرين في علم التشريح .

* * *

لكي تكتمل هذه المذكرة الموجزة، سوف نضيف إليها ملخصاً مركزاً حول الطريقة التي حفظنا بواسطتها في أوربا أجساد بعض مقاتلينا الذين ماتوا في ميدان الشرف .

إذا كان الشخص (الحالة) الذي ينبغي أن يحنط جسمه قد مات نتيجة مرض مزمن، مع هزال، شريطة ألا يشك مطلقاً في وجود ترسبات قيحية في الأحشاء، وألا يكون التحلل أو التعفن قد بدأ، وأن يكون الجسم سليماً من الظاهر، فإن من الممكن حفظ الأحشاء في تجاويفها الخاصة (بالجسم) فيما عدا المخ الذي ينبغي على الدوام إخراجه .

وفي هذه الحالة نبدأ بغسل كل أجزاء الجسم بالمياه النقية والطازجة، ونمرر بالأمعاء الغليظة غسولاً من نفس السائل ، ونمتص بحقنة خالية الأشياء الذائبة التي لن يكون بالإمكان خروجها إما بسبب ثقلها الخاص، وإما بسبب الضغط الذي نمارسه أسفل البطن، كذلك فإننا نمتص المواد التي تحويها المعدة بنفس الوسيلة،

وقد يكفى أن نعد مسبارا بلعوميا عند شجاج (مشعب) الحقنة التى ندخلها إلى هذه الأجزاء الداخلية عن طريق الفم أو عن طريق فتحة نحدثها فى البلعوم من الجهة اليسرى للرقبة . وبعد ذلك نملأ المعدة والأحشاء بمادة قارية توضع منصهرة، وتغلق الفتحات، ثم نفعل نفس الشئ عند حقن العروق. ومن أجل ذلك تمزق شريحة من الجزء الداخلى والجانبى على يسار الصدر ، تجاه أخمص الأورطى، ويقطع واحد أو اثنان من الغضاريف التى تغطيه، ويوضع بداخل هذا الشريان ثجاجٌ ذو صنبور، ندفع عن طريقه حقنا دقيقا ملونا بالأحمر، لملء الأوعية الشعرية لكل النظام الغشائى، وبعد ذلك مباشرة وبنفس الطريقة، نقوم بحقن ثان، وبدفعة أكبر، لكى نملأ الشرايين والعروق التى ترفد عنها، ثم بحقن ثالث بالنسبة للأوردة، وينبغى أن يمرر هذا الحقن عن طريق أحد أوردة الفخذ، ثم نترك الجثة لتبرد ولتتخذ مادة الحقن . ولكى تخلق الجمجمة يثبت بها تاج واسع بواسطة مثقب للعظام عند زاوية اتحاد الدرز (*) السهمى بالدرز القذالى (أى درز القفا)، بعد أن نكون قد صنعنا حزا طويلا بالجلد دون مساس بالشعر، الذى نعنى بالاحتفاظ به، شأنه فى ذلك شأن زغب وشعر بقية الجسم . وعندما تتم هذه الفتحة، نقوم بقطع التحامات وطوايا الأم الجافية (***) بواسطة مبضع طويل وضيق، ذى قاطعين ، وتنزع مزق هذا العرق بواسطة خطاف متثلثم (غير حاد ولا قاطع) ، ثم نخرج كل كتلة المخ والمخيخ بنفس هذه الأداة . وعن طريق حقنات بالماء البارد، نذيب على وجه السرعة كل ما تبقى من المادة المخية، وبعد ذلك تضم حداف فتحة الأغشية مع بعض نقاط الدرز .

أما إذا كان الشخص (الحالة) سميئا فى كثير أو قليل، وإذا كان قد مات بمرض عفن أو خبيث، وخلال فصل حار، فقد يكون من المستحيل حماية الأحشاء

(*) الدرز هو خياطة حافتي الجرح، وهو كذلك خط الالتحام أو الانفصال . (المترجم) .

(**) الأم الجافية هى الغشاء المغلف للدماغ والحبل الشوكى . (المترجم) .

من التعفن . وفى هذه الحالة، نستخرجها بواسطة حز هلالى، يتم فى الجنب الأيمن عند المنطقة القطنية (الحقوية)، وتفصل أولا الأمعاء والمعدة والكبد والطحال والكليتان، ثم يقطع الحجاب الحاجز بشكل دائرى ، ثم المنصف (*) والقصبه الهوائية والبلعوم عند دخوله إلى الصدر، وبعد ذلك تنزع الرئتان والقلب دون إتلاف العضو الأخير، الذى ينبغى أن يجهز بشكل منفصل وأن يحفظ بعناية. ولا بد أن يجفف هذان التجويفان بالأسفنج، ثم نضع كمية معينة من موريات الزئبق المشبع بالأكسجين المحولة إلى مسحوق، على المناطق اللحمية من جدرانهما، وبعد ذلك يملأ هذان التجويفان بالوبر المغسول والمجفف، ثم يعاد شكل البطن إلى حالته الطبيعية، وتثبت حافتا الحز عن طريق خياطة ذات نقاط حددت سلفا . وبعد إعداد الجسم على هذا النحو، يغمس فى كمية كافية من محلول موريات الزئبق المشبع بالأكسجين على أقوى درجة من التركيز يمكن الحصول عليها . وتترك الجثة مغمورة داخل هذا السائل لمدة تسعين أو مائة يوم، وبعد أن تتشبع جيدا بهذا المحلول، توضع فوق غرابال، وتتعرض لتأثير متزايد لقرن تصدر عنه حرارة ، ومقام فى مكان جاف ومعرض للهواء . وبمجرد أن تجف هذه الأجزاء تدريجيا، يثبت من جديد الشكل الطبيعى لملامح الوجه ، وكذلك الوضع الطبيعى للأطراف ، وتأخذ الهيئة المناسبة، وتثبت عينان من الميناء بين بؤبؤ العين التى سحبت إلى الداخل وبين الجفون، ويعطى للشعر صبغة تتناسب مع لونه الطبيعى إذا ما وجدنا ذلك ضروريا ، ثم نمر على كل الجسم ببرنيق (طلاء لامع) ، خفيف اللون ، كى يعطى حيوية لصبغة الجلد، وكى يحفظ له مظهرها من الطزاجة، وأخيرا يوضع الجسد داخل صندوق زجاجى ليعرض على الجمهور، أو يدفن داخل تابوت .

وهكذا نستطيع أن نخلد لآلاف السنين، أجساد الأبطال أوجال الدولة العظماء .

(*) المنصف هو الحيز الذى يشتمل على القلب وكل ما فى الصدر عدا الرئتين (المترجم) .

الدراسة الثانية

مصر .. والحملة الفرنسية

مقدمة تاريخية

بقلم المسيو فورييه

تشغل مصر - بموقعها بين أفريقيا وآسيا، وبتصالها الميسور بأوروبا - قلب العالم القديم، لكن هذه البلاد اليوم لاتقدم سوى ذكريات مجيدة، فهي وطن الفنون، وهي التي ما فتئت تحتفظ لهذه الفنون بصروح لا تحصى، ولا تزال قائمة حتى اليوم أهم معابدها، وكذا القصور التي سكنها ملوكها، على الرغم من أن أحدث هذه الصروح قد شيد قبل حرب طروادة. ولقد ذهب إلى مصر كل من هوميروس وليكوج، ودرس فيها سولون وفيثاغورث وأفلاطون العلوم والدين والقانون، وأسس الاسكندر هناك مدينة بالغة الثراء حظيت لوقت طويل بالسيطرة على عالم التجارة، وشاهدت بومبي وقيصر ومارك انطونيو وأغسطس يقررون فيما بينهم قدر روما وأقدار العالم بأسره. ومن خاصية هذه البلاد أنها تسترعى الانتباه بكل المبادئ الباهرة والمتألقة التي تنظم أقدار الأمم.

لم تنشأ في الغرب أو في آسيا أية قوة كبرى لم ترن ببصرها نحو مصر، أو لم تنظر إليها باعتبارها - على نحو ما - إقطاعية طبيعية بالنسبة لها، كما أن كل الأحداث الكبرى التي كان لها تأثيرها على تقاليد وتجارة وسياسة الامبراطوريات قد صحبت معها الحروب إلى ضفاف النيل، ويمكننا أن نلاحظ أن الفرس والمقدونيين والرومان والعرب والعثمانيين قد استقروا بمصر بمجرد أن تفوقوا على الشعوب التي كانت معاصرة لهم.

وفيما مضى، أوصى الدين إلى ملوكنا بالرغبة في الاستيلاء على مصر. وقد بذل العديد من الأمراء الصليبيين، وكذلك البابا انوسان الثالث Innocent^(*) وهو

(*) تولى البابوية من ١١٩٨ إلى ١٢١٦، وقد خاض صراعا ضد فيليب اغسطس، واتخذ المبادرة في قيام الحرب الصليبية الرابعة، كما حارب مذهب الـ Cotharés الذي انتشر في جنوب فرنسا حتى قضى عليه عام ١٢٠٩. (المترجم).

الرجل الذى حكمت مواهبه كل أوربا ، كل جهودهم لتحقيق هذا المشروع . وقد جدد هذا المشروع واحد من الوزراء الذين يعرفون أكثر من غيرهم المصالح المختلفة للبول المسيحية ، هو الكاردينال هيمينيس ^(*) Himenès ، وتحالف لهذا الغرض مع كل من فرديناند الكاثوليكي ، وإيمانويل ، وهنرى السابع ، وهم الذين تميزت جهودهم بالحكمة وذيوع الصيت . أما ليبنتز Leibnitz الشهير ، والذى لم يخلق إلا من أجل المهام الكبرى فقد شغله هذا المشروع لزمان طويل ، وقد وجه إلى لويس الرابع عشر مؤلفا ضافيا ، ظل مخطوطا ، عرض فيه المكاسب التى تتحقق من وراء هذا الغزو ^(**) .

وقد كتب بوسويه Boussuet فى نفس الفترة عن التاريخ الطبيعى ، وبعد أن أعاد إلى الأذهان عظمة مصر ، وروعة الأنظمة والمؤسسات التى نشأت بها ، أضاف هذه العبارة اللافتة للنظر : «والآن ، حيث يقتحم اسم الملك أشد مناطق العالم غموضا ، وحيث ييسط هذا الحاكم إلى نفس المدى البعيد تلك الأبحاث التى أمر بإجرائها عن المؤلفات الرائعة التى تدور حول طبيعة الفن ، ألن يكون أمرا جديرا بهذا الفضول النبيل أن نكتشف ضروب الجمال التى يضمها الصعيد فى صحراواته ، وأن نثرى فن العمارة عندنا بما سبق أن أنجزته فى هذا المضمار مصر؟ » . ولقد تحققت أمنية هذا الرجل اللامع خلال فترة من حرب خالدة ، أصبحت مصر على الفور مسرحا لها .

^(*) كاردينال أسباني ولد عام ١٤٣٦ ومات ١٥١٧ ، وكان رجل دولة كبير ، لكنه أسال الكثير من الدماء . (المترجم) .

^(**) هكذا يفصح السيد المؤلف عن روحه ونواياه منذ البداية ، ولابد أن نضع هذا فى اعتبارنا على الدوام ونحن نقرأ باهتمام هذه المقدمة بوصف مصر . فما يقوله الآن يفسر الكثير من آرائه الغريبة ، ويبرر الكثير من التناقضات الصارخة التى وقع فيها وبخاصة عندما يتحدث عن العرب والإسلام ، و التى تبلغ أحيانا حد الاستهانة بالعقول ، ولدرجة تثير من السخرية والإشفاق أكثر مما تثير من جدل جاد لا تستحقه فى الواقع ، فى الوقت الذى تظل فيه تفسر لنا الكثير من النوايا ، مما لايزال موجودا ربما حتى اليوم . (المترجم) .

إن الناس - ولابد- يتذكرون ذلك الانطباع الذى أحدثه فى أوروبا هذا الخبر المدهش عن قيام حملة فرنسية تتجه إلى الشرق، فلقد أُعدَّ هذا المشروع الذى أنعم فيه الفرنسيون النظر طويلا وفى صمت، بكثير من العناية والسرية ، حتى أن يقظة أعدائنا التى لاتغفو قد خدعت، لقد عرف هؤلاء فى وقت واحد تقريبا أنه قد ووفق على هذا المشروع، وأنه قد أُعد ونفذ. ولقد بررته ضرورة تأمين تجارتنا من المظالم التى لم يكن يكف البكوات (المماليك) عن ممارستها ضدها، ولقد خامرنا الأمل فى تصالح يتم مع البلاط العثمانى ، عندما نقدم له - نتيجة لحملتنا هذه نفسها - زيادة فى الدخل وتعاضما فى النفوذ . ومهما تكن الصعوبات التى بدت فى هذه المفاوضات، فقد كان من الممكن أن نأمل فى مخرج سار ، مادام نجاحنا هناك كان موافيا للغاية للصالح المشترك للدولتين الحليقتين (تركيا وفرنسا) . وفى الواقع فإن معاونة قوة أوربية (فرنسا) عندما تستقر فى مصر، كانت تعاوننا على تغيير الحالة فى مصر بطريقة شبيهة فجائية^(*).

إن هذه البلاد التى نقلت معارفها إلى كثير من الأمم، هى اليوم غارقة فى الهمجية، وبقدر ما تتال هذه البلاد اهتمامنا المتزايد - بفضل موقعها الجغرافى، وبفضل خصوبة أرضها البالغة - بقدر ما تكون مأساة بالنسبة لها المكاسب التى تحققها لها القوانين والفنون . وحين كانت تزود عنها فيما مضى قوى عسكرية عديدة، تتكون من محاربىها الخاصين بها، كانت مصر منيعة مهيبة من الأمم المجاورة، لكنها فقدت منذ زمان طويل - مع فقدانها لأنظمتها ومؤسساتها - استقلالها ومعارفها، بل إنها لم تعد بقادرة على أن تذكر بعظمتها الأولى. ولقد ظلت على الدوام منذ هذه الفترة خاضعة لقوة أجنبية، وأخذت كل الثورات التى هزت أوروبا وآسيا تزودها بسادة جدد، وتنتقل بشعبها إلى أقصى درجات المذلة والشقاء.

(*) يقصد أن فرنسا لو أنها كانت قد استقرت فى مصر لعاونت على دعم سلطة الباب العالى هناك ، لأنها كانت ستحطم نفوذ المماليك وتضع حدا لخروجهم على السلطان . (المترجم) .

كانت مصر، فى عهد ملوكها الأول، تطيع وتستجيب لمبادئ وأخلاقيات ثابتة لا تحول، وكان ثمة حكومة مثابرة تسهر على رعاية القوانين والعادات والتقاليد، كان كل شئ يوحى بالحرص على المستقبل ويدعو إلى الشروع فى أعمال يكتب لها الخلود، وهذه هى اليوم تنن تحت أشد السلطات استبدادا فى العالم، بل وأكثر القوى الموجودة على ظهر الأرض انعداما للبصيرة، كما لو كان قد قدر على هذه البلاد أن تمر بأشد الأحوال التى عرفها المجتمع الإنسانى تناقضا، لقد نقلت الحضارة إلى كولشييد القديمة^(*) إذا لم يكن تاريخ العصور القديمة يخدعنا، لكن نفس هذه المنطقة تبعث إليها اليوم بحكام بشعيين نسوا عائلاتهم وأوطانهم، ويلفظون ذرياتهم، ويعيشون وسط عبيد (مماليك) جاحدين متمردين لا يمكن لهم احتواؤهم، وحيث إنهم عارون عن الحيلة وعن نور المعرفة، فلن يقدر لهم مطلقا أن يعرفوا كيف يثبتون سلطتهم وكيف يسارعون إلى التمتع بها، فهم يقمعون كل صناعة، ويهملون أو يخربون الترع والمنشآت العامة، وها هى الرمال تغزو الأراضى الصالحة للزراعة، كما أن القرى تعيش تحت وطأة تهديد عصابات السلب القادمة من الصحراوات، لقد حكم على الإنسان فى ريف مصر أن يقوم بعمل جاحد لا يمكن أن يجنى منه - هو - ثماره، كما أن الإنسان فى كل مكان من أرض مصر، إنما هو فريسة للظلم والمهانة والمجاعة والأمراض المعدية.

وقد يكون من المستطاع إصلاح حال الشعب، لو أن سلطة حكامه أصبحت ثابتة ووراثية، لكن السياسة العثمانية تتفادى مثل هذا الإصلاح، إذ هى تثير فى هؤلاء الأجانب عداوات وخصومات تضعف من قدرتهم هم، وتجعلهم شتى متفرقين، لا يحوزون الوسائل التى تجعلهم يلحون فى الحصول على استقلال تام: كما أنها فى نفس الوقت تقف ضد القوة العسكرية الطموح، التى للباشوات، ووسط هذه القلاقل تظل غائبة على الدوام سلطة الحاكم (السلطان)، أو أنها لا

(*) مدينة تقع إلى جنوب القوقاز، ذهب إليها أبطال أرجوس للحصول على جزات من الذهب.
(المترجم)

تثبت وجودها إلا فى شق صفوف مغتصبى حكم مصر، فلا هى قادرة على تأمين إرسال الضرائب، ولا على حماية الشعوب، ولا على ضمان تنفيذ المعاهدات التى تبرمها مع القوى المتحالفة معها . وهذه الظروف الأخيرة بوجه خاص هى التى جعلت هذه الحملة الخالدة من قبل الفرنسيين أمرا لا بد منه، ومع ذلك، فإن ذلك الذى قاد هذه الحملة لم يقصر أغراضه فقط على عقاب الذين أعاقوا تجارتنا، بل إنه أعطى لمشروع هذا الغزو سموا وعظمة جديديتين، كما طبعه بطابع عبقريته الخاصة. لقد قدر منذ البداية ما سيكون لهذا الحدث بالضرورة من سطوة على علاقات أوروبا مع الشرق ومع أواسط أفريقيا، وعلى الملاحة فى البحر المتوسط ، بل وكذلك على أقدار آسيا . ولقد اتخذت الحملة لنفسها هدفا، هو تأديب الممالك والحد من طغيانهم، والتوسع فى مشروعات الرى والزراعة، وأن تحقق اتصالا دائما بين البحر الأبيض والخليج العربى (البحر الأحمر)، وأن تقيم مؤسسات تجارية وأن تقدم إلى الشرق المثال النافع الذى للصناعة الأوروبية، وأخيرا أن تجعل ظروف وحياة السكان أحسن حالا، وأن تدمهم بكل المزايا التى أنتجتها حضارة متطورة .

ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الغاية دون تطبيق مستمر ودائم للعلوم والفنون. وقرر قائد هذه الحملة الفرنسية - سعيًا وراء تحقيق ذلك - أن ينشئ فى مصر مؤسسة تسعى إلى نهوض وتقدم كل المعارف النافعة، وحدد - وهو لا يزال بعد فى عاصمة فرنسا - كل أولئك الذين ينبغى عليهم الإسهام فى تحقيق أغراضه، ودعم - عن طريق ما أبداه من أمارات الرعاية والترحيب - هذا الحلف غير المعتاد بين الأسلحة وبين العلم . وقد عهد بإنشاء هذه المؤسسة الجديدة إلى عضوين شهيرين^(*) من الأكاديمية السابقة للعلوم، وكانا منذ وقت طويل قد شرفا وخرما وطنهما باكتشافاتهما المدوية، كما كانت أعمالهما وعبقريتهما قد ساهمت فى إعطاء الأمة الفرنسية تفوقا مجيدا فى علوم الهندسة والطبيعات.

(*) يشير المؤلف إلى العالمين : مونج وبرتوليه. (المترجم) .

ولقد أخذت أكاديمية القاهرة (أى المجمع العلمى) على عاتقها - مثلها مثل أكاديميات أوروبا - أن تستزرع العلوم والفنون وأن تطورها وأن تبحث فى كل تطبيقاتها النافعة، وكان عليها بصفة أساسية أن تسعى للتعرف على احتياجات ومصالح مصر وكذا الوسائل الكفيلة بالحصول عليها، لذلك فقد كان من الضرورى بالنسبة لها أن تتفحص بكثير من العناية تلك البلاد التى ستصبح خاضعة لإدارة جديدة: تلك كانت الدوافع التى حملت على القيام بالأبحاث التى ننشر اليوم نتائجها.

ومع ذلك فقد كان الحرص على الفنون الجميلة والأدب يقتضى منا كذلك وصفا مخلصا وتاما للصروح التى تزدان بها، منذ قرون، ضفاف وادى النيل، تلك التى تجعل من هذه البلاد أغنى متاحف الدنيا . ولقد قام علماءنا بأخذ مقاسات كل أجزاء هذه المنشآت بدقة صارمة، وألحقوا بالتصميمات المعمارية خرائط للأماكن التى كانت تقوم عليها المدن القديمة، كما قدموا فى رسوم خاصة النقوش الدينية والفلكية والتاريخية التى تزين جدران هذه الصروح، وبالإضافة إلى الدراسات والرسوم التى من شأنها أن تعرفنا بالحالة القديمة لمصر، فلقد جُمع أولئك الذين كان عليهم أن يقدموا لوحة عن حالتها الراهنة، وأنشئ عدد كبير من الخرائط الجغرافية التى تحدد - بطريقة دقيقة ومفصلة - مواقع السواحل والموانئ، ومواقع المدن الحالية والمدن القديمة والقرى والكفور، وكذلك مواقع النقاط الهامة الأخرى، ومجرى النيل ابتداء من شلال أسوان حتى البحر المتوسط، وقد تأسس هذا العمل على ملاحظات فلكية . وأخيرا فقد أكتب العلماء على فحص كل المنتجات الطبيعية أو على الأقل، على فحص الظواهر بالغة الأهمية، أو غير المعروفة لنا من الحيوان والنبات والمعادن.

وقد ضمت نتائج هذه الأبحاث المختلفة حول التاريخ الطبيعى وجغرافية مصر، وحول عصورها القديمة، وحالتها الراهنة، فى مؤلف واحد، إذن فلقد كان الهدف من هذه الموسوعة - التى سيعمل سخاء حكومة فرنسا على إمتاع أوروبا بها - هو

أن تقدم معرفة دقيقة ومتعمقة عن مصر، فتضع بذلك العناصر الحقيقية التي تنهض عليها دراسة طبيعية وأدبية وسياسية لواحدة من أهم مناطق المعمورة وأكثرها جذبا للانتباه.

لقد تمتعت مصر - خلال سلسلة طويلة من القرون - بحكومات قوية ومتنوعة، وكانت كل القوانين والعادات العامة والتقاليد الأسرية والأخلاقية تسهم كلها في نفس الغاية، إذ إنها تأسست على معرفة بتقاليد الإنسان، وعلى مبادئ راسخة للنظام والعدالة، نقشت في كل القلوب.

أما الدين، الذي كان متوحدا مع دراسة الظواهر الطبيعية، فقد كان عقليا وطبيعيا في وقت معا، وفي حين كان يكشف لبعض العقول الحكيمة عن المبادئ المجردة للأخلاق، فقد كان يقدم هذه المبادئ إلى الجميع في أشكالها المحسوسة، لقد كان ينظم الأحداث والأفكار، ويحتوى الناس في حزم، ويعير المؤسسات المدنية دعما من سلطة مستقرة.

كانت الحكومة ملكية، وتنهض على قوانين عريقة ومقدسة، ولقد حول القوم الأمثلة التي تقدمها المبادئ بالغة الحكمة إلى عادات لا سبيل إلى تغييرها.

وكان المصريون يقدسون بصفة خاصة فضيلة العرفان باعتبارها منبع كل الفضائل العامة والخاصة، وباعتبارها كذلك أكثر الميول الطبيعية عدالة ونفعا، وكانوا يجاهدون في تخليد ذكرى أجدادهم عن طريق إقامة صروح رائعة تقاوم الفناء، أما الروح الأسرية فقد مضت إلى أبعد حد، ويمكن القول بأنها قد جعلت من كل الأجيال أجيالا معاصرة. وكانت تتقى مخاطر البطالة والفراغ عن طريق إقامة الاحتفالات والأعياد، وكذلك عن طريق القيام بأعمال ضخام تستهدف الصالح العام. وكانت الزراعة مزدهرة، كما كانت الفنون المتطورة تحبذ جهود الصناعة، وكان العدد الأكبر من الناس يراعون - بدافع ديني - مبادئ الصحة العامة، التي اهتموا إليها بفعل خبرة طويلة.

أما عبقرية الفنون الجميلة فقد خطت خطوات أوسع من ذلك بكثير، لكنها كانت تخضع لقواعد ثابتة، وكان للعمارة طابعها الوقور والمتسامي، كما كان الشعر والتاريخ والموسيقى والنحت والفلك، يطبع الخوف من الآلهة في النفوس، ويوحى بالورع والإعجاب. وكان يحتفظ داخل المعابد بتمائيل الملوك وكبار القوم، كما كان يحتفظ هناك بالحوليات العامة واستقراءات السماء، وكان ينقش فوق هذه المنشآت المشهد المتتابع لدورات النجوم. ولا زالت هذه النقوش باقية حتى اليوم، وسوف تستخدم - هذه - عند دراسة تاريخ مصر في الاستدلال على الفترات التي لازالت مجهولة حتى اليوم، من هذا التاريخ.

وكان يسكن أسيا - في نفس ذلك الوقت - أمم قوية، مضت أمجادها القديمة إلى زوايا النسيان، وكان العقل البشري قد ارتقى لحد توصل معه إلى الاعتقاد في وحدانية الله، وإلى مبادئ الأخلاق السامية، وكان يراقب سماء الكلدانيين رهبان تكونوا في مدرسة المصريين، وكانت الحقائق الأساسية للهندسة والفلك قد اكتشفت، وأوشك الناس أن يعرفوا النظام الحقيقي للكون، كما كانوا قد أقاموا خرائط جغرافية، وتعهّدوا قياس حجم الكوكب، كما كانت المدن الموسرة تزدهر بما أنتجته عبقرية الفنون الطبيعية التي كانت تتخذ من المعادن والألوان وكل المواد الطبيعية خامات لها. وكانت هناك علاقات بين مختلف شعوب الشرق، وبخاصة بين شعوب الهند وفارس ومصر، وكان موضوع هذه العلاقات هو الدين، والعلوم، والحكومة، والتجارة.

وفي ذلك الوقت كانت تنقص أوروبا - وهي اليوم بالغة الرقي - القوانين والتقاليد الراسخة، وعندما كانت أضواء الفنون قد بدأت تنتشر في الغرب كانت المدن الأتروية(*) قد تأسست، وقدمت المستعمرات المصرية والفينيقية إلى الإغريق فكرة مؤسسات وأنظمة جديدة، وحصلت العمارة والنحت على مبادئهما وأنماطهما

(*) نسبة إلى أترويا التي كانت تقع قديما غرب إيطاليا. (المترجم)

من طيبة وممفيس ، ثم قامت بعد ذلك بقفزات تثير الإعجاب . وتشكل الدين من مبادئ غامضة ومختلطة فى نفس الوقت بالثيولوجيا المصرية، وبعد أن قام خيال المؤرخين والشعراء بتجميل هذه الألغاز المقدسة، لم يعد بمقدور المرء أن يكتشف فيها معنى واحدا يعز على الفهم. وفى اليونان احتفى الشعر - معلم البشرية الأول - بالفضائل والأبطال والآلهة ، وجلبت عبقرية هوميروس الشهرة إلى أيونيا، فبرقت بوميض خالد، وأصبحت معلما للحكام والشعوب.

لقد جاء الوقت الذى لم يعد ينبغى على مصر فيه أن تقاوم الأمم المنافسة التى تزايدت قوتها سرعيا، وبدأت مصر تقاسى من ولوج العادات الأجنبية إليها، كما بدأت تعدل عن المبادئ الأساسية السائدة فى المملكة . فمنذ وقت طويل وأخطار الخرافة تحيط بالدين وبالعلوم، وأصبح الفرس - وهم أكثر عددا وأكثر مهارة فى فن الحرب، والذين تمرسوا بثورات عسكرية كبيرة - سادة لهذه البلاد قبل العصر المسيحى بنحو ستة قرون، ونهبت المدن الرئيسية، وتركت نهبا للنيران، وسقطت أسر الملوك فى السبى، وخربت أو بعثرت الحوليات وصروح الأدب، وعبثا يحاول المصريون أن يتخلصوا من سيطرة بشعة، لكن مجهوداتهم الطويلة هذه قد زادتهم شقاء على شقاء.

وفى نفس هذا الوقت، كانت روما تبذر بذور عظمتها، وتنتهيا للسيطرة على العالم، كانت قد استعارت دينها وتقاليدها من الاتوريين والإغريق ، وقد دافع الأخيرون دفاعا مجيدا عن استقلالهم ضد جيوش لا تعد ولا تحصى، وكانت لهم عندئذ صلات عديدة مع مصر، وزار العديد من فلاسفتهم هذه البلاد، وإن لم يغتربوا منها إلا تعليما منقوصا، لأن الدين والقوانين والعلوم قد خربت ربما بشكل تام.

ومنذ هذا الغزو الأخير، ظلت مصر تعاني على الدوام من السيطرة الأجنبية، فدانت على التوالى لملوك الفرس، والبطالمة، وللخلفاء الأول لأغسطس، ثم لأباطرة

بيزنطة، وللخلفاء (المسلمين) الأول، ثم لخلفاء القاهرة، ولسلاطين المماليك، ولسلاطين العثمانيين. وهكذا نجد تاريخ مصر، بدءاً من الفرس حتى الحملة الفرنسية ينقسم إلى ثمانى فترات، طول كل واحدة منها يبلغ نحو ثلاثة قرون.

وبعد أن استطاعت اليونان الحرة أن تصد محاولات الفرس، قاد الاسكندر بعض محاربيه لفتح آسيا، وتعهد الاسكندر - وهو الذى لم تكن مواهبه السياسية أقل شهرة من نجاحاته العسكرية - أن يقدم امتيازات للأمم البعيدة (فى امبراطوريته المترامية)، وأن يؤسس مدناً حتى أقاصى العالم. ويمكننا القول بأنه قد اكتشف المحيط الهندى، وأدرك ما للملاحة والتجارة من أهمية، كما اختار الأسكندرية لتكون مركزاً للاتصالات التى أراد لها أن تقوم بين الشعوب.

وبعد موت هذا الرجل العظيم، ظلت مصر خاضعة للمقدونيين، وظلت موانئها تستقبل أثمن منتجات الجزيرة العربية والهند، كما امتدت بعلاقتها إلى أعماق أفريقيا، وأمنت - عن طريق تجارة بالغة الاتساع - ثراءً باذخاً للملوكها، وجاءت المتاحف اليونانية لتزين العاصمة الجديدة، وظهرت الفنون من جديد فى وطنها القديم، وإن كانت تعد على نحو ما علماً جديداً، ذلك أنه لم يعد باقياً من المذهب المصرى (فى الفن) إلا ذكرى باهتة، ومع ذلك فقد بقيت الحفلات والأضحيان، كما ظل استخدام اللغة سارياً، وإن كان استخداماً ناقصاً. لكن الجهل والخرافات المنفرة كانت قد حطت من ذوق الفلسفة المصرية، وبالكاد يعثر المرء منها على بعض آثار منسية فى سراديب المعابد، لقد انقطعت إلى الأبد سلسلة العلوم والتاريخ.

ولم يكن بمقدور مصر أن تغفل من المرامى الطموح لروما، وهكذا عانى آخر سلالة البطالمة من نفس القدر المشترك الذى كتب على كثير من الملوك، ولقد أديرت هذه البلاد بحكمة، وقفزت إلى الأمام قفزات موفقة كل من الزراعة والملاحة والصناعة. كان كل شئ يساهم فى دعم مكانة هذا الإقليم الجديد (من أقاليم

الإمبراطورية الرومانية) ، خصوبة أرضها، وتجارة الهند ، وبقايا الازدهار القديم، والعلاقات مع الجزيرة العربية والحبشة، وظل الناس ينظرون إلى الأسكندرية لوقت طويل باعتبارها العاصمة الثانية للإمبراطورية.

ومن بين كل فنون الإغريق، كانت العمارة هي أكثر الفنون ملائمة لسيادة العالم (الجدد)، ولقد استثمرها الرومان في الأغراض المتصلة بالصالح العام، وكذلك لتخليد ذكرى انتصاراتهم، ولكي يضاعفوا في أنظار الأمم من الشهادات (المحسوسة) الدائمة التي تذكر بالقوة التي أخضعتهم. أما المسرح المصرى فقد سما بأفكارهم، وحملهم على أن يتعهدوا منشآت أكثر رحابة، وحين استوحوا هذه الطرز القديمة، فقد حرصوا على أن يجمعوا إلى نبل التصميمات ورحابتها، تلك الرقة التي كانت تميز الأعمال الإغريقية .

وكان لإلغاء الوثنية أثره الهائل في مصر، فحرمت الأضرحة، وهجرت المعابد أو حطمت، وأوشك أن يمحو خليط الروحانيات والأساطير الوافدة ذكرى المبدأ المقدس ، فلم تبق منه سوى ظلال باهتة ، جاهدت سلطة الأباطرة في محوها مع كل عناصر الديانة القديمة. ومنذ أصبح هذا البلد إقليما رومانيا، أخذ يفقد عددا هائلا من المنشآت المنحوتة، فنقلت إلى أوروبا تماثيل وأحجار منقوشة، ومسلات ثمينة نحتت من حجر واحد كانت تنتسب إلى مدن طيبة وممفيس والأسكندرية، وارتفعت في ميادين روما والقسطنطينية مسلات كان الفراعنة فيما مضى قد أقاموها تمجيدا لألهتهم . وأعمال كهذه فريدة وغير قابلة للتقليد، لجديرة حقا بأن تزين عواصم العالم.

ثم انتقلت مصر، التي لم يعرف الأباطرة الروم لا أن يسوسوها ولا أن

(*) استخدمت كلمة رومى ورومية ترجمة لكلمة Romain, Romaine عندما يتناول السياق الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ترجمة لنفس الكلمة رومانى ورومانية عندما يتناول السياق الإمبراطورية الرومانية بشكلها القديم . (المترجم) .

يدافعوا عنها ، إلى سيطرة المسلمين . قبل ذلك كانت السلطة الرومية ^(*) قد أخذت تلفظ أنفاسها في كل مكان ، وهكذا كانت قد تهيأت بالفعل تلك الأسباب التي عجلت بالضرورة بانتهاء هذه الإمبراطورية ، وهكذا أمكن لبعض من القبائل العربية نصف المتحضرة أن تستولى على أجمل أقاليم الشرق .

ومع ذلك فإن الانتصارات السريعة للمسلمين الأول لا ينبغي لها أن تقارن مطلقا بالحملات العسكرية والسياسية لروما ، كما أنها تختلف عن الغزوات المتبادلة بين الأمم الشمالية . إن الرومان لم ينتصروا فقط بفعل قوة السلاح ، إذ هم يدينون بجزء كبير من نجاحاتهم لمبادئ في الحكم كانوا يتبعونها بثبات جدير بالإعجاب ، إنهم لم يكتفوا بإخضاع الشعوب ، فقد يمنحونهم الإدارة العامة ، كما كانوا يجعلون هذه الشعوب - على نحو ما - تنسى أصولها بفعل التغيير المتتابع للدين والعادات واللغة والقوانين . أما البرابرة الذين دمروا أوربا ، تاركين أوطانهم الثلجية سعيا وراء أجواء أكثر لطفا ، ومدن ثرية زاهرة ، فقد تعاقبوا دون نظام ، وبدون غرض آخر سوى سلب المغلوبين ، وحيث لم يكن لدى هؤلاء على الإطلاق مؤسسات راسخة ، فإنهم لم يحتفظوا إلا ببعض عاداتهم وأنماط سلوكهم ، وانتهى بهم الأمر أن تمثلوا الثقافة والتقاليد والفنون التي وجدوها مستقرة في مناطق إقامتهم الجديدة . وعلى العكس من ذلك كانت للعرب عادات وأفكار أكثر رسوخا ، وكانت معهم رواسب مشوشة مختلطة وخرافية من ديانات الشرق القديمة ، وحيث إنهم كانوا على اقتناع تام بأن ما يعرفونه هو الصحيح والنافع ، فقد لفظوا في البداية عادات وفنون الشعوب المغلوبة . ولم تكن لدى محمد لا النية في تأسيس إمبراطورية ، ولا المرامي السياسية التي نسبها إليه كتاب كثيرون ^(*) ، ولأنه لم يحدث مطلقا تلك الانتصارات الهائلة التي سيحوزها خلفاؤه فإنه لم يترك لهم أى شكل أو أى مذهب للحكم (كذا!) ، وكان شاغله في كل جهاده أن تتصدر قبيلته (!)

(*) بدءا من هنا نجد الكاتب يعبر بوضوح عن أفكار لا تستحق النقاش مطلقا ، فهي ليست سوى أصداء للروح التي تقف وراءها ، والتي بدرت منه في بداية مقاله ، والتي لفتنا إليها النظر في حينها . (المترجم)

وأن يعلى من شأنها فوق شأن القبائل المنافسة لها (١١)، وحين أكسبته نجاحاته الأولى شجاعة ، فقد بدأ يثرى رجاله بسلب القرى المجاورة. لم تكن له مطلقا معرفة الأمم المتحضرة، وكان ينظر إليها باعتبارها أمما من المشركين أو الملحدين ، ولقد ربط بين مواطنيه عن طريق تذكيرهم بمعتقدات كانت مقدسة فيما مضى، ثم مضى من الحماسة إلى الغواية (١٢) ، ومع ذلك فقد استخدم كتابه (القرآن!) ، وهو يضم عددا من المبادئ النافعة ، وعددا أكبر بكثير من أفكار تستعصى على الفهم (كذا!) وعارية من أى معنى (١٣) وتفتقد إلى الترابط فيما بينها (١٤) ، استخدمه قاعدة يتجمع حولها أتباعه ، ومنحهم بذلك اسما ، وهدفًا وصالحا مشتركا .

وحيث لم تعد تدعم السلطة الرومانية لا بأس القوة ولا حكمة المستشارين ولا فضائل الجنود ولا ثبات العادات أو ثبات السياسة والدين، فقد كان من الميسور أن تغزو كل أقاليمها عشائر شبه متوحشة، أبيدت منذ قرون عديدة عند حدود الامبراطورية . وجاء العرب الذين يمكن أن نطلق عليهم اسم Les Scythes (١٥) القادمين من الجنوب ، جاعوا للإسهام فى اقتسام هذه الغنيمة الواسعة، ولقد فعل هؤلاء الرجال الجاهلاء، وإن كانوا مقاتلين أولى بأس، ومتمرسين على مواجهة الصعاب، والذين هم كذلك فقراء نهمون للسلب، فعلوا ما كان يمكن أن يفعله الجرمان لو كانوا فى نفس موضعهم ، بل ولربما على نحو أسرع من ذلك (١٦).

(١٧) هذه ترجمة مخففة للفظ المستعمل، ولم نجد من اللائق تقديم الترجمة الصحيحة للفظ ، وواضح للقارئ مدى جهل الكاتب بالإسلام ومدى تحامله كذلك أيضا عن غير معرفة عميقة أو حتى كافية . (المترجم).

(١٨) من الشعوب البربرية القديمة ، وكانوا فى معظمهم رعاة قدموا من شمال أوروبا وآسيا .

(المترجم).

(١٩) يشير المؤلف هنا إلى ثلاثة من الشعوب الجرمانية هى على الترتيب : الغوط : Goths ،

وقد احتل فريق منهم جنوب شرق أوروبا أما الجزء الذى بقى منهم فى غرب أوروبا فقد غزوا الإمبراطورية الرومانية عام ٤١٠ ، ثم الـ Gépides وكانوا مستقرين فى دلماشيا حيث استأصلهم اللومبارديون فى القرن السادس، ثم اللومبارديون Lombards ، وكانوا يقيمون فيما بين الألب ونهر الأودر، ثم غزوا إيطاليا فى القرن السادس وأسسوا فيها دولة قوية انتصر آخر ملوكها Didier على شربلان عام ١٧٧٤ . (المترجم).

ولم يكن أقل من ذلك سهولة على هؤلاء العرب، أن يتوغلوا في بلدان آسيا الأخرى، ذلك أن الفرس - الذين زعزعتهم انشققاتهم الخاصة، وحروبهم الخارجية - لم يعد بمقدورهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد أشد أعدائهم ضعفاً^(١). ومع ذلك فإن هذا الكتاب المقدس نفسه (القرآن)، على مر الزمن، هو الذى سيحدد من ازدهار عبقريتهم^(٢)، فى حين كان هو السبب الأول فى اتحادهم ومن ثم نجاحهم، ولو أن كان لدى العرب - مثلما كان لشعوب أوربا - تلك الميزة التى لا تقدر بثمن، ميزة الحصول على ديانة محبذة للفنون والمعارف النافعة (كذا!) لكانوا قد أثروا وطوروا كل فروع الفلسفة. فلقد ظهروا فى البداية حاذقين مهذبين، وقفزوا قفزات واسعة فى مجالات الشعر والعمارة والطب والهندسة والطبيعات والفلك، ولقد حفظوا ونقلوا إلينا عددا كبيرا من المؤلفات الخالدة، كان من شأنها أن تجلب أضواء المعرفة إلى أوربا، لكن الديانة الإسلامية لا تهين مطلقا مثل هذا التطور الروحى والعقلى^(٣). وهكذا أصبح محتما على العرب إما أن ينكصوا عن ديانتهم، وإما أن يعودوا إلى جهالة أجدادهم (كذا وبكل وضوح!)، فهم يجهلون بشكل خاص فن الحكم، وكل ما يستخدم فى تأسيس ودعم الامبراطوريات، فحتى البربر الذين اتحدوا معهم وعانوا من سوء استخدامهم للسلطة لم يستطيعوا بعد اعتناقهم الإسلام إلا أن يزدروا هم أيضا الفنون والعلوم والصناعة وكل اختراعات الغرب^(٤)!

لقد قدمت مصر المسيحية نفسها بنفسها، بعد أن كانت قد مزقتها الانشقاقات الدينية لوقت طويل، لتدخل تحت سطوة الخلفاء الأول، واقتسمت بذلك نفس المصير الذى جرى على كل الولايات الإسلامية. هكذا تخلص الأقباط من

(*) سوف يظل المؤلف يقدم من المغالطات التاريخية ما يستخف حقا بالعقول، فالنصر الذى أحرزه العرب، ثم المسلمون بعد ذلك أيام الحروب الصليبية، يعود إلى سلبات فى صفوف الخصم وليس إلى إيجابيات فيهم، ولكن حتى هذه الفكرة المغلوطة نفسها لا تلبث أن تقع فى تناقضات من صنع المؤلف.

(المترجم).

الروم حين استدعوا الغازى، لكنهم سقطوا بعد ذلك فى الهوان والإذلال، وتناقصت أعدادهم إلى حد كبير. ولقد حدث فى بداية هذا التطور أن دمرت حماسة المسلمين القدر الضئيل من الثروات الأدبية الذى كان لا يزال باقيا بالأسكندرية، فالكتب التى كان البطالمة قد جمعوها فى هذه المدينة أوجلبوها من كتب ملوك برجام Bergame^(*) كانت قد هلكت فى الجزء الأكبر منها أثناء حملات قيصر وخلفائه، كما أن ضروب العنف من كل صنف والتى كانت تتجدد طيلة ستة قرون، وسط حروب مستمرة أو اضطرابات يفضى إليها الجدل الثيوقراطى، كان كل ذلك قد أتى على مستودعات معارف العصور القديمة، ومستودعات أخطائها كذلك^(**).

ولقد استشعرت مصر أثر الأسباب التى تقسم امبراطورية العرب منذ نشأتها، فلم تتردد مطلقا فى أن تصبح ولاية مستقلة. وأسس الخلفاء المسمون بالفاطميين عاصمة لهم فى مدينة القاهرة، التى كانوا قد بنوها وزينوها ببعض المنشآت العامة، لكن دولتهم قد دالت على يد صلاح الدين الشهير الذى كانت أعماله الباهرة بمثابة نذير لأوربا، والذى حكم مصر وسوريا لمدة طويلة. وقد تسبب هذا التطور فى حدوث حركات تمرد وفى انتقامات، وتلتها تغييرات هائلة فى الممارسات الدينية وفى نظام الحكم، لكن قيام دولة المماليك وضع نهاية لهذه الأسرة الحاكمة (الأيوبيين). فمنذ وقت طويل كان الخلفاء والحكام يعهدون بمهمة الدفاع عن دولهم، وبمهمة حماية أشخاصهم إلى رجال وجنود أغراب، تنتمى أصولهم إلى غرب آسيا، ولقد أساء رؤساء هذه الفرق العسكرية - الذين دفعوا بلا روية لاحتلال المراكز العليا فى الدولة، وتحت تعلات مختلفة - استخدام سلطة سادتهم، وأصبحوا (فى النهاية) مستقلين. إن أحداثا من هذا النوع هى التى أصبحت أحد الملامح المميزة لتاريخ الشعوب الآسيوية، كما أن التمرد الذى أودى بحياة آخر

(*) مدينة فى آسيا الصغرى، وكانت بها مكتبة شهيرة. (المترجم).

(**) بينا فى الجزء الثالث من الترجمة العربية، فى الدراسة الخاصة بمدينة الاسكندرية كيف أن

الكثير من الأوربيين أنفسهم لا يقرون فكرة حرق العرب لمكتبة الاسكندرية. (المترجم).

خلفاء صلاح الدين كان له دويه فى أوربا . فقد كان الأمراء الصليبيون شهودا عليه ، ومع ذلك فقد كانت هناك ، فى مصر ، أحداث مماثلة طيلة أربعة قرون خلت ، وظلت هذه البلاد الجميلة ، بعد انتهاء الأيوبيين ، خاضعة لعبيد عسكريين ، ولدوا فيما بين بحر قزوين والبحر الأسود . ويمكننا القول بأن حكومة الأمراء المماليك لم تكن لا وراثية ولا انتخابية ، ففى بعض الأحيان ، كان المنشأ يضع إنسانا ما فى مركز الصدارة ، ومع ذلك فقد كان قاتل الأمير هو فى معظم الأحيان خليفته . وكان هناك عدد من الثورات أو أحداث التمرد تعادل عدد العهود (التي تعاقبت على مصر) ، وكان هناك كثيرون يتصارعون على السلطة ، فى نفس الوقت ، ويدعونها لأنفسهم فى سوريا وفى القاهرة أو فى الصعيد . ولقد حكم بعض زعماء هذه الفوضى بتآلق ، وحين استولوا على سوريا أذلوا كبرياء المغول ، ودفعوا الأوربيين ، وحملوا أسلحتهم الظافرة إلى اليمن وجزيرة قبرص وأرمينيا ، لكننا لا نلاحظ فى كل هذه الأحداث سوى ملامح الجراءة ، والرغبة فى الثأر ، والمخاتلة ، والجهالة ، والطموح المتوثب . ومع ذلك فليس باستطاعتنا أن ننكر أن الدين الإسلامى ، إن لم يكن قد خفف من آلام وأحزان هذه الأيام ، فقد ولد فى نفوسهم الضعيفة بعض المشاعر الإنسانية ، وأوحى لكل من الحاكم والرعية بأعمال مشرفة .

ومن بين كل الأسباب التى عكرت صفو فلسطين ومصر ، لا نجد سببا أكثر تأثيرا من حملات الأوربيين ضد هذه البلاد ، ومع ذلك فإن هذه الحملات ذاتة الصيت ، والتى هزت طوال قرنين كل أمم الغرب ، لم تحقق أيا من النتائج التى كانت هذه الأمم ترغب فيها ، ولقد سببت الكثير من الاضطرابات التى استمرت لزمان طويل ، وإن كانت فى نفس الوقت قد شحذت عبقرية التجارة ، ووسعت آفاق الرؤية ، وضاعفت من عمليات الصناعة والملاحة ، وأدت فى دول عديدة إلى سقوط النظم والحكومات الإقطاعية ، حين دعمت من سلطة الملك ومن الحريات المدنية ، فى نفس الوقت الذى أعلنت فيه من المكانة السياسية لروما إلى درجة لم تستطع أن تتوازن عندها .

ولقد حدث أن استولى مائة ألف فارس - دون جدوى - على دمياط، وعندما واصلوا زحفهم في وقت غير موات ، حصرهم المسلمون بين ترع رافدة عن النيل، وحيث قد اضطروا للتسليم فقد تخلوا عن انتصارهم. وبعد ثلاثين عاما من ذلك ، أدت نفس الأخطاء إلى نفس النتائج مسببة ألما أكبر، فلقد قاد لويس التاسع - شرف عصره، والذي مارس على رعاياه بل وعلى أعدائه، السلطة الطبيعية التي تمنحها الفضائل الكبرى - قاد ستين ألف مقاتل إلى ضفاف النيل. كان قد اجتاز البحر المتوسط مع ١٨٠٠ سفينة، وكان تحت إمرته صفوة أبناء فرنسا، وبعد أن استولى على دمياط بوقت طويل، بدأ يتوغل إلى أعماق الدلتا، فحاصره الممالك في معسكره ، حيث انتشرت الأمراض المهلكة، وقطعوا اتصالاته مع السواحل، وعندما فقد الملك كل أمل أمر بالانسحاب، لكنه لم يستطع تنفيذه. وكان بقية الفرنسيين على وشك أن يهلكوا والسلاح في أيديهم، حين أعلن أحد الأبطال وسط المذبح - إما من تلقاء نفسه، وإما لأنه قد تلقى أمرا بذلك - أنه لم يعد بالإمكان إنقاذ حياة الملك إلا بالاستسلام للأسر، ثم سقط في الأسر الملك نفسه ، وهو الذي لم يشأ مطلقا أن يدع مؤخرة جيشه فريسة في يد أعدائه، ويعرف الجميع بأية عظمة عسكرية شرف هذا الملك أسره(١) ، وبعد ذلك افتدى رجاله، وقدم دمياط فدية لنفسه ثم أبحر إلى عكا بفلسطين .

في هذه الأوقات كانت الأمم الأوروبية تتساوى بالكاد مع الأمم الآسيوية، ولم تكن قد اكتسبت بعد مطلقا هذا التفوق في القوة الذي يميزها اليوم، والذي نتج عن تقدم كل الفنون، أما عادات وسلوكيات الحرب فكانت تكون هي نفسها، وهي هنا وهناك غير تامة، وهكذا كانت الشعوب التي وهبتها الطبيعة شجاعة تعز على الإخضاع، والتي كانت تتمتع بميزة الحياة في ظل نظام أفضل، قادرة بالضرورة أن تزود عن نفسها بنجاح فوق أرضها هي (١) ، ولذلك أبادوا جيوشا لاحصر لها، وإن كانت مضطربة، كان الغرب يجدها بلا انقطاع على الرغم من فقدته ملايين عديدة من أبنائه. لكن الأحوال الخاصة بالأمم قد تغيرت منذ القرن السادس عشر،

فطور البعض منها نظام الحكم المدنى، والتاكتيك العسكرى ، وتقدموا فى فن استخدام المدفعية ، وتكوين وصيانة وقيادة الجيوش . لكن الشرقيين، على العكس من ذلك، قد أهملوا كل الاختراعات التى تسهم فى نجاح الحروب ، أو هى لم تتقدم فى هذا المضمار إلا لمدى بالغ الضيق . هكذا كانت سطوة المعارف ونفوذ وقوة العادات العسكرية والفنون، لحد أن نفس هذه البلدان التى صدت شعوبها لمدة قرنين من الزمان جهود كل أوربا مجتمعة، لم يعد بمقدورها اليوم أن يدافع حكامها الحاليون ضد جيش واحد من جيوشنا، ولحد أن ممتلكات هؤلاء الحكام فى هذه البلدان نفسها لم يعد لها من ضمان سوى المعاهدات وسوى التناقضات القائمة والمتبادلة بين أمم الغرب الكبرى .

لم يعد يحكم مصر منذ بداية القرن السادس عشر ملوك مستقلون، فقد استولى عليها العثمانيون بعد أربعة وستين عاما من استيلائهم على القسطنطينية. كان سليم الأول - والد السلطان ذائع الصيت سليمان الثانى - قد اعتلى العرش بواسطة الانكشاريين، كان تمردهم هو الذى منحه العرش، وحافظ عليه بقتله لوالده، وبعد ذلك أمر بإعدام إخوته قبل أن يتصدى لمشاريعه الواسعة فى آسيا، ولم يتردد مطلقا فى تهديد فارس ومصر وسوريا ، وسرعان ما استولى على القطرين الأخيرين اللذين كانا خاضعين لحكم سلاطين المماليك ، ولم يكن هؤلاء يتمتعون إلا بسلطة غير أكيدة ، كما كانوا بالكاد يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد خيانات صغار ضباطهم . خاض سليم معهم معركتين : أولاها فى حلب ، حيث فقد السلطان قنصوه الغورى حياته، أما فى المعركة الثانية فكان خليفته طومان باى هو الذى فقد حياته على مسافة قريبة من القاهرة . لم تكن القوات العثمانية كبيرة العدد لحد كبير، وكذلك لم يكن المماليك قد تبنوا بعد استخدام البنادق ، وسلم آخر سلاطينهم للغازى وشنق تحت أحد أبواب المدينة. وجمع عدد كبير من المماليك وذبحوا أو ألقى بهم فى النهر، ولم تلبث الأسكندرية أن استسلمت، وامتألت الشعوب المجاورة رعبا، وجاء شريف مكة ليقدم الهدايا إلى

سليم الذى أعلن نفسه حاميا ورئيسا وراثيا للإسلام، مؤكدا بذلك إرادته فى أن يجمع إلى القوة العسكرية السلطة الدينية ، كما أرسل الشاه إسماعيل الصفوى إلى القاهرة سفارة باذخة سعيا وراء السلام .

لكن موت سليم أوقف مسار انتصاراته، وساهم سليمان، ابنه، كثيرا - سواء بحروبه أو بسياساته - فى ازدياد نفوذ العثمانيين، وخصص سنوات عديدة لتنظيم الحكم الداخلى فى ولاياته، وتبعاً لأوامر صادرة منه، وضعت الأنظمة الخاصة بمصر والتي لاتزال حتى اليوم تستخدم فى الإدارة الإقليمية لهذه البلاد . ومع ذلك فإن هذه الأنظمة تنسب فى بعض الأحيان إلى سليم، الذى يصح القول بأنه لم يساهم فيها على الإطلاق، ذلك أن سليما قد أنفق وقتا قصيرا فى مصر خصصه كله للحرب هناك، وعندما عاد إلى القسطنطينية لم تكن تشغله إلا استعدادته ضد فارس ووسط أوربا، كان يفكر فى تدمير بغداد، ولم يتوقف مطلقا عند وضع الأنظمة وتنظيم الميرى فى مصر. ولقد نشرت وثيقة التسليم التى أبرمها المماليك معه، لكن قصاصة الورق هذه لا يمكن أن تحوز أى قدر من الثقة، فكل ما هو جدير بالملاحظة فى سلوكه السياسى هو تفاوضه مع شريف مكة، وكذا الحرص الذى أبداه فى أن يصحب معه إلى القسطنطينية خليفة العباسيين.

إن سليما الذى حصل على الاسم اللائق بكل من هو بشع وفض، والذى أرسل وزراءه إلى الهلاك لأنهم لم يحدسوا إلى أية جهة من العالم ينبغى عليه أن يبعث بجيوشه، والذى ظل يأمر طيلة سنوات عهده بإعدام أصدقائه وأعدائه دون تمييز، والذى كان قاتلا لوالده وإخوته ولثمانية من أبناء إخوته - كان يربط الروحانيات بالقسوة . فليس هناك أى امبراطور عثماني آخر قد ذهب به الحقد ضد الأديان الأجنبية إلى المدى الذى ذهب هو إليه، كان على وشك أن يرغم رعاياه المسيحيين على اعتناق الإسلام، لكن امبراطورية التقاليد سرعان ما عادت من جديد إلى التسامح مع الديانات الأخرى، وهو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه الدول الإسلامية ، والذى لولاه لربما ما كانت قد تكونت إطلاقا . وقد أعطى سليم لمصر،

كما أعطى لكل الولايات التي هزمها ، حكومة تنهض على دعائم من حمايات تركية، لكن العسكر بدأوا يتمردون، ويطالبون بزيادة رواتبهم، ويذبحون رؤساءهم، وسعى الباشوات إلى الحصول على استقلال تام. أما المماليك، فعلى الرغم من أنهم قد بقوا بأعداد ضئيلة، فقد حصلوا على ميزة كبرى ، استمدوها من ذكرى سلطتهم وسطوتهم ، ومن صلاتهم بالعربان وبالقوى المحلية . هذا هو أصل حالة الفوضى التي تكونت عقب الغزو، ولقد استمرت هذه الحالة حتى انتصرت شجاعة البكوات وجرائتهم على الانكشاريين الذين أغضبتهم رخاوة الجنود، ودعة حراس القلاع القاعدين.

وفي الوقت الذي كانت مصر وسوريا تخضعان فيه لسيادة جدد، كانت الحالة السياسية، وكانت تجارة الدول تتعرض لقلقل واسعة وغير متوقعة، وليست هناك فترة أخرى من التاريخ ذاخرة لهذا الحد بالأحداث الكبرى . كانت القوة العثمانية تنتشر الفرع في أوروبا وآسيا، وكف الكثير من الدول الأوربية عن الاعتراف بسلطة الحبر الأعظم في روما، وكان الإسلام يستشعر حاجة إلى ثورة ماثلة، وكان هناك مذهب جديد، رحب به الصفويون، يشق البلدان الإسلامية، وكانت فرنسا تستجلب الفنون الجميلة التي أضاعت سماء إيطاليا، وكانت أسماء فرانسوا الأول وسليمان وشارل تملأ العالم أجمع . وطورت أوروبا ، ممارسة في النهاية عبقريتها الخاصة ، أنظمتها المدنية ، وجعلت ممالكها قوية عن طريق إقامة جيوش ثابتة، وقطع فن الطباعة وكذا المعارف البحرية والعادات العسكرية أشواطاً غير عادية من التقدم، وتعلقت كل العقول بالحملات التي قام بها كولومب وفاسكودي جاما ، ولقد دهش البرتغاليون والأسبان عندما تلاقوا عند الطرف الأقصى لآسيا ، بعد أن كانوا قد خرجوا من موانئهم متبعين اتجاهين متضادين . كانت الرغبة في الاستيلاء على تجارة الشرق هي التي بعثت على هذه الاكتشافات، وفي الواقع فقد كانت منتجات الهند الثمينة تتبع حتى ذلك الوقت طريقاً غير معروف . وفقدت مصر – وهي التي كانت تتجمع فيها هذه المنتجات ، ثم تنقلها إلى مختلف بلدان أوروبا وأفريقيا – تلك المميزات التي آلت إليها من مؤسس الإسكندرية، كما أضرت حملات البرتغاليين

بالبنادقة على وجه الخصوص، أولئك الذين لم يستطع مطلقا حلف قوى من أمم عديدة أن يحطمهم، والذين كانوا موجودين عند كل منافذ التجارة، لقد وجد هؤلاء عظمتهم تضحل وتغرب دونما رجعة، وأخيرا فسرعان ما تقطعت العلاقات التي كانت تربط ما بين عدد كبير من الدول والمدن .

وفى الوقت نفسه ، كانت العبقورية القلقة والطموح للأوربيين تؤسس علاقات جديدة بين أشد مناطق العالم تباعدا، واستخدموا - وهم جد مشغوفون باستعمال أدوات قوتهم الجديدة - البوصلة للتوجه فوق أراض مجهولة ، كما استخدموا الأسلحة النارية لترويض شعوب هذه الأراضى، وعثروا فى مناجم أمريكا على المعادن النفيسة التي كانت لازمة لمضاعفة المبادلات التجارية مع الشرق، كما جلبوا من أفريقيا سكانا لزراعة الممتلكات الجديدة .

أما البنادقة، فقد بذلوا - متحالفين فى ذلك أولا مع المماليك، وبعد ذلك مع الحكام العثمانيين - جهودا بائسة لتدمير المنشآت البرتغالية فى البحار الشرقية، وشرع الأولون فى نقل الأخشاب من دماشيا إلى ضفاف النيل، ثم من هناك إلى السويس لبناء أسطول . وفى البداية أمكنهم أن يحصلوا على بعض الفوائد من جراء استخدام ضروب القوة هذه، لكن حملات السلاطين الغورى وسليم وسليمان لم تتمكن من إيقاف تقدم غزاة الهند، وإذا ما ألقينا بالا لما جاء بتقارير بعض الرحالة، فقد كانت مصر نفسها فى هذه الفترة ، مهددة بتطور أكثر دمارا ، بحيث لا يمكن أن يتلوه تطور آخر، إذ يؤكد هؤلاء الرحالة أن حكام الحبشة المتحالفين مع بلاط لشبونة، قد عزموا على تحويل مجرى النيل نحو البحر الأحمر ، ليجعلوا قاحلة إلى الأبد تلك الأراضى التي يغطيها النيل كل عام بفيضه السنوى . لقد كان فى الواقع أمرا لاجدوى من ورائه أن يلجأ فاتح جوا وملقا وهرمز إلى هذا المشروع الخيالى ، فلقد خدم بلاده بطريقة أفضل عندما حطم كل الأساطيل المعادية. ولقد توغلت سفن الملك ايمانويل تحت قيادة البوكرك وخلفائه فى البحر الأحمر حتى طرف الخليج، بحيث لم تعد هناك نقطة واحدة على شواطئ المحيط الآسيوى الواسعة لاتعترف بالسيطرة البرتغالية .

ولقد اقتضى الأمر أن يكون ظهور هذه القوة المتعاضمة لفترة قصيرة، ومع ذلك فقد كان لظهورها هذا أثره الهائل على أقدار الغرب . وفى واقع الأمر، فقد كان بمقدور العثمانيين - وقد أصبحوا سادة لمصر- أن يستحوذوا على ثروات الهند، وكان بوسع هذه التجارة أن تمنحهم أسطولا بحريا هائلا ، بالإضافة إلى كل المصادر التى يتطلبها تمويل الجيوش العديدة، وفى ذلك الوقت، كان يحكمهم حكام طموحون، مقاتلون وسياسيون، وكانت أوروبا المنقسمة على نفسها تواجههم بمقاومة غير مؤكدة . ولو أن اكتشافات دى جاما لم تكن قد حرمتهم من مصادر زيادة القوة هذه، لربما كانوا قد غزوا الجزء الأكبر من الأقطار المسيحية، ولكانت هذه الدول، بالغة الازدهار وبالغة التمدن، تئن اليوم تحت سطوة أجنبية معادية للمعارف النافعة، وللفنون الجميلة على حد سواء.

وهكذا فإن بداية القرن السادس عشر تحدد بداية فترة مشئومة فى تاريخ مصر، فلم تعد هذه البلاد - بعد أن هزمت ونهبت وعزلت عن سوريا- تشكل دولة مستقلة، لقد تركت لشح الباشوات الطموح ، ثم سقطت بعد ذلك فى أتعس أنواع الفوضى . كان يساهم فى مهام الحكم هناك مجلس أعلى ، يتكون من أهم رؤساء الفرق العسكرية ، ويرأسه نائب الملك (الباشا)، وعهد بإدارة وحكم الأقاليم إلى كثير من البكوات المماليك التابعين لهذا المجلس (الديوان) ، والذين لم يكن يحق لهم أن يمارسوا سوى سلطة محدودة . وقد حملت نوبات العصيان والتمرد التى قام بها باشوات عديدون، ديوان القسطنطينية على تحبيذ نفوذ رؤساء الفرق العسكرية، وكان هؤلاء الأخيرون يكونون بيوتهم من العبيد الأجانب، الذين يعدون منذ شبابهم الباكر على استعمال السلاح، والذين كانوا فى معظم الأحيان يرتقون سلم الوظائف بالغة الأهمية.. وعند نحو منتصف القرن الأخير (الثامن عشر)، دفع إبراهيم ورضوان رئيسا الانكشارية والعزب عددا كبيرا من مماليكهما إلى وظائف الصدارة، وبعد أن وحدا مصالحهما، استوليا على الحكم، ولم يدعا للباشا إلا سلطة شكلية، لكنهما فى واقع الأمر قد سلباه ممارسة السلطة الفعلية.

ومارس على بك، الذى خرج من بيت إبراهيم، سلطة السيادة باسم حاكم العاصمة، وبعد أن عمل على قتل أعدائه ومنافسيه، وبعد أن دعم قوته بالصعيد، عمل على احتلال مدينة مكة، ونصب عليها من جديد شريفها السابق عبدالله، وسعى (على بك) لكى يحصل على اعتراف منه بأنه سلطان مصر، وشرع فى أن يقيم فى ميناء هذه المدينة منشأة ثابتة تتولى تجارة الهند . وسهلت مشروعات على بك تلك الحرب التى كان على الباب العالى أن يخوضها ضد روسيا، بالإضافة إلى التمرد الذى قام به الشيخ ضاهر الذى كان معه حزب كبير فى فلسطين، فأرسل على بك قوات إلى سوريا، وأرغمت قواته بعد أن تحالفت مع قوات الشيخ ضاهر باشوات الألوية المجاورة على الفرار . ولكن سرعان ما أدت نصائح إسماعيل بك وإغراءات الباب العالى إلى تمزيق حزب على بك ، فانشق عليه معتوقه محمد بك (أبو الذهب) الذى كان قائدا لجيشه فى سوريا، وعاد إلى القاهرة . وبعد أن نفاه سيده لبعض الوقت، أمكن له (لمحمد بك) أن يكون لنفسه حزبا قويا، عندئذ ترك الصعيد ليستقر بالعاصمة . وانسحب على بك إلى حليفه الشيخ ضاهر، والتمس النجدة من روسيا، لكنه فقد قوته قبل أن تنتهى المفاوضات، فأسرع بالعودة إلى مصر بعد أن خذلته وأضلته الخيانات المحيطة به، وجرح فى إحدى المعارك؛ التى خاضها فى الصالحية ضد عبيده القدامى، ثم مات بالقاهرة متأثرا بجروحه .

بدا محمد بك أكثر خضوعا لأوامر الباب العالى، فحصل الضرائب، وبعد أن حصل على لقب باشا زحف إلى سوريا ضد ذلك العربى، الشيخ ضاهر العمر، وأمكنه الاستيلاء على يافا، ثم قاد جيوشه الزافرة إلى عكا، لكنه مات ميتة شبه فجائية من أثر إصابته بمرض معد . وخلفه فى السلطان اثنان من مماليكه ، هما إبراهيم ومراد، فقلدا سلوك على بك (تجاه تركيا)، واستثير ضدهما بفعل الإغواء إسماعيل ، وهو الذى سبق له أن خان على بك ، فكون عصابة قوية كانت كافية لإرغام غريميه على ترك العاصمة. وبعد أن لجأ إلى الصعيد، توصلا إلى عقد صلح مع الكثيرين من بكوات الحزب المنتصر، ولم يتوانيا بعد ذلك فى تجريد إسماعيل

من السلطة، وعندئذ ارتكبا من المظالم المتضاعفة ما جعلهما أكثر بغضا من ذى قبل، وتملصا بكافة الوسائل الممكنة من الرضوخ لسلطة السلطان . عندئذ كلف حسن باشا - من قبل بلاط السلطان - بمعاقبة المتمردين ، فوصل إلى القاهرة مع قوات قليلة العدد، وأقصى إبراهيم ومراد، وأرسل إلى القسطنطينية جزءا من الأسلاب التى حصل عليها، سواء من أتباع الأميرين الفارين أو من الابتزازات التى ارتكبتها. وحين استدعته الحرب التى نشبت من جديد مع روسيا، أنهى حملته بأن وهب البكويين جزءا كبيرا من الصعيد، أما حكومة القاهرة فقد تركها فى يد إسماعيل بك، لكن الأخير مات بالطاعون فى عام ١٧٩١، حيث حصد الوباء فى ربيع هذا العام ثلث سكان القاهرة، وقضى - بتأثير هذا المرض نفسه - على نصف المماليك المرتبطين بإسماعيل، وفقدت المدينة أكثر من ستين ألفا من أبنائها فى الفترة الواقعة ما بين السادس والتاسع من أبريل من نفس العام .

وهكذا استعاد إبراهيم ومراد من جديد سلطتهما بالعاصمة، على الرغم مما كانت تفرق بينهما من حزازات قديمة، فقد ربط بينهما الإحساس بمصلحتهما المشتركة، وانغمسا بعد ذلك فى أعمال عنف جموح، مزدريين أوامر السلطان، فاضيين ضرائب جديدة عن غير روية أو بصيرة، وبدون مبالاة بأثر ذلك على التجارة والزراعة والصناعة، ومنتزعين الحبوب اللازمة لأقوات الفلاحين الذين هلك منهم عدد كبير بدون أن يتلقوا عوناً من أحد.

لم يكن التجار الأجانب مطلقا بمنأى عن هذه المظالم، وتعرض الفرنسيون بصفة خاصة لمظالم ومغارم ظلت طويلا بلا عقاب، وبدا أن البكوات قد ظنوا أن الحالة السياسية التى كانت تمر بها فرنسا حينئذ هى مبرر لهذه الإهانات، كما كانوا- فيما يبدو - على ثقة بأن حكومتها الجديدة لن تكون فى وضع يسمح لها بأن تحصل على أية ترضية عن هذه الإهانات ، وفى واقع الأمر ، فإن الوفود التى أرسلت فى هذا الصدد إلى بلاط القسطنطينية كانت عديمة الجدوى، فهذه القوة

(تركيا) لم تبذل أى جهد لعقاب طغاة مصر ، أو لقمع سلوكهم العنيف المعادى لحلفائها، وتجددت الإهانات والابتزازات مما جلب الخراب لبيوتنا التجارية.

لم يكن من المستطاع مطلقا أن ندع هؤلاء، بدون أن نسلم للأمة المنافسة لنا (انجلترا) مميزات كانت لها فى معاهدات بالغة القدم، وبدون أن نقدم مثالا على ضعف (من جانبنا) قد يغدو قاتلا بالنسبة لكل المؤسسات الفرنسية. لقد كان الأمر إذن يقتضى منا إما أن نرضى عن طيب خاطر بأن نستبعد عن تجارة الشرق، ونتسامح فى المظالم التى تلحق بنا، وإما أن نجد أمننا فى ممارسة قوتنا الذاتية.

كانت هذه هى الظروف التى دعت الفرنسيين إلى المجئ إلى مصر، وهكذا أصبحت هذه البلاد مسرحا لواحدة من أهم الأحداث الكبرى فى التاريخ الحديث. وتضاف إلى الدوافع التى انتهينا من ذكرها تلك المزايا التى يعد بتحقيقها قيام مؤسسة ثابتة لنا فى المشرق، مع الأمل فى توافق يتم مع الباب العالى ، ما أن نبصره بمصالحه الحقيقية، مع تقديم كل الضمانات التى يمكن له أن يطلبها .

وفى الواقع، فقد كان يمكن لإسهام فنون أوربا، بالإضافة إلى قيام حكومة منظمة فى مصر ، أن يغير على وجه السرعة من الأوضاع هناك . كان يمكن للزراعة إذا ما رعتها إدارة مستنيرة أن تحرز هناك - فى وقت قصير - قفزات هائلة، فمن المعروف أن خصوبة أرض مصر، تتجدد من تلقاء ذاتها بفعل الفيضانات السنوية، فى حين تتركز أعمال الزراعة بصفة أساسية على نوبات الري، لكن توزيع المياه اليوم غير منتظم وغير تام، فقد شقت الترع التى تجلب هذه المياه دون تبصر أو حذق، وهكذا تصل المياه فى مناطق بعينها بوفرة تزيد عن الحاجة ، فى الوقت الذى تظل فيه مناطق أخرى تتعرض لجفاف طويل، وفى مناطق ثالثة يودى حفر روافد أنشئت عن غير ترو إلى إضعاف مقاومة مياه النيل تجاه مصابه ضد مياه البحر، ويكون من أثر ذلك أن تتحول فجأة إلى مساحات رملية لا نفع فيها أراض ثمينة كانت توفر حتى ذلك الوقت أفضل الحاصلات. ولا

يتم رفع مياه الرى هناك إلا بواسطة بعض الماكينات الخشنة، وأثر هذه بالغ الضالة بالغ التواضع، وعن طريق تعرض الحيوان أو بالأحرى الإنسان ذاته لصعوبات ومتاعب متزايدة. وحيث إن المقاطعات المختلفة - وسط ظروف الاضطرابات السياسية - لم تكن تخضع لإدارة موحدة، فقد كان يحدث فى معظم الأحيان أن يتصرف القوم فى المياه بدون رؤية، وهكذا كانت تحول مجارى المياه، وتجفف الترع، وتفتح الجسور بدون سند من أى حق، وهكذا أيضا لم يستطع القوم أن يفيدوا مما حبتهم به الطبيعة، واستخدموا كل حذقهم ليستحوذ عليها كل منهم لصالحه بالتبادل. كان يمكن تحاشي هذه القوضى عن طريق توزيع للمياه أكثر انتظاما، وهو الأمر الذى كان سيزيد - فى وقت معا - مساحة الأرض القابلة للزراعة، وكذا خصوبتها. وقد يكون من اليسير أن نروى الأماكن الأكثر ارتفاعا، بوضع نظام أفضل لعمل الحيوان، بل ربما بدون اللجوء لعملها على الإطلاق، وذلك إما بأن نرشد (الترع والقنوات) من المياه العالية، وإما باللجوء إلى القوى الميكانيكية التى تنتج عن الرياح أو عن مجرى النهر ذاته.

ويخلاف القمح والأرز، ومختلف نباتات المحاصيل والفواكه من كل نوع، التى تنتجها مصر بوفرة، فمن الممكن الحصول على فوائد أكبر من ذلك بكثير عن طريق زراعة قصب السكر والكتان والنيلة، كما يمكن لهذه البلاد أن تمتد أورها بالنظرون الذى يتكون من تلقاء نفسه فوق سطح أرضها، وكذلك بأجمل مواد الصباغة والعطارة والعطور بمبالغ ضخمة، وبالبين والعطور القادمة من الجزيرة العربية، وبالنبر (تراب الذهب) والعاج وكل المواد التجارية الأخرى الواردة من أفريقيا. أما النباتات الوطنية - بمعنى الكلمة - فهى قليلة العدد، وإن كانت هذه الأرض الخصيبة التى تتدرج حرارتها اللطيفة بدءا من البحر حتى حدود النوبة، يمكن أن تدخل فى عداد البساتين الفسيحة، القدرة على أن تستوعب وأن تحفظ أثمر منتجات العالم.

تلك هى المزايا الطبيعية التى لمصر، والتى لم يكن من المستطاع إفناؤها،

ولو بفعل سطوة طويلة لإدارة بالغة السوء، فلا يزال الناس هناك يستمتعون حتى اليوم بثروات الزراعة والصناعة والتجارة، كما أن القاهرة، من جوانب كثيرة، تعد مدينة ثرية، ويبلغ عدد سكانها أكثر من ٢٥٠ ألف نسمة، كما تحتفظ بعلاقات متزايدة مع الجزيرة العربية وكل وسط أفريقيا، وكذلك مع تركيا وفارس والهند وأهم بلدان أوروبا. لقد حولت الاكتشافات البرتغالية طريق التجارة عن الأسكندرية، ومع ذلك فقد ظلت الاتصالات مع الهند مستمرة، إما عن طريق البحار الشرقية وإما عن طريق البر، وهكذا احتفظت مصر بكل عناصر عظمتها القديمة، كما ظلت هذه بذورا تعد بازدهار جديد، سوف ينمو بشكل سريع لو أن قد خصبتها عبقرية أوروبا، وحسن إدارة حكومة عاقلة وقادرة.

أما عن خواص الطقس، فقد لا يكون بالإمكان أن نُعرّف بها إلا عن طريق عرض مفصل لا يتفق مطلقا مع طبيعة هذه المقدمة، لكننا نكتفى هنا بالقول بأن ملاحة هذه البلاد (للصحة) لا يمكن أن توضع موضع ارتياب، ويتطابق مع هذه النتيجة كل تاريخ مصر، وكذا التجربة الحاسمة للجيش الفرنسي (هناك)، كما تتفق مع الوضع الراهن لتعداد السكان، حيث يعيش نحو مليونين وثلاثمائة ألف شخص، منتشرين على مساحة ١٨٠٠ فرسخ مربع.

وكان من بين أعظم المنجزات التي يمكن لاحتلال مصر أن يحققها، هو ما يتمثل في ربط الخليج العربي (البحر الأحمر) بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق قناة ملاحية، وهو مشروع نال شهرة واسعة منذ زمن طويل، وكان يمكن له اليوم أن يتحقق باقتدار. وفي الواقع، فمهما يكن المستوى المتبادل لمنسوب البحرين، ومهما تكن النتائج التي تم التوصل إليها عن طريق ما سبق القيام به من أعمال تتصل بنفس هذا المشروع، فلعل من الميسور على المهندسين الأوروبيين أن يقيموا مثل هذا الاتصال، وأن يحافظوا عليه. ويمكن القول بأن هذا الاتصال سوف يقرب الأقطار الشرقية بتلك التي تقع على ضفاف البحر المتوسط، وبدون أن نغير كلية من طرق التجارة الحالية، فإن هذا الاتصال سوف يؤثر على علاقات أوروبا بالهند

والجزيرة العربية وأفريقيا، ويمكن لنا أن نقارن هذه النتائج (المتوقعة) بتلك التغييرات التي تمت، في اتجاه مضاد، بعد الحملات البحرية للبرتغاليين.

ومن جهة أخرى، فإن لمصر - التي تتجمع فيها كما لو كان من تلقاء نفسها، ثروات الزراعة وثروات التجارة - مزايا أخرى لا يمكن أن تتوفر مطلقاً في أية مستعمرة أخرى بعيدة، إذ لا يفصلها عن فرنسا سوى بحر قليل الاتساع، تبدو الملاحة فيه كما لو كانت حكراً لهذه القوة ولحلفائها الطبيعيين، كما أن مصر تدخل ضمن نطاق نظام الدفاع المشترك عن الجزر المجاورة لآيطاليا، وتلك التي تقع بالبحر الأدرياتيكي والأرخبيل، بالإضافة إلى أنها لا تتعرض مطلقاً لغزو غير متوقع، ولا يمكن أن تهاجمها إلا قوات هائلة، بحيث إنه لو أمكن لتلك القوة الأوربية (فرنسا) التي احتلت مصر منذ وقت طويل، أن تظل على علاقة حميمة بالباب العالي، وأن تحصن هذه المنشأة (المستعمرة) لكان بمقدورها الاحتفاظ بها. وبالإضافة إلى كل هذا، فإن هذه البلاد توفر للفرنسيين ميزة بالغة الأهمية، هي حصولهم على موقع متوسط، فحين يجد الفرنسيون أنفسهم على أبواب آسيا فسيغدو بإمكانهم من هناك أن يهددوا على الدوام ثروات وممتلكات أمة معادية (انجلترا)، وأن ينقلوا القلائل، بل والحروب، إلى نفس مصادر ثرائها.

وسوف تحقق العلاقات التي سرعان ما ستنشأ بين مصر (كمستعمرة فرنسية) وبين المؤسسات القائمة في الجزيرة العربية وفارس والهندستان وأفريقيا، مزيداً من المبادلات التجارية، مما يعود بأكبر الفوائد على فرنسا والشعوب التي تمارس الملاحة في البحر المتوسط، وبذلك نستطيع أن نحترف تلك المهنة الربحية التي يدين لها البنادقة بثرواتهم، والتي منحتهم لوقت طويل قوات بحرية تفوق القوى البحرية لمعظم دول الجنوب، في حين توقف كل ذلك على الفور حين تغيرت مقادير مصر.

وفي الواقع فقد كانت تجارة الهند مع الدول الأخرى تتم بمبادلة بالمعادن

النفيسة، وهذه صلات مستمرة منذ وقت لا تعيه الذاكرة، ولقد كان على كل الدول الثرية أن تدفع هذه الضريبة عندما كانت تدفع ثمنا لمنتجات الشرق كمية هائلة من الذهب، وبخاصة الفضة، التي كانت تتكدس هناك دون سبيل لاستعادتها. ومع ذلك فقد استطاع البنادقة - فيما يبدو - أن يقيموا مع هذه البلدان علاقات من طبيعة مختلفة، وكانت مصر - وقد أصبحت بالنسبة لهم المستودع الرئيسى لثروات العالم أجمع - تحصل، بالإضافة إلى الأخشاب والمعادن النافعة، على أشياء من منتجات مصانع هذه البلاد نفسها، وكان البنادقة يستجلبون منها السلع الثمينة التي تنتجها الهند والجزيرة العربية وسوريا وفارس، ثم يوزعونها على كل أنحاء أوروبا.

وهكذا لم تعد مصر مفيدة بما تملكه فقط، بل هي نافعة بما ينقصها كذلك. ومن المؤكد أن بوسعنا أن نصنع فى هذه المستعمرة الأقمشة النفيسة، والأجواخ الناعمة، والخمور، بالإضافة إلى منتجات صناعية متنوعة، وقد ننقل إليها الحديد والرصاص، وعلى وجه الخصوص الخشب الخاص بإنشاء المساكن وبناء السفن، ونستطيع بشكل جزئى عن طريق هذه المبادلات أن نحصل على أثمن سلع الهند، ونتزود بها كذلك عن طريق اتصالات مباشرة. وبخلاف الموانى التى ستفتح أو ستنشأ على شواطئ البحر الأحمر، فقد نرى قيام منشآت أخرى فى مختلف مناطق هذا الطريق التجارى المؤدى للهند، تجعل الملاحة أكثر يسرا وأكثر أمانا، حيث تتبادل هذه المنشآت الدعم فيما بينها.

واسوف نستطيع كذلك (لو تحقق كل ذلك) أن نسموا إلى اعتبارات أكثر عمومية وشمولا، وأن نحس النفوذ الذى قد تمارسه مستعمرة فرنسية، لها مثل هذا الموقع المناسب، على ظروف وأحوال البلدان المجاورة، وستكون الجزيرة العربية وسوريا من أوائل البلدان التى ستفيد من المزايا التى ستتحقق من وراء ذلك. فسوف تتمتع التجارة هناك ومنذ البداية بأمن ظل مجهولا حتى هذه اللحظة، وسوف تعرف الزراعة والصناعة ازدهارا جديدا، وقد نستطيع عقد تحالفات مفيدة ودائمة مع فارس وممالك آسيا الأخرى، وسوف نتوغل من كل جانب إلى داخل

قارة أفريقيا الواسعة، وسوف نكتشف الأنهار التي تجرى داخلها، وكذا الجبال ومناجم الحديد والذهب التي تحتويهما بوفرة، وفي النهاية فسوف يكون بمقدورنا أن نأمل في أن حكومة مصر ستعمل جاهدة على أن يسود الأمن والنظام على سواحل أفريقيا الشمالية، وذلك بجعلها السكان هناك يخضعون لإدارة أكثر إنسانية وأكثر حكمة، عندئذ سوف يكون البحر المتوسط ، للأبد ، قد أصبح بحرا فرنسيا، في حى من غارات القراصنة.

من كل ذلك نرى كيف يختلف إنشاء هذه المستعمرة الجديدة على طرف بحر ضيق ومجاور، وفي واحدة من أجمل بقاع العالم، عن هذه المغامرات البعيدة التي تسعى لخلق منشآت باهظة التكاليف، معرضة لكل الاحتمالات والشكوك التي تجلبها الحرب، والتي لا يمكن الاحتفاظ بها حتى في وقت السلم دون أن نضاعف من ضحايا المناخ غير الصحى (هناك). ولن نكون بحاجة على الإطلاق أن ننقل إلى هناك (إلى مصر إذا أصبحت مستعمرة فرنسية) مزارعين أجانب باعتبارهم عبيدا، بل إننا - بعيدا عن ممارسة أى عنف ضد الأهالى هناك - قد نعيد كل ما سلبته منهم حكومات رعاء ومستبدة.

وعلى هذا فقد كان المشروع الذى نعرض له الآن يستحق فى واقع الأمر التأمل من جانب رجل دولة، فليس فى هذا المشروع إلا ما هو نافع ومجيد، كما أنه مناسب لحلفائنا ، ويضمن للشعوب المجاورة مقادير أفضل، وسيوحد بين الفوائد السياسية التي ستتحقق لوطننا والمصالح الحقيقية للأمم الأخرى، وهو أمر لا يقدر بثمن.

لكن الأحوال فى أوروبا لم تسمح لمصر مطلقا بأن تحصل على العطايا التي وعدت بها، ومع ذلك فإن ذكرى الحملة الفرنسية لن تمضى مطلقا دون أن تؤتى ثمارها، ولسوف تعرف حكومة القسطنطينية كل المزايا التي كان بمقدورها أن تحصل عليها لو أنها أعطت لهذا الإقليم إدارة أفضل، كما ستتبين بكل سهولة أية مرام أو نوايا كانت ترمى إليها تلك القوى الأوروبية التي سعت لإعادة تثبيت سلطة

الممالك، فلا يمكن أن تكون هناك وسيلة أكثر ضمانا لحرمان مصر من الميزات الخاصة بها إلا بإعادتها إلى طغاتها الأولى، أولئك الذين يتساوى عداؤهم للصالح العام بعداوتهم للسلطة الشرعية، وأخيرا فإن البلاط العثماني سوف يغترف نصائح مفيدة من السفر الذى ننشره اليوم، وسيكون بمقدوره أن يلجأ إلى فنون الغرب، وأن يستخلص من هذه الموسوعة نفسها القدر الأكبر من النتائج التى تؤكد له ما قدمته جيوشنا من إسهامات، وأن يضع موضع التطبيق تلك النوايا الطيبة التى كانت فرنسا قد كونتها.

وإذا سعينا الآن إلى تمييز الوسائل التى يمكنها أكثر من غيرها أن تسهم فى نجاح هذه الأهداف، فلسوف ندرك كم كان مهما أن نمهد السبل لتقديم العلوم والفنون، إذ لا يمكن فى واقع الأمر أن تكون هناك ظروف أخرى أكثر إلحاحا من تلك لتطبيق العلوم والفنون . كان من الضرورى أن نثرى الزراعة ، وأن نتوسع فيها، وأن يدرس مجرى النهر ، وأن تخضع الزراعة لخطة شاملة، وأن نعمل على اتصال البحرين ، وأن نؤمن الملاحة فى الخليج العربى، وأن تنشأ الترسانات البحرية والموانئ.. كان ينبغى أن نرقب طقسا يكاد يكون مجهولا (بالنسبة لنا فى أوروبا)، وأن نمتد بأبحاثنا فى مجال التاريخ الطبيعى والجغرافيا لتشمل البلدان المجاورة، وأن ندير التجارة، ونطور المنسوجات والصباغة وطرق استغلال النطرون وتصنيع السكر وملح النوشادر والنيلة، وباختصار أن نخلق صناعة جديدة وأن نضع فى خدمتها كل اكتشافات أوروبا.

وهكذا أثرت فكرة اصطحاب العلوم – التى تمثل المعرفة الشاملة – إلى وادى النيل ، بعد أن نفيت عنه لوقت طويل ، كانت هذه الفكرة تستوحى الأمجاد القديمة لطيبة وممفيس ، واستقرار آلهات الفن والعلم والأدب الإغريقية فى عاصمة خلفاء الاسكندر، كما عرفت بشكل أفضل فائدة ومدى نطاق المشروع الذى كنا على وشك تحقيقه. وبعيدا عن أن نتقبل فى العلوم تمييزا لا يتفق مع تسامى الغايات ، فإن أولئك الذين يستعينون بها للإسهام فى انتصاراتهم لم ينظروا إليها (العلوم) إلا

باعتبارها تنتمي جميعا إلى نفس العائلة . لقد أراد القائد أن نستزرع فى وقت واحد كل فروع الآداب والفلسفة ، ولجأ إلى العلوم الرياضية التى تشكل مبادئ دقيقة فى كل المجالات باللغة الأهمية، كما لجأ إلى العلوم الفيزيائية التى تهدف إلى دراسة ووصف الطبيعة، كما التجأ إلى الفنون ذات الفوائد المباشرة والمحسوسة، وكذلك إلى تلك التى لا تقل عن ذلك قيمة ، والتى تساهم فى تألق الحكومات ، وتمدنا بأنبل مباحج الأرواح والعقول. وكان يمكن لمصر فى وقت قصير بفضل هذه الإدارة الحكيمة ، لا أن تصبح مستعمرة فرنسية فقط، بل بشكل ما إقليما فرنسيا، وأن تقدم لسكانها الجدد صورة من وطنهم هم .

لقد كانت تلك هى الاعتبارات التى أوجت بمشروع إقامة هيئة علمية فى عاصمة البلاد التى ذهبت جيوشنا لإخضاعها . ولقد انتهينا للتو من تذكر مختلف عصور تاريخ مصر ، بالإضافة إلى الوقائع التى سبقت الحملة الفرنسية ، كما استعرضنا المرامي والأهداف التى تعهدنا بمقتضاها هذه الحملة وأدائها، ويلزمنى الآن أن أقدم إلى القارئ الظروف الأساسية لهذا الحدث الكبير.

كان الفرنسيون الذين وجب عليهم أن يسهموا فى هذه الحملة قد حشدوا فى نقاط مختلفة على سواحل البحر المتوسط، لكنهم كانوا يجهلون الهدف الذى سيقادون من أجل تحقيقه، وأبدوا فى هذا الخصوص تخمينات باللغة التعارض. لكن التوقد العسكرى وحمية الشباب ، بالإضافة إلى عدم اليقين، كانت تجعل القلوب تخفق بشدة، وإن كان ظهور فاتح إيطاليا قد أوحى بثقة تامة وعامة، كان اسمه وحده كفيلا بأن يثبت الأمانى كأنها بالفعل قد تحققت.

وبعد أن خرج الأسطول الفرنسى من خليج طولون وانضم إلى الفرق التى تشكلت فى موانئ إيطاليا، توقف فور رؤيته لمالطة التى كانت حكومتها قد أعلنت نفسها منذ وقت طويل فى حالة عداء معنا، لكن هذه الجزيرة التى هوجمت بشدة لم

تبد إلا مقاومة ضعيفة لا طائل من ورائها، وسرعان ما أذعنت وأقيمت بها حامية فرنسية، وكانت ثمانية أيام بالكاد قد انقضت منذ ظهرت سفننا أمام مالطة، ثم تقدم هذا الأسطول الضخم سريعا نحو مصر. وحين وصلنا إلى ساحل الإسكندرية، كان البحر يضطرب بقوة وعنف مما جعل دخولنا أمراً عسيراً ومع ذلك فقد كان أدنى تأخير يمكن أن يصبح كارثة مميتة، وسرعان ما تم الإنزال، وزحفت فرقة من القوات الفرنسية على الإسكندرية قبل انتهاء الليل، وكان القائد العام نفسه على رأس الصفوف، وأبدى السكان مقاومة حامية وعديدة، ولم نستطع عندئذ إقناعهم بأن هذه الحرب موجهة فقط ضد المماليك، وليس ضد رعايا السلطان المخلصين. لكن أية عقبة لم تكن لتوقف حمية قواتنا، فاخترق جنودنا المدينة واستولوا عليها، وعندئذ مارس المنتصر سلطة وصاية، وقدم إلى الأهالي السلام والأمن، واستقبل بترحاب رسل القبائل البدوية، أو الـ Scénites الذين يسكنون الصحراوات المجاورة.

وفى هذه الأثناء كان هناك أسطول معاد يعبر مختلف مناطق البحر المتوسط. وظهر أمام ميناء طولون بعد أن كنا قد غادرناها، ثم ظهر فى مالطة بعد رحيلنا، وبعد ذلك ظهر فى الإسكندرية قبل مجيئنا، ثم ابتعد ليمسح الخليج فى نفس الوقت الذى كان الجيش الفرنسى فيه يخترق الصحراء متقدما نحو العاصمة.

لقد جذبت الأحداث العسكرية التى أصبحت هذه البلاد عندئذ مسرحا لها، انتباه العالم أجمع، فقد انتشر خبرها على الفور فى الشرق وأفريقيا، وتمكنت كل النفوس فى أوروبا حالة من الترقب، وأخذ الناس يرقبون إلام تؤول المغامرة؟. ولقد أثارت أمارات الشجاعة والصبر المتضاعفة والتى ميزت هذه الحملات، وكذا المخاطر التى كان الجيش الفرنسى يتعرض لها بدون انقطاع، والمتاعب التى لا سبيل إلى شرحها والتى ظل يواجهها، وكفاءة القواد وتضحياتهم— أثار كل ذلك فى فرنسا إعجابا وعرفانا عامين. ولم يكن هناك شخص واحد لم تهزه جدة وحداثة الظروف الغريبة للغاية على أجوائنا، أو هذا الإسهام غير المعتاد من

جانب أحداث الحرب الباهرة فى الاكتشافات الحاذقة ، وبصفة خاصة هذه الأوضاع العسكرية والمدنية والسياسية الكثيرة التى فرضت على القائد العام مهمة أن يفتزو وأن يحكم فى نفس الوقت .

لا تسمح لنا طبيعة هذه المقدمة إلا بالإشارة إلى تسلسل هذه الأحداث، ومن شأن التاريخ وحده أن يتصدى لها ، وهذه معروضة بكل فخار واعتزاز فى مراسلات وروايات حملتى مصر وسوريا . وكان واضح هذه الدراسات المتألق - وهو الذى كان أمينا بصفة مباشرة على أفكار ومرامى القائد العام - يقود كل التحركات، ويحدث كل العقبات، ويسهم بفخار وعظمة فى كل النجاحات، وهكذا اكتسبت صروح الشرف الفرنسى - التى تولى بنفسه نقلها إلى الأجيال المقبلة - مزيدا من الصدق والأصالة ، ومزيدا من التألق فى وقت واحد .

وما أن تم إخضاع الأسكندرية حتى توغل جيشنا فى أعماق مصر، وأصبحت رشيد فى حوزتنا، وأخذت سفننا المسلحة تصعد النهر، ويقدم تاريخ هذه الحملة سلسلة متوالية من التقدم السريع والمعارك والنجاحات، ولم يستطع أن يبطئ من الاندفاع الجسور لقواتنا ، لا لهيب الصحراء ، ولا النقص التام للمياه والمؤن فى منطقة قاحلة ومجهولة بالنسبة لنا . لقد تشتت العربان، وخسر المماليك معركتين نظاميتين، واحتل مكان الثقة العمياء التى كانت لديهم كل من الفزع واليأس، فتركوا القاهرة، وهكذا كانت عشرة أيام كافية كى تحسم قدر مصر . أما مراد وإبراهيم فقد انفصل كل منهما عن الآخر، كانا قد فقدنا سلطتهما ، لكن عداهما لنا قد استمر، ولأن أولهما - وهو أكثر ميلا للقتال من زميله - بالصعيد، أما الثانى فقد اندفع فى عجالة نحو صحراوات سوريا، وكان آخر عمل من أعمال القوة قام به هو انتهابه لإحدى القوافل . وجدَّ الفرنسيون فى أثره، وأمكن للقائد العام نفسه، مع بعض رجال من طلائع جيشه، أن يلحق بمماليك هذا البك الهارب، فهاجمهم وشتت شملهم ، وأرغمهم على الإسراع بالتقهقر بعيدا عن حدود غزوه .

عندئذ علمنا أن أسطولنا الذى كانت الأوامر قد صدرت إليه إما بدخول ميناء الاسكندرية أو الانسحاب إلى مضيق كورفو، وإن كان قد نفذ الأوامر على نحو مخالف للغاية - قد هوجم للتو، وتحطم بشكل شبه تام فى خليج أبى قير. وأوحت هذه الانتكاسة غير المتوقعة، والتي لم تنل من عزيمة وشجاعة الفرنسيين، أوحت لهم بعزم أكثر ثباتا وبإصرار شبه إجماعى.

وفى الوقت الذى كان الفاتح فيه مشغولا بأمر إصلاح الحكومة المدنية بالقاهرة، تفجرت روح العصيان فى هذه المدينة، فتسلح عدد كبير من الناس، ولقى كثير من الفرنسيين الذين فاجأهم الأحداث وهم فى داخل بيوتهم أو فى الميادين العامة، حتفهم برصاص المتمردين، لكن قوة السلاح أعادت استقرار النظام، ولقى بعض الزعماء عقابا قاسيا، وتم العفو عن الألوف الجاثية. كانت مصر حتى ذلك الوقت لم تعرف حقيقة سادتها الجدد، ثم أحست فى هذه المناسبة بتفوق قوتهم، كما أدركت الدرس الذى لا بد لها أن تستخلصه من تسامحهم ورافتهم، وهكذا أخلت هذه الاضطرابات الدامية مكانها لأمن دائم.

غدت قواتنا تحتل الساحل الشمالى، وكل الأقاليم الداخلية، وقد أمكن لفن والصناعة حاذقين أن يخلقا - ربما بشكل مبالغت - أعمالا ومنتجات خاصة بالدفاع العسكرى عن البلاد. كانت هذه الإنشاءات التى تتناسب مع نوع الحرب التى قدر علينا أن نخوضها، تهدف إلى التصدى للمشاريع الأولى للعدو، وإلى توفير كافة المؤن والمواد التموينية التى تتطلبها تحركات الجيش.

بدأت مصر، فى النهاية، وبعد أن تخلصت من طغاتها، تتمتع بنعمة القوانين، ومارست هذه القوانين هناك - تحت رعاية الجيوش الفرنسية - سطوة لم تكن لها فى العادة، ودعى القادة الوطنيون لتولى الوظائف المدنية، وعادت العلوم - بعد نفى طال أمده - لتزور مسقط رأسها، وأخذت أهبتها لتطوير وتجميل وطنها الأم،

وتوسعت الجغرافيا بأبحاثها لتشمل الموانئ والبحيرات والسواحل، وحددت بدقة مواقع كل الأماكن الهامة، وأقامت مقاييسها على أساس الملاحظات الفلكية، ودرست الفيزياء خواص الطقس، ومجرى النهر، ونظام الري، وطبيعة التربة، والحيوانات والمعادن والنباتات. أما الفنون الجميلة فقد عثرت على نماذجها القديمة، وتأهبت لتنتقل إلى أوروبا - بأمانة - هذه الآثار الخالدة لعبقريّة مصر. كان ثمة قائد لامع يخلع على كل هذه الأمور بريق مجده الشخصي، وكان يشجع بحضوره كل الاكتشافات، بل كان بالأحرى يحض عليها، واستوعبت عقليته الواسعة، في وقت معا، وبسهولة لا تكاد تصدق، مشاكل الحرب والسياسة وشئون القوانين والعلوم.

ولقد شرعنا تحت رعايته في إجراء الأبحاث التي ننشر اليوم نتائجها، وقد عاون في هذه الأبحاث جميعا القادة والمهندسون والضباط الفرنسيون، لقد تمت في بعض الأحيان تحت إشرافهم، وكان الكثيرون منهم يخصصون - لصالح تقدم العلوم - كل وقت الفراغ الذي أمكن أن تتركه لهم العمليات العسكرية. ولقد نشرت بالفعل دراسات بالغة الأهمية عن الجغرافية الطبيعية للدلتا، وعن الوضع السياسي لمختلف طبقات السكان، وكذلك عن مجرى النيل، وطبيعة التربة، ووصف العصور القديمة، ولقد أفدنا من كل التسهيلات التي أمكنها أن تعرض لنا كي نجتاز ونلاحظ البلاد التي احتلتها جيوشنا، ولم تكن أية عملية استطلاع عسكرية لتتم إلا ويسارع عضو أو عدة أعضاء من المجالس العلمية المختلفة في الانضمام إليها، بغية القيام ببعض كشوف مفيدة. وكان العربان الهلوعون يفرون من كل مكان، تاركين المسرح الذي اعتاد على ما يلحقونه به من دمار، وكانوا بذلك يخلون المكان لتلك الجرأة التي تستعصى على الهزيمة، لواحد من ألمع قادة جيش الشرق، قدر له أن يسهم بفخار ومجد في الانتصارات التي تمت في سوريا وأبى قير (الجنرال مينو)، والذي جعلت يده الراحية، والحاضرة على الدوام، الجزء الغربي من مصر، يحظى بأمان لم يكن معتادا عليه.. كذلك أصبحت عمليات

التفتيش على السواحل أو الصحراوات المجاورة، وكذا الحملات التي تمضى إلى أماكن بعيدة، وعمليات الزحف التي تقوم بها سرايانا ، والمفاوضات أو حتى المعارك التي تخوضها مع هذه القبائل الهائمة ، أو الأعمال الإدارية .. أصبح ذلك كله مناسبة بل وأحيانا غاية ، للقيام ببحث جديد .

كنا قد أحضرنا معنا من أوروبا كل الأدوات اللازمة للطباعة، وجمعت هذه فى القاهرة فى مبنى كبير، كانت تسهر على إدارته حماسة نشطة متنورة، وكان هذا الفن، الذى كاد أن يكون مجهولا كلية من جانب الشرقيين، يثير اهتمام كل المصريين، وقد ساعد على مضاعفة عمليات الاتصال، سواء فيما بين الفرنسيين أنفسهم، أو بيننا وبين السكان، كما سهل فى نفس الوقت من نجاح الحملة وتقدم العلوم.

ولقد وضعت الأنظمة بالغة الدقة فى كل أجهزة الحكومة الداخلية، وهكذا لم يقتصر الأمر على أن السكان لم يتعرضوا قط لعمليات الإهانة والإذلال التى تميز النجاحات العسكرية فى الشرق عادة، بل لقد احترمت تقاليدهم الدينية والمدنية، وعوقبت أتعفه إهانة أو سباب (وجه إليهم من جانب جنودنا) بقسوة مدوية، وحل نظام معتدل للضرائب، وزعها بعدالة بين طوائف السكان ، محل الابتزازات والمظالم التى كانت تقع من جانب سادتهم القدامى. أما الدين والشريعة فكانا موضع تجيل وتقديس من جانب الفاتح، وحظيت هيئتهما بفضائله ، وتحقق لهم ما يريدون من قبل أن يفصحوا عنه، أما حق الملكية، الذى كان يخرق أو ينكر على الدوام ، فلم يمسسه سوء ، وسادت العدالة واستتب النظام فى المدينة فأمنت المعاملات التجارية ، وفتحت الحكومة كل مصادر الازدهار الزراعى، وتمت بالعناية الواجبة صيانة الترع التى تنقل مياه النهر ، والجسور التى توقف مجراها، وافتتحت خطوط اتصال جديدة، وعهد بإدارة هذه المشروعات الكبرى، والتى سددت تكاليفها بكل نزاهة ، إلى اثنين من خيرة كفاءاتنا ، ونشرت الأسلحة الفرنسية - الراحدة فقط لأعداء مصر- الرعب والفرع بين عصابات لصوص الصحراوات، وعقدت العدالة مع القوة حلفا دائما .

لقد كان كل واحد من التغيرات السابقة التى مرت بها هذه البلاد مؤشرا لقيام نظام جديد من القهر، ولم يكن الناس، وهم الذين قد اعتادوا ألا يروا فى سلطة الحاكم إلا حقه المطلق فى السلب والإيذاء، يستطيعون أن يتقبلوا أو يعقلوا أن النصر يمكن أن تعقبه سعادة عامة، وأن تكون له أغراض بمثل هذا النبل . وتفتحت القلوب فى النهاية للمعرفة، وظهرت مشاعر جديدة - لم يوح بها من قبل أى حاكم من حكامهم - ربطتهم بالحكومة الجديدة، وإلى الآن، لا يزال لاسم فرنسا سطوته فى هذه البلاد، ولن يكون فى وسع أية أحداث أن تمحوه.

كان القائد العام يرنو ببصره منذ وقت طويل إلى ربط البحرين، فاتجه إلى السويس على طرف الخليج العربى، واكتشف مع توجهه نحو الشمال، ولفت نظر مرافقيه إلى آثار ترعة قديمة ، نفذها الملوك القدماء بهدف ربط النيل بالبحر الأحمر، وتتبع آثارها لوقت طويل، وبعد ذلك بأيام قليلة، تعرف - وكان قد اقترب من الأراضي التى تروىها مياه النيل - على الطرف الآخر لهذه التربة، إلى الشرق من بوابسة القديمة^(٤٦)، فأمر على الفور باتخاذ كافة الإجراءات الضرورية لتنفيذ المشروع الضخم الذى كان ينعم فيه النظر، وعهد بالمهمة إلى رجال، كان يقدر جدارتهم العليا وحماسهم، ربطوا معارفهم النظرية بكل معطيات التجربة وخبراتها.

كان لنفس هذه الرحلة كذلك - على الرغم من قصر مدتها - غرض آخر ، فقد أمر القائد العام بالتعرف بدقة على ميناء الخليج وسواحل وظروف الملاحة فيه. لقد كان يتدبر أمور الدفاع عن السويس ، وعدل الرسوم المتزايدة التى كانت مفروضة على التجارة، وبذلك جعل تجارة الصادر أكثر سهولة وأوفر أمنا، كما أنشأ علاقات ود ومصلحة مع عربان القبائل المجاورة.

ولم يتوان الجزء المدارى من مصر مطلقا فى أن يتحرر من ربة الممالك، كان مراد قد التجأ إلى هناك، وتحالف مع نفس الممالك الذين سبق له أن طاردهم

(٤٦) حاليا ، تل بسطة بالشرقية. (المترجم) .

بانتقامه ، وأصبح الآن يوجد بينهم وبينه خطر مشترك يهدد أقدارهم جميعا ، واستدعى مراد لنجدته من الشاطئ المقابل للبحر الأحمر فيالق من أبناء مكة وينبع ، وكانت ذكرى سلطته لاتزال تخضع له أبناء الريف وسكان الصحراوات المجاورة . جمع مراد كل هؤلاء ، وجهاز الإمدادات ، وجبى من كل مكان ضرائب حرب ، ومع ذلك ، فسواء كان هو الذى بدأ هجومه أو كان الفرنسيون هم الذين بادؤوه ، فقد هُزِمَ وشرع فى الفرار ، محتفظا على الدوام بجزء من قواته . وحيث لا توجد بالصحراوات الوعة طرق مجهولة بالنسبة له ، فسرعان ما ظهر من جديد ، على رأس قوات جديدة ، ولقد تغلب الضباط القادة الذين أوكلت إليهم أمور هذه الهزيمة العسيرة (أى هزيمة مراد) على كل العقبات التى كانت تواجههم بكفاءة غير معتادة ، واستعاروا على نحو ما نفس وسائل عدوهم وعاداته فى مواجهة شئون المعيشة ، وسرعان ما تفوقوا على هذا العدو بسبب من جسارتهم وهمتهم ، بل وكذلك بفضل معرفتهم بطبوغرافية مسرح القتال . وأخيرا أقصى الممالك من الصعيد ، ودفع البعض منهم ثلاث مرات متواليات إلى ما وراء شلال أسوان ، وانسحب بعض آخر منهم إلى الواحات التى تفصلها فراغات شاسعة وقاحلة عن وادى النيل ، أما العربان فقد هلكوا أو تشتتوا ، ومسحت العدالة والسماحة قلق الشعب وذعره ، وأتمت فعل النصر .

أما الجنرال الذى عهد إليه منذ البداية بمهمة احتلال الصعيد ^(*) ، وأن يدمر هناك سلطة الممالك ، فقد خفف من ويلات الحرب بأمارات متضاعفة من الحكمة وسمو الروح ، كان يعيش من أجل آمال الوطن وشرفه ، وسرعان ما وجب عليه أن يهرع إلى سهول إيطاليا ، وأن يسهم بكفاءته وشجاعته ، بل وبالتضحية بحياته نفسها ، فى حدث خالد ، كان له بالغ الأثر على الموقف فى أوربا ، وحين أنهى بعظمة ومجد ، فوق ساحة المعركة ، سجله المضى ، فقد وجد فى انتصار جيوشنا المكافأة على جهوده العظيمة ، واختلطت بأتين أنفاسه الأخيرة صيحات النصر ،

(*) الجنرال ديزيه Desaix . (المترجم) .

وكان قد بث في جيش الشرق، وفي قلوب سكان مصر شعورا عاما بالتعلق والإعجاب به، ولم تكن ذكراه أقل من حياته تبجيلا بفعل من مشاعر الحزن المؤثرة من جانب أولئك الذين كان قد حكمهم (في مصر) أو بفعل الآلام الجليلة التي سرت بين الفرنسيين.

هذه هي وقائع الحملة التي فتحت لنا محراب مصر، وفي خلالها اكتشفنا هناك ذلك المعبد الرائع في تنتيريس القديمة، كما اكتشفنا آثار طيبة الجديرة حقا بأشعار هوميروس، بالإضافة إلى بيوت الفراعنة، الملكية بمعنى الكلمة، ولقد توغلنا إلى ما وراء الفانتين، وفي هذه الجزيرة المقدسة، التي تبدو في حد ذاتها وكأنها مبنى قائم بذاته، صرح شبيده المصريون على شرف آلهة الفنون الجميلة. ولقد أخذ الجنود الفرنسيون الذين استدعتهم الحرب إلى ضفاف النيل إعجابا بهذا العمل الرائع، وتوقفوا كما لو كانت قد شدهتهم الدهشة والاحترام. وكان شاهدا على هذه الأحداث التي لن يلقى بها تاريخ الفنون الجميلة مطلقا إلى زوايا النسيان، رجل نواقة لا يمكن أن يقدرها إلا واحد من نوعه، وستظل أعماله - التي قدمت لأوروبا لأول مرة فكرة تامة وصحيحة عن آثار مصر - تلفت في كل العصور انتباهها قويا، إذ إن لها جمالها الذي لا يشع إلا منها، كما أنها تتجاوز بكثير ما يمكن للمرء أن ينتظره من جهد ومقدرة رجل بمفرده^(*).

ولقد أحرز تطبيق النظريات الميكانيكية والكيميائية في القاهرة تقدما كبيرا، وكنا قد جمعنا داخل نفس سور المبنى الكبير الذي خصص للعلوم كل العناصر والأدوات التي يمكنها أن تساعد في تطور الصناعة، وكان يدير هذه المنشأة رئيس يدعو للاحترام، فقدته العلوم والوطن منذ عدة سنوات، وكان يجمع إلى حماسه المنزهة عن كل هوى كفاءة حاذقة معطاء، كانت تفتح له أفقا لم تكن مرئية، وكان بالفعل قد أثرى فرنسا بالكثير من الاختراعات، وسرعان ما منح مصر بعضا من

(*) لعله يشير هنا إلى فيغان دينون Vivant Denon، (المترجم).

فنون أوروبا بالغة الأهمية ، فأنشئت ماكينات هيدروليكية ، وصنع الصلب والأسلحة والأجواخ والأدوات الرياضية والبصرية ، وقد قامت هذه المصانع الكبيرة خلال فترة الحملة بتهيئة ألوف الأشياء التي كان من شأنها أن تسهم في نجاح الحرب وفي مباهاج السلام. ولم يتوان أهل البلاد مطلقا عن الإفادة من المزايا التي حققتها هذه المنشآت ، فبدأوا يلتفتون إلى مصانعهم ويطورون الوسائل التي كانوا معتادين على استخدامها ، كانوا يتأملون باهتمام شديد منتجات المصانع الفرنسية ثم يدأبون على تقليدها ، واعترافا منهم بصنوف التفوق المختلفة التي وجدوها في الغازي فقد خضعوا بمزيد من الثقة لسلطة الحكومة الجديدة الراعية. وكان صنع البارود من عمل شعبية خاصة ، وحقق الشخص الذي عهد إليه بإدارتها - بتقديمه خدمات بالغة الخطر - كل الآمال التي أدركها بمعارفه وكل خبرته الطويلة . كان مجمع القاهرة يدير الأبحاث ، وكان الأشخاص المكونون له يضعون نصب أعينهم على الدوام مصالح الجيش ، والحرص على تقدم العلوم والفنون ، وكان يشجعهم في عملهم صداقة يقظة ومعونة حقة من ضابط يتحلى بأنبيل وأعظم الصفات ، كانت تنتظره في ميادين سوريا مية مجيدة ، أثارت الأشجان والأسى^(٥٥) . كان نموذجا يكاد يستعصى على التقليد في النزاهة والمثابرة والفضيلة ، كان كائنا ولد من أجل كل الفضائل والعواطف الكريمة ، وكان ينسى دون تصنع آلامه الخاصة ليشعر بقوة بالآلام الآخرين ، ولم يبد أحد على الإطلاق مثلما أبداه هو من نوايا طيبة ، من أجل سعادة الوطن وتقدم العقل والفنون ، وقد أسهم في كل الأبحاث العلمية التي شرعنا فيها في ذلك الوقت ، وقد شاء وفاء التاريخ أن ترتبط ذكراه بالاكشافات التي كانت ثمرة لهذه الأبحاث.

ومن بين الأمور الجديرة بأن تلفت انتباه أوروبا - العلم بأننا تمكنا من أن نحدد بدقة المواقع الجغرافية ، ولقد أعطينا لهذا الإنجاز الكبير كل عناية مثابرة ، كما لجأنا لكل الوسائل والطرق التي تضمن دقته ، كما تأسس ذلك - في

(٥٥) لعله يقصد الجنرال كافاريللي . (المترجم)

جزء منه - على ملاحظات فلكية تحدد موضع المدن والأماكن بالغة الأهمية. ولقد شرعنا في هذه الأعمال - التي ندين بها لمواهب متمرسية بذلت أقصى ما في طاقتها من حماسة مرجوة - وسط قعقة الحرب وفي داخل أقاليم متباعدة ، لم تخضع لنا إلا منذ عهد جد قريب ، وكان خضوعها علاوة على ذلك غير مؤكد ، وكنا نضطر في مرات كثيرة أن نستبدل الأسلحة بأدوات القياس، وعلى نحو ما، أن نصارع وأن نخضع الأرض التي جئنا لقياسها.

كانت مصر قد تخلصت من السلطة التي كانت تقهرها، وكنا قد اقتصصنا من الإهانات التي وجهت إلى الأمة الفرنسية، وكان لنا أن نأمل أن هذه الأحداث لن تشعل مطلقا الحرب بيننا وبين الامبراطورية العثمانية. وفي الواقع، فلقد كانت هذه الولاية الجميلة منذ وقت طويل فريسة سائغة لبعض عبيد (ممالك) ينشدون الاستقلال ، وكانوا يزدرون - عن طريق إهانات مستمرة - صاحب الجلالة السلطان، بالإضافة إلى ازدرائهم لجلال الشريعة والدين . وكان الباشا، المفترض أنه مطاع من جانبهم - أسيرا لهم، وشاهدا لآحول له على فظاعتهم التي كانت تمر دوما دون عقاب، وأصبحت السلطة التي لا ينفكون يتنازعون عليها هي المكافأة التقليدية للجريمة والكران . وحين يتوصل واحد منهم - إما بفعل السم ، وإما عن طريق الحديد والنار - إلى تدمير كل أصحاب الفضل عليه وكل منافسيه، فلن يكون هذا النجاح سوى أمارة على عصيان موجه ضد الباب العالي. كان أكثر هؤلاء خضوعا ينازع في تسديد الضريبة الضئيلة التي قررها الباب (على مصر)، أما الآخرون فيرفضون سدادها بشكل صريح . ولقد أرهقوا بابتزازاتهم ، التجارة الداخلية وتجارة أوربا والجزيرة العربية وأفريقيا، كما أزهقوا الزراعة وكل الحرف النافعة، كما كانوا يمارسون على الشعب سلطة منفرة جامحة.

وقد يكون من الأوفق أن نقول إن الأسلحة الفرنسية قد خلصت مصر، لا أنها قد هزمتها. وسوف تمضي هذه الأرض البائسة، والتي ظلت حتى ذلك الوقت خصيبة دون جدوى، نحو حالة من الازدهار السريع، كما أن مال هذا التطور الذي

لا يمكن أن تفزع منه سوى قوة أوربية واحدة^(٣٦) لم يكن ليتعارض مطلقاً مع مصالح الامبراطورية العثمانية، بل كان يمكن لهذه، على العكس من ذلك، أن تزيد من عوائدها، وأن تدعم سلطتها في إقليمين هاميين (من أقاليمها)، وكان المنتظر من بلاط القسطنطينية أن يفضل أقدم حليفاته على رعايا له لكنهم عصاة متمردون، لم يكن سيفقد مصر وسوريا، بل كان سيسترجعهما على نحو ما، كان ينبغي على هذا البلاط أن يرى في قيام مؤسسة (مستعمرة) تحت رعاية وحماية جيش قوى، وتعاونها كل فنون أوربا، أمراً يعد كلا الدولتين بمزايا واسعة، وبوسعه أن يدعم سطوة الاسم العثماني في آسيا وأفريقيا. لكن هذه الاعتبارات لم تكن محل تقدير على الإطلاق، كان ضباط الامبراطورية، القادرون على إدراك واستبصار هذه الدوافع معزولين أو منفيين، ولقد أكد الانتصار البحري الذي أحرز في أبي قير، لدى هذه الحكومة، الرأي الذي كان لا يزال غير مؤكد، فأذعنت لنصائح أعداء فرنسا الذين أوحوا إليها بمحاذيرهم الخاصة، وسرعان ما انسأقت إلى حرب وإلى تحالف مضادين لنا.

كان قائد الحملة الفرنسية قد بذل أكبر الجهود ليتفادى هذه القطيعة، كان يدير أسلحته فقط ضد أعداء السلطان، وعمل على تأكيد الاحترام لاسم السلطان باعتباره الحاكم الشرعي (لمصر)، كما راعى بكل عناية العادات والتقاليد الدينية والسياسية. كان جيشه يسلك في مصر باعتباره جيشاً معاوناً للباب، ولم يسبق لهذه الولاية أن كانت محكومة بشكل أفضل، ولا تتمتع بممارسة عباداتها على نحو أيسر، ولم تكن قد خضعت من قبل مطلقاً لحكام أكثر استعداداً للاعتراف بسلطة القسطنطينية، لكنه بثاقب بصره كان يصارع وحده ضد كل العقبات، ولم تساعد السلطات في فرنسا نفسها إلا بشروع في التفاوض متأخر وغير كاف. وحده في هذه الظروف أن الأمر سرعان ما يحتم عليه أن يدافع عن مصر ضد قوات

(٣٦) يقصد انجلترا. (المترجم).

هائلة، لذا فقد قر عزمه على مشروع يتميز بجرأة غير عادية، هو أن يتوقى الهجوم المتوقع بأن ينقل الحرب إلى قلب سوريا نفسها.

كانت هذه البلاد تخضع فى جزء منها لسيطرة رجل كانت قساواته وغدره وخياناته قد جعلت اسمه شهيرا فى كل الشرق، لقد كان أحمد الجزار لوقت طويل عبدا فى القاهرة، حيث عوقب كثيرا من جراء سرقاته المنزلية، بل لقد كان يتميز بين الممالك أنفسهم بمخاتلة وشراسة غير عاديتين، وكان قد خان على التوالى كلا من : على بك ، والدروز ، والعرب ، وبلاط القسطنطينية . كان عندئذ حاكم صيدا ، وكان يقيم فى عكا ، وهى بتوليمائيس القديمة Ptolémaïs . بدا الجزار فى الظاهر معتنقا قضية بكوات مصر، وتقدم - مخفيا فى الحقيقة طموحات أكبر - ليقود الحملة التى كانت تدبر ضد الجيش الفرنسى . وفى الوقت الذى كانت فيه هذه الاستعدادات تهز كل أسيا الصغرى وسوريا، عمل هذا الباشا منذ البداية على أن تحتل طلائع قواته مناطق الحدود، لم يكن ليتخيل مطلقا أن عليه أن يخوض هو نفسه حربا دفاعية. وكان كل شئ ينبئ بأن مصر توشك أن تتعرض لهجوم عن طريق البحر، فى الوقت الذى تصبح فيه عمليات الإنزال ممكنة، وكانت الخطة تقضى فى نفس الوقت بتسيير القوات التى تجمعت فى سوريا، وتلك التى يمكن أن يكون البكوات قد احتفظوا بها فى الصعيد، وحين تبين للقائد العام - وهو الذى سبق له أن اخترق مشروعات الطفء - أنه ينبغى أن تمضى عدة أشهر قبل أن يكون باستطاعة أعدائه القيام بأى إنزال للجند، قرر أن يحمل على وجه السرعة، مع اثنتى عشر ألفا من الرجال على سوريا ، وأن يشتت القوات التى تجمعت هناك ، ثم يعود على الفور ليوافه الحملة التى كانت تهدد السواحل . مثل هذا المشروع لم يكن ليتحقق إلا على يد جيش مقدام ، متمرس على كل الفضائل العسكرية ، وفى الواقع فإن التاريخ المفصل لهذه الحملة يستطيع أن يقدم الكثير من الملامح التى لم يسبق لأحد أن سمع بمثلها عن الشرف والقيم الفرنسية. كان علينا أن نتوغل تحت سماء ملتهبة إلى ما وراء صحراء شاسعة ومجهولة ، وأن نغزو

بغته بلداً أجنبياً تذود عنه قوات متفوقة. كان ثمة أسطول إنجليزي في البحر، وكان سكان المدن وكذا العربان الجوابون مسلحين ضدنا، لم يكن بهذه الأرض المعادية إلا كل ما يناصبنا العداء، ولم يكن جنودنا بقادرين على أن يخطوا فيها خطوة واحدة دون أن يلقوا مصاعب جديدة، لكن ثقة لا تحول كانت تسمو بهم فوق كل المخاطر، فأخذوا يتقدمون بسرعة في الصحراء الشاسعة التي تفصلهم عن سوريا، واستسلم حصن العريش، ثم استسلمت غزة، واستولينا بالقوة العنيفة على يافا أو Joppé القديمة، وقررنا في ميناء حيفا، وعثرنا في هذه المناطق، وفي مناطق أخرى متفرقة، على ذخائر، ومعدات قتال، ومخازن هائلة، ومؤن من كل نوع.

كانت أول فرقة من الجيش المعادي، يتلوها المماليك والعرب، قد تقدمت بالفعل إلى هذا الجزء من سوريا، وأخذت هذه القوات في معسكراتها على غزة، وظلت تتراجع مندفعة على الدوام، تاركة في ميادين القتال كل ما لديها من مدافع، وكل معدات القتال التي كانت تتطلبها حملة مدبرة ضد مصر. وفي النهاية شرع قادة الفرق التركية الذين لديهم الكثير من الفرسان، في تجميع قواتهم إلى قوات حلفائهم، وفي أن يحملوا على الفرنسيين وهم يحاصرون مدينة عكا التي كان قد انسحب إليها ولاذ بها أحمد الجزار. لكن القائد العام توقعهم كذلك، ورأى أن من الضروري أن يلتقى معهم في معركة حاسمة، لكي يدفع بهم نحو دمشق. وحين هوجم هؤلاء في نفس الوقت في مناطق بالغة البعد، لم يستطيعوا مقاومة هذه التحركات الجسورة بل المتهورة وغير المتوقعة، ووجدوا أنفسهم قد انفصلوا عن معسكراتهم، محرومين من كل مؤوناتهم، وشبه محاصرين من كل جانب، وسقط الكثيرون منهم إعياء في ازدريلون أو في المعارك السابقة، أما الآخرون فقد لاذوا بالفرار ملتجئين الأمان عن طريق تقهقر متسرع ذي جلبة. كان الفرنسيون قد استولوا منذ البداية على كل الأماكن التي قد يلوذ بها العدو، كما استعاضوا عن قلة عددهم بخفتهم في التحرك وسرعتهم في الزحف، بحيث كان يبدو أن ليس ثمة

نقطة في الميدان إلا وهم يتجمعون فيها ، وكانت النهاية الظافرة (!) لهذه المعارك قد حطمت آخر آمال العثمانيين ، وملأت بالرعب قلوب الأقباط الذين تحالفوا معهم ، فعادت تلتمس الأردن بقايا هذه الفرق العسكرية (المعادية) ، بشكل بالغ الاضطراب ، حاملة معها الفرع إلى داخل مناطق شديدة البعد .

وفي الوقت الذي كان فيه جزء من قواتنا يقاتل على أرض فلسطين بشكل مجيد ، كانت قواتنا التي بقيت بمصر تكمل احتلال بقية البلاد ، ابتداء من أسوان حتى البحر (المتوسط) ، وقام الإنجليز بمحاولة لا طائل من ورائها ضد السويس ، ومع ذلك فقد تم صد عرب مكة ، وتم الاستيلاء على كل الصعيد ، وقمعت حركات العصيان التي اندلعت في الأقاليم الشمالية ، وكان يسهر على الدفاع عن الأسكندرية والسواحل فطنة حاذقة .

وفي نفس الوقت فإن باشا عكا قد تخندق في ملاذه الأخير ، وجاءه العون من البحر ضد الفرنسيين الذين كانت تنقصهم المؤن والمدفعية اللازمة للحصار ، وأمكن لهذا الباشا أن يحصن دفاعاته ، بحيث تستطيع أن تصمد لوقت أبعد من الوقت الذي يمكن لجيشنا أن يبقى فيه في سوريا . كان الغرض الحقيقي من وراء هذه الحرب قد تحقق ، فلقد أحدثنا الارتباك في مشروعات العدو ، واستولينا على مخازنه ومعداته الحربية ، ودمرنا حصونه وأفنيينا جيشا كبيرا كان يستعد لغزو مصر ، وكانت قوات الإنزال المخصصة للهجوم على الأسكندرية قد حولت عن غرضها ، واستخدمت في دعم حصار قاتل . كان استيلاؤنا على عكا يضمن لنا عقاب أحد المماليك السفاحين ، الذي كان يستحق الإعدام بسبب ما اقترفه طيلة حياته ، والذي لا يمكن لأى ارتباط به أن يوحى إلا بالفرع ، لكن هذا الحصار – في نفس الوقت – كان يقتضى منا مزيدا من الوقت ، ولم يكن من شأن النصر أن يقدم لنا إلا مزايا هزيلة ، لا يمكن لها مطلقا أن تكون عوضا عن أخطار البقاء هناك مدة أطول من ذلك ، وفي ذلك الوقت كانت الأمراض المعدية تنتشر رعبا عاما ، وكانت تنتشر في كل أنحاء سوريا بسرعة هائلة ، وتزداد بشاعتها أكثر فأكثر ،

وأخيرا فلقد اقترب ذلك الوقت الذى يمكن أن تهاجم فيه مصر نفسها من البحر. وفى الحقيقة فإن هذه الحملة لم يعد بمقدورها أن تحصل على دعم من الجيش العثمانى فى سوريا، الذى شتتاه للتو، وإن كانت قد بقيت للعدو مع ذلك قوات هائلة .

لقد جعلت هذه الظروف من عودتنا أمرا لا مناص منه، وأنذر القائد العام قواته بأن الدفاع عن سواحل مصر سيفرض عليها جهودا جديدة . وعبرت هذه القوات للمرة الثانية تلك الصحراء التى تفصل مصر عن سوريا، وقبل ابتعادنا عن القطر الأخير عاقبنا بقسوة تلك القبائل التى نكصت عن وعودها ، وخانت مواعيدها مع الفرنسيين، ثم دمرنا المؤن الحربية وكل المصادر التى يمكنها أن تسهل تجهيز حملة معادية بعد ذلك .

وسرعان ما استقبلت عاصمة مصر هذا الجيش الذى واجه الكثير من المخاطر وضرب الأمثلة على كل الفضائل، وتوجه وجهاء المدينة لاستقباله، وتبعتهم حشود هائلة كانت تحيى قواتنا بالهتافات والتهليل والألعاب ، وفى النهاية، ذاق الفرنسيون بهجة الالتقاء برفقاء السلاح. أما الاستقبال المؤثر الذى قدمته هذه الحشود ، فلن ينمى أبدا من الذاكرة ، إذن فقد بدأ الرفاق يتحادثون معا عن المخاطر التى عليهم أن يواجهوها بعزائمهم وآمالهم، وبدأ أن مصر قد أصبحت بالنسبة لهم وطنا جديدا، وأنهم لم يعودوا يشكلون إلا أسرة واحدة .

بعد وقت قصير تعرف القائد العام على حركات متفرقة كانت قد تمت بالداخل، وكان مشروع الغزو المرتقب يوشك أن يفجرها. وفى الواقع فإن المماليك قد هبطوا إلى ضفتى النهر، وتجمع عربان الغرب ليلحقوا بمراد بالقرب من وادى بحيرات النطرون ، فى نفس الوقت الذى ظهر فيه أسطول أبى قير. كنا قد ارتقبنا هذه الظروف ، وهوجم العدو فى وقت واحد فى كل مكان ظهر فيه ، وتحرك طابور شتت العربان ، أما المماليك من حزب إبراهيم، الذين فوجئوا داخل

معسكرهم فقد ولوا الأدبار على الفور نحو الصحراء تاركين أمتعتهم ، وأما مراد - وهو أكثر فطنة وأكثر حذرا - فقد أسرع يلتمس مصر العليا، وكان القائد العام نفسه يجد فى أثره ، وحين بلغه ظهور الأسطول المعادى اتجه على الفور نحو الأسكندرية ، وفى أثناء هذه المسيرة أرسل أوامر بالغة السرعة إلى مختلف فرق الجيش التى شرعت كلها فى التحرك فى وقت واحد، وعمل على مراقبة واحتواء المماليك والعربان، واتخذ وضعا يمكنه من تقديم العون إلى رشيد أو إلى الأسكندرية (إذا هوجمت أى منهما).

كانت قوات عثمانية قد نزلت فوق شبه جزيرة أبى قير واستقرت هناك بعد أن انتزعت الحصن بعد استسلامه، وقر رأى القائد العام على أن يهاجم هذه القوات على الفور وهى وراء حصونها، وكللت كل الهجمات التى تمت على كل المواقع بنجاح سريع، ولم تستطع خطوط العدو أن تصمد أمام الهجمات الجسورة والمتهورة من جانب الفرنسيين، أما العثمانيون فقد دفعهم اليأس إلى استخدام السلاح الأبيض ، ورفضوا رفضا شديدا إجماعى أن يقعوا فى الأسر، وعندما أحيط بهم من كل جانب سقطوا صرعى أو هرعوا إلى البحر محاولين - دون جدوى - الوصول إلى السفن التى جاءت بهم، وهلك منهم عدد كبير فى ميدان المعركة، ومات معظمهم بين الأمواج بفعل نيران مدفيعتنا ، واستولينا على بنادق وخيام وذخائر حربية . أما الباشا الذى كان يقود الحملة فقد وقع هو نفسه فى قبضتنا ، وتحصن ابن هذا الجنرال سيئ الحظ داخل الحصن مع من تبقى من قواته، وشرع يخوض دفاعا بالغ العناد. وفى النهاية، وحين رأى آخر من تبقى من جنود هذا الجيش أسطولهم يدمر بفعل المدافع الفرنسية، وعندما رأوا أنفسهم مشرفين على الموت من الجوع أو العطش أو الإرهاق، ألقوا بأسلحتهم واستعطفوا المنتصر، وكان الحصن قد أصبح كومة من الأنقاض ، تغطيها أجساد القتلى والجرحى ، أجساد أولئك الذين هلكوا أثناء الحصار.

فى الوقت الذى كانت تدور فيه هذه الأحداث فى سوريا ومصر، وكان جيش

الشرق يدافع بثبات وإصرار عن الأرض الشهيرة التى فتحها، كانت فرنسا قد انغمست فى انشغاقات وخلافات مدنية، وكانت جبهاتنا (فى أوروبا) مهددة . لقد أصبحت هذه الأوقات العصبية جد بعيدة عنا، ويحول شعور الألفة السائد اليوم دون أن ننقب فيها. لقد أبلغ القائد العام بحقيقة الأوضاع فى أوروبا وبالكوارث التى تحيق بفرنسا ، وأوحت له معرفته بهذه الأحداث بالرغبة فى معاودة الظهور بين جيوشنا، فقرر بعد ذلك النجاح الذى أحرزه فى أبى قير بأن ينفذ هذا المشروع الذى كانت عواقبه وخيمة على أعدائنا . وكانت مصر قد ألزمت الهدوء ، ولم يكن بالإمكان - لوقت طويل - أن تكون عرضة لهجمات جديدة، وكان المماليك قد فروا إما إلى داخل فلسطين أو إلى حدود النوبة، وكان العربان يجدون سعيا فى الحصول على تحالف معنا. وبذل الصدر الأعظم جهودا لا جدوى منها كى يجمع قواته فيما وراء دمشق، فقد كانت الحملة الفرنسية على الشام قد دمرت كل المصادر التى يحتاجها أى تجهيز لمسيرة جيش ، وكانت الشواطئ (المصرية) - ابتداء من الأسكندرية حتى دمياط - قد وضعت فى حالة دفاع ، وكانت الحصون مزودة بالمؤن وذخائر الحرب . وكانت مدينة القاهرة منذ وقت طويل تجنى ثمار وجود إدارة راعية ، فظهرت بمظهر العارف بالجميل، وخصص القائد العام كل اللحظات التى سبقت رحيله فى تحسين وتطوير المنشآت العسكرية والإدارات المدنية، جاهدا فى أن يجعل وجوده بشخصه أقل ضرورة بقدر الإمكان، وفى نفس الوقت كان يعلم أن المراكب المعادية قد اضطرت للتخلى عن القيام بعمليات المراقبة البحرية، عندئذ رحل إلى الأسكندرية، وبعد ذلك بقليل غادر شواطئ مصر. لقد دعاه الواجب وأمن فرنسا، لقد ابتعد وكشف عن مكنون سره لذلك الرجل الذى عمل فى خدمة مشروعاته الأولى، وأخفاه الحظ عن أساطيل الأعداء، ورد البحر ، الذى كان مخلصا للمرة الثانية، إلى أرض الوطن ذلك الرجل القادر على التصدى لأعدائه الخطيرين .

ولم يكن القائد العام طيلة مدة حرب مصر وسوريا ليكف مطلقا عن رعاية

مصالح العلوم ، فقد كان هذا المشروع الكبير حاضرا على الدوام فى ذهنه ، سواء قبل انتصاره أو بعده ، وسواء كان يقود العمليات العسكرية أو كان يفكر فى أوضاع إدارية أو اجتماعية جديدة، فكان يعهد - وهو بين المعسكرات - إلى عبقرية الفنون الجميلة أن تخلد ذكرى المعارك التى أضاعت سماوات فلسطين والفيوم والصعيد . وفى الأيام الأخيرة التى سبقت رحيله كان لايزال مشغولا بتشجيع الأبحاث العلمية ، وذلك بأن قدم للأكاديمية التى كان قد كونها الوسائل اللازمة لاجتياز وعبور المناطق المدارية من مصر ، ولملاحظة أعاجيبها بأمان، وأصبحت هذه الرحلة التى ستزود الفنون والآداب بالكثير من النتائج موضوعا مباشرا لعنايته وتقديره، فقد وضع بنفسه خط سيرها، وهى لها كل الظروف المواتية مع حيطة وبقظة بالغتين .

كنا فى ذلك الفصل من العام، الذى تسهل فيه رياحه القوية الملاحه فى النيل، عندئذ كان ميسورا علينا أن نصعد فى وقت قصير إلى جزيرة الفانتين ، وفى نفس الوقت، عزمنا على أن نبلغ كل الأماكن التى تقع بها الآثار، بغية التعرف أولا على الأشياء التى ينبغى لنا أن نصفها، وأن نضع عن طريق هذا الحصر الأولى، نظاما أكثر دقة فى أبحاثنا. وحين وصلنا إلى الحدود التى تفصل مصر عن النوبة ، إلى الجنوب من الشلال الأول، هبطنا مجرى النيل ابتداء من أسوان حتى القاهرة، ووضعنا كل أثر مرة أخرى تحت فحص بالغ الدقة، فما أن كانت السفن تلمس الشاطئ ، حتى كنا نهرع لنجتاز من كل جانب تلك الأسوار أو الأفنية التى يمكن أن نجد بها بعض بقايا لمنشآت قديمة. وأقمنا خرائط طبوغرافية، ورسمنا مناظر طبيعية مع كثير من مشاهد تصويرية لكل مبنى ، كما قسنا الأبعاد المعمارية بالإضافة إلى التفاصيل التى لاحد لها للزينات ، وقلدنا بأمانة اللوحات المرسومة أو المحفورة مع كل الحروف الهيروغليفية التى تغطيها، وفى الوقت نفسه كنا نلاحظ الحالة الراهنة للأطلال ، وأساليب البناء ، وطبيعة المواد التى بنيت بها المنشآت، ودونا الكتابات العادية أو التاريخية أو تلك التى

تختص بالنذور والمناسبات الدينية الأخرى، والتي تذكر بكثير من الأسماء اللامعة . وقام آخرون منا بقياس سرعة المياه وكمية ترسيب التربة وارتفاعات الأرض، وحدد فريق ثالث المواقع الجغرافية عن طريق ملاحظات فلكية. لقد أكبنا على فحص طبيعي للمنطقة ، كما جمعنا مجموعات ثمينة من الحيوانات والمعادن والنباتات وكل العناصر التي من شأن دراستنا لها أن تطلعنا على الثروات الزراعية وكذلك التجارة والعادات والتقاليد والوضع الاجتماعى للسكان .

وكان من الضروري أن نلحق بدراسة الخواص الفيزيائية للطقس، دراسة عن الأثر الذى تحدثه هذه الخواص على حياة وصحة الإنسان، وإننا لندين بهذه الأبحاث لأناس وهبوا أنفسهم بحكم مهنتهم لمختلف فروع فن العلاج (الطب) ، وقد رسم خطة هذه الأبحاث كبير أطباء جيش الشرق^(*) ، وقام بتجميعها ونشرها، كما أننا مدينون لكبير جراحى هذا الجيش^(**) بعمل من نفس النوع يضم عددا كبيرا من الملاحظات . ولقد حصلنا، بخلاف المزايا الأدبية التى يضيفها عليهما نشر هذه الأبحاث، كما حصل زملاؤهما - على مزايا أخرى كنوع من العرفان العام . وسوف يظل يذكر تاريخ هذه الحملة لكل هؤلاء كل الخدمات التى أدوها، «ينابيع الحظق والجسارة التى أملتها عليهم كفافتهم ، سواء عندما كانوا يحملون المواساة والأمل إلى ميادين المعارك بين أشد أهوال الحروب وأكثرها إثارة للفرع، أو عندما كانوا يواجهون بروح هادئة الدمار المروع الذى كانت تحدثه الأوبئة ، والفرع القاتل الذى كانت تسببه هذه الأمراض فيعصف بنفوس الألوف.

وقبل أن نشرع فى الرحلة التى أشرت من قبل إليها، كان عديد من الأشخاص المتحمسين لتقدم العلوم قد توجهوا بالفعل إلى الصعيد أو إلى الفيوم، وفى خلال الإقامة الطويلة التى كانت لهم هناك، كانوا قد عكفوا على وصف دقيق

(*) ديجينيت Desginties ، (المترجم) .

(**) البارون لارى Larry ، (المترجم) .

للآثار ، وعلى أبحاث هامة حول مجرى النيل، والطبيعة الفيزيائية للأرض، وزراعة وتجارة وجغرافية البلاد القديمة، وأسرعوا يضمون إلى المؤلف العام كل النتائج التى سبق أن حصلوا عليها.

وقد أنجزت مختلف أجزاء هذا العمل الضخم فى نفس الوقت، فكان كل منا قد انغمس بشكل خاص بموضوع دراساته المعتاد، وكان ينقل إلى الآخرين أفكاره ووجهات نظره، ولقد سهل هذا التعاون المثمر - وهو الذى لا يوجد مثيل له على الإطلاق فى تاريخ الرحلات العلمية - القيام بكل الاكتشافات، وجعل منها اكتشافات أصيلة وصادقة إن صح التعبير، لقد كان الصالح العام للفنون والعلوم والآداب يؤلف بسهولة ما بين العقول ، مبقيا فى الوقت ذاته على تنوع الآراء واختلافها، وسيظل التقدير المتبادل هو أكثر البراهين وثوقا على تألف وتكامل وجهات النظر، وكانت تربط بين هؤلاء - فضلا عن ذلك - صداقة قديمة، الأمر الذى جعل المصاعب أكثر يسرا ، كما جعل المسرات أكثر بهجة، كما كان يعطى جرعات متجددة من القوة عند مواجهة المخاطر المشتركة، ومن الصلابة كلما اشتدت مشقات البعد عن الوطن.

لم يسبق لأى بلد آخر أن خضع لأبحاث يمثل هذا الشمول وهذا التنوع، وفضلا عن ذلك فليست هناك بلاد أخرى جديرة بأن تكون موضوعا لأبحاث كهذه، فمعرفة مصر أمر يهم فى الحقيقة كل الأمم المتحضرة، سواء لأن هذه البلاد هى مهد الفنون والنظم الدينية، أو لأن بإمكانها - حتى اليوم - أن تصبح مركزا للعلاقات الدولية ولتجارة الامبراطوريات . ولقد ترك الشعب الذى كان يسكنها أثارا تدعو للإعجاب بعظمتها وقوتها ونفوذها، كما أن الفنون لم تبدل على الإطلاق فى مكان آخر مثل هذا الجهد ، كى تسمو إلى هذا الطابع الذى لا يحول والذى يماثل فى ذلك أعمال الطبيعة ذاتها.

وفى هذه الأثناء كان الحلفاء قد حاولوا دون جدوى أن يستولوا على ميناء القصير، وبعد ذلك بوقت قصير استعاضت حامية دمياط الضعيفة عن عددها الضئيل بالجرأة والجسارة وسرعة الحركة، فدمرت فرقة قوامها أربعة آلاف من جنود الإنكشارية أنزلوا عن طريق البحر وبدأوا يتخذون مواقعهم على الساحل . ومع ذلك فإن الفرنسيين الموكلين بالدفاع عن مصر كانوا يجهلون الأحداث السياسية التي أعادت الأمن إلى وطنهم ، وحطمت للأبد الآمال الطموح للقوى المعادية، كانوا لا يعرفون بعد إلا أن وطنهم يعيش فى الآلام والشقاء، لذلك فقد كان الوطن موضوع قلقهم وأسفهم . وتجددت (*) تلك المفاوضات التى كانت تهدف إلى التوافق مع الباب العالى، وعلى حين غرة، اتخذت هذه المفاوضات وجهة مختلفة وغير متوقعة، ولهذا أعد وأبرم على وجه السرعة اتفاق العريش العسكرى ، الذى تم الإقرار فيه على أن تعود الفرق العسكرية إلى موانئها (فرنسا)، بعد أن توافق على تسليم مصر إلى سلطة الباب العثمانى، على مراكب مملوكة للقوى المتحالفة.

وعلى الفور بدأت تتم الالتزامات المتبادلة، ودخلت إلى مصر - بحرية تامة - قوات كبيرة، نظامية وغير نظامية للوزير (الصدر الأعظم) والبكوات ، وتقدمت حتى بلغت أبواب القاهرة، وبدأ كل شئ ينذر بأن هذه البلاد الجميلة ستعود من جديد لتقع فى براثن سادتها القدامى، لكن سببين مختلفين أسهما فى تغير مبالغ لما تهيأت له النفوس، كان أولهما هو الإعلان عن ثورة حدثت فى الحكومة المدنية لفرنسا.

استسلم الجيش للمشاعر الجديدة التى أوحى بها إليه هذه الأحداث حين رفض الطرف الآخر تنفيذ الشروط التى كان قد قبلها، ويعود السبب فى ذلك إلى القوى المتحالفة التى ساهمت بأكبر نصيب فى إبرام هذا الاتفاق الذى اقترح

(*) يستخدم المؤلف الضمير on ، وهو ضمير نكرة لا يحدد بدقة شخص الفاعل ، وبذلك يروغ هنا وفى كل السياق لهذه الدراسة من تحديد مسئولية الأطراف المختلفة. (المترجم) .

ووفق عليه باسمها، فلقد وضع عند التنفيذ عقبة غير متوقعة حين وجه إلى القوات الفرنسية اشتراط مهين بأن تبقى أسيرة في مصر، كان الطرف الثاني - بهذا الاشتراط - يجد في هذا التنكر لوعوده، للحصول على امتياز لم يكن ليتوقع الوصول إليه بقوة السلاح . وفي هذا الوقت كانت القوات العثمانية قد استحوذت على الصعيد ، وعلى كل المناطق ابتداء من موانئ البحر الأحمر حتى دمياط، وكنا قد سحبنا مدفعيتنا من قلعة القاهرة ، وكان من المفترض أن نسلم العاصمة نفسها بعد ذلك بيومين، كما كانت المؤن والذخائر بالفعل قد نقلت إلى الإسكندرية، وأصبح الجيش الذي كانت في حوزته قبل ذلك بيومين أقاليم عديدة ثرية وخصيبة، محروما من وسائل مواصلة الحرب ، ولم يعد يملك من أرض مصر إلا تلك التي يصطف عليها، ومع ذلك فإن ظروفنا غير عادية كذلك، كانت قد رفعت من معنوياته، لم تكن لجيشنا إلا غاية واحدة أو هدف واحد، وكان الشخص الذي يقوده قد بث في كل القلوب سخطا كان يثيره هو، وتعرف أوروبا سلسلة المعارك الخالدة التي تلت هذه القطيعة، ثم جاء النصر - وهو أكثر وفاء من كل المعاهدات - ليبسط حمايته على أولئك الذين لم يترك لهم مكان يلوذون به سوى الصحراء، وشئت وأقنى الجيش العثماني. الذي هاجمه الفرنسيون بالقرب من خرائب هليوبوليس، واجتاز الصدر الأعظم - شبه وحيد خلال هروبه المتعجل - نفس البلاد التي سبق له أن توغل فيها ومعه قوات هائلة، وفقد ثلاثة معسكرات بالإضافة إلى مدفعيته ومؤنه العسكرية، كما استعدنا الحصون التي كانت قد سلمت له، وقمعت حركات التمرد التي كان قد أشعلها في كل المدن في وقت واحد، وطردت قواته من الصعيد ومن دمياط .

أما العاصمة نفسها فقد فاجأها المماليك والانكشاريون، وتحولت على الفور إلى ميدان قتال فسيح، تنهشها أهوال الحرب والتمرد ، وبعد أن شاهدت المدينة جزءا من مبانيها تضطرم فيه النيران ويتحول إلى أنقاض، في الوقت الذي تطيع فيه قادة منقسمين تفرق بينهم مصالحهم الخاصة، وحين أفزعها ما حدث لمدينة

مجاورة، نالت من قبل عقابا صارما وقاسيا، استسلمت مستعطفة الغازى . أما الفرق التى سبق أن تجمعت فيها والتى كانت قبل ذلك بوقت قصير تتقدم ضدنا حين كان البحر موصدا أمامنا، خارقة بذلك أكثر المعاهدات توثيقا- فقد التمس جنودها التسليم والإذعان ، وعندما تم لها ذلك عبرت معسكراتنا فى أمان، وتذوق الفرنسيون الثمار الأولى للنصر، وتشبهوا بالبندود والقرارات الثابتة التى تملئها عليهم المصالح الحقيقية لوطنهم . وفجأة وقع حادث مؤسف أغرق الفرنسيين فى الرعب والوجوم، لقد تأمر أغوات الانكشارية الذين لجأوا إلى سوريا ضد حياة القائد الفرنسى، وأغروا واحدا من أبناء حلب تملى عليه ديانتة كل حركاته، أن يضجى بحياته فى مقابل هذه الجريمة الكبرى ، ووصل هذا الشاب المخبول، الذى كان من السهل غوايته بفعل سنه، بطريقة سرية إلى القاهرة، وبعد أن قضى ثلاثين يوما فى الصلاة بالمساجد، ارتكب جريمته البشعة. كان كليبر أعزل من السلاح، بعيدا عن حراسه ، وطعن مرات عديدة بالخنجر، ولفظ أنفاسه بعد ذلك بلحظات ، وبمجرد أن انتشر خبر هذا الاغتيال الجديد فى كل أقاليم مصر عبر جيش الشرق عن مشاعر حزن تام وجماعى، وروى بالدموع مقبرة قائد لامع، مسح لتوه بالنصر مهانات المفاوضات ، ثم سقط صريعا وسط مغنم انتصاراته، وقد كان الوطن يعده واحدا من أكثر من دافعوا عنه فداء وتضحية . وتجمع القادة العسكريون منذ اللحظات الأولى التى أعقبت وفاته ، وعلى الفور وجه الشخص الذى كانت ترشحه القوانين العسكرية لقيادة الجيش من الأوامر ما تحتمه خطورة الظروف ، وأخذت القوات العسكرية تظهر على التوالى أمام الناس ، وأطلقت المدافع ، ووضعت الأعلام الفرنسية على مآذن المساجد. كانت هذه الاحتياطات ضرورية للغاية، إذ كان من المعتاد فى بلاد الشرق هذه - خلال الثورات وحركات التمرد التى تهزها وتشيع فيها القلق - أن يتلو الميتة العنيفة لزعيم ما دمار حزبه وتشتت جنوده . كان قد ألقى القبض على القاتل سليمان، ولم يشارك فى جريمته أى واحد من المصريين، واكتشف ثلاثة متواطئون كان قد انتمنهم على سره،

وكانوا مثله من أصل سورى، وحكم عليهم جميعا بالعقوبات التى ينبغى أن يحكم عليهم بها تبعا للشريعة الإسلامية، وفى خلال المدة الطويلة التى استغرقتها إعدام سليمان كان يقرأ بعض آيات من القرآن، كما كان ينعى على المسلمين أنهم لم يقدموا له العون .

وأسهم سكان العاصمة فى إصفاء طابع المهابة على جنازة قائد الجيش الفرنسى ، وسرعان ما رأوا خليفته يمضى قدما فى تنفيذ المشروعات النافعة التى كانت قد أقرت عقب الفتح . والتزم القائد العام (الجديد) ، مستفيدا من المزايا التى حققها نجاحاتنا الأخيرة، بدعم سطوة القوانين، وبتحسين إدارة الضرائب، وتيسير السبل أمام تقدم وتطور الزراعة والصناعة والتجارة، وأكب فى الوقت نفسه على تصريف شئون جيشه الذى وجد فيه (أى فى قائده) مثالا للتضحية والمثابرة، وتمتع الزراع الذين انحدر بهم الشح الأرعن لسادتهم القدامى إلى حالة من التدنى والمهانة ، تمتعوا وبحرية كاملة بثمار أعمالهم، وعقدت تحالفات جديدة مع العربان ، ووهبت بعض القبائل أراضى غير أهلة، كانت الشقاكات المدنية قد حرمتها من الزراعة ، وأقيم على أسس محددة نظام عام للرعى، وبذلت كافة الجهود لتوقى كل المساوئ المرتبطة بوضع المياه المضطرب أو بإساءة استخدامها، وتقررت مكافآت عامة لسكان الريف الذين يضاعفون من عدد الأشجار النافعة، وتجمعت داخل منشأة واسعة تلك النباتات والشجيرات الأجنبية التى رأى من المناسب نشر زراعتها: كانت فنون أوروبا قد بدأت فى صنع التقدم على أرض مصر، وانتعشت الصناعة فى كل مكان.

وأنشئ نظام جديد للمالية، عهد بإدارته العامة إلى إدارى حكيم ونزيه، كان قد حاز منذ وقت طويل تقدير الجيش ومحبة الأهالى ، وكان قد فحص بعناية كبيرة المصادر المتنوعة للدخول العامة ، وكان يدرك كل المزايا التى ينبغى أن تتوقع الحصول عليها أية حكومة عاقلة مستنيرة من امتلاكها لمصر ، وقد قام بتكوين جداول ليستخدمها مدخلا لحساب الميزانية العامة ، هى التى قدمها عن إدارته

للمالية طوال مدة الحملة^(*) . ولقد استخلصنا نحن من هذا المؤلف، الذى أُرِجئ نشره، الدراسة التى ضمنت هذه الموسوعة ، وهى تحتوى على عدد كبير من النتائج التى ما كان ليسهل الحصول عليها دون ظروف مواتية لهذا الحد، وينبغى أن ننظر إليها باعتبارها عناصر ثمينة فى تاريخ مصر الحديث .

ومن جهة أخرى فقد وضعت لوائح نزيهة وعادلة أدت إلى تنشيط التجارة الخارجية التى أوشكت حكومة المماليك أن تقضى عليها. إلى هذا الحد بلغ تأثير الإجراءات التى اتخذناها، والتى أمكنها - على الرغم من العقبات الكثيرة التى نجمت عن حالة الحرب - أن تقيم من جديد علاقة نافعة مع الأرخبيل وسواحل الجزيرة العربية وبلاد أواسط أفريقيا، كما ساهمت أعمال جديدة عامة فى تجميل العاصمة والأسكندرية وتحسين الحالة الصحية بهما، وشيئا فشيئا كف المواطنون عن أن يظنوا أنفسهم غرباء عن الأمة الفرنسية ، كما كانت الثقة المتبادلة تحرز كل يوم تقدما ملموسا ، ولقد أدرك هذا الارتياح - من جانب كل النفوس - كافة الذين تعهدوا العلاقات الودية مع شعب مصر ، وقد أدرك هذا بصفة خاصة مؤلف هذه الدراسة ، وهو الذى كان يسهم فى الحكومة المدنية بتولييه إدارة العدل . وهكذا كان الزمن وحده كفيلا بأن يؤكد ويدعم هذه الأنظمة الجديدة ، وأن يجعل الناس يشعرون بها (وبجداوها) ، لكن الحرب قلبتها بفتة، ولم تبق على أى أثر منها. وقد نشر نجاح الحملة الفرنسية - الذى كان يعد كل الأمم الأوربية بخطوط اتصالات هامة - القلق والفرح فى انجلترا، وعزمت هذه القوة على القيام بجهود غير اعتيادية، وشارك البلاط العثمانى - حين انساق وراء اعتبارات روحانية - فى وجهات نظر وآراء حلفائه الجدد ، فتقررت مهاجمة سواحل البحر الأبيض على يد جيش انجليزى، كما تقرر أن تدعم هذه الحملة بفرقة من الانكشارية والألبان أوكلت قيادتها إلى قبطان باشا، وتلقت هذه القوات الأوامر بأن تتوغل فى الخليج العربى،

(*) يشير المؤلف إلى دراسة الكونت استيف Estéve عن مالية مصر، وهى الدراسة التى تكون مع غيرها المجلد الخامس من الترجمة العربية الكاملة لوصف مصر . (المترجم) .

وأن تنزل إلى مصر عن طريق مينائى السويس والقصير، وفى النهاية اقتضى الأمر أن يتقدم الوزير (الصدر الأعظم) إلى العاصمة على رأس جيش عثماني قادم من سوريا. كانت كل عناصر خطة الغزو قد أعدت ووزعت بعناية، ووضعت كلها موضع التنفيذ فى وقت واحد. ولقد تجلّى فى حركة القوات قدر من الوثوق والإصرار، على النحو الذى تسمح به المسافة النائية للأماكن وعناد المسلمين الذى لا سبيل إلى قهره. كان إبراهيم ومماليكه يزحفون مع الوزير، أما القبائل العربية التى أثارتها نصائح وتحريضات النبی الجديد مولای محمد(ا) فلم تكن تنتظر سوى الإشارة كى تتجمع، وأخيرا فقد كان حزب مراد، حاكم الصعيد، قد ارتبط سرا بالإنجليز.

كانت المعارك السابقة قد أضعفت الجيش الفرنسى الذى لم يعد ثلثه قادرا على أن يستخدم فى حرب الأقاليم، كانت الجروح الخطيرة والكثيرة تغطى أجسام هؤلاء الجنود الأسخياء (الفدائيين) الذين كانت تحثهم على البذل قيمة أكثر منهم إصرارا واندفاعا نحو الأخطار الجسام، وكانت هذه الجروح تجعلهم عاجزين عن أية مشاركة إيجابية فى الوقت الذى كانت قواتنا فيه تحتل بلدانا شاسعة تبدو كل بقعة فيها وكأنها تحتّم وجودها، فكانت تحرس حدود مصر مع سوريا والتى يتهدها الصدر الأعظم، كما كانت تحرس القاهرة والجيزة وبولاق والسويس وجزءا من مصر العليا، كما كانت تستخدم فى الأقاليم كى تحمى جباية الضرائب، ولكى تؤمن الملاحة فى النهر، ولكى تصد المماليك، وتحتوى القبائل العربية. أما الاتفاق الذى أدت دوافع عديدة إلى إبرامه مع مراد فلم يكن ليوحى بأية ثقة، لقد ضاعف تحالفه مع الفرنسيين من نفوذه ومصادر قوته، لكنه ما كان ليفيد من كل هذه المزايا إلا لكى يعلن وقوفه ضدهم، وكان علينا أن نخشاه خائنا، وألا نأمل إلا فى عون جد ضئيل من جانبه لو أنه كان مخلصا. وهكذا كان موقف الفرنسيين عندما ظهرت السفن المعادية أمام الإسكندرية.

تمكن الجيش الإنجليزي من القيام بعمليات إنزال على سواحل أبى قير، ثم تقدم بعد ذلك داخل شبه الجزيرة ليتخذ موقعا موافيا للغاية يقع بين البحر وبين بحيرة المعديّة . وحين هاجمته بعض القوات الفرنسية دافع عن نفسه بنجاح فوق أرض ضيقة ، يدعمها خط من الحصون ، وتحميها زوارق المدفعية من جانبي البحر والبحيرة . وقد جرح فى هذه العملية قائد الحملة الإنجليزية ، ومات بعد ذلك بأيام قليلة متأثرا بجروحه ، تاركا ذكرى مشرفة بحق . وبعد أن تلقى الحلفاء دعما هائلا قرروا احتلال رشيد ، ثم بدأوا التقدم صوب شاطئ النيل فى نفس الوقت الذى كان أسطولهم فيه يصعد النهر، واستسلم حصن الرحمانية وامتلك العثمانيون دمياط، ولم تلبث العاصمة أن حوصرت .

كان الصدر الأعظم قد ضم جيشه إلى الجيش الإنجليزي وجيش قبطان باشا، وكان يحصل كل يوم على قوات دعم جديدة من داخل مصر وسوريا، وكانت صلاته مع العربان والماليك والقوات العسكرية القديمة وسكان الريف تتدعم فى كل مكان نتيجة تلك النجاحات الأولى التى أحرزها جيش الحملة ، وكانت قوات الهند قد وصلت ، أما القاهرة والأسكندرية فكانتا فريستين لوباء بشع وقاتل ، وفى نفس الوقت انضم إلى العثمانيين ماليك إبراهيم وماليك مراد بالإضافة إلى فرسان كثيرين من العربان . هكذا كان وضع القوات المتحالفة حين تقدمت ، لكى يتم لها استرداد القاهرة والأسكندرية، ببند امتيازات لاتختلف كثيرا عما جاء بمعااهدة العريش . لم يكن ثمة عملية عسكرية واحدة لم تكن قواتنا فيها أدنى عددا بكثير، فعدم تأكدها من معرفة نوايا العدو كان قد أرغم القائد العام أن يوزع على جبهات عديدة القوات التى يمكنها أن تتصدى للعدو، وينبغى أن نضيف بأنهم - أى العدو - لم يكفوا طيلة هذه الحرب عن أن يعرضوا على الفرنسيين العودة إلى وطنهم ، وبنفس الشروط التى سبق لهم أن قبلوها قبل ذلك بوقت طويل والتى سبق للحلفاء كذلك الالتزام بها .

وعندما أبلغ الجنرال مينو بأن باب المفاوضات قد فتح فى أوروبا ، وبالمحاولات المتكررة التى يقوم بها أسطولنا كى يجلب إليه المساعدات ، اشتد عزمه على أن يستمر فى الدفاع عن الأسكندرية لأطول وقت ممكن ، وظل متشبثا فى موقعه لآخر الشوط ، وعند نهاية الحصار كان نصف الفرنسيين مرضى بالمستشفيات ، أما أولئك الذين لم تكن قد مستهم شرور الأوبئة بعد فكانت قد أضنتهم الأعمال التى لاتنتهى ، واستخدام المياه المالحة ، وتناول الأطعمة الضارة لفترة طويلة ، بل وكذلك نقص الأطعمة . كانت الأمثلة التى قدمها قادتهم تقوى من عزائمهم ، وفى النهاية لم يبق لديهم إلا شجاعتهم ، وكان المرء يراهم مهذمين منهكين لايقدرين إلا بالكاد أن يتحملوا ثقل سلاحهم ، وكانوا لا يستعيدون قواهم إلا حينما كان الواجب يدعوهم إلى المعركة . هكذا أنيط بهم أن يضعوا بجهودهم الأخيرة نهاية مشرفة لهذه الحملة الخالدة .

وفى الوقت الذى كان جيشنا يستعد فيه لمغادرة موانئ مصر ، وكان الناس فيه فى أوروبا يجهلون العمليات الأخيرة للحلفاء ، وقعت فى باريس ولندن تلك المعاهدة التى تعيد هذه البلاد إلى الباب العثمانى . هكذا قدر عليها أن تعود من جديد لهمجية السلاح التى كانت جيوش فرنسا قد خلصتها منها ، وهذه هى اليوم فريسة لابتزازات نواب الملك وإصوصية العربان والفرق العسكرية غير النظامية ، أو لعنف بعض البكوات الذين ظلوا على قيد الحياة . لقد استعاد هؤلاء الأغراب - على الرغم من تقلصهم إلى عدد ضئيل - وطننا إلى حوزتهم ، وخلف عبيد مراد وإبراهيم سيديهم ، لقد أقصيت هذه الحكومة العجيبة على الأقل لمدة ثلاث سنوات بسبب وجود الفرنسيين ، فلقد هزم الفرنسيون المماليك ونفوهم ، كما قمعوا العربان ، وأبادوا ثلاثة جيوش عثمانية فى فلسطين وأبى قدير وعلى أبواب العاصمة ، وليس أقل جدارة بالذكر من ذلك أنهم لم يمارسوا إلا سلطة حماية فى البلاد التى خضعت لهم ، وبدأ كل واحد من هؤلاء الفرنسيين مرتفعاً لمستوى أكبر الأهداف التى جعلتنا نشرع فى هذا الغزو . ولقد واجه الفرنسيون طيلة سنوات

ثلاث مخاطر لاتنقطع، كأنما كانت تتوالد من جديد، وقاسوا - بعزيمة ثابتة، وتحت سماء ملتعبة وغريبة عليهم - متاعب يصعب التعبير عنها، ولقد تكاتفوا فى هذه المهمة الشاقة رغبة منهم فى أن يهبوا أنفسهم لمجد ومصلحة وطنهم . وإنه لشعور نبيل ونافع يسمو بالإنسان ليتفوق على نفسه ، ويوحى بكل التضحيات ، ويظل فى نفس الوقت هو الدافع وهو الجزاء . ولقد جاءت عودتهم فى أفضل الظروف ملائمة، فكانت أوروبا هادئة ، وكانت فرنسا - بعد أن ثارت لنفسها وانتصرت - تركز للراحة فى ظل قوانين أكثر لطفا من الهزات التى سببتها الحروب الخارجية.

ومن جانب آخر، كانت الهيئة العلمية التى تشكلت فى عاصمة مصر، تحت حماية الأسلحة الفرنسية، قد اتخذت لنفسها نفس اللوائح التى تنظم أعمال أكاديميات أوروبا، كانت مهمتها أن تزيد وأن تحسن كل المعارف النظرية ، وأن تضاعف من تطبيقاتها. كانت إسهامات العلوم والفنون قادرة على أن تدعم وأن تجميل منشآت الفرنسيين ، فى الوقت الذى تؤثر فيه فى الأحوال المدنية للأهالى، لكنها لم تكن لتبلغ هذا الهدف المرجو للغاية دون أن نكون قد اكتسبنا معرفة عميقة بمصر . ولم يكن الوصف التاريخى والفيزيقي لهذه البلاد فى الحقيقة إلا جزءا من خطة عامة ، كنا قد وضعناها لدراسة العلوم ولتهيئة تقدمها، لكن الوصف مع ذلك كان عنصرا ضروريا ، وكان واحدا من تلك الموضوعات التى يهمنى أن ننقلها إلى أوروبا . وكان هذا هو الغرض من هذه الموسوعة التى ننشرها اليوم، والتى تشتمل على نتائج الأبحاث الرئيسية التى قمنا بها خلال مدة بقاء الحملة الفرنسية ، والتى تستطيع أن تقدم معرفة متكاملة بمصر. أما هذا المؤلف الضخم فيتكون من : النص ، ومن مجموعات اللوحات . ويتكون النص من الدراسات والأوصاف ، أما الأطالس فتحتوى على : ١- رسوم عن مصر القديمة ، ٢- رسوم تتعلق بمصر الحديثة ، ٣- لوحات الحيوان والنبات والمعادن ، ٤- الخريطة الجغرافية . إذن فمجموعة هذه اللوحات تمثل الأشياء الموجودة والتى يمكن ملاحظتها ووصفها بدقة، والتى لا بد أن نعتبرها - لهذا السبب - عناصر موضوعية لدراسة مصر.

وكنا كذلك نهدف فى الدراسات والأوصاف إلى عرض هذه الأمور على نحو أكمل وأكثر تماما ، وأن نبين بدقة ما قد لا يستطيع فن الرسم أن يعرف به ، وأن نقارن الوقائع ، ونقارب ما بين النتائج ، وأن نتفحص ما يمكن لنا أن نستخلصه من ذلك كله .

وتتكون الخريطة الجغرافية من خمسين لوحة خاصة ، تقدم كل التفاصيل التى يمكن لنا أن نرغب فيها ، وليست هناك منطقة فى أوربا يمكن لها أن تكون قد وصفت على هذه الدرجة من الكمال . ويشمل هذا العمل الكبير - الذى يقوم فى جزء منه على ملاحظات فلكية - كل البلاد الواقعة ما بين شلال أسوان والبحر، وابتداء من آخر مبنى يقع إلى الغرب من الأسكندرية حتى خرائب صور القديمة Tyr، وأضفنا إلى ذلك خرائط خاصة بالمدن وبالموانئ، وخرائط ومذكرات عن الجغرافيا القديمة، وحصرًا بالأسماء العربية لكل المناطق الأهلة، مع ملاحظات عن السكان والزراعة وامتداد الأراضى الخصبة ، والملاحة والصناعة والمنشآت العامة وبقايا المدن القديمة .

وقد لاحظنا بكثير من العناية الحالة الجغرافية لوادى النيل، والصخور التى تقوم بمثابة حدود له، وامتدت الأبحاث التعدينية إلى مناطق صحراوية وجبلية بعيدة عن النهر، كما اشتملت هذه البحوث كذلك على فحص المحاجر التى استغلها المصريون القدماء، وعلى تصنيف دقيق للمواد التى استخدمت فى بناء الآثار، وقمنا برحلات كثيرة كى نجمع من الصحراوات المجاورة لمصر، وفي الصعيد والدلتا ، وعلى ضفاف النيل والترع - النباتات الخاصة بمصر ، وتلك التى أمكن للعلم أن يؤقلمها هناك، كذلك كان هذا العمل يهدف إلى الإكثار من الثروات الزراعية للبلاد ، وأن نزود التجارة والصناعة بعناصر جديدة . وقد أعطينا لدراسة الحيوان عناية مثابرة ، فأكبنا على تمحيص النتائج التى سبقت معرفتها ، وعلى إتمام الأوصاف الناقصة وإضافة الملاحظات التى لم يكن الطبيعىون قد قاموا بها من قبل مطلقا أثناء رحلاتهم السابقة . وقد أسفر فحص المواد الطبيعية بمصر

عن أهمية بالغة ، خاصة وقد سبق لها أن شغلت من قبل ، ولوقت طويل ، المشرعين الأول في هذه البلاد ، وفي بعض الأحيان كانت معرفتنا بهذه المواد تلقى ضوءا كاشفا وغير متوقع ، على نقاط غامضة في عقائد المصريين (القدماء) . كما تتميز اللوحات التي تمثل هذه الأشياء بأمانة بالغة في النقل والتقليد ، فلها طابع الحقيقة وملح الدقة اللذين يشهدان في الوقت نفسه بعناية الفنان واهتمامه ، وبخطى التقدم التي أحرزها هذا الفرع من فن الرسم ، وحتى الآن ، لم يسبق أن تمت جهود أكثر نجاحا وتوفيقا من ذلك كي تنوب عن حضور الطبيعة ذاتها (أى كى ينوب الرسم عن الأصل نفسه) .

أما بخصوص الآثار التي خلدت مصر ، فلم تكن لدينا عنها إلا معرفة شائئة قبل الحملة الفرنسية ، بل لقد كانت هذه الآثار مجهولة لنا بشكل تام ، وسوف يقدم هذا المؤلف وصفا دقيقا لها . ولقد تعرفنا على الموقع الجغرافى لكل مبنى وبيناه على الخريطة ، ثم أقمنا بعد ذلك الخرائط الطبوغرافية التي تعرفنا بالمواقع الخاصة بمنشآت مدينة بذاتها أو بموقعها بالنسبة للنيل أو للجبال المجاورة ، وقد ضاعفنا من المناظر المرسومة لهذه الانقراض الجلية ، أما الفنانون الذين ندين لهم بهذه الرسوم فقد أخذتهم روعة الموضوعات وما يشع منها من جلال هو جدير بها ، حتى أنهم لم يستبعدوا أى تكوين ولو كان اعتباطيا أو تعسفيا ، إنهم إذن لم يلتزموا إلا بحقيقة النقل والتقليد بغية أن ينقلوا بإخلاص وأمانة نفس الأثر الذى أحدثته فيهم رؤية مصر ، وليس هناك بين كل منجزات البشر على الإطلاق ما قدم لعبقريّة الرسم موضوعا أكثر سموا ورفعة .

وقد قام هؤلاء عدة مرات ، وبالعناية البالغة الدقة ، بقياس أطوال المباني وأطوال الأجزاء الرئيسية أو الإضافية التي تتكون منها ، وقد رسمت لكل هذه المباني تصميمات وواجهات وقطاعات أخذت من جوانب عدة ومن منظورات خاصة ، ولقد حققت الرسوم والدراسات التي تضم نتائج عمليات القياس هذه كل ما نطمح إليه لدراسة العمارة المصرية ، ونستطيع نحن أن نستخدمها لإنشاء مبان تشبه تمام

الشبه تلك التى وصفناها ، ولا بد لنا أن نلاحظ أن هذا العمل (من جانبنا) لم يكن قاصرا قط على بعض الأطلال المنعزلة التى أفلتت من فعل الزمن، وإنما اشتمل على المبانى الرئيسية لأمة متنورة تدين لها أغلبية الأمم الأخرى بنظمها ومؤسساتها . وفى واقع الأمر فإننا لم نلاحظ فى مصر الإدارية وجود هذه الأسباب المتضاعفة، التى ترمى - على الدوام - فى الأجواء الأخرى إلى تدمير المنشآت، وإلى محوها - فى بعض الأحيان - حتى آخر أثر لها، ومع ذلك فإن هذه الأعمال تنود عن نفسها بنفسها بكتلتها الخاصة كذلك ضد جهود البشر، وهكذا أمكننا اليوم أن نقدم لوحة لعمارة المصريين ، واثقين بأننا قد ضمناها أجمل منشآتهم .

ومن الواضح أن هذه المنشآت التى لا تزال باقية فى طيبة وأبوللينوبوليس وفى أبيدوس ولاتوبوليس^(*) هى نفس القصور التى سكنها الملوك (القدماء) أو هى أكثر معابد (المصريين القدماء) أهمية، إنها كذلك هى نفس المبانى التى وصفها كل من هيكاتيه Hecaté وديودور Diodor وسترابون Strabon، ولا يمكننا أن نجد ما هو أكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الفنون من معرفة هذه النماذج العظيمة التى أثارت إعجاب الإغريق وطورت عبقريتهم .

وبالإضافة إلى ذلك فقد أكبنا على نقل وتقليد دقيقين لأعمال النحت والحفر التى تزدان بها هذه الصروح، أما النقوش البارزة فتمثل أشياء بالغة التنوع، كما أنها تلقى أضواء جديدة على علوم العصور القديمة، وهى تتصل بتقاليد الحرب، والحفلات الدينية، والظواهر الفلكية، ونظام الحكم، والتقاليد العامة، والعادات الأسرية، وبالأزراعة والملاحة وكافة الصناعات المدنية ، وقد حرصنا عند رسم عدد كبير من هذه المبانى على أن ننقل بدقة كافة الرسوم والحروف الهيروغليفية، ولم نحفظ لها بأشكالها المفردة فحسب، بل بالنظام والوضع الخاص بإشاراتها

(*) وهذه المدن الأربع هى الآن على التوالى : الكرنك، وإدفو، ومنطقة خرائب بالقرب من العراية المدفونة والخربة، واسنا . (المترجم) .

كذلك، وقد جمعنا الكتابات والنقوش القديمة التى تهم العلوم والتاريخ ، وقلدنا بعناية الألوان التى لاتزال تحلى العديد من المباني ، والتى تبدو وكأنها لم تفقد شيئاً من بريقها الأول .

وبعد ذلك ألحقنا بالخرائط الطبوغرافية، وبالأشكال المرسومة، وباللوحات المعمارية وبالرسوم البارزة وصفا موسعا، جمعنا فيه كل الملاحظات التى لايسطيع الرسم أن ينقلها، وتشتمل هذه الأوصاف على نتائج فحص مستفيض، أصيل وموثق، عاون فيه على الدوام كثير من الشهود . وكانت هذه الأوصاف تهدف إلى أن نعرفنا بشكل كاف على الحالة الراهنة للمباني ، وعلى التدهور الذى حدث فيها بفعل الزمن، وكذلك على نوع المواد التى استخدمت ، وعلى أمور كثيرة أثارت اهتمامنا . ونجد فى هذه الأوصاف ملاحظات متنوعة عن العمارة ، وحول أساليب البناء، والألوان، واستخدامات الأشياء المرسومة، كما نجد ملاحظات حول طبيعة الأرض، والتغيرات التى تحدثها الفيضانات الموسمية، وحول موضوعات أخرى لم تكن واسعة بالقدر الذى يكفى لكى تعالج فى دراسات مستقلة .

وبنفس هذه العناية، قمنا بوصف المقابر الرائعة التى للملك طيبة القدماء، والمقابر الصخرية حيث يجاهد الخدم المخلصون لتخليد ذكرى وأجساد الأجداد، كما وصفنا الحجرات السفلية الأخرى التى كانت مخصصة فيما يبدو لطقوس أو لممارسات غامضة.

وتقدم أهرام ممفيس الشهيرة ذائعة الصيت، القليل من الأهمية فيما يتصل بالفنون الجميلة، وإن كان ثمة دوافع أخرى ينبغى لها أن تخضع لأبحاث بالغة الأهمية هذه المباني الضخام التى كانت موضوعا لملاحظات تنقصها الدقة، وقد حددنا نحن من جانبنا موقعها الجغرافى واتجاهات جوانبها بالنسبة لخط الزوال، وكذا الأبعاد الخارجية، وأبعاد كل الغرف التى أمكن لنا أن نتوغل إليها، وأخيرا فقد وصفنا كافة المباني الجانبية.

وقد أفردنا أشكالا خاصة، رسمت فيها كل من المسلات وتماثيل أبى الهول والتماثيل الضخام والتوابيت ومسلات مختلفة أخرى، ولم يكن من المستطاع نقل هذه الزينات الثمينة للصروح والأماكن المقدسة إلى أوربا دون بذل جهود هائلة لم تسمح الظروف مطلقا ببذلها على الإطلاق ، وإن كانت توجد منها ألوف أقل حجما جمعها بعض الأشخاص واحتفظوا بها أو أودعت اليوم فى المتاحف العامة. وقد جلبنا معنا من مصر أحجارا منقوشة وتماثيل بأكملها أو مجدوعة ، وقطعا من البرنز ، و من الخزف أو البورسلين، وأحجارا مقطوعة ومشذبه تحمل نقوشا ورسوما فنية أخرى تتصل بالديانة القديمة وعلوم وعبادات أهل البلاد، كما تفحصنا باهتمام عددا هائلا من مومياوات البشر ، ومن مومياوات الحيوان من نوات الأربع ، وكذا الزواحف والطيور ، واحتفظنا بالكثير منها. وقد عثرنا فى الصناديق والآنية الفخارية التى تضم هذه الأجساد الجافة على أقمشة من نسيج ثمين ، وعلى مذهبات وعقود وتمائم وحلقان، وعلى أعداد هائلة من الشظايا، كما استخرجنا من هذه الصناديق مجلدات عديدة من البردى مغطاة بنقوش هيروغليفيه أو بحروف هجائية . وقد اكتشفنا هذه الأشياء وسط خرائب المدن القديمة وداخل الحفريات الكثيرة التى اقتضى القيام بها الفحص الذى أجريناه للمبانى، وكذلك فى داخل المقابر العامة أو الملكية ، وفى بعض الأحيان أيضا فى داخل البيوت الحالية، وقد جمعت كل هذه خلال أحداث الحملة الفرنسية ، وتبيننا أن من الضروري أن نضمن رسوماتها المجلد العام.

أما اللوحات الخاصة بمصر الحديثة فتتمثل : ١ - المساجد ، والقصور ، وبوابات المدن ، والميادين ، والمحاكم ، ومجارى العيون ، والمقابر ، والأحواش ، والوكالات المخصصة للتجارة ، والنقوش ، والميداليات وقطع النقود . ٢ - الحدائق، والحمامات، والمدارس، وأدوات الحرف، والأسلحة، ومقابر العائلات، وبيوت الخاصة، ومنشآت المصانع، والماكينات، والورش، وأدوات المهن المختلفة. ٣- الاحتفالات السنوية ، المواكب ، الاجتماعات العامة، التجمعات والأعياد المدنية،

التدريبات العسكرية ، العادات الخاصة بالجنازات وبالأزواج وبشراء العبيد وعقدهم وبالميلاد. ٤ - وأخيرا الشخصيات الهامة من مختلف طبقات السكان أو من الأجناس الأجنبية ، والملابس والأسلحة التي تميزهم.

وقد سعينا، فى الدراسات التى تشكل جزءا من هذه الموسوعة، إلى أن نستكمل وصف مصر وأن نعمق دراستنا لها عن طريق مقارنة الظواهر ومناقشتها. ولم نكن نهدف مطلقا، من هذا المنظور الثانى، لأن نشعر فى بحث يقتصر على حدود محددة، فالمرء لا يستطيع فى واقع الأمر أن يقصر أبحاثه حول مصر مطلقا (عند حد محدد)، فليس ثمة موضوعات فى الدراسات الإنسانية أكثر من ذلك خصوبة أو أكبر اتساعا ، فإذا ما ظننا أننا قد استوفينا مجالا ما فى هذه الدراسات فإننا نكون فى واقع الأمر قد استخففنا به ، ولكننا اقتصرنا على وضع نظام يكفل لنا أن نعالج كافة المسائل الرئيسية ، ولهذا السبب فإن مؤلفى الدراسات قد ركزوا بحوثهم على ما يأتى :

- ١ - المؤسسات والنظم، العادات والتقاليد، الآداب والعلوم والفنون، نظام المقاييس والصناعة عند قدماء المصريين.
- ٢ - الجغرافيا القديمة والحديثة، تاريخ مصر، الحكومة الحالية لهذه البلاد، الدين، التقاليد، العادات العامة والأسرية، حالة الفنون والآداب والعلوم ، الزراعة والصناعة والموارد العامة، الملاحة والتجارة.
- ٣ - طبيعة وخواص التربة والهواء والمياه من الناحية الفيزيائية، الحيوان والنبات والمعادن، جيولوجية مصر.

ويشكل كل واحد من هذه الموضوعات دراسة مستقلة ، وقد راعينا فى هذا الجزء من الموسوعة الذى يشتمل على الدراسات، نفس القواعد التى تراعى فى الموسوعات الأكاديمية . وعندما قام كاتب شهير - بحق - بنشر نتائج رحلاته إلى مصر وإلى سوريا ، فإنه قد أثرى بالفعل الأدب الفرنسى بوصف دقيق وبلغ

لعدادات وحكومات هذه البلدان ، وقد لمسنا كيف تتطابق ملاحظاته مع الأبحاث التي قمنا بها خلال الحملة .

وتتنمى الأبحاث التي دارت حول الآثار الفلكية التي اكتشفت في الصعيد إلى الجزء الأول من هذا المؤلف، وإن كان نشره هو الذي تأخر.

وفي معظم الأحيان نسبت في المقالات العديدة والمبتسرة التي أوجدها هذا الموضوع الشهير بالفعل إلى كاتب هذه الدراسة آراء تختلف عن تلك التي انتوى أن يؤسسها، إن النتائج التي تستخلص من الدراسة المتأنية للنظم إن تسمح مطلقا بفهم تاريخ مصر داخل إطار تأريخ ضيق لم تستمر متابعته مطلقا في القرون الأولى للمسيحية، كما أن هذه النتائج ليست أقل تعارضا مما يستخلصه أولئك الذين يؤسسون على افتراضات (أحوال) العصور القديمة المعلية من شأن الأمة المصرية، ثم لا يميزون مطلقا الفترات التاريخية ، والتي تستحق بالفعل مثل هذا الوصف، من تلك الحسابات والأرقام التي تستخدم في عمليات التقويم .

ويوضح لنا السرد السابق، تلك الخطة التي اتبعناها في وصف مصر. لقد التزم المؤلفون بملاحظة أعمال الطبيعة وأعمال الإنسان التي يمكن أن يفيد فحصها في دراسة هذه البلاد، وقد مثلت هذه الأشياء بالرسوم أو المناظر المرسومة أو الخرائط أو التصميمات كلما كان الأمر ممكنا لذلك، لكن هناك عددا كبيرا من الظواهر لا يستطيع أن يقتفى أثرها سوى الحديث (أى البحث) فضمناها في الدراسات والأوصاف التي تشكل النص، ولم نهمل شيئا وجدناه لازما كي يكون الجانب الوصفى من هذه الموسوعة كاملا ، ولقد سهل وجود الأسلحة الفرنسية بالإضافة إلى ترحيب الجنرالات وإسهام العديد من المراقبين والشهود ودقة الأدوات في القيام بهذه الأبحاث ، ومع ذلك فكثيرا ما قطعت هذه الأبحاث بفعل أحداث وظروف مشنومة ، وعديد من بين هؤلاء الذين قادهم إلى مصر تذوقهم للفنون الجميلة، والذين جلبت لهم أعمالهم السابقة الاحترام قد

سقطوا صرعى، بسبب اضطرابات كانت تتجدد دون انقطاع أو فى مخاطر شبه مؤكدة دفعتهم إليها حماسة ملتبهة، وهلك آخرون دفعهم إلى هناك شغفهم فى خدمة العلوم وأملهم فى تشريف عائلاتهم، واختصوا وطنهم بثمار دراساتهم، هلك هؤلاء فى شباب غض فوق هذه الأرض الغريبة عليهم ضحايا للتمرد والعصيان والأوبئة المهلكة . ووسط هذا الخضم من أحداث الحرب، توقفت الأبحاث العلمية فى بعض الأحيان بسبب عراقيل لا يمكن السيطرة عليها فى حقيقة الأمر. هكذا يمكننا أن نؤكد أن ثمة بعض أمور قد أغفلناها، لكن هذه الأمور ليست بالهامية على الإطلاق، ولذلك فإن المؤلف الذى نشرنا الجزء الأول منه سيقدم معرفة مركزة ودقيقة عن الحالة الفيزيائية لمصر، وعن الصناعات الحالية للسكان، وعن المنشآت التى أقامها أجدادهم . وربما لم يكن هناك، على امتداد كل الدول المتحضرة ، أى بلد آخر قد خضع لفحص أكثر تفصيلا أو أكثر دقة .

وبخلاف هذا الوصف الطبيعى والتاريخى لمصر، فقد كان بمقدور إقامة الفرنسيين فى هذه البلاد أن تقدم المزيد من الفوائد والمزايا المرغوبة ، بل لقد كان بمقدور الفنون أن تكون - فى الوقت الحاضر نفسه - قد طورت وجملت وضفاف النيل، كما كان بمقدور الناس هناك ، بعد أن تخلصوا من إدارة عابثة وغير إنسانية ، أن يعكفوا بأمان على زراعة أرضهم وأن يفيدوا من ثمار حرفتهم، وكان يمكن للمخترعات الميكانيكية أن تحل محل قوة الإنسان ، وتجعل أعماله أكثر يسرا وأوفر إنتاجا، وكان بالإمكان أن تتوطن بعض القبائل العربية فى أرض أصبحت خصيبة ، وأن يدفع الآخرون إلى أعماق الصحراوات، وأن تثرى هذه الأرض الخصيبة بالنباتات والمحاصيل الأجنبية التى يمكن أن تجلب إليها أو تزداد كمية ما يزرع منها، بل لقد كان بوسع الفرنسيين أن يقيموا هناك الكثير من المصانع الهامة ، كما كان من المستطاع إقامة علاقات طيبة مع فارس والهند والجزيرة العربية، وعبر ووصف هذه المناطق، بل كان سيصبح فى مقدور رحالة كثيرين أن يراقبوا (وأن يدرسوا) المجرى الأعلى للنيل وأن يتفحصوا المنشآت القديمة القائمة

فى جنوب أسوان وفى أثيوبيا، وأن يتوغل آخرون مع القوافل إلى الواحات وإلى بلدان أفريقيا الداخلية، وأن نحصل على معلومات أكثر دقة حول الأنهار والجبال ومناجم الحديد والذهب وكل المنتجات الطبيعية، والمدن، وخاصة عناصر تجارة هذه القارة الشاسعة، وكان من الممكن كذلك أن يتم مشروع القناة التى من شأنها أن تربط بين البحرين ، وبذلك يبدأ جزء من تجارة الشرق يتبع طريقا بالغ اليسر طالما رغب العالم فى وجوده .. كان يمكن أن يكون ذلك هو حال مصر اليوم لو أن قدرا معاكسا لم يعد بها إلى طغاتها القدامى، ونستطيع هنا أن نؤكد أن ليس ثمة أية مبالغة فى هذه اللوحة التى رسمناها للتو، فلقد كانت السنوات الثمانى التى انقضت (منذ خروجنا من مصر) كافية لكى تزود هذه البلاد (لو أننا مكثنا فيها) بالكثير من الاكتشافات والمؤسسات النافعة، فأى شئ هذا الذى لا نستطيع أن نتوقعه من تأثير ممتد يمكن له أن ينتج عن الارتباط بفرنسا وعن التقدم المستمر لأضواء المعارف والفنون !

وعلى الرغم من أن العلوم قد شاهدت - ربما - بدء ازدهار جزء من الأمل الذى كانت فى ذلك الوقت حبلى به، فإنها قد خسرت المزايا الهائلة للحملة الفرنسية . وتقدم لنا الموسوعة التى بدأنا اليوم فى نشرها ميدانا رحبا للأبحاث الأدبية والعلمية ، وسوف تلقى أضواء جديدة عن أصل كل الفنون، وليس لدى أولئك الذين أسهموا فى وضعها ما يضيفونه إلى عظمة موضوعها .

كان عملهم يستلزم منهم فحصا ماثبرا، كما أن الحقوق التى يمكن أن تترتب لهذا العمل على الرأى العام تنتج من طبيعة موضوعه ذاتها أو من الظروف التى صاحبت تكوين عناصره ، فإذا ما نظرنا إليه من وجهة النظر هذه، فإن هذه الموسوعة سوف تشكل صرحا هائلا للتاريخ والفنون، كما أن هذا العمل العظيم يسهم فى مجد وطننا، ونحن مدينون به لجهود مقاتلينا، كما أنه يستمد أصالته من اتحاد العلم بالسلاح ، فهو شهادة وثمرة لتحالفهما، إنه تذكار عظيم لوجود الفرنسيين فى واحد من أشهر بلدان العالم، ولكل ما فعلوه هناك من تكريم للنصر

باتخاذ طريق العدل والتسامح، مقلصين حقوق المنتصر إلى مجرد ممارسة لسلطة وصاية ، ويمكن لهذه الموسوعة أن توحى لبلاط القسطنطينية بمشروعات تدعم عودة سلطتها إلى مصر ، وتقيم فيها حكومة أكثر اتباعا لقواعد الحكم والإدارة، وستظل تنقل إلى هذه البلاد أفكار وأمانى أصدقاء الفنون الجميلة ، وكل الذين يتطلعون بإخلاص وتجرد إلى تقدم المعارف النافعة .

واسوف يجد الناس فى هذا المؤلف الأساسى، مع أمهات الكتب التى رفعت اسم اليونان وإيطاليا، لوحة أمينة للأثار المصرية، وسيجد الناس فى تناول أيديهم أعظم ما أنتجته عبقرية الفنون وأكثرها تماما. وحين يقارن الناس هذه النماذج فلا بد أن يتذكروا أنها هى كل ثمن النصر، هكذا تقيم فرنسا أنصبتها التذكارية من أسمى منجزات العصور القديمة ، رابطة على هذا النحو ذكرى انتصاراتها بكل عصور المجد التى عرفتها الفنون الجميلة .

إن مصر التى كانت تطمح لأن تجعل من مؤسساتها ومنشأتها أشياء تقاوم الفناء، والتى تركت بها كل الفنون بصمات لا سبيل لمحوها، ستظل لوقت طويل تدفع بتلك المهابة الصارمة بل التى تتزايد روعتها، والتى تشع من أقدم نماذج (الفن التى عرفها البشر) – خفة وطيش العقل البشرى وعدم استقراره . لقد شيدت هذه الصروح من قبل أن تنشأ مدن الإغريق بقرون عديدة ، ولقد رأت هذه الآثار نشأة وازدهار صور Tyr وقرطاجة وأثينا، وكانت تحمل بالفعل اسم «العصور المصرية القديمة» فى زمن أفلاطون، وسيظل يعجب بها أحفادنا فى وقت لن يبقى فيه فى أى مكان آخر على ظهر الكرة الأرضية أثر واحد لمنشآت شامخة اليوم.

وبالإضافة إلى ذلك فإن البقاء الطويل لهذه الصروح لا يرجع فقط إلى خواص الطقس ، بل هو ناتج بشكل خاص عن جهود هؤلاء الذين شيدها، ذلك أننا نكاد لا نستطيع أن نعثر – على ضفاف النيل – على أثر لمنشآت رومانية . إن المصريين الأوائل لم يكونوا يعتبرون جميلا وجديرا بالإعجاب بهذا المعنى، إلا ما

هو قابل للبقاء وينهض على فكرة المنفعة العامة، كان الفهم المبدئى من وراء أعظم منجزاتهم هو جعل الأرض أكثر ملاءمة لصحة الإنسان، وأكثر خصوبة وأعظم اتساعا، فتوصلوا إلى تجفيف المستنقعات والبحيرات وإلى انتزاع أقاليم بأكملها من الصحراوات الليبية (وحولوها إلى أرض زراعية)، كما تقادوا أخطار عدم ثبات منسوب الفيضانات باحتياطات نشطة تتسم ببعد النظر وتستخدم كل أعاجيب الفنون، فأسسوا مدنهم فوق أرصفة شاسعة، محولين مجرى النهر حسبما يتراءى لهم أو مقسمينه إلى روافد وقنوات كثيرة، ورأوا الأرض نفسها تطل من قلب المياه(*)، فخلقوا - بمعنى كلمة الخلق - بأنفسهم سهول الدلتا الجميلة التى سرعان ما أصبحت بالغة الثراء، ولقد ساهم ثبات الطقس وانتظام الظواهر الطبيعية فى طبع هؤلاء القوم بهذا الطابع العميق من الوقار والمثابرة والإصرار، وهى الملامح التى تميز أنظمتهم، ولم يكتف هؤلاء القوم بأن يزينوا شواطئ النيل بالكثير من الصروح الخالدة، بل شرعوا فى إقامة أعمال باذخة فى قلب الصخور التى تتأخم أراضيهم، و« مصر التحتية أو الدفينة » هذه تعادل فى عظمتها عظمة أولئك الذين كانوا يقطنونها، وهى تلك العظمة التى أثرتها كل الفنون .

وكان المصريون يعتبرون على نحو ما خالدا كل ما كانت له صلة بديانتهم وحكومتهم، فكانوا يتعهدون على الدوام هذه الفكرة بإنشائهم الصروح الكبرى والتى تظل على الدوام هى هى، والتى تبدو وكأنها لا تخضع مطلقا لفعل الزمن، ولقد أدرك مشرعوهم أن هذا التأثير الروحى قد يسهم فى دعم نظمهم . وفى نفس هذا الاتجاه، نقش هذا الشعب فوق قصوره ومعابده ومقابره، صور ألهته وملوكه، وملاحظاته للنجوم، ومبادئه وحكمه المقدسة، ومشاهد من عباداته وأعياده المدنية، وهذه هى أقدم أثر يمكن أن يكون الإنسان قد تركه على ظهر الأرض، وهى تنتمى إلى حضارة أسيا الضاربة فى القدم والتى سبقت كل العصور التاريخية لليونان،

(*) يشير هنا إلى طمى النيل . (المترجم) .

وقد أوقفنا هذه الآثار على ما كانت عليه فى ذلك الوقت عقول الأمم وتقاليدها .
ولن يكون بمقدورنا مطلقا أن نعجب بآثار مصر ومنجزاتها، ولا أن نتذكر ما كانت مصر عليه فى عصور مجدها، دون أن نولى اعتبارا للآلام ونوبات الشقاء التى سببها فقدانها لاستقلالها ولقوانينها ولعارفها . وسنظل نقدر على نحو أفضل أنظمتها، وسنظل ننظر إليها باعتبارها منبعاً روحياً للازدهار لم يكن أقل ضرورة، فى هذه البلاد، من النهر الذى يرويهها، وسنظل على الدوام، وعلى وجه الخصوص، ندرك هذه الحالة المحزنة التى تردت إليها، على الرغم من الثراء الذى يمكن أن تجلبه إليها، فى سنوات قليلة، إدارة أكثر حكمة .

وهكذا فإن دراسة مصر، الخصيصة لهذا الحد بالذكريات العظيمة، تظل تنذرنا بأن تطور العقل وتطور الصناعة إنما يرتبطان باستتباب النظم، كما تظل توضح لنا، وعلى نحو أفضل، ما تساويه القوانين، وما تساويه حكومة مستقرة مستنيرة، وسنظل توحى لنا بدوافع جديدة كى نحب ذلك . ومثل هذه الدراسة لا يمكنها إلا أن توحى بأفكار عادلة ومتسامية، وبأن تغض الطرف عن البحث فى البهرج التافه، وإلا أن تقودنا نحو وحدة وبساطة الآراء ووجهات النظر . ولسوف تجعلنا هذه الدراسة ندرك على نحو أفضل أن الأشياء الراسخة والقابلة للبقاء هى ذات عظمة لا تشع من سواها، وأنه، إذا كانت الأناقة الحاذقة للأشكال والمنجزات تسهم فى التطور، فإن فكرة الجمال الحق تحوى بالضرورة فكرتى الرسوخ والعظمة، وسنظل توضح لنا هذا المبدأ بكل جلالته، ولا بد أن تكون لهذه الفكرة سطوتها الخلاقة على ذوق وإنجازات العصر .

إيضاحات

جمعنا في هذه الإيضاحات كل الملاحظات المختلفة التي تتصل بخطة هذا المؤلف ، أو التي يمكن لها أن ترشد القارئ عند استخدامه للأطالس، وقد سبقت ذلك نبذة تاريخية ، تناولت الإجراءات التي اتخذت عند تجميع محتويات هذا المؤلف ، وكذلك عند نشرها .

بعد عودة جيش الشرق مباشرة، أمرت الحكومة بأن تجمع كل الدراسات والخرائط والرسوم وكافة الملاحظات التي تتصل بالعلوم والفنون والتي جمعت أثناء الحملة ، في مؤلف عام ينشر على نفقة الخزينة العامة، ودعى الأشخاص الذين سبق لهم أن ساهموا في هذه الأبحاث كي يقترحوا الكتابات أو الرسوم التي ينبغي لهذا المؤلف أن يتكون منها، وفي نفس الوقت عهد بإدارة هذا العمل إلى لجنة مكونة من ثمانية أشخاص ، حددتهم وزير الداخلية باعتبارهم ممثلين لكل جماعة المؤلفين، واختارت هذه الجماعة بنفسها بعد ذلك وعن طريق الاقتراع ، ذلك الشخص - من بين أعضائها - الذي يناط به كتابة المقدمة التمهيدية . وقد عين السادة: برتوليه، كونتيه، كوستاز، ديجينيت، فورييه، جيرار، لانكريه، مونج أعضاء في اللجنة التي تمارس الإشراف العام على مختلف أقسام هذا المؤلف ، بالإضافة إلى تنظيم نفقاته وعرضها بموافقة الوزير. وقد حل محل السيدين كونتيه ولانكريه على التوالي السيدان جومار وجولوا (*) ، أما السيدان ديليل وديفيليه فقد ضما إلى هذه اللجنة في بداية عام ١٨١٠ .

(*) اكتفيت بإيراد الأسماء هنا بالحروف العربية ، حيث سبق ورود كل أسماء علماء الحملة بالحروف اللاتينية في مذكرة المسيو بانكوك . (المترجم) .

وكان من الضروري أن يعين قوميسيير ، كى يتولى تنظيم ومباشرة تفاصيل التنفيذ ، ومراعاة المصاريف، والتنسيق بين كل أجزاء العمل، بالإضافة إلى ترتيب المادة وفقا للنظام الذى اتفق عليه. وعليه أن يختار الحفارين ، وأن يستلم منجزاتهم ، وأن يضعها تحت فحص اللجنة ، وأن يقدم كشفا بالمصاريف وبيانا بالتقدم المضطرد فى العمل، وفى النهاية أن يدير مختلف نواحى العمل فى حفر وطباعة اللوحات . وقد عين الوزير، ليشغل هذا العمل، المسيو كونتيه الذى أحدث وفاته أسفا بالغا، فهو الرجل الذى قدم لوطنه وللعلوم خدمات لا تنسى ، وهو الأمر الذى وجدنا أن الواجب يقتضى منا أن نذكره فى مقدمتنا التاريخية . وقد خلفه المسيو ميشيلانج لانكريه، مهندس الطرق والكبارى، فى نهاية عام ١٨٠٥، وكان قد لفت إليه الأنظار منذ وقت طويل بمعارفه النادرة للغاية فى مجال الهندسة وفى كل فروع الفلسفة الطبيعية، لكنه سقط صريع مرض مزمن ومؤلم عند نحو نهاية عام ١٨٠٧ ، بعد أن قدم أمارات لا حصر لها على حماسة قل أن نجد لها نظيرا، وحل محله المسيو جومار مهندس المساحة السابق والمشرف على المخازن العسكرية والذى خصص لهذا العمل منذ وفاة المسيو كونتيه عنايته المثابرة . وقد اختارت اللجنة المكلفة بإدارة النشر - من بين أعضائها، وبموافقة وزير الداخلية - سكرتيرا موكلا بالمراسلات العامة، يقوم بتدوين المداولات، وبالمراقبة المباشرة على لميع الدراسات، وبالمساهمة مع القوميسيير الخاص فى جمع وتصويب اللوحات . وعهد بهذه المهمة على التوالى إلى السيدين لانكريه وجومار، ويشغلها اليوم المسيو جولوا مهندس الطرق والكبارى، ويشرف المؤلفون المقيمون بباريس على حفر رسومهم بالتنسيق مع قوميسيير الوزير .

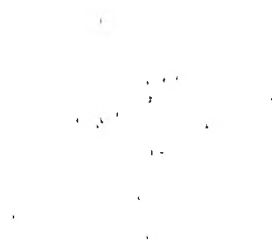
كان الهدف الذى توخيناه عند وضع هذه الموسوعة أن نقدم بانتظام النتائج التى تتصل بعصور مصر القديمة، وبالحالة الراهنة والتاريخ الطبيعى، وجغرافية مصر، أى بتجميع العناصر الرئيسية لدراسة هذه البلاد . وقد وزع هذا العمل الكبير بين عدد كبير من الذين أسهموا فيه، وقد كونا عن طريق تجميع أعمالهم،

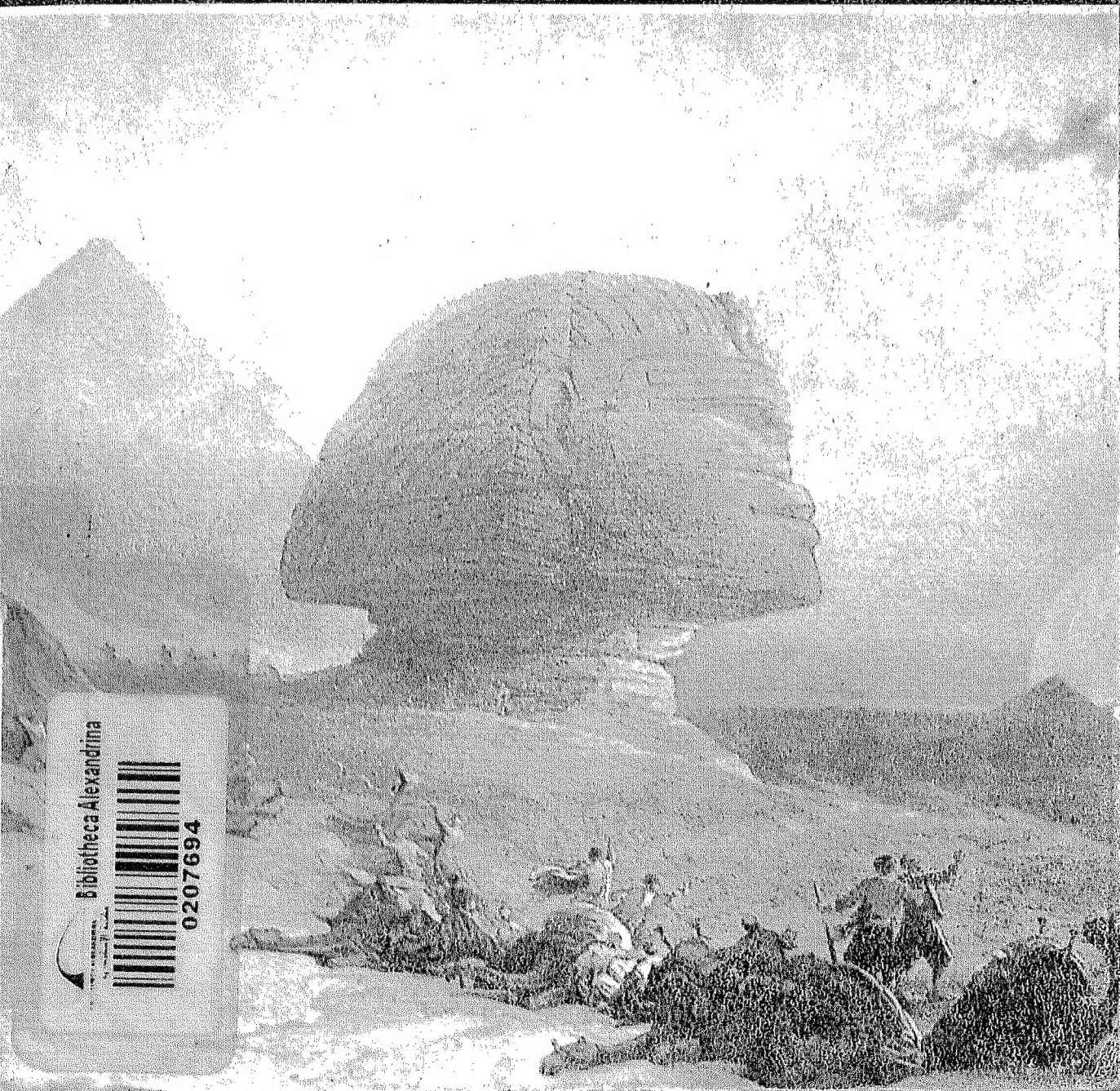
General Or
Library
Alexandria

الوصف الكامل الذي قد توضحناه. وقد وجدنا من الضروري أن يتم فحص كل جزء من هذه الموسوعة عن طريق المؤلفين مجتمعين، وليست هناك دراسة واحدة أو رسماً واحداً. لم يعرض بشكل مفصل أمام الجمعية العامة، حيث خضع هناك لمدأولات متأنية. وكان الغرض من هذه المناقشات العامة ضمان دقة الوقائع، واستبعاد أو تصويب الأعمال المحرفة أو غير الدقيقة. وأعطت هذه المناقشات لأولئك الذين قبلت أعمالهم نوعاً من الأصالة أو التوثيق، ذلك أنه لم يسمح بالنشر لأى من هؤلاء إلا بعد أن نالوا الموافقة فى اقتراح، وبغالبية الأصوات. لكن هذا الفحص لم يكن ليمتد مطلقاً كى يتناول الأفكار التى تبناها مؤلفو الدراسات أو إلى النتائج التى استخلصوها من أبحاثهم، ومع ذلك فلا ينبغى أن نرتب على ذلك أن جماعة المشاركين كانت تشاطر على الدوام هذه الآراء، أو حتى كانت تشاطر هذه الآراء تلك اللجنة التى كانت تتولى نشر الأعمال.

ولسوف نضمن الجزء الأخير من وصف مصر قائمة بأسماء كل الذين سيسهمون فى هذه الموسوعة، وعندئذ فقط يمكن لنا القول بأننا قدمنا قائمة عامة ودقيقة، وستحل هذه القائمة الشاملة محل تلك القوائم الجزئية التى ستلحق بكل جزء، وسوف نضيف كذلك أسماء المشاركين الذين أوقف الموت أعمالهم، سواء بعد رجوع جيش الشرق، أو خلال الحملة.

ولقد سهل من إنجاز هذه المهمة الكبيرة تلك الرعاية المستمرة من جانب الحكومة، ولقد قدمت هذه الرعاية الكثير من التشجيع إلى الحفارين الفرنسيين حين سعت إلى إسهام متواصل لعدد كبير من الفنانين، كما أدت هذه الرعاية فى النهاية إلى أشواط جديدة فى تقدم هذا النوع من فن الرسم، وقد اكتسب حفر الخرائط الطبوغرافية ولوحات التاريخ الطبيعى، وبشكل خاص لوحات العمارة، درجة من الاتقان لافتة للنظر، وسيجد الناس فى هذا الإنجاز نماذج كثيرة من العمل بالغة النقاء وبالغة التمام. وعند التدريب على كيفية التعبير عن الطابع العظيم الذى للمباني المصرية، تكون فنانون شبان، تميزوا بالفعل بمواهب نادرة.





Bibliotheca Alexandrina



0207694